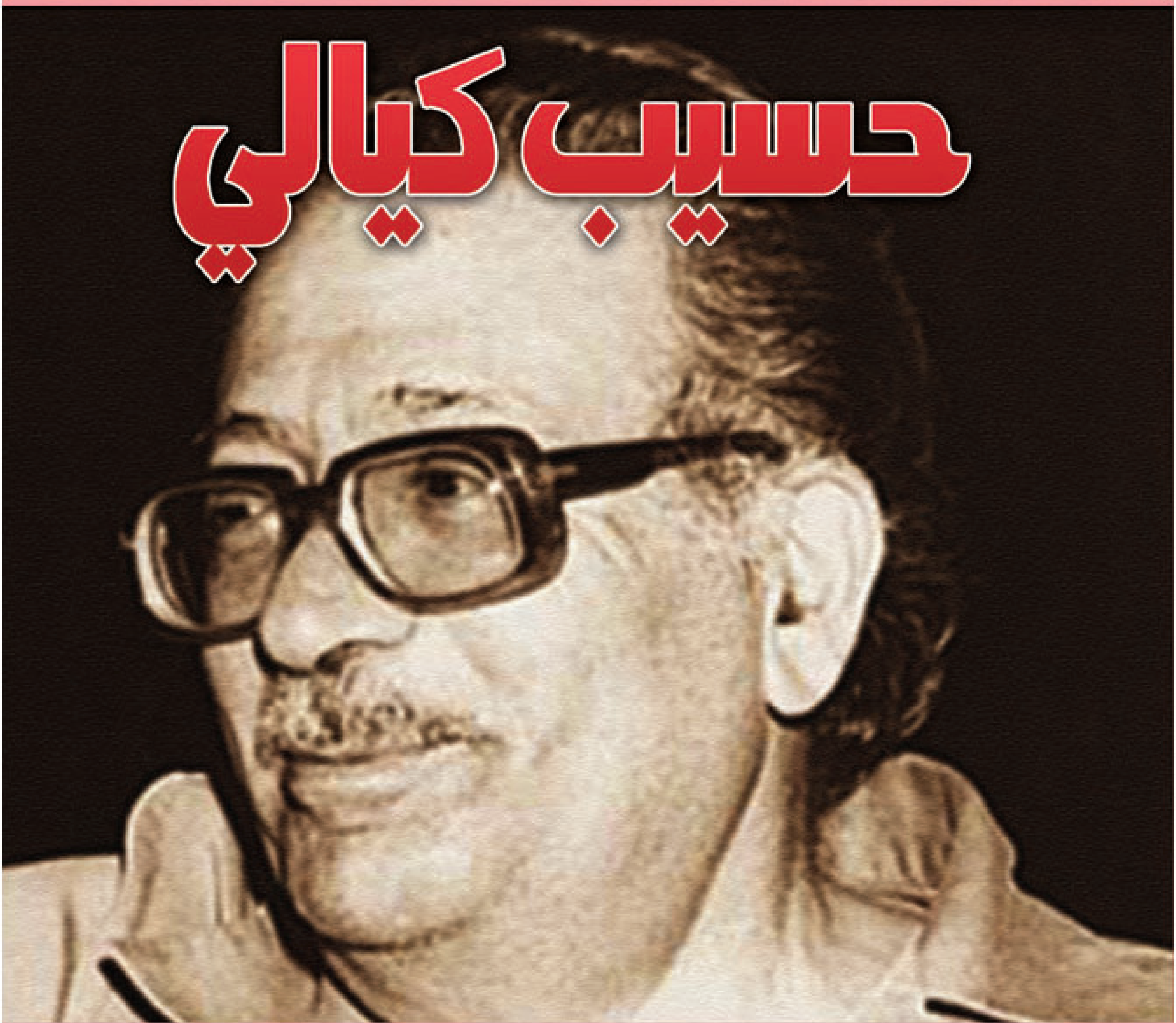
وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

حسيب كيالي



الأعمال الروائية والقصصية

(الجزء الثاني)

الأعمال الروائية والقصصية

حسيب كيالي

(الجزء الثاني)

تصميم الغلاف
فراس نعوف

الأعمال الروائية والقصصية

حسيب كيالي

(١٩٢١ -١٩٩٣م)

(الجزء الثاني)

مكاتيب الغرام (رواية)

أجراس البنفسج الصغيرة (رواية)

تلك الأيام (قصص)

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة — دمشق ٢٠١٢م

صدرت الطبعة الأولى

عام ٢٠٠٧م

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة

(سلسلة الأعمال الكاملة؛ ٩)

الأعمال الروائية والقصصية : مكاتيب الغرام - أجراس البنفسج الصغيرة - تلك الأيام / حسيب كيالي . - ط٢ . - دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٢م . - ج٢ (٥٦٠ص)؛ ٢٤سم.

(الأعمال الكاملة ؛ ٩)

١ - ٨١٣,٠٠٨ ك ي ا أ ٢ - ٨١٣,٠٠٩٥٦١ ك ي ا أ

٣ - العنوان ٤ - كيالي ٥ - السلسلة

مكتبة الأسد

مكاتيب الغرام

أنا واثق من أن الظلمة التي تتخبَّط فيها بطلة هذه الرواية حالة طارئة ستخرج منها لبناتنا حين نشفى كلنا من آثار القرون، وننطلق جميعاً في طريق مضيئة ترن فيها الضحكات خالصة صافية.

ولعل هذا ما أغواني بكتابتها.

حسيب كيالي

الفصل الأول

حينما كنت أعود من روضة الأحداث التابعة لإحدى مدارس الراهبات، حوالي الساعة الرابعة مساء، كان أبي هو الذي يقعد على ركبتيه، في حنان عظيم، يفك لي أزرار صدريتي، ويأخذ عني محفظتي الفارغة، ويحل لي ضفائري، وهو يغمغم: - عليها من اللّه ما تستحق، أمك.. اللّه يخلصك منها.

كنا في تلك الأيام نقطن ضاحية أنيسة من ضواحي بيروت، تكاد تقع بين أدغال من الأشجار ذات الظلال الكثيفة، إذا غطست الشمس في البحر زعفرتها بألوان أخاذة.

وبعد أن يخلصني أبي من ثياب المدرسة كنت أنفلت إلى المطبخ وهو في أثري، فنصنع «عروسة» بالزبدة والمرملاد، أقبض عليها بيدي كلتيهما.. كان المطبخ، أبداً، مشعثاً مهملاً، في مغسلته أكوام من الأواني التي تنتظر الجلي، وركوتان أو ثلاث للقهوة فقدت لونها الأصلي لكثرة ما تراكم عليها من الطحل.

ولا يلبث أخواي الكبيران أن يؤوبا هما أيضاً من مدرسة اللاييك. أما البكر، زين العابدين، فكان يسرع إلى غرفته، يخرج كتبه من المحفظة، يرتبها ترتيباً دقيقاً، يسخر أبي منه في لين وسماح قائلاً: «ابني زين العابدين!... لو أنه يرتب العلم في ذهنه بمثل هذه العناية!»... غير أن ترتيب أشيائه لم يكن وحده الذي يعنيه، لأني كنت، كثيراً ما ألمحه يقرأ في كتب تحوي رسوم نساء غير متسترات... كان صوته لا يفتأ يغلظ، سميك الشفتين، كبير الرأس، أطول من سنه. وأما رأفت، الصغير، فكان يقذف كتبه وأوراقه على قاطع الصوفة ويشمّع الخيط إلى الشارع.

وأخرج أنا أدق الباب على جاري الصغير العزيز فؤاد وأختيه أليكو وجوجو. كان فؤاد سميناً، أسمر، بعينين وطفاوين. كنت أحبه حباً غريباً، وامتنع عن الذهاب إلى المدرسة إذا لم يرافقني ذراعاً في ذراع، وفماً في أذن، مثل عاشقين قديمين عريقين. وكان حبنا حديث الحارة والروضة.. إذا عنفته المعلمة بكيت أنا. وفي الحي كنت أضربه في حزازة وقسوة إذا تجرأ على اللعب مع إحدى بنات الجيران.

كنت أكبر منه قليلاً، ولكنني كنت قوية بدنياً، ثم أني أتمتع بسيطرة على رفاقي ولدت معي. كنت أنا التي أنظم لهم ألعابهم وأقودها. وعندما نلعب أم أعميش أو ننط على الحلبة كنت أتزعم اللعبة وأعطي الأدوار. وكانت لعبة الزوج والزوجة تبهجنا، فأمثل أنا دور ربة البيت الكثيرة الأعمال التي تنتظر أوبة رجلها، وتريد أن تنتهي مما لديها من طبخ ونفخ كي تفرغ لاستقباله في أحسن حلة وأنضر وجه.

ويهبط الليل، فترجع أمي أيضاً في زينة صارخة. وغالباً ما كان يرافقها عمو عصام، كما كنا نسمي فتى ممشوق القامة ومفرط الأناقة، في أصبعه خاتم ذهبي كبير بحجر أخضر محفورة عليه رسوم وأشكال. كان عياً، يتأتيء، ويبدأ الكلمة كأنه يقطعها أو يتهجاها تهجياً، ثم لا يلبث أن يقذفها مرة واحدة كمن يريد أن يتخلص منها. وقد تسعفه أمي إما بزجره: «إي خرس!»، أو بتكميل الكلمة له.

كانت تبدأ بتبديل ثيابها وحل شعرها الخفيف القاسي، وتتلبث وقتاً يطول أو يقصر أمام مرآة صغيرة في الصوفة تنتف ما نبت من حاجبيها، ثم تأخذ تلعب الورق مع عمو عصام. وقلما تلتفت إلي. فإذا فعلت لم تزد على أن تقبّلني في إهمال وتقربني من عمو عصام الذي يضمني إلى صدره قائلاً:

- بنـــ .. بنـــ.. بنتك أحـــ.. أحلى منك!

فتقرصه أمي في ذراعه متدللة وتقول له في ملامة:

- فشخت يا كلب!

ويضحكان.

وأحياناً كانت تضعني على ركبتيها، وتسألني أن أغنيها أغنية «الآنسة الريح» الفرنسية. فما أن أبدأ حتى تقاطعني قائلة:

- قولي له، لعمو عصام شو اسمك بالفرنساوي.

فأجيب فخورة:

- دلال بنت الدكتور حسين ملابي.

- وعريسك من هو؟

- فؤاد!

- يوه، على قامتي إنشا اللّه! هذا نصراني يا عين أمك، لا يجوز لك.. وحياة رأس أمك ما أنا مزوجتك إلا من تاجر غني محشو دينه ليرات.

- أنا بدي دكتور مثل أبي.

- يوه، لا وألف نبي. صنعة العفن هدي.

ويسألني عمو عصام:

- دد.. دلال، ما .. ما قولك في أنا عريس؟

- أخرس! ظريفة واللّه يا تأتاء.

وفي أثناء السهرة كان يقصد بيتنا خلق كثير. رجال ونساء كانت أمي حينما يزدحم البيت تبعثنا ننده أبي من الغرفة الجانبية التي يتخذها عيادة. وكثيراً ما كان يتمهل في الحضور. وقد يجيء أحياناً مكروباً، وأحياناً أخرى مرحاً، مقبلاً على الزوار، محباً للجلبة والضوضاء، يلعب ويعزف مقطوعات بسيطة على البيان، ويتشكى من ولديه، ويختصم مع أمي اختصاماً كلامياً ودياً، فتقول له هي في ابتهاج:

- أنت دب، دب حقيقي. اللّه يحرق من كان سببي!

كان الزوار ينقسمون حلقات حلقات. بعضها يلعب الورق والشطرنج، وبعض تحتدم بينه مناقشات حادة كنت تسمع خلالها كلمات تتردد كثيراً، منها:

«الروح»، «الآخرة»، «الحب»، «الوطن»! وقد تعلو في زاوية أصوات نسوة تحكي كلها في آن واحد، بينها أمي... أو تصغي كلها إلى إمرأة عجوز رقيقة، تنظر في فنجان قهوة وتقول:

- قدامك طريق، وفوق رأسك بشارة، تصلك بعد دقتين أو ثلاث لا أدري أسبوعين، لا أدري شهرين! فيه واحد يريد لك الخير. بدك تدخلي بيت ما دخلتيه في حياتك، وتجتمعي مع ثلاثة أشخاص..

وكان أبي ينصرف أحياناً إلى مناجاة ربه، فأقبع قربه، على سجادة الصلاة، وأغرق في خواطر تبدو لي الآن كبيرة على سني ذلك الوقت. وما أن يسلم التسليمتين الأخيرتين حتى انهال عليه بالأسئلة:

- بابا! شو الحب؟

ويفتر ثغره عن ابتسامة رؤوم ويقول لي:

- ألا يعيش الإنسان إلا لمحبوبه!

- أنا أحب فؤاد يا بابا!

وأغرق من جديد في خواطري. الآن أستطيع أن أتبينها. كانت نوعاً من الذهاب مع روحانية جاذبة تجعل لي جناحين أحلق بهما في أجواء سرمدية بعيدة الأمداء، أكاد أسمع فيها نشيد الأفلاك في لوبانها الأبدي في الكون المحدود بلا حدود، نوعاً من الاندغام مع الترانيم الصادرة من أعماق الأعماق، ترانيم ليست من زمان ولا مكان! لقد وضحّت لي الكتب الكثيرة التي قرأتها فيما بعد تلك الخواطر الطفولية التي كانت تتعنقد في فكري مثل ضباب عجيب!

وفي الصيف كنا نقصد الجبال، بضعة أيام في الشهر، فألح على أن يرافقنا فؤاد. كنا ننطلق في الشعاب الخضراء والمسالك المعلقة، والدروب المزهرة الضيقة بين الكروم.

* * *

وذات يوم رجعت من الروضة فرأيت بيتنا مشوشاً.. كان أبي وأمي يختصمان هذه المرة حقاً، وأصواتهما تتجاوز البيت. لم يكن أبي سيئاً ولا حقوداً. كان يقول لها:

- مهما نتغرّب فلا بد لنا من العودة إلى بلدنا. أنا هناك رجل معروف وأسرتي كبيرة. أما هنا فنظل غرباء طول عمرنا.

فتقول هي باكية:

- عمري كله راح تحس نحس معك. اللّه يلعن هالعلقة. شو شفت من حياتي معك؟ بدك تأخذني إلى الشام بلد الملايات واللوص والحر والموت. هذا جزاء إخلاصي وسكوتي.

- يا امرأة طولي بالك علي...

- لا يا سيدي أنا مقبورة عندك على حال الحياة.

حينئذ غضب غضباً لا ريب فيه هذه المرة. ولعلها مرات لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة تلك التي رأيت فيها أبي الطيب الحبيب يذعن للغضب. صرخ:

- اسكتي، أقول لك! أنت امرأة خاسرة ما فيها خير. وأنا أعلم لماذا تلحين على البقاء.

فكفكفت دموعها. بل لم يبق من أثر للدموع في عينيها إطلاقاً، ومرطت شفتها وخيل إلي أنها تتصنع الانكسار، وانزوت في ركن على القاطع القريب من النافذة، بينما انصرف أبي إلى غرفة العيادة يضب أواعيه.. وفي المساء عادا يعملان معاً!

ولم أعد أفكر إلا في فؤاد! أهجره؟ فكيف؟

ذهبت أطرق عليه الباب، وأخرج به إلى الحديقة المحيطة بمنزلينا. كان القمر يتسلل إلينا من بين الأشجار، وأطيار تزقو في الإحراج القريبة، والنسيم رهو أغنّ، والأنوار في حجرات دارينا مضاءة، وأنا! كنت أحس أن قلبي يؤلمني، يتضخم. وفجأة أمسكت بيده في قوة وصحت:

- فؤاد!

فنقز الصبي. خشي أن أضربه فرفع يده يحمي بها رأسه. قال:

- أنا ما حكيت مع لوسي اليوم، واللّه!

وضحكت ضحكاً حزيناً وقلت له مترفقة:

- أنا مسافرة يا فؤاد!

وجعلنا نمشي في صمت، والقمر يختبيء تارة ويبدو أخرى، وفي الفضاء تضوع رائحة الصنوبر، بليلة، لطيفة. قلت:

- فؤاد! لا تنس يا فؤاد.

وخنقتني العبرات!

في الأيام القليلة التي سبقت سفرنا إلى دمشق، زاد تغيب أمي عن البيت. كانت تخرج ضحى، وحدها على الأغلب، وقد يأتي عمو عصام يأخذها. كانت تلبس كل يوم روباً جديداً وتختار، على الأخص، أزياء تكشف عن صدرها وزنودها، وتضع أقراطاً كبيرة وحمرة سميكة، وريميل ذا زرقة فاتحة. لم تكن حسناء. كان وجهها مغولياً بعض الشيء، تدخن في نهم وتمشي مشية متخلعة متوجسة كأن أحداً يتبعها.

وبدا زيد العابدين كثير الإشغال، لا يكاد يخرج من غرفته. أما رأفت فقد زاد شيطنة، وكل يوم كان يأتي بزمر من رفاقه إلى حديقة المنزل... كسروا شجرة الانك دنيا الصغيرة الغضة ودعسوا مساكب الأزهار. ولم تبق قطة في الحي إلا شكت من ذنبها، وكلب إلا ولول. وقد يغيبون في الأدغال القريبة ليعودوا حاملين أفــــراخ عصــــافير، وفي بعض الأحيان بيضاً صغيراً يكسرونه في ضجة وهزج عظيمين.

وأفقت صباح يوم من الأيام فرأيت أمام الدار سيارة شحن كبيرة وحمالين...

* * *

الفصل الثاني

واتخذت مطرحاً لي في مدرسة ابتدائية للبنات، في عرنوس. لم يعد في صفي صبيان، واستشعرت تلك الغربة التي تروى عن السمك عندما يتغير ماؤه. كنت في مستوى أعلى، ولكن ما كنت أحسه ظل أبعد من مجرد تفوقي في الفهم وحفظي كثيراً من الحكايات والأغاني. كانت معلمتنا السمراء ذات الشعر المقصوص إلى أعلى والخصر النحيل والحوَل الخفيف، رقيقة وديعة. ومع ذلك فقد كانت تضرب في بعض الأحيان. ثم إن رفيقاتي ذاتهن كن يوحين أنهن مقيدات، خانعات، ينتظرن، أبداً، شيئاً يهبط عليهن. إما عصا وإما حكاية ملذة. وأدهشهن بخاصة أن تكون بينهن بُنيَّة مثلي، تجيب في حرية، وتعترض حين يجب الاعتراض. بل وتقف تلقي قصائد تصاحب كلماتها إشارات وحركات.

كانت معلمتنا صغيرة السن، محبة لمهنتها. أحياناً كانت ترافقها إلى الصف سيدات، لعلهن صاحباتها، فتبدأ الدرس وطرح الأسئلة، كأنها تشهدهن على ما أبدعت.. فإذا أحسنت إحدانا الإجابة شقرقت هي، وكادت تنط ابتهاجاً.. كانت تصيح:

- سامعة!؟ أعيدي يا حبيبة معلمتك أعيدي، ستة زائد سبعة؟

وتجيب التلميذة:

- ثلاثة عشر، آنستي!

- سامعة؟ وتقول آنستي! مرحى يا روح معلمتك مطرحك يا حبيبتي الصغيرة، مطرحك! وقفي! دلال قومي يا دلال سمعينا «العصفور الأبي!».

وأقف أنا، مدلة غير ملقية بالاً إلى العيون المصوبة إلي، واسعة الابتسامة، حريصة على الإشارات:

الحبس ليس مذهبي

وليس فيه أربي،

وإن يكن من ذهب.

ومن غير أن تسألني آنستي، كنت أوصل القطعة بالقطعة. أكر كل ما عندي!... وتقول لي هي:

- مرحى يا دلال، مطرحك يا حبيبتي!هؤلاء بناتي يا ستي، بناتي أنا!

وقد تضمني إلى صدرها في حرارة.

وبقدر ما كان الذكاء يبهجها تكربها البلادة، فتضرب في شدة، وتشد الأذن، وتوقف على الحائط.

وبعد ثلاثة أشهر رفعتني إلى الصف الثاني.

أما البيت فلم تطل غربته هو أيضاً. بدأ باستقبال الخالات والأقارب، ثم انتهى إلى الحشود وفتح الفناجين والأزياء والحلقات القديمة. واضطربت أنا بين كثير من الـ «عمو» إلى أن صار لي عمو واحد. لم يكن هذا يتأتيء أو يفأفيء. كان صديق أبي، رجلاً أسود العينين، رث الثياب في الأغلب، يغلب عليه الصمت وغرابة الأطوار، ذا نظرات تكاد تنفذ كالأسياخ. كان أبي يسميه الدرويش ويلعب معه في بعض الأحيان الدومينو، فإذا انغلب وطفق أبي يقرّعه لبث جامد الأسارير يلم بوجهه طيف ابتسامة غامضة غريبة.

وكنت ازداد طولاً وجمالاً وصحة. كان الناس يعطونني دوماً سنتين أو ثلاثاً زيادة على سني الحقيقية. لقد انضرتني الشام ولحستني كما تلحس القطة صغارها، فتفتحت كالورد البري.

ونسجت صداقات. أسعدني أن أرى في ابنة خالتي سلوى، وهي جعداء، حلوة السمرة، سمينة، أصغر مني قليلاً، صديقة محبة معجبة، تنسجم مع مشاربي وتطلعاتي.

لما كبرنا صرنا نرصد غيبة زين العابدين، ونتسرب إلى غرفته، نسرق كتبه ذات النساء غير المتسترات، ورواياته الغرامية، ونقرؤها في تلذذ عظيم. وأشرد مع أبطال القصص التي ألتهمها، فأتألم، وأحن، وأبتهج، وأبني غداً لي وحدي، غداً عاطفياً، وروحانياً، كثير الألوان.. وقد اشغل البيك آب وأدع خواطري تنطلق مع شوبان، مع عاطفته وشجوه وحنينه وأساه. كنت أحب شوبان كثيراً. لعل أبي هو الذي أورثني حبه. كان يتعصب له ويطيل الحديث عنه فأحببته أنا أيضاً.

وتوقفت إلى طريقة أسكب فيها مشاعري: كنت أكتب رسائل غرامية متأججة. تحمل اسم فؤاد ولكنه لا يقرؤها، وأجيب عنها بدوري.

ولكن، يا للذكرى ! لوّنتْ عواطفي المتأججةٌ مسحة من كآبة وحزن لما أنهت إلي أمي، ذات مرة، في لا مبالاة غريبة هذا الخبر:

«مات فؤاد!»

مات! صعقني الخبر. ولكني لبثت، مثل الكبار، أتميز من الحزن وأحمحم، وأدور في كل رجا من أرجاء الدار دون بكاء. استنجدت بقراءاتي.. رأيتني أردد مقطعاً من قصة «ردت الروح» ليوسف السباعي:

«.. وتحركت سفتاه، ثم همس في صوت كأنه فحيح الأفعى»: «لقد مات. لقد مات الصبي الأشقر.. لقد قتلته أمي..!.. وأغلق عينيه ثم عاد إلى غيبوبته مرة أخرى..»

وأما أنا فلم أستسلم للغيبوبة مرة أخرى. ولما كان مغرمون رائعون وعشاق مشهورون آخرون في روايات الحب والعشق يفقدون مراحهم وتعلقهم بالحياة عند فقد شقائق أرواحهم، فقد غادرتني بهجتي أنا أيضاً، ولم أعد اجتهد على دروسي. صرت أغلق على نفسي باب الغرفة إذا هبط الليل، وأكتب رسائل منتحبة، وأزيد من تواجدي مع أبطال قصصي الغرامية. وكم كانت تبكيني أحزان الفارس دوغريو وحبيبته مانون، وتنهدات فرتر وستيفن والمجنون وليلى وروميو وجولييت. وفي النهار كنت أروي لسلوى مأساتي فتبكي معي بعبرات غزيرة.

ويظهر أن جسمي العبل، القوي، اللدن (وقد كان موضع حسد وغيرة من جميع زميلاتي ومعارفي داخل المدرسة وخارجها) وروحي القوية التي فرضت نفسها في كل مكان، جنباني مغبة العذابات، فاستعدت تفوقي في المدرسة ومكانتي بين المعلمات، وبدأت أولى دروس البيانو عند الأخت إيفلين.

ولما خضت فحص السرتفيكا كنت أحلى المتقدمات وزينتهن. نجحت نجاحاً باهراً، فتضاعفت ثقتي بنفسي. وأتيح لي، خلال الفرصة الصيفية التي سبقت دخولي المدرسة الثانوية، أن افيد من الوقت الفارغ فاقبلت إقبالاً لا مثيل له على رواياتي. التهمت كل ما كتب يوسف السباعي وسهيل إدريس وروايات الجيب. كنت اشتري كتب السباعي، ولا اكتفي بغلافها البديع، ورسومها البارعة، وطباعتها الأنيقة، بل اجلدها تجليداً ممازاً، في البابيروس أو أمية، وأعود إلى البيت أتأبطها في اعتزاز يضفي علي صفة الباحثين بل وكبار المؤلفين. كان يوسف السباعي، معلمي الحقيقي، ينام مكرماً معززاً تحت مخدتي. وقد أنقطع عن قراءته حيناً من الزمن ولكني، في حالات الحلم والتأمل العميق، كنت اسمعني أردد:

«.. لقد أمسك بيدها فأحس بدفئها يسري في بدنه سريان الكهرباء، وأمسك بذراعيها وضمها إليه فأحس بصدرها الممتلئ يغمر صدره، وتحسس بيده شعرها ووجهها فإذا به كما كان غضاً بضاً!

وما زرتكم عمداً ولكن هو الهوى

إلى حيث يهوي القلب تهري به الرجل!»

وخلال هذه الفرصة ذاتها جعلت، ثلاث مرات في الأسبوع، عوضاً عن مرة واحدة، أتردد على الأخت ايفلين، الراهبة الصبية في مدرسة الفرنسيسكان، كي أختم العزف على البيانو. هناك ما كنت أرضى بما ترضى به رفيقاتي، من بنات الأسر الراقية، باتباع الدروس منذ أولها، من ألف بائها إذا صح القول. لقد تصديت، بعد عام واحد من تمرينات بسيطة، إلى كونشرتو على البيانو لشوبان وعزفته. كيف؟! أنا نفسي لا أزال أجهل هذا الأمر! صحيح أني كنت أسمع شوبان في غرفتي كثيراً.. ولكن عزفه!!

يومذاك، كانت الأخت ايفلين منصرفة عني إلى إحدى رفيقاتي الحديثات، تشرح لها ألف باء الموسيقى، الــ دو ري مي فا! فلما أنهيت الكونشرتو صرت أنط فوق كرسي البيانو وأصرخ.. فالتفتت نحوي الراهبة مدهوشة:

- ما لك! أأنت مجنونة؟

قلت مصطخبة:

- عزفته، عزفته!

- ماذا!

- الكونشرتو.

- ولكن، أي كونشرتو؟

وحكيت لها. قالت مفكرة:

- يبدو لي ذلك مستحيلاً. على كل حال أعزفي نرَ.

فجعلت أتمنّع، لأن الدلال طبيعة فيَّ لست أدري من أين جاءتني.. وعزفت أخيراً، فقالت لي وهي تتهاتف ضاحكة من سرور:

- كفى! كفي! أنت باخ، يوهان سيباستيان باخ الأصلي. وإذا لم تكونيه حتى الآن فلسوف تكونينه. فإن لم تفعلي فلا أقل من أن يخلق غناجك لنا باخ عظيماً!

باخ؟! كنت أعزف شوبان! وتابعت الراهبة الطروب قائلة:

- أنت العازفة الأولى في دمشق!

ولم تكن في دمشق عازفات، ولكن المثل يقول: «خير لك أن تكون الأول في قريتك من أن تكون الثاني في روما!»

كنت أخرج في نزهات مع سلوى وبعض القريبات. ورغم صغر سننا كان الأولاد ينظرون إلى ضفائرنا المتدلية، ونموّنا المبكر فيطاردوننا أو يكتفون بالهمس الخجول يحمل لنا كلمات الثناء والهيمان والإعجاب، كلمات

تكاد تكون لاهثة! كنا نضحك، وكنا نعبس، وفي قلوبنا يتردد صدى كلماتهم الرقيقة..

غير أن هذه الفترة من حياتي تميزت، على الأخص، بحلم غريب، يكاد يكون ذاته دائماً. كنت لا أنفك، في غدوي ورواحي، في نومي ويقظتي، ومنذ تلك السن المبكرة، أعمل في خلق فتى أحلامي، رجلي في المستقبل.

أنا حكت كل لمحة فيه... وكانت ملامحه تتوضح في وجداني وعشقي يوماً بعد يوم: طويل، قوي، صحته رائعة، بشاربين أنيقين أسودين، وخصلة متمردة على الجبين، وقميص مفتوح يظهر منه شعر صدره الكث المشتبك، وضحكة غناء يسمعها قلبي قبل أن تلتقطها أذناي! كنت أريده، مثل فتى «الأماني الفانية» للسباعي، «شاعري النفس، مرهف الحس، يعشق في الحياة كل ما يثير كامن الشعور ويوقظ هاجع الإحساس...».

كان إذا اطفأت المصباح، واندسست تحت اللحاف لأنام، يقبل علي في عنفوان ودالة، فيقبض على معصمي، خشناً بعض الشيء، وينترني نتراً شديداً، يروح بي على أجنحة قادرة، يشق بي عباب الفضاء، فنقفز من غمامة ملونة بالوجد والهمس إلى غمامة ملونة أخرى، لا يسمع في لا نهائية الفلك إلا ضحكاتنا وزقزقة قبلاتنا.. ولا نزال كذلك حتى يلفنا ضباب السدم... فأروح في سبات عميق!

وقد يقع لنا أن نختصم، وتحتدم مشاحناتنا، فأغضب، و«يتملكني شيطان أحمق... فأقذف إليه بخاتم الخطوبة!».. ولكنه لا يلبث أن يركع عند قدمي، ويترفق في أخذ يدي بين يديه الكبيرتين يمسحها بأنفاسه الدافئة الوامقة وقبلاته المخلصة، وإذا أنا أنزل من مجلسي وأتكون عليه وأنهبه كله بوساً وضماً ودموعاً مغتبطة، دموع فرح!

* * *

الفصل الثالث

كانت اللغة العربية أول درس لنا في التجهيز. وكان المدرس فتى ربعة، بشاربين قريبين من القلب، عذب الابتسامة، ميالاً إلى الشقرة. لم يلبث أن لصَّ ضحكاتنا وثقتنا بما رواه من حكايات. بدا كأنه صديق قديم. بل قطع، بضربة واحدة، صلتنا بالتعليم الإبتدائي الذي يتميز بالسيطرة والطفولة والزجر وكان فيما قاله لنا:

- أنتن اليوم صبايا جميلات. وهذا، وإلمّ تكن له أهمية كبرى في مادة اللغة العربية، يضعكن وجهاً لوجه أمام مسؤولياتكن! شيطنٌ في درسي ما حلا لكن، ولكن تعلمن. بل إذا شئتن لعبت معكن ونططت ورقصت!

ولما انتهى الدرس حاصرناه على المنبر. طفق ينطنط في ألوان من الأحاديث والملح، لا تنقصها الجرأة، جعلت ضحكاتنا ترنُّ حتى الرواق. ولما اثقلت عليه إحدى الرفيقات، وكانت حسناء لعوباً، أمر بجلبها مكبلة بأذرعنا.. جررناها إليه، فأخذ يشد لها أذنها شداً هيناً وديعاً، جاعلاً أكثر راحته على خدها، وهو يقول في صوت يتصنع الملامة:

- أما كفاك! يا ملعونة، يا ملعونة أنت!

- منذ ذلك الحين صرنا نثقل عليه كلنا بالمزاح.

وأخذت الأيام تكر، ووجوه رفيقاتي والمدرسين تتوضح في خاطري أكثر فأكثر. كان مدرس التاريخ، الكهل المعروق، ذو النظارتين السمكتين والقامة الواقفة الجامدة كالعصا، أقدر أهل الأرض على إسلامنا، غنيمة باردة، إلى النوم. وما أن يبدأ الحديث عن تاريخه القديم حتى يختلط في أدمغتنا

الحثيون والبابليون واليونان والرومان، وأصوات سيارات تأتينا من بعيد، بين النوم واليقظة، فلا نعود ندري أكان بختنصر ملكاً في سورية أو في الصين.

ومع مر الأشهر كنا ندخل ألهيات كثيرة على حياتنا، فنقيم حفلات راقصة ما فيها غير البنات، أو نذهب إلى السينما كلنا دفعة واحدة.

وكانت تنشأ بيننا، على صغرنا وقلة تجاربنا، عواطف معقدة، كثيرة الألوان، لا تختلف - في تنوعها على الأقل - عن تلك التي تتزاحم وتولد وتنطفيء في العالم الأوسع، عالم الناس الكبار. ومنذ تلك السن كانت رفيقاتي، رغم البيئة (وقد أستطيع القول أنها واحدة) والثقافة الواحدة، يتميزون بعضهن من بعض في الصميم.

كن أكثرهن، في مثل سني، صبايا صغيرات، إلا أميمة شافي، فقد كانت أصغرنا جميعاً... رقيقة، ناحلة، شهلاء، كل ما فيها طفلي.. أنفها الصغير، فمها المرتفع الملموم، أذناها، صوتها: كانت المدرسة كلها تدللها، ولكنها لا تميع ولا تنشطّ. حتى البواب يخبيء لها قطع السكر والمفكرات ويحفظ لها أغراضها في عناية وتعصب. وكانت تندسّ في حلقتنا إذا ضمنا الملعب، خفيفة الظل، تصغي إلى نكاتنا في دهشة غافلة تحمل على الظن إنها لم تكن تفهم كثيراً منها. وكانت تحبني كثيراً وتطلعني على ما تكتب من وظائف إنشائية. وأذكر أن مدرس العربية أعطانا مرة موضوعاً عن الحرية، فروت أميمة قصة شحرور كانت ربته هي في قفص معلق في شجرة من حديقة منزلهم. كان عند الشحرور كل ما يشتهي: حنجور ماء نظيف، غصن يتسلق عليه، موزة تطل عليه من السقف... ومع ذلك لم يكن يغني! تدلــله وتناغيه وتصفر له، وتبكي أحياناً... ولكن الشحرور يغيب مدة يسيرة، ثم يعود فيبني لنفسه عشاً في حديقتها نفسها، لا يكاد يغادره، ثم.. يغني، يغني طوال النهار، وهزيعاً من الليل فرحاً، راضياً، قرير العين!

ولكن نعمة حمدي كانت أشد رفيقاتي لياذاً بي وانجذاباً إلي. في الدرس تتكمش قربي، تكاد تلتصق بي، حتى إذا خاطبني أحد المدرسين، واضطررت إلى النهوض لمجاوبته، تشبثت بفضل روبي مثل طفلة صغيرة خائفة.

وأما في الملعب، حينما تحيط الفتيات بي، يتلقفن ما أوزعه من نكات وأحاديث، فكانت تقف، مثل تمثال من شمع، ويخيل إلي أنها تكرع كلماتي كرعاً يشيع في عروقها الخدر.

كانت مقبولة الخلقة، لولا قصر مفرط وشاربان حقيقيان لا ريب فيهما، وذقن غير كاملة تبدأ من السالفين وتغيب تحت الوجنتين. أما ذراعاها فكانتا ذراعي رجل وكذلك ساقاها.

كنت أشعر في الأعماق أني مسؤولة عن هذه الفتاة المسكينة.. لأن كلمتي كانت عندها نوعاً من الوحي الذي يوحى.. وما كانت تخبيء عني شيئاً من أسرارها. تفتح قلبها على مصراعيه، فأدخله، وأتحسس ما فيه من آلام وأشجان، وما كان أكثرها!.. وفي الحفلات الراقصة كانت لا ترقص إلا معي، تتصرُّ، وتلتصق بي في شدة وتهمس:

- دلال، أنت فارسي الجميل!

والحقيقة أن السنتين الأوليين من الثانوي قد شهدتا وثبات رائعة في نموّي الجثماني.. أصبحت في الصف الثامن فارعة الطول، عريضة المنكبين، أنثى في الصميم، في غناجي ودلي، وفتى أحلامي الذي كان يتربى هو أيضاً ويكتمل معي، في الصوت المتكسّر الخفيض الذي يذكّر بالأجراس الفضية الصغيرة.

وكانت إذا انفردت بي - وكنت أزورها أحياناً في بيتها - غلب عليها الصمت وبدت قاتمة تحسُّ العجز والنقص. وكانت أمها كاذبة، مزيفة تبكي كما يتخبط الآخرون في الشتاء. أما أبوها فقد كان موظفاً في المالية، قصيراً، زائغ النظرات، لا يملُّ من سب الحكومة، ويبدو أنه لا يهتم بما يجري حوله، ولكنه يتابع أصداء سحيقة فارغة في داخل نفسه. كان، منذ أن أضع قدمي في الصوفة، ينط علي وينهمر:

- كيف حالك يا آنسة دلال؟ أوحشتينا! واحدنا لم يعد قادراً على أن يفرغ للآخر. أنا مشغول، مشغول جداً. والديوان كله معلق في رقبتي. سأطلب

إحالتي على التقاعد. ثلاثين سنة خدمة، وأراني في ذنب الخلق. أريد فقط أن أرى كيف يتدبرون هذه الجبال من الأوراق إذا أنا تركت الوظيفة. تفو! عندي في معيتي يا ست راسي خمسة موظفين. أي ستي طول النهار قاعدين لقراءة المجلات والروايات الغرامية، والخناق حول ستالين ومصدق وضراب السخن.. وأنا مثل حمير الحجارين، لا أرضي البائع ولا الشاري. أربع سنوات من دون ترفيع، والدنيا غلاء، والأخ لا يعرف أخاه، خليها للّه، والبنت بدها دروس خصوصية.. تقول أمها صارت صبية، في الصف الثامن! شيء نفش، أنا لا دروس خصوصية ولا شهادة وصرت وتصوَّرت.. ولكن أمها..

وتقول إمرأته:

- يوه يا أبو نعمة عمري كله قضيته في المطابخ..

ذات يوم جاءت نعمة عندي، على غير عادتها، بسامة شديدة المرح تشع من وجهها سعادة تطمس ما فيه من... كانت عاشقة!

كان فتاها شاباً، في حوالي الثالثة والعشرين من عمره، اختاره لها أهلها لتدريسها اللغة العربية. وبينما هو يشرح لها، منذ يومين، الطريقة الملائمة لكتابة موضوع إنشائي، وثبت على رقبته، هكذا من الباب للطاقة، وجعلت تغمر وجهه، عينيه، خديه، بالقبلات.. وتبكي! إما هو فقد اندهش لحظة، ثم لم يلبث أن أمسك بتلابيب المبادرة، على حد تعبير عمو درويش، وضمها إليه...

وسألتني أخيراً: - أتظنينه يحبني يا دلال؟ أنا محبوبة! قالها لي. أقسم لك يا دلال، قالها لي! إنه يحبني!

لم أسالها ماذا ينتظر حتى يعلن خطبته! كنت أعلم أنها نزوة عابرة، ولا سيما أنه - كما أخبرتني - شاعر، مليح، كثير الذكاء.. وراحت تحدثني عنه، عن دروسه، عن عذوبته في إلقاء الأشعار. كنت ابتسم ابتساماً مزيجاً من السخر والغيظ: «لقد أوقعت به، المسكين!»

في الأيام التالية صارت نعمة تغيب عن المدرسة في ساعات معينة، وبدت متحفظة بعض الشيء، أكثر صمتاً، أكثر سعادة! كان يخيل إلي أن

بهجتها قد انقلبت إلى دنياها الداخلية، تخصبها وتبللها بالأغاريد! ولاحظت شيئاً عجيباً.. كانت شعرات ذراعيها الفاحمة تضرب إلى شقرة! واعترفت لي أخيراً أنها تجلس جلسات طويلة عند طبيب مختص، في صحبة أمها.

أكانت أمها البكاءة تعلم ما بين المعلم ونعمة؟ أكان أبوها يعلم؟ لست أدري، ولكن نعمة حدثتني أن الفتى أصبح موضع تدليل وإيثار من أهل البيت جميعهم، وأن الدروس كانت تجري رأساً إلى رأس!

وذات مرة زنأتني نعمة في قرنة منعزلة من الملعب، وأخرجت من محفظتها الصغيرة ورقة بنفسجية يضوع منه عطر وديع بارع، ووشوشتني في وجد:

- دلال! خذي! اقرئي ما صنع لي فريد.

فتحت الورقة، وإذا خط ملهوف منمق، قصيدة تحمل هذا الاسم: «الغد!»«. قرأت:

موعدنا، يا فرحة العينين والقلب، غد
اموعدٌ! ام حلم ممسك مورد؟
وجِدت في انتظاره ولا أزال أجد،
خيوطه غزلتها والباب دوني موصد،
والريح في البستان ترغي غضباً وتزبد
والوحشة السوداء.. قبل جنية توعد
والدرب نحو منزلي منعزل منفرد
مندفن تحت بساط شاحب يرتعد
ما من ضياء يطرد الظلمة أو يبدد
غير تمزق الغيوم بالمدى إذ تغمد
كيف أقضي اليوم أم كيف تراني أرقد
سأرتدي أبهى ثيابي غد.. وأقصد

بزهرة مرشوقة في عروتي تَنَهَّد
وأرقب الحي.. إذا ما الناس فيه رقدوا
وانفلتت من شفة الليل أغان شرد
خطواتها ليس لها وقع إذا تردد
هناك القاها إلى شباكها تستند
تراقب الطريق.. من يدنو ومن يبتعد
على افترار ثغرها لي قبلة تزغرد
تهتف لي كما دعا المغردَ المغرد!
حبيبتي، يا طلفة ملء جناحيها دد
يا نسخ أحلامي المواضعي والمواضي عود
أحببت.. هل في الحب لي أو لك يا حلمي يد
وقد قطفت موعدا منك فهل اتئد؟
يا موعدا بين حبيبين فداك الأبد!

نظرت في عينيْ نعمة! كانتا ينبوعي غبطة. أما أنا فلست أدري لماذا كان صدري ضيقاً. وسألتها:

- أأنت سعيدة يا نعمة؟

- لست أدري! أمي تقول أنه فقير!

فأطلقت ضحكة صاخبة، رنانة. ما أكثر ما بيننا من تفاوت كنت أؤمن بالروح وتؤمن بالجسد والمال، أعبد الشعر وتعبد الفساتين، سخيفة تفسر الأشياء تفسيراً مادياً، لا تعرف من الحياة إلا الأكل والنوم وقراءة لا غناء فيها.

كنت أحيا حياة الأساطير، مع فارسي المقدام، الذي يحملني ويطير بي خلال الضباب إلى حياة ملأى بالواقعية والعمل والمشاركة ومحبة الآخرين. كانت حسبي ابتسامة حلوة كي أدفع بقلبي ثمناً. ما كان أشد أخلاصي! أطلق مدرس اللغة العربية علي اسم «المتصوفة العصرية الصغيرة»، وكنت فخورة

بهذا اللقب الطويل العريض، أضحك له بخجل ذكي.. ولم أتورع مرة عن كتابة أربعة مواضيع إنشائية لأربع من رفيقاتي بمعان وألفاظ مختلفة... وهكذا التف الناس حولي بكل حسدهم وثقتهم يحكون لي مشاكلهم، ومن بينهم نعمة التي عطفت عليها وأخذت بيدها في تخبطها الكبير.

بعد أيام أسرت إلي نعمة في صوت متوسل:

- أعطاني موضوع إنشاء!

قلت لها، وقد تحرك فضولي:

- ما هو؟

فمدت إلي دفترها تقرئني:

«أنت في شرفتك المطلة على الخضرة الممتدة مدى النظر، والشمس تكاد تختفي!»

قلت لها:

- هذا كل شيء؟

- نعم. وأخاف أن يكره ما أكتب. أنت تعلمين سوء أسلوبي، ألا تكتبينه لي؟

لم تكن في حاجة لأن تتوسل. شعرت أن فيضاً من أخيلة يشب في أعماق روحي، ويأخذ يتدفق في أزباد وإرعاد.. قلت لها شاردة:

- إذهبي الآن. إذهبي حالاً تعالي خذيه غداً.

وقعدت أكتب.. قل أشتعل، أضيء.. أكتب، أكتب وأبكي.. كنت أشعر أني أضع قلبي ذاته، آمالي، أحلامي، فارسي ذا الجاذبية القاتلة والشخصية الساحقة.. وجعلت من دنو الشمس من المغيب رمزاً إلى الحياة في حشرجتها وارتجاف ذبالتها، وانسربت مع كآبة عميقة ترنق في قرارة الروح، وأسى فقد اللهفة والنزوع والتطلع، ما فيه إلا ضربات متشبهة من أمل بعيد يشبه ضربات الغمام الناري في ظلمة الغروب الداكنة، ضربات لا تلبث هي أيضاً أن تلفها الظلمة السوداء، والصمت المديد!

ولما ضربت آخر ضربة ريشة في الموضوع، رأيتني راضية عنه أتم الرضى، مدلة به كل الادلال غير أني وجدتني ينهبني سؤال ملح: «ما عساه أن يقول؟ أيعجبه؟ أيفهم علي؟».. كنت غامضة في بعض النقاط، اندغم مع الرمز وأطاوعه حتى أصبح أنا نفسي رمزاً! والغريب أني كنت متأثرة تأثراً عظيماً بأسلوبه في قصيدته: «الغد»، فلم يخل موضوعي من الوحشة السوداء، والشحوب الذي يرتعد، والغيوم التي تتمزق بمدى البرق!.. وقصارى القول كان الموضوع أشبه بسمفونية تبدأ من الحضيض ثم لا تلبث أن تتراقص على الذرى في حيث لا حدود ولا سدود!

ومع ذلك... ما كان أشد قلقي!

*   *   *

الفصل الرابع

جاءتني نعمة بأخبار عجيبة. قالت:

- حكيت له كل شيء. ألا توافقينني أني فعلت خيراً؟ إنه ذكي وبسيط معاً وسينتهي ذات يوم إلى أن يعلم..

وقلت استعجلها:

- ولكن، احكي لي ما جرى لك، لا تهملي شيئاً.

وردت لي.

بعد أن انتهى قسم الغزل والقبل من الدرس، ظل المعلم مغلقاً أوراقه لا يبدأ الدرس. وقال لها أخيراً وهو يبتسم:

- هذا آخر درس أعطيك إياه يا نعمة. أنت كاتبة، كاتبة عظيمة!

قالت في خجل:

- فريد!

قال لها في هدوء:

- أجل أنت كاتبة.. ومع قليل من القواعد تصبحين أديبة حقيقية. ولكن، خبريني فيم هذه الكآبة تلون كل سطر من سطورك؟ ألا تحبينني؟ إن الحب فرح كله يا بنيتي؟

فتعجبت نعمة أن تكون اكتأبت منذ معرفتها به، أو أن يكون أصابها غمٌ أو أسى، وقالت له محتجة:

- أنا؟!

- الموضوع.. إنها واضحة فيه!

قالت دون أن تفكر:

- أنا لم أذكر كلمة الكآبة أبداً.

وفهم كل شيء عرف. أن وراء هذا البيان المشرق غير نعمة، إنسانة نسج حولها مواضيه.. والمواضي عود! وأخذ يستدرجها إلى الاعتراف في مكر وفطنة. قال لها أن عليها أن تصدقه. لأن عليه أن يعرف مقدرتها حتى يستطيع تعليمها ما ينقصها.

كانت تتعلثم.. لعلها خافت فقدانه! ولكنه توصل إلى طمأنتها، وقال لها واعداً:

- قولي، وسأصفح عنك.

تلك كانت كلمته. واعترفت.. قالت له:

- إنها عميدة الصبايا المحبات. تتبنى الحب، وتعيش له. غير أنها لا تزال في طور البحث. لها أفكار فلسفية أفلاطونية، ولكنها تحلل رفيقاتها المحبات، وتشرح لهن ما خفي من مشاكلهن وأزماتهن تحليل من قضى عمره كله وهو عاشق.

قال لها مدهوشاً:

- ماذا؟!

- إنها تؤمن بالحب العذري.

فوجم لحظة.. لعله كان يقول في نفسه: «ما أجدرني بأن أراها! إني ادفع عمري كله ثمناً للتعرف بها... وأخيراًو أخيراً عثرت على واحتي المفقودة!».

ثم إنه استيقظ من أفكاره، وشرع يستزيدها في ملعنة خبيثة عن الكاتبة، أهي طويلة؟ أجسدها عبل جميل؟ أتحب الشعر؟ كان يغلب أسئلته بنبرة ساذجة بريئة ويده لا تدع يد نعمة، يشد عليها ويدغدغها؟

ولم تكتم عنه شيئاً، المسكينة. قالت له أني أهيم حباً بالشعراء، محبوبة من الصغير والكبير، وإن أمها لا تثق بأحد إلا بي، وإن لي مشيتي الخاصة. فسألها دون وعي:

- كيف؟

فقالت له:

- تدخل الصف مرفوعة الرأس حتى أمام أعدائها، ولها لفتات، ونظرة متعالية من زاوية عينها، لا أعرف كيف أصفها لك!..

وسألها في تطفل غريب:

- ألا تكتب قصصاً؟

ويحزر القاريء أني كنت أقرأ لصديقاتي بين حين وآخر مقاطع من قصص غرامية كنت أكتبها حينما أخلو إلى نفسي، أسكب فيها بعض أشواقي إلى فارسي الجميل، الذي ما كنت أحيد عن التشوق إليه أبداً، وكانت لي تراكيب تجنن، أ ضغط عليها عندما آخذ في القراءة لهن: «لقد كانت دنياه! أتسمعن؟ كانت دنياه، أمه، مدرسته، أخته، لهوه ولعبه!» ثم أتابع: «وعندما تكتمل الرجولة في ساعديه يرفض أهلها أن يعطوه إياها، ويمنعونها من الخروج إلى لقائه، فيتبادلان رسائل مـــــلتهبة، محرقة، تنبع من قرارة روحيهما المجروحين المعذبين... ثم إنهما لا يجدان أمامهما إلا حلاً واحداً: أن يخطفها تحت جنح الليل».. وأقطع القراءة لأستمتع، في مكر، بعيونهن المعلقة بفمي. كنت أعبث بهن، خائفة على قلوبهن الغضة أن تتكسر تحت العواصف الجموح التي كانت تهبُ في قصص.. وإذا هن يصحن صيحة واحدة: «أكملي!» وما كان أسعدني!.. كنت أستطيع أن أقرأ قلوبهن، وألمس منها لفح الحسرات ولهيب الأشواق.. حينئذ أغلق دفتري وانفتل متظاهرة بالذهاب وأنا أرفع سبابتي إلى فمي قائلة في زجر ضاحك: «وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح!».

وقال لها المعلم:

- اطلبي إليها أن تأتيك ببعض قصصها. سآخذ بيدها في طريق توصلها إلى ما تستحق من مجد أدبي. إنها تربة خيّرة.

وأضاف في خبث:

- أصبحت أهتم بها يا نعمة منذ أن أخبرتني عن مقدار مودتك لها. كل ما له صلة بك يأسرني، يحتل قلبي!

وسألتُها أن تصفه لي فقالت:

- خرنوبي الشعر، أشهل...

ولم أعد أسمع شيئاً. ماذا أفعل به؟ خرنوبي، أشهل. لم يكن فارس أحلامي الأسمر، ذا الشاربين الأنيقين والخصلة المتمردة على الجبين! ولكن! ولكن، ما ضر لو أني عرفته؟ أنا أعلم ماذا يهدف حينما طلب إلى نعمة أن تجيئه بقصص مني، وأعلم أن نعمة، حتى بعد حرق شاربيها وزنديها بالأوكسيجين، تظل بعيدة من أن تكون دنياه، أمه، مدرسته، لهوه ولعبه، وأنه مثلي يبحث ويفتش، يهوله أن يعثر على إنسانة تؤمن بالحب العذري، وهو نفسه لم يكن عذرياً، مع نعمة... ولكن كم تكون اللحظات التي أكشف فيها عن دخيلته جميلة ساخرة! وكيف يكون تأثيري فيه!

تأثيري؟ لم أكن في حاجة للتأكد من وطأته على عابري السبيل والمدرسين وقاطعي التذاكر وحتى سائقي الترام. ولكن ما كان يزوبع فضولي هو معرفتي مدى فتنتي على هذا الجنس، جنس الشعراء، وأرباب الفنون الجميلة، الذين لا يفعلون أكثر من أن يعبثوا ويلهوا، ومع ذلك هم يعبثون ويلهون بقلوبنا ذاتها... كنت أقرأ الروايات الغرامية الكبرى، ورأى أن وراء مردة الفن دوماً نساء. لم أعرف أن فناناً غنى الإنسانية هدهدات الألوهة وجعل من أعصابها أوتاراً يضرب عليها دون إمرأة. فما عسى أن يكون من أمر شاعر تهدهده صبية خلقت للفن، بل هي حتى أظافر القدمين فنانة؟ ما أجمل أن يشهد المرء من كتب ما يستطيع أن يفجره من أغنيات وعطور ناعمة! ما أجمل أن يخلق فناً حياً!

وأعطيتها مجموعة أقاصيصي، ولبثت أنتظر. كنت خفيفة، أتلذذ هذا القلق الملهوف الذي ولد في نفسي منذ سلمت الأقاصيص. صرت أستشعر أن حياتي قد أخذت معنى جديداً، أن أشياء رائعة ستملؤها.

أخذت نعمة المجموعة فرحة بها. أكان منشأ فرحتها البلادة أم الملال، أم اعتقادها أنها ترد لي شيئاً من حقي عليها؟!.. لست أدري، ولكن الاندفاع الشاعري الذي اندفعه فريد في اتجاهها، وما سمعته من كونها «فرحة العين والقلب» أركبها رأسها، فنسيت، أغلب الظن، أن الفتى أنما يعيش فيها الفتاة التي صنعتها وجِّنُه وأخيلته الخلاقة، لا البنت ذات القامة القصيرة، والشعور النامية في كل مكان، التي لا تفهم الفن الجميل ولا أربابه. إنها لم تقرأ في حياتها كتاباً واحداً غير كتب المدرسة وجهلت شوبان وباخ.. وفيما بعد تحقق ظني. علمت أنه لم يكن عندها خاتمة المطاف:، وأنها همست في أذنه مرة وهو يقبلها: «غسان أحبك!» وغضب يومها غضباً لا مزيد عليه، وعرف من هو غسان هذا!.

هذه فكر عابرات جاءتني فيما بعد. أما في ذلك الحين، وكنت منصرفة عن التفكير في بلاهة نعمة وخيانتها، فكان يخيل إلي أن يداً ملائكية تمتد إلي من وراء الغيب، من اللا مكان، فتأخذني وتغطّني في بحيرة من نور لا حد لعذوبتها وصفائها!

لم يطل انتظاري. أعادت لي نعمة المجموعة، وعلى الصفحة الأولى، تحت كلمة «حديث القلوب»، عنوانها، قرأت الأسطر التالية:

«ما أجل ما كتبت يا آنستي. أنت أديبة تكتمل وتنضر وتزدهر، كأروع ما تكون الزنابق في عنفوان الربيع. حبذا لو أُخِذ بيدك في توقلك الرائع شعاب الأدب، كيما تكون لنا أديبة ملء السمع والفؤاد... ولكنْ، في مثل سنك وتفتحك الغض على الدنيا، لماذا كانت نهايات العاشقات من بطلات قصصك، وكلهن بفضل اللّه عاشقات، تجنح إلى الخيبة، ولا تبتل شفاههن بالسعادة؟ حطمي القلم، حطميه على أية حال إذا كنت لا ترين أن في الدنيا محبة تشرق وتسعد وتثمر كل الاطمئنان وكل الرغادة! أنت في حاجة إلى من يُغيّر لك هذه النظرة الغبراء. بانتظارك، بانتظار انتصارات جديدة منك في معركة الأدب. تقبلي كل احترام وإعجاب المخلص»، ثم توقيع مقروء رشيق: «فريد الناقدي»!

لم أبد ما بي لنعمة، كنت أقرأ وأتهانف ضاحكة في شبه سخرية! ولكن، لما صرت وحدي، أغلقت علي باب الغرفة بالمفتاح، وأغلقت النوافذ، بل رميت الستائر، واتخذت جلسة مريحة على الكرسي الشاسع الهزاز، وانكببت على جلد المجموعة من جديد!

فيما سبق من صفحات، فاتني أن أشير إلى تجربة صغيرة جرت لي لما كنت في الثالثة عشرة من عمري. عشقت يومذاك رجلاً اسمر بشاربين أنيقين... يشبه إلى حد بعيد فارس أحلامي الذي صنعه تخيُّلي ووحدتي. كان من الطبقة العاملة، يعمل أجيراً في سينما، ولكن أفكاري المتحررة من الحدود والسدود، حملتني أن أضرب عرض الحائط بالفروق الطبقية. كنت أقول في نفسي: «إن جولييت عشقت روميو على الرغم من أن أسرتيهما يقطر السيف بينهما دماً، ولما توهما أن غرامهما أصبح محالاً، قضيا على شعلة الحياة فيهما!» ولذلك كنت أهرب من المدرسة واتخذ سبيلي إلى السينما، أقف أمامها الساعات الطوال لعلي أن أراه، مجرد رؤية. ثم عرفته، ولكن معرفتنا لم تطل لأسباب، أولها: اكتشفت أنه متزوج وله ولدان. الثاني: كان اجتماعنا كثير الصعوبة. هو يخاف إمراته، وأنا أخاف أن تتمرغ سمعتي في الوحل لما بيني وبينه من فروق اجتماعية شاسعة. الثالث: أنه كان بهيماً، تيساً، لا يجيد مطلقاً أن يقول مثل هذه الأشياء: «.. أنت أديبة، أديبة تكتمل وتنضر وتزدهر كأروع ما تكون الزنابق في عنفوان الربيع!» كان أجيري المسكين لا يملك، كي يعبر عن إعجابه، أكثر من: «كيف حالك؟ أنت ظريفة!».. يقولها في خشونة ولهوجة.

وهكذا فقد وجدت مائي. قرأت الكلمة عشرات المرات وفهمت ما وراء السطور. ما كانت هذه الكلمة، التي ألقاها في إهمال، على صفحة دفتر، لا على ورقة غرامية بنفسجية اللون، معطرة.. ما كانت لتخدعني عما يريد من تلك الــ «أخذ بيدك في توقلك الرائع شعاب الأدب!» وهذه الــ «أنت في حاجة إلى من يغيِّر لك هذه النظرة الغبراء.»... لقد فهم أني لست حمارة في اللغة العربية مثل نعمة.. ما أذكاه!

بل ما أذكاني، وما أخبث تسربي إلى القلورب! أنا لم أصنع شيئاً مذكوراً وهأنذي معشوقة أملأ السمع والفؤاد!

وزادتني نعمة علماً أن الدرس قد تقضى في الحديث عني، عن لمعاني الأدبي، عما يخبئه لي الغد من مجد. وبديهي أن الفتى الواله لم ينوه بجمالي. كان يتحدث عن أدبي بصورة موضوعية، لا غير!

...أحسست أن نعمة لما ذهبت خلفت وراءها فراغاً من فرح، إذا جاز لي هذا التعبير. كنت شديدة الشبه بالأصداء الغُنّ التي تنداح بعد نقرة حلوة على البيان، أصداء يتلقفها الخاطر والجوارح قبل أن تتشربها الأذن. وسمعتني أدندن بأغنية فرنسية جذلى كنت سمعتها من إحدى الراهبات ونقلتها على دفتري:

وتلك القبلة التي تتردد على شفتيه

ولا تجرؤ على الاندفاع إليكِ

أهي شيء يسير؟

من يدري؟ لعل حولها وحدها

ترفرف حياتك كلها!

ولما جلسنا مساء إلى العشاء كنت لا أكاد استقر في مجلسي ولا آكل إلا كما تنقر الحمائم العاشقة، نقراً هنياً لاهياً.. قبّلت أبي مرات، وشممته من عنقه.. وقالت لي أمي:

- أأنت مجنونة؟ قولي ليّ!

وأمسكت الدرويش من يديه وصرت أدور به في الصوفة وأغني له، ولما تكوّم على المقعد لاهثاً أطلق تنهدة محرقة وهو يحدق فيهَ تحديقاً طويلاً فيه شراهة.

لقد كنت مضيئة حقاً!

* * *

الفصل الخامس

في تلك الأيام كانت السنة الدراسية على وشك أن تنتهي، والربيع في عنفوانه على حد تعبيره، والخضرة تزحف على دمشق. وأينما تمش يملأ قلبك أرج وديع أنيس، أقل آثاره في النفس تحنّن إلى أشياء مجهولة، تحنّن فيه استلام ولوعة كظيم.. وفي أعماقي كانت تهدر ترانيم كأنها انصاغت من أشواق الدنيا كلها وأفراحها.

وقالت لي نعمة:

- ألا ترافقيني يا دلالي؟

- إلى أين؟

- تعالي، وعدته أن أتلفن له. ستسمعينه بأذنيك.

ذهبنا إلى غرفة هاتف عمومية عند الجسر الأبيض، وانحشرنا في المختبأ الضيق ذي الباب الزجاجي، وأوصدنا على نفسنا في أحكام، هي في الداخل وأنا عند الباب ممسكة بالمقبض. وأخذت نعمة السماعة فقربت أذني... وإذا هو يسألها أول ما يسأل:إي! وأديبتنا الصغيرة، كيف حالها؟

خفق قلبي، فابتعدت ولم أعد اسمع شيئاً. ونبهتني نعمة بعد قليل. قالت:

- خذيه!

وسلمتني السماعة. قلت:

- هالّو، أستاذ!

وإذا صوت ينداح نحوي، عميق، وديع، رطيب:

- يا عين أستاذك! كيف حالك يا دلال؟ ألا نلتقي؟

رصصت السماعة على أذني رصاً محكماً. كانت نعمة تقف قربي وفمها مفغور، ووجهها يشع بشراً أبله كالمجاذيب.

- لم يعد لك عذر. أصبحنا صديقين قديمين يا دلال... لا تضحكي اسمعي، أنا أعرفك وأنت تعرفينني.

- أتظن؟

- نعم!

- منذ متى؟

وإذا الصوت الأغن الرطيب يتناهى إلي كأنه يأتي من وراء الغيوب، من وراء الأشواق:

- من القديم، القديم! من قبل أن نولد!

وصمت قليلاً. لعله كان يبكي، ثم قال في بطء:

- قولي لي شيئاً، أي شيء! هذا الصوت الموسيقي، اللين الدافيء.. قولي لي كم عمرك؟ هذا الصوت الحنون ما أحلاه! إنه لي منذ الآن، لي وحدي، أتسمعين يا حبيبتي؟

أردت أن أقول له أشياء كثيرة، أن أسأله: «ونعمة؟»،أن أخبره أنه هو أيضاً سيكون لي، لي وحدي. ولكن، لماذا أقول له! وأنّى لنعمة، بل لنساء الأرض كلهن أن يوحين مثل هذه الكلمات البسيطة، المتسلطة، السابية!... غاب كل شيء، وأمحت نعمة، وأهلي، وأخواي، ورفيقاتي، وتجمع الكون بأسره في أذني، في قلبي...

وقال أخيراً: - أنا أفهم لماذا لا تقولين شيئاً، أنا أفهم، ولكن ستخابرينني غداً يا دلال. في مثل هذه الساعة. سأكون في انتظارك، وستكونين وحدك.

وخرجنا إلى الشارع. قلت لنعمة:

- أن شاعرك هذا مهووس بالأدب، ليس له حديث غيره!

قالت وهي تقلب شفتيها:

- معك حق. سئمت الشعر والأدب من جهتي. وأبي مصيب حينما يسمي الأدب «صنعة الشحاذين». لم يعد يعجبني، أتعلمين؟

أدهشني قولها، وقاومت رغبة في ضربها. هذه الصعلوكة، البهيمة تتجرأ على مهاجمة الشعراء. إذا كانت تستطيع الآن أن تحرك لسانها في فمها بكلمتين فالفضل فضل من؟.. وتابعتْ قائلة:

- الواحدة منا يا دلال يجب أن تنظر إلى مستقبلها.. لم نعد أطفالاً!.. قلت لها مغتاظة:

- ماذا تقصدين؟

قالت في لهجة ذات مغزى:

- لا أقصد شيئاً. ولكن اسألي المجربة، أنت خيالية وأخاف أن يورطك معسول الكلام!

صحت بها ساخرة:

- إذن لما تتلفنين له؟

- من باب التسلية، لا أكثر ولا أقل. ولا أكتمك أن علاقاتنا في المدة الأخيرة فقدت حرارتها القديمة.. لم يعد يهمني كثيراً!

ولما افترقنا أخذت أفكر في كلامك: «فقدت من حرارتها القديمة!؟» من كل بد! في هذا المجتمع المادي، الراكض وراء الفساتين والأساور والقصور، يفقد الشعر والهمس اللطيف الفاتن حرارته القديمة. فليفقدها الآخرون، أما أنا فقد خلقت للحب، للشعر ، للأغنيات، للخلق! من جهة أخرى.. أنا أفهم أن يفقد شاعري حرارته معها.. ما أشبهه بانسان انفتحت له كوة صغيرة على عالم سابح بالأنوار، أنا.. ألا يعطي حياته ثمناً للدخول وينصرف عن كل غاية إلى غزو بحر الأنوار الذي رأى منه عينة صغيرة، صغيرة جداً؟!

ولما كان الغد خابرته.

- هالو أستاذ؟

- أهذه أنت يا بنيتي العزيزة الصغيرة؟ كيف حالك؟

كانت تتضفر أحاديثه كلها حول اللقاء:

- سأراك! هل تسمعينني؟ قلت ضاحكة:

- وما شأن نعمة في هذا كله؟

قال متصنعاً الدهشة:

- أي نعمة؟!

وزاد ضحكي. قال:

- أصغي إلي. هل أنت جادة؟

قلت في غنج:

- لا!قال واثقاً من نفسه:

- أعلم!

وتواعدنا على اللقاء إذا كان الغد قدام سينما الفردوس، حوالي الساعة الثالثة.. سألته عما يحب من الألوان، قال: «الأزهر!» فأخبرته أني سألبس له تنوره زهراء بثنيات، وبلوزاً برتقالياً دون أكمام، وأضع على صدري شكلة من العاج: قنينة تصلها سلسلة ذهبية زرداتها دقيقة جداً بكأس من العاج مثلها.. أما شعري فأجعله جديلتين مبرومتين تنحدران عن كتفي. وقد أتأبط محفظة المدرسة أو كتباً، لأني سأهرب بعد الظهر.

هربت، في اليوم التالي، مع سلوى. كانت هي أيضاً تبدو ناضجة، مزدهرة في سمرتها الحارة.. لم تنقطع ثرثرتي طوال الطريق. كنت أتأبط ذراعها وأشد عليها في لهفة.

كانت الساعة الثانية والنصف. والسينمات تكاد تكون خالية.

قلت لسلوى:

- اقعدي. سأشتري لنا سكراً ولوزاً. حافظي على المطرح.

لم أخبرها بشيء. كنت أخبئ لها قصتي كلها مفاجأة.

ولم يطل انتظاري على باب السينما.

أقبل مسرعاً وعرفني فوراً.

كان أبيض، بنظارتين دون إطار، ربعة، إذا ضحك بانت سن في فكه الأسفل، متأخرة عن رفيقاتها، سوداء من التدخين. لم يكن أمير أحلامي يدخن! قال لي وهو يتفحصني في اهتمام من قدمي حتى طرتي:

- نبتعد قليلاً من السينما. أتذهبين إلى دمر؟ أتعليمن؟ كنت أتخيلك على شكل آخر. طيب هذا لا يهم، تعالي. قلت:

- لا أقدر! أودعت ابنة خالتي في السينما. إنها تنتظرني.

فشدني من يدي وهو يتغمغم:

- فلتنتظر، ستأخذينها في نهاية الفيلم!

وقصدنا شارع بيروت. كنت أحمل محفظة جلدية سوداء، فيها، ما عدا الكتب، صدرية المدرسة. لم يترك يدي، ولم ينقطع عن الحديث:

- وأخيراً، يا أديبتي الصغيرة أنت بين يدي. أنت لي.. اسمعي. سأروي لك أشعاراً. إذا سمعت أشعاري عرفت قصة حياتي. ليست لي قصة خارج نطاق الشعر. وأنت أيضاً ستروين لي ماضيك، ولكنك منذ الآن ستكونين شعراً. سأصنعك من جديد. قصصك يجب أن تمزق. سنكتب أشياء جديدة، تحمل توثبنا الذي لا هوادة فيه نحو الفرح. أنت صغيرة. صوتك يعطيك عمراً أكبر. أنت امرأة في جلد طفلة. أنثى. سأحبك كثيراً..

ومضى يفتح لي قلبه ويحدثني حديث إنسان عرفني من قبل أن أولد، وكثيراً ما استوقفني ليتأملني في ظمأ ثم يمضي يهدل كذكر الحمام!

في مقهى الشلالات، تحت عريشة منعزلة، تأتيها من بعيد ثرثرة الشلالات المتحدرة من يزيد، وكنت أجلس قبالته، انقطع فجأة عن الكلام وقال لي ضاحكاً:

- ياللّه ما أشد ثرثرتي.. ظني أني بعد جلستين من هذا النوع سوف لا أجد ما أحكيه لك. تعالي، تعالي اجلسي قربي. دعيني أتأملك. أنت حلوة يا دلال!

وشدني إليه في قوة شعرت لها ألماً في ضلوعي، وقبلني.

ظللنا حتى الساعة السابعة. ولما وقفنا ننتظر سيارة قال لي ببساطة أدهشتني:

- بس يكون معك عملة. أنا الكلام في سرك، أجرة القهوة فلستني!

كان معي عملة. وددت لو أعطيته كل ما في محفظتي، ولكني خجلت. وتابع باسماً:

- هذه أشياء لا تقال لآنسة نتعرف إليها منذ قليل. ولكني لا أحب أن أظهر أمامك، أنت بالذات، على غير حقيقتي.

وافترقنا آسفين. هرعت إلى سلوى اعتذر لها عن هروبي، وأروي لها ما جرى لي. كنت لا أدع تفصيلاً إلا رويته... كنت أتدفق في الحديث وأضمها إلى صدري وأبكي من الفرح فتبكي هي أيضاً معي بكاء طويلاً..

في موعدنا المعهود من اليوم التالي تلفنت له. قال لي:

- كوني على باب المدرسة اليوم وقت الانصراف. لك عندي مفاجأة...

رافقني إلى البيت، ذلك المساء، وهو يهمس في أذني أرق كلمات الهوى. وفي الطريق رأيته يشدني ويصعد بي الطابق الأول، وعلى الدرج ضمني إلى صدره طويلاً، ودس في صدري ظرفاً سميكاً.

ودخلت البيت وطفقت انتظر هبوط الليل.

وتحت مصباح الرأس الشاحب، الأخضر، والدار نائمة، بل الحي كله، قرأت ألهث، وأنا في غيبوبة:

ـــ.. أنا حياتي كلها، آمني بي يا حبيبتي الغالية، لم أحي مثل يوم الأمس. لقد انفلت من كونه موعداً أثيراً مع حبيبة هي في السويداء من القلب، إلى آفاق أخرى، لا أبهى ولا أبر. ما كان أسعدني. ما أسعدني بك يا دلالي، يا إنسانتي الجميلة! أياً أبدي، وأياً أخبئ من حوادث الأمس، والقبلات ليست كعهدي بالقبلات، والهمسات الرطيبات لم تكن قط ككل الهمسات. لست أدري من أين يتغمدني ذلك الشعور بكوني أحيا غرامي الكبير، غرامي الأول،

غرامي الذي سيخلف آثاره العميقة لا في قلبي المحب فحسب، بل في دنياي كإنسان. أنت يا حبيبتي أجمل ما نظمت وأنظم. وأنا، يا منية القلب، لو أردت، كنت كالعقبان المحلقة في السماوات العلى، قوة وأيداً وندى. إلى يديك الفاتنتين يأوي الأمل والمودة والمحبة. فإذا أنت صدقتني محبتك، وقد أستحقها، لو شئتِ، وإنك على ذلك لقديرة، عادت لي لا الفتوة، لا الطفولة، لا الأجنحة وحدها، بل كل ما يمكن أن تتمخض عنه الإنسانية الشاعرة من أغنيات وملاحم. أعيذك يا دنياي أن تتلهي بهذا القلب الذي ليس فيه إلاك. السيل العرم الذي فككت عنه الرصد، يا حبيبتي، يتفجر الآن. يسمع لأواذيه جلجلة وازباد وإرعاد. وأنا المحب لا أقتصد في أن أكون لا شيء إلا المحبة، وأنا الواجد ليس له من صحو، وأنا العاشق الذي تملأين عليه أفكاره وتسدين دروبه. إن حلم فحولك تنسج أحلامه، وأن تيقظ فاليك تروح يقظته. أنا أحبك يا دلال، حباً عارماً يستطيع أن يضم الوجود كلّه. ولعلك تأخذين علي تزييني الكلام، وانتقائي الألفاظ، وإحكامي الصنعة. وهذا صحيح. لعل مردّه إلى أنك منتقاة مصطفاة كُوِّنت من وهج الأزهار وهدأة الخاطر. وعلى شفتيك شيء يشبه الغيب، قريب بعيد، وفي ذراعيك البضتين إيماء ناعم ثرٌّ جواد، وفي نظرتك نداء فيه حياء وفيه سلطة وفيه كبر، وأشد ما فيه كونه أنثوياً، ولكنها الأنوثة الغضة المهيمنة التي نحس لطغيانها معنى لذيذاً يتمشى في الأعصاب كالخمر المعتقة. ولكن، بين كل ذلك الفيض من اللفظ المنخول الذي تلتطم أمواجه حتى تقرع جوانب صدري، وبين قيثارات الألحان التي تعني جمالك وحبي، وبين هذا التسكاب الوجداني الذي أستطيع أن أروي قصته فيَّ طوال أيام وصفحات، لا أجد أصدق من هذه الكلمة الناحلة، الحبيبة، البسيطة:

«أحبك!»

«أصحيح أنك تحبينني أنت أيضاً يا حبيبتي المعبودة؟ أصحيح يضطرب في صدرك النديان حبي واسمي؟ وأنك بي تفكرين إذا كان الليل وإلي تذهب أفكارك إذا شردت؟ ينبغي لي أن أسمعها كل يوم، كل ساعة، كل دقيقة. زقيني بها كما تزق الحمائم أفراخها، زقيني بها قبلات وضمات

وهمسات معطرة حتى أصدق.. لأنك تعلمين أنك كنز الشحيح. وأنا الشحيح بك، الضنين، شديد الغيرة عليك أتفهيمن؟

قلت لي أمس، بطريقتك الحلوة المقتضبة: كنت ضائعة قبلك، إذن كيف كنت أنا...»

وصفحات أخرى!

ولكن أروع ما ضم المكتوب مقطوعة شعرية صغيرة، تتحدث عن ورق الورد في منقار البلبل، وغرام البنفسج بنسمة الصباح وقبلات الندى:

كأني عرفتك منذ القديـــم

وغناك قلبي حبي العظيم

وقطعة أخرى خفيفة الروح، راقصة، كثيرة الرقة، أطول من الأولى تروي قصة الأمس، والطريق التي يحنو عليها الحور ويقف الغار احتراماً، وصدريتي المندرجة، المنطوية ألف طية في المحفظة، وكتاب القواعد المسكين، الذي انتبذ بعيداً، فقبع في وحدته، مهجوراً، مفعولاً به، مثل جمع مكسر، تقتله الحسرات بما أزعج الحبيبة، وأرَّقها في الليالي الصافية.. وكتاب التاريخ ذلك الشيخ ذا اللحية الطويلة البيضاء، والهلاهل المقطعة والثرثرة التي لا تنتهي.. يحمل عكازته ذات العقد ويطلق ساقيه الهزيلتين، لا يلوي على أحد! أما كتاب الحساب فقد أكل عشرين عصا مضروبة في عشرين.. غير أن حاصل الضرب، ولا يعلم الشاعر كيف تم له ذلك، صار ألفاً من العصوات!

هربنا معاً، وقصدنا المروج

فتى وفتاة من المكتب!

* * *

الفصل السادس

نجحت إلى صف الكفاءة. فقصدت، حتى قبل ذهابي إلى البيت، غرفة هاتفي المحبوبة. ما كان أقربها إلى قلبي! جهازها القديم، حبال الهاتف التي أكل الزمن أقساماً من نسيجها الأسود، صاحب الدكان، العطار، السمين الكسول ينظر إليَّ مبتسماً دائماً...

قلت له:

- هالّو فريد.

- حبيبتي!

- عندي لك مفاجأة.

- قولي.

- احزر.

وأطلقت ضحكة كبيرة وجعلت أعذبه إلى أن قلت له.. وإذا هو يصيح بي:

- ابقي محلك، أنا آت، هذا شغل لا يصير معي، وقفي، سأقدمك إلى الأسرة، لا تتحركي. أنت عند الجسر، أليس كذلك!؟ دقيقة واحدة. سأترك الجريدة حالاً وآتيك، دقيقة.

وعلق السماعة.

كان مجنوناً من الفرح. لم يتركني أسأله عن فحصه هو أيضاً. كان في السنة الأولى من الحقوق، والأيام أيام فحص في المعهد.

ولم يلبث أن أقبل، وشدني من يدي إلى بيتهم، وهو يكرُّ الكلام كرّاً:

- كانت مفاجأة حقاً. لم أكن انتظر أن تتجحي. فهمت الآن أن حبنا قد أثمر. لم يسلمك إلى نوع من الخدر. لو أنك سقطت لكنت حطمت قلبي.. لكانت ضربة لي، لي وحدي. أنت وردتي المؤنسة المعبودة التي سقيتها دموعي وفرحي! ها هي ذي تزهر. حلو! سأصنع هذا شعراً: سقيتها دموع الفرح فبرعمت! حلو! أليس حلواً!

قلت له في جذل:

- وأنت، كيف فحصك؟

- أنا! لا تهتمي بي. فحوصنا على التيسير. لا تخافي سأنجح، هذا ما يؤكدونه لي، على الأقل في الجريدة. اقرئيها غداً. حتماً سترين قصيدة تهنئة لك. أتعلمين أن العمل فيها بليد. حتى ولو كان تحرير الصفحة الأدبية...

سألته في خجل:

- فريد!

- آروح فريد، عيوني؟

- لا أريد أن أذهب إلى عندكم.

- ليش يا روحي؟

- أخجل.

- هراء. أنت واهمة، سوف ترين. ولوْ! إنها أسرتك. سترين ما أطيبهم.

كانوا يسكنون قبواً تحت الأرض، صغيراً، نظيفاً جداً، حسن الترتيب، مشمساً بعض الشيء، متألفاً من صوفة وثلاث غرف.

كان له أخ يشبه - ما أعجب هذا - فارس أحلامي القديم. أسمر بشاربين فيهما قرب السبلة أثر جرح قديم، ويدين جميلتين جداً، لولا الشعر لخلتهما يدي عازف بيانو وأغرب ما في الأمر أن له خصلة متمردة على الجبين. ولكنه لست أدري لماذا، لم يقبل عليّ إقبالاً جواداً. حيَّى في برود ولم يلبث أن انسحب إلى غرفته، وأغلق الباب.

وقالت الأم: «يا مرحباً!»، كانت لها بسمة صبية فيها طيف ناعم من سخرية. كانت متحدثة بارعة. تكلمْنا كثيراً وكان فيما قالته:

- على أيامنا كانت البنت لا ترى خطيبها أبداً قبل ليلة الدخلة. أما أولاد اليوم فلم يعودوا يرضون بأذواق أمهاتهم. تكون الواحدة منا قاعدة وإذا الباب يفتح عليها وابنها داخل ومعه بنت! بنت لا أحد شمَّ لها فمّها، لا أحد شاف حوستها في البيت، لا أحد عرف أهلها. جهل، فورة شباب وتمرُّ.. الرجل إذا عاشر المرأة قبل الزواج سقطت من عينه. يجب أن تظل المرأة شيئاً يشتهى. لما خطبني أبو سليم أعطتني أمي حالاً. لأنها تعرف أسرته. ومنذ أن أعلنت الخطبة لم أدس حارتهم؟

وكانت الأخت الكبرى تنظر إليَّ في إمعان وسذاجة، ثم لا تلبث أن تنفر إلى آخر الصوفة تلمّ قشة، أو تبلُّ إصبعها بريقها وتلقط رماد سيكارة، ثم تذهب فتغسل يديها.. وكان عند الباب دواسة عليها كلاشات وقباقيب، والحيطان تكاد تضيء. وقدّرت أن عمر الأخت ثلاثون أو أكثر قليلاً، ولكنَّ نحافتها، والاطمئنان البادي على وجهها يعطيانها عمراً أقل بكثير. قالت لفريد تهدده في لطف:

- أتريد أن أحكي لها؟

قال لها ضاحكاً:

- احكي.

قالت لي في حفاوة:

- طيب. فريد مهمل يا ست دلال. علينا أن نلحقه بأواعيه. وقد يخلع بنطلون البيجاما في غرفته والسترة في المطبخ!

- أنت تبالغين يا مديحة.

- لا أبالغ أما تركت المرة الماضية صباطك المسكين في الجنينة، ويومها نزل مطر!

كانت تتحدث عن الأشياء كأنها أشخاص، وتعتقد أن نصف الطقم من الكراسي الخيرزان الذي اشتراه سليم، الأخ الأكبر، مؤخراً انبسط في بيتهم!

في هذه الأثناء طرق الباب، فقامت مديحة تفتح. وإذا بنيتان صغيرتان بشرائط بيضاء تدخلان. قال لي فريد:

- بنات أختي المتزوجة. إنها تسكن في الحي نفسه. تعالي يا ميمي سمعي خالة دلال خروفي.

وضمت البنية الصغيرة يديها إلى فخذيها في وقفة عسكرية جدية، ولم تكد تفتح فمها حتى أغلقته وسكتت.

- يا اللّه عين الخال.

قالت البنية في جد:

- نثيت أولها.

فتدخلت الصغرى وقالت:

- أنا أعرفها: خروفي اسمه سعدي!

قال فريد:

- قولي يا لولو، قولي

فزجرتهما ميمي، وقالت لأختها:

- اسكتي أنت. فطنت!

وعادت إلى وقفتها العسكرية وانطلقت:

خروفي اثمه تعدي

خروفي شعره جعدي

خروفي لونه فتان

خروفي جرثه رنان

وصاحت مديحة:

- الإشارات! أين الإشارات؟

فلم تتوقف ميمي، ولم تلتفت إلى خالتها. وكانت البنت الصغرى تحرك شفتيها، هي أيضاً، بنفس الكلمات مشفعة إياها بحركات راقصة.. ولما انتهيت القصيدة أقبلت الصغيرتان عليَّ كل من طرف وقبلتاني من خدي الاثنين، كأن القبلة جزء من القصيدة!

كانو من بلد صغير في الشمال، وكانت لهم لهجة قروية حلوة بعيدة من اللهجة الشامية. قال فريد:

- لا أظن أن أطفال المدينة يستمتعون بمثل ما كنا نستمتع نحن! أتذكرين يا أمي لما علمنا الزرزور، أنا وابن عمتي؟

قالت الأم ضاحكة:

- كنتم شاقين الأرض وطالعين، أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم.

وأستأنف فريد:

- أتعرفين يا دلال! اشترينا أنا وابن عمتيٍ زرزوراً وذهبنا به إلى غرفة الضيوف في بيتهم وصرنا نعلمه. وكلمة «نعلِّمه» تعني تدريبه على أن يطير، وهو مربوط بالخيط، ثم يعود يقف على اليد حينما تشد الخيط شداً خفيفاً. وكان في صدر الغرفة تواليت أنيق عليه قناني عطور ثمينة، وزهريات ملونة، وتحف صينية.. وقفنا لك، ابن عمتي وأنا، عند العتبة، وأطلقنا الزرزور، وهكذا رأساً.. رخينا له كل الخيط، مع أن التدريب يجب أن يبدأ بشبر واحد منه، ثم شبرين، إلى نهاية الخيط، فطار وحط على الرف الأول من التواليت، على قنينة كبيرة من العطر، لم تلبث أن ترنحت، ومالت ثم.. دب ! سقطت على الرف الثاني.. وخاف الزرزور فنط نطة صغيرة وتسلق زهرية قربها ترنحت هي أيضاً ومالت على رفيقة لها، فسقطت الاثنتان.. وهكذا أصبحت الأواني كأنها في مكان مسحور، تتراقص، وتميل، وتسقط أعياء.. حتى تحطم كل ما على التواليت!

وقال بين ضحكاتنا:

- وتحزرين أن الزرزور لم يتعلم!

وعادت الأم تتحدث عن نظريتها في الخطبة والزواج:

- الحجر مطرحه قنطار. كانوا، على زماننا، يفتخرون بالبنت التي لا تخرج من بيتها.. يقولون عنها: مئة على الأبواب، ومئة على الأعتاب، ومئة عند أبيها لطلب الجواب!

كان فريد يتململ ويقول لها في ملام رقيق:

- يا أم، ما مناسبة هذا الحديث الآن؟! كنا نحكي على الزرزور! أما كنا نحكي على الزرزور؟

* * *

كان فاتناً في قلب الجو، فاتناً في ابتسامته البريئة الغفور. أحسه معي. حبه، قلبه، رسائله، أشعاره التي أقرؤها فأبكي من فرح ووجد وحنين إلى أشياء لا أستطيع التعبير عنها:

ذات يوم وللعصافير فوق الربى جنون
والحساسين منشداتُ الذي كان أو يكون
وعلى النهر والتلال، وفي السهل والحزون
سبلٌ شقها السنى، كل قلب بها رهين
أقبلت نسمة على البرعم المدنف الحزي
نحلوة، غضة اليدين. كأطواق ياسمين
داعبته ودندنت: «أيها الصاحب الأمين..»
وإذا الوجد في الربى وإذا الحب في الغصون
وإذا الكرم فرحة.. نسي الدمع والشؤون
والأغاني شُرَّد في لمى الثغر والعيون
مولد العطر والندى من يديك.. أتعلمين..

* * *

كنت في سكرة حقيقية، أذهلتني عن كوني فتاة شرقية، عليها أن تلقي بالها إلى السمعة! السمعة؟ لقد علمني هو أن أكون أقوى من هذا المجتمع الآسن الراكد. فتح عيني على معان للحياة جديدة.. فعرفت أن دنيانا في هذا البلد المعقد الضائع قائمة على كثير من الركائز المزيفة الكاذبة. ويكفي أن تكون الظواهر في حرز حريز، ولتُخفِ ما تشاء لها صفافتها من تشويه للأخلاق الحميدة، حتى تخرش الألسنة، وتأخذ الحياة دورتها اليومية المكرورة التي تملها حتى التفاهة ويمجها حتى الفراغ.

كان يقول لي في نرفرة:

- هذه بلدة المطاعم والـــ «يا ليل يا عين» وسماورات الشاي. بلدة ما فيها حتى مكتبة عامة. بلدة ما فيها مسرح دائم!

لقد أشعرني أننا، نحن المفتحين، جديرون بالقبض على أعنَّة مجتمعنا وهزه في قوة، ثم فتله في طريق سعيدة صاعدة تزدحم فيها الضحكات. سوف نلقى ألماً، عنتاً؟! فليكن! في سبيل أن نتيح لأولادنا وأحفادنا وجوداً أصفى وأسلم...

وفي قلب هذه العواصف الهوجاء التي جرفت دلال القديمة كان فريد يزداد حباً ووجداً. كان شديد الغيرة، أعمى الغيرة إذا جاز لي القول.

وقع لنا أن قعدنا ذات، مرة، نحلّل العواطف. قال لي:

- أتعلمين؟ في بعض ما قرأت أن القبلة الأولى تقبِّلها الفتاة، لا يمكن أن تنساها. تظلُّ تحنُّ إلى ذكراها، إلى صاحبها، حنيناً موصولاً. ويظهر أن في ذلك نصيباً من الصواب، لأن فتى القبلة الأولى يمثّل هذا الفارس الذي يفتح الأبواب الأسطورية المرصودة على عالم جديد.

أجبت حالمة.

- هذا صحيح.

وجعلت أصف له خمارها في الرأس، وفيما أنا أتحدث عن الألم اللذيذ الذي نحسُّه إذا مسّ وجهنا الشاربان، لاحظت أن الدم يهرب من وجهه ويديه ترتجفان.. لم يكن له شاربان! ومع ذلك، قال لي في تلطف ساهم أصفر:

- إذن لم أكن أنا صاحبها!

فقلت له في غنج:

- فريد!

- أخيريني.

- ما بدي.

قال في هدوء ثقيل:

- أخبريني. أنا أعلم أن حبّي جرف كل ما عداه. ألست تحبينني يا دلال؟ إذن يجب أن أعلم كل شيء عنك يجب أن أكون راهبك كما كنت حبيبك وشاعرك.

وجعل يترفق بي، ويسألني عن فتاي الأول.. حتى رويت له قصة أجير السينما. وإذا أنا أرى فريداً آخر لا علاقة له بفريدي الوديع المأنوس. وثب عن كرسيّه وصاح بي:

- إذن ما تنتظرين حتى تذهبي إلى غير رجعة؟ أتحسبين أني قادر على العيش مع شبحه؟ اذهبي. أنت، أنت أصبحت غريبة عني.

ولم يلبث أن انهار على الكرسي لاهثاً.

شدهت حقاً، وبقيت لا أتحرك، ثم مرطت شفتيَّ وانخرطت في نشيج ونحيب زعزعا قلبي من جذوره. قلت له بين الشهقات:

- أنا لم أحب إلاّك، أقسم.

وبكى هو أيضاً، وضمني إلى صدره ولكنه لم يقبلني.. وقال لي في أسى عظيم:

- آه لو تعلمين كم أحببتك! لو تعلمين! لماذا فعلت بي هكذا؟

قلت ورأسي على كتفه:

- لم أكن أعرفك. كنت ضالة، كنت ضائعة. اغفر لي يا حبيبي. أأنت غاضب؟ قل لي لا. أتوسل إليك، أركع بين يديك.

قال لي في صوت مكسو:

- أحسُّ أن شيئاً فيَّ قد انحطم. قد أعفو، ولكن دعيني الآن قليلاً.. قد تمر العاصفة بسلام. - لا لن أذهب حتى أسمعها.وبعد لأي سمعتها!

وفي اليوم التالي تلفنت إليه فأجابني في جفاء. قال:

- عندي لك رسالة.

- أأهرب من المدرسة وآتيك؟

- لا، انتظريني على الباب.

كانت رسالة حارقة، مرة، مجنونة يعلن فيها أن «بنيته الجسمانية والروحية» لا تعينه على الصفح، أنه كلما مر بالسينما أي سينما، أحس مثل أسياخ من جمر تكوي فؤاده وتسلمه إلى ما يشبه الهذيان.. ثم أنه يخبرني في نهايتها أنه لا يحقد علي ولا يبغضني ولكنه ينصحني أن أنساه.

ذقت ليالي مرة لا أنام فيها إلا كما تغفو القطط. وصرت أكتب إليه كل يوم رسالة. وانتظرته يوماً على باب الجريدة ساعات، ولم آبه بشيء أبداً.. حتى غفر لي!

* * *

الفصل السابع

كانت تهب على بيتنا، بين فترة وأخرى، عواصف كاسحة، ذات ضوضاء شديد، ولكنها قصيرة العمر تهدأ بأسرع مما تعصف. وقد قام البيت وقعد لأنه اكتشف أن لزين العابدي، أخي البكر، علاقة مع امرأة مشبوهة، كانت تصاحب الإنكليز والاستراليين أيام الحرب. وكان رأي أبي أن هذا سوء كلُّه، وأن هذا العمر الغض، الشباب، يستأهل أن يُبنى فيه المستقبل على أسس قويمة:

- وما دام زين العابدين قد فشل في دراسته. واختار وظيفة بسيطة في الإنتاج الزراعي، فلا أقل من أن يحفظ شبابه. ويحسن سيرته، لعلّه يفوز ببنت حلال تعوض عليه ما فاته من حظ في الحياة.

أما أمي فكانت تحمل على الظن أنها موافقة على مسك أخي ما دامت المرأة غنية وأخي يهبش منها هدايا وأحياناً نقوداً، ولكن ما كان يقلقها هو «السمعة»، والخوف من أن يعلق زين العابدين فيتزوجها.

وكان رأي زين العابدين أنه أصبح رجلاً قادراً على تمييز الخير من الشرِّ.. فغضبت أمي وشتمته وتدخل أبي وطُردت أنا بلباقة واختلط الحابل بالنابل، ثم!... رجعت أمي إلى ملاقطها ومنجميها وغيباتها الطويلة.. وعاد أبي إلى استسلامه وتقززه.. واستمر زين العابدين يعاشر المرأة المشبوهة ذات الاستراليين والإنكليز، وانقطع نهائياً عن القراءة، حتى قراءة الكتب التي تحوي رسوماً، وصار شديد العناية بملابسه، كثير الحديث عن الخياطة والرياش والسيارات.

ورجعت يوماً إلى البيت بعد الظهر.. فتحت الباب بمفتاحي ودخلت دون أن أحدث ضجة، وما أن أغلقت الباب ورائي حتى بلغتني رشقه من شجار بين أبي وأمي، سمعتها تصيح به:

- ها لا يخصك! أنت قتلتني أنت موّتني، عمري راح نحس نحس في خدمتك وخدمة أولادك.

وأبي يقول في غيظ مكظوم:

- ولك يا مرأة كوني عاقلة مرّة واحدة وافهميني. أنت بنت أربعين سنة ما بقيت صغيرة...

- الآن صرت كبيرة مو؟ من كبّرني! وأنت يا عجوز! يا أبو سعلة!، يا دبّ! كذب ماني بنت أربعين، فشرت.

هنا ارتفع صوت أبي، غاضباً، منفجراً، مدوياً:

- أنت كاذبة، خائنة، وضيعة، أحكي معك من الشرق تجاوبينني من الغرب! أتحسبينني أعمى! أنا قادر على طرده من هنا هذا الدرويش الكلب، وطردك معه، فهمت؟ اخجلي على شيبتك! صار لك أولاد شباب وبنت صبية!

وإذا أمي تلبد، تخرس.. سمعتها تنتحب في صمت وأبي يدنو من الباب، فاختبأت في الدهليز، ولما بلغني صوت انصفاق باب غرفته. ارتددت إلى الشارع أهيم على وجهي.. ولما كان المساء جاء الدرويش، على عادته، فاستقبله أبي غير حانق ولا غاضب وقعدا يلعبان الشطرنج حتى ساعة متأخرة من الليل!

* * *

سبق أن قلت أن رسائل فريد كانت زادي المفضل. كنا نتكاتب وإن التقينا كل يوم، لا أفتح مكاتيبه إلا بمراسم خاصة، وأقرأ فيها كل ليلة. وصدف أن نسيت إحداها في كتاب، ولما عدت إلى البيت رأيت زين العابدين منتصباً في الصوفة، والشر بين عينيه، وأمي على القاطع رأسها بين يديها.. توقفت عند الباب جامدة ، فرفعت رأسها وقالت:

- شرفت!

وإذا أخي ينفجر علي شاتماً، سيئاً، مقذعاً:

- نكست رأس الأسرة، يلعن أبوك بنت ستين صرماية!

وفك زناره الجلدي وضربني حتى جعل في ظهري دروباً زرقاء وصفراء مثل ثياب القرويات وأمي تحرضه وتهرت: - مستاهلة. لسّه ما فقست من البيضة، وبالها في العشق والمعشقة! يبعت لك الحمى إن شا اللّه شو بدك تبهدلي اسم البيت ولكْ!؟

وأخذت تقلد أسلوب المكاتيب بصوت ممجوج ممطوط:

- حبيبتي دلال!.. يدل عليك الدم أن شا اللّه!

كانت أول مرة أضرب فيها، ومع ذلك تحاملت على نفسي وجررتها في شتى أنحاء البيت تفتيشاً عن رسالتي الحبيبة المفقودة، حتى عثرت عليها. لا أزال احفظها، من دون كومات من رسائله، في محفظتي:

«لست أدري لماذا تذكرينني، يا حبيبتي الصغيرة بالأمسيات الربيعية في بلدنا. كنا أطفالاً صغاراً، ومن بين سيقان الزيتون الداكن يظهر الأفق، وقد ارتشقت فيه غمامات ملونة لا حد لبهاء ألوانها. بعضها له زرقة السماء الصاحية، وبعض مثل عيون النرجس.. والعصافير تهزج مثل هزجنا نحن، والسنونو جماعات مغنية كأنها أولاد ينصرفون من المدرسة وكان آخر دروسهم درس إنشاد. إما نحن فالحي بنا قائم قاعد: الدراجات، والدحل، والبلابل، والشتائم.

«لماذا أروي لك كل هذا؟ أنا في شغل عنه. أن فكري يذهب إلى حيث لا تكبلنا قيود. إلى غمامة قمراء، إلى حيلة يقف الزمن عند بابها فلا يجرؤ على الدخول! وأنا انحني على قدميك الصغيرين أقلع منهما أشواك الطريق التي قطعنا. فلقد كنا نعدو حفاة إلى حيث ندري، وأنا قد أزلت عن شفتيك، هاتين الخوختين المجروحتين كقلبي، كل ما أنهكهما من ترانيم لا غناء فيها. أنت يا من أحبها قلبي، كيف أغريك بان تجيئيني طفلة تتفتح، بين يدي أنا، أكمامها، فأقعد عند قدميك اغسلهما بالدموع، وأصفر لك من أشعة

القمر شريطاً لشعرك، وأطلقك فراشة ممراحاً، غزلة، نشوى، ملونة، في مرج، فيه ألف زهرة وياسمينة يحسدنك!».

ولكن ما أقلقني أكثر من أن أضرب بالزنار الجلدي انقطاعي عن رؤيته. كنا في الفرصة الصيفية، وما من مدرسة أتركها بتذكرة مزورة، فصارت سلواي الوحيدة الرسائل التي يكتبها، تحملها ابنة خالتي الودود.. رسائل قاتمة، كأن فيها شيئاً ينتحب، تصف حنينه، والوحشة التي تخنقه إذا أسود الليل، وخفت كل ضوضاء النفس الملهوفة الملتاعة و التي يعلقها الشوق بخيط من هباء.. كان يكتب إلي كل يوم! وقد يغريني بقصائد شديدة الحلاوة، أن انسرق من أهلي وآتيه، قصائد ساذجة تصف صحون الحلوى التي هيأها لي، والسجادة الوردية ذات العروق الخمرية التي اشتراها لغرفته:

إن جئت هذا المساء عندي

وجدت، غير الهوى ووجدي،

صحناً من الحلو في انتظار

أطيب من سكر وشهد

وقد شربت شيئاً جميلاً

سجادة لي.. واللون وردي

وكنت أنا أيضاً أكتب له كل يوم. ولما كانت رسائله تنتهي كلها بـــ «المحب إلى الأبد»، ويتحدث أكثرها عن البيت والأطفال، والجنينة التي يحيطها سياج أطنابه هي ذاتها مورقة، ينضفر فيه الياسمين وزهر السلطان واللبلاب.. جعلت، أنا أيضاً، أدس في رسائلي إشارات عابرة عن رغبتي في أن أكون له كوناً أكمل من هذا الذي يعطي للعذارى، ولا يخلف غير الحرقات.. حتى أني عللت له، في إحدى الرسائل، غيابي بأني مخطوبة.. غير أنه، على ثقتي بفهمه الكثير، ظل يحيد عن الموضوع. كأنه أمه، ذات «الحجر - القنطار» هي التي قبعت في أهاب هذا الشاعر، الكثير الفنون!

ومع ذلك فما كانت هذه الأفكار تثقل علي دوماً. كنت أجد له العذر، لأن علي أن أتثقف، وأقرأ حتى أكون أكثر جدارة به!.. هذا على الأقل ما

جعله يتسرب من خلال أحاديثه ورسائله الكثيرة.. ولكن القراءة والفهم ذاتهما، ألا يحتاجان إلى مزيد من الحياة كما علمني هو أيضاً؟!.. كنت في بعض الأحيان أجدني في دنيا والكتب والدروس في دنيا أخرى. تظل هي واقفة على باب نفسي المغلقة، السكرانة، المتزوبعة، لا تستطيع الدخول!

لم تطل قطيعتنا.. هدأت عاصفة الرسالة بأسرع ما كنت أظن. أطفأتها حادثة بسيطة لم تلبث هي أيضاً أن خمدت: انسجن أخي رأفت أربعاً وعشرين ساعة على أثر شجار سكران في ملهى الفيردالونا.

قام البيت وقعد، اختلط حابله بنابله، أمسكت أمي رأسها بيديها خوفاً على سمعة البيت، حوقل أبي، تنهد الدرويش ورف بعينيه ثم غطس في صمته، بات زين العابدين عند المرأة الإنكليزية الاسترالية ليلتين متتابعتين.. كل هذا مر مثل الدوي الذي يحدث مدفع السحور في رمضان، دوي يعقبه صمت لا تعكره إلا دردبة كسلانة رتيبة، مملة، تتداح من طبلة المسحر، وصوته الناعس:

- وحدوا اللّه!

ورجعت أنا إلى حبيبي، إلى بيته البسيط، وغرفته التي لم يتغير فيها إلا كسوتها سجادة وردية ذات عروق خمرية... وبقيت أمه تضع غطاء الصلاة الأبيض على رأسها وتقعد، مرفقها إلى ركبتها والسيكارة في فمها، تتحدث عن بنات اليوم، الخفيفات... وأخته تصطاد القش، وأخوه يتذبذب بين العبوس والإقبال المتأجج علي! أما فريد فكان، كدأبه دائماً، غيوراً، لا يجمعني برفاقه ويخشى علي من كل شيء!

ومع ذلك فقد كانت تتسرب إلي من خلال السور الثقيل الذي ضربه حولي أصوات تشبه تلك التي تتدفع إلى أذنيك إذا أنت فتحت باب كاباريه فجأة ثم أغلقته:

- الديكتاتورية. شباب مثل الزهرات في السجون. حسني الزعيم. مظاهرات. الاستعمار.

وكنت في ذلك الحين معجبة بحسني الزعيم، فسألت فريد أن يحدثني قليلاً في آرائه السياسية فقال:

- أنا لا أريد أن أفرض عليك آراء معينة. يكفيني أن أكوّنك روحياً بحيث تستطيعين تمييز الصحيح من الزائف، ولكن ستظهر لك الأيام أن شعبنا يغلي.

ولم أجادله طويلاً لأنني بطبعي، أنفر من السياسة. كان فكري منصرفاً إلى خلق حبيبي،إلى تكوينه الروحي، إلى إلهامه. وفعلاً أثمرت مضابحتي في هذا الميدان لأن حبيبي بدأ يلمع، على الرغم من خمول منشئه، وكونه مجهولاً في الأوساط الراقية.

وهكذا بدأت الأيام تركض، أيام كثيرة الالوان، زاخرة. في أوقات المدرسة أهرب يومين أو ثلاثة من كل أسبوع وأمضي بعد الظهر عنده... أزوّر الوثائق وأكذب على الناظرة، وفي نهاية العام استقبل الرسوب بانكار مطلق للذات، وسمو كامل عما يهتم له سواد التلاميذ.

كنت أحياناً أشعر بكآبة ثقيلة حينما أرى محمد عبد الوهاب سعيداً بوردته البيضاء، وفريد الأطرش هانئاً في مغامراته الغرامية اللذيذة.. حتى أم كلثوم، بوجهها المربع، وحَوَلها الغليظ، وشفتيها السميكتين كالحراشف، كانت تظفر في نهاية كل فيلم بمحب وإكليل عرس وزغاريد صاخبة! ولكن يجب أن اعترف أن حماستي ليوسف السباعي وإحسان عبد القدوس وسهيل إدريس والمنفلوطي قد أخذت تتثلم. وليس معنى هذا أن هؤلاء الكتاب لم يعودوا يلذون لي ولكن أحادث فريد جعلت تنمّي في قلبي أشواقاً إلى أشياء أبعد مدى. أشياء لا أستطيع أن أدركها أو أحددها، ولكنها، على أية حال، لا تقتصر على هذه الرتابة الهزيلة في سرد أقاصيص الحب. ولا أزال أذكر بعض جلساتنا. كان فريد يقرأ لي في عمر الخيام وغوركي وأنطون تشيخوف وتوفيق الحكيم وبديع الزمان بين القبلات والأحلام والحديث عن الغد، فما كان أكثر ذهابنا مع الحزن والسرور!

ومرت أربع سنوات!

* * *

الفصل الثامن

وكنت مرة انتظره في بيتهم. كان الصيف في أواخره، وأشعة دافئة تتسلل من الشبابيك، تغمر الغرف، وتصل حتى الصوفة وكانت أخته في المطبخ، والأم جالسة على القاطع تقرأ القرآن. اعتذرت إلي وانكبت على تلاوتها في صوت مسموع. جلست قبل هذه الجلسة خطرات كثيرة.. وفي كل خطرة كان قلبي يخفق بمثل قلق لقائنا الأول.

وبينما كنت استمتع في تأمل هذا القلق الخصيب سمعت المفتاح يلعب في القفل، ومـــــا أسرع أن اندهق الباب ودخل فريد مثل الزوبعة، مصفقاً، مهللاً.. وحتى قبل تحيتي صاح:

- هاتوا بشارة يا بنات!

ورفعت الأم نظارتيها ونهضت:

- خير إن شا اللّه يا عين أمك.

قال وهو يفتح ذراعيه ويهم بضم أمه:

- أنا مسافر إلى باريس يا أم!

- الحمد للّه يا روح أمك. اللّه لا يحرمني هال القامة!

وهرعت الأخت من المطبخ، وجهها طلق مستبشر لا يسأل شيئاً، ولكنه ينقل بهجة الآخرين ويكتفي بها.. وانهالت عليه الأسئلة! ظننته مازحاً. ولكنني رأيت جواز السفر بين يديه الراقصتين من الفرح!

مسافر إلى باريس؟! وأنا التي تنتظر هنا، على هذا القاطع منذ.. أربع سنوات؟ ما سيكون من أمري؟ اندفق علي ماضي كله في لحظة خاطفة من

الزمان. أكان جاداً في كل ما قال وهمس وكتب ودغدغ؟! ألم أضيع نفسي وأثق وثوقاً أعمى، أصم، بليداً؟ أأحبني حقاً أم اتخذني درجة من درجات سلم لا ينتهي، مثل نعمة؟!

لولا بقية من حسّ اجتماعي لأقمت البيت واقعدته صياحاً وولولة.. وطفرت الدموع إلى عيني فقمت إلى غرفته.

لحقني.. وعلى السرير الحديدي، الذي تجاوره منضدة صغيرة قوائمها من المعدن، فوقها مصباح الرأس الذي أهديته إياه في آخر عيد ميلاد له، جعل يكفكف دموعي ويقول لي:

- أنا لا أسافر إلا لك. يجب علي أن أدرس. أنا رجل جاهل، لا أليق بك يا دلال . سأتعلم لك، وسأخزن الصور وأقطفها لك تصوري! إلى باريس، عاصمة الدنيا كلها. تصوري! السين، السين الذي تغني له الدنيا هذه الأغنية:

إنه يهدل، ينساب، ينساب

موفض الخطى نحو باريس!

ويأخذ يدي بين يده، ويدور بي في الغرفة مغنياً هازجاً، ثم لا يلبث أن يسحبني إلى السرير ويجلسني على حافته ويصيح:

- قولي لي أنك سعيدة!

فأجيب بين الدموع:

- ستكتب لي كل يوم.

- بل كل ساعة، كل دقيقة يا روحي.

ويروح يمسح دموعي براحته ويضمني إلى صدره:

- خيبت أملي فيك: ما كنت أظن أنك ستبكين. سنتعلم يا حبيبتي، ونشهد المسارح، ونكتب قصصاً، وننظم قصائد وملاحم. تبكين!؟ أنت تعلمين أن بكاءك يشتت شملي. أترين؟ لم أستطع بعد أن أخلق منك دلال التي أردت. توقعت أن تستقبلي البشارة بضحكة عريضة. أنت لي مهما تفرق بيننا الأيام.

الزمان!؟ إذا نحن أحببنا بكل جوارحنا، ماذا يكون؟ ألسنا نحن الذين نعطيه معناه؟ إنه يظلُّ بحبّنا، إلى يوم الحشر، طفلاً، فاتناً، شيطاناً، كثير الحركة!

وضحكتُ من بين العبرات، وغيبني في صدره وغرَّقني في قبلاته الملحة الطويلة، حتى خيل إلي أن لججاً من الضرام اللاهث المشبوب تهدر من حولي، وفي ضلوعي.. كان يهمس في أُذني أرق كلمات الحب والإخلاص...

في الفترة التي سبقت سفره، ولم تكن طويلة، ما انقطعت يوماً عن الذهاب إليه. تغيّر جوّ البيت. لم تعد أمه سيئة الخلق معي، وإن تكن السخرية على وجهها قد زادت انحفاراً. جعلت تدلي بنظريات جديدة في النساء. كانت تقول إن المرأة في بلادنا تعشق أول إنسان تقع عينها عليه، لا لأنها تخيرته تخيراً من بين الشعرات، أو لأن أهلها استنسبوه لها فوجدت فيه قدرهـــا الوحيد، ولكن لأنه أول رجل يعبر في حياتها. إن ما يقتلها هو الفراغ.. وهي تريد كيف ما كان أن تتزوج.. وإنه كان في بلدهم طبيب متزوج من واحدة المانية، ليست خفيفة مثل بنات اليوم والعياذ باللّه! كان هو سيء الخلق، شرساً، يضربها كلما دقّ الكوز للجرّة. ومع ذلك، كانت تحبُّه، ورضيت من أجل خاطره أن تضع منديلاً على وجهها مثل نسوان البلد!..

وتصمت قليلاً ثم لا تلبث أن تضيف:

- ربي ومنتهاي أرزق فريد بنت حلال من ظهر حلال فرنسية.كأن الجاهلة تعتقد أن في الدنيا بنت حلال أكثر مني، أنا الصابرة المعذبة المسكينة!.. ولكنني كم أكن أصيخ سمعاً لثرثرتها. كانت أذناي تزخران بعهودنا والكلمات العذاب التي كان حبيبي يزقّني بها:

أيذكرني حبيب القلب أم يسلو وينساني

وينسى ليلة التوديع آلامي وأشجاني

وقفنا تحت جنح الليل.. أهواه ويهواني

فكم من قبلة مبلولة بالدمع عاطاني..

وبين الدمع أضحكني، وبين الضحك أبكاني!

أحسست لفترة من الزمن أن أمامي هدفاً عظيماً يسوى الصبر والجهد والدموع. ويبدو أن علينا أن نمّحي، وأجدين لذة صوفية في أمحائنا، لكي يبني أحباؤنا علينا أمجادهم، فنشبه حجرة الأساس التي قوم عليها البنيان الجميل، تلك الحجرة التي لا تبيين للناظرين المعجبين!

في تلك الأيام القصيرة كان أشبه الأشياء بالعاصفة. يسدُّ عليّ الدروب ويلعب بي ولا يسمح لي بالقدر الذي يريده هو.. حينما يكون في سبيله إلى الصراخ والعويل والعصف والزمجرة في مجال آخر!

وكانت ليلة الوداع رائعة حقاً. ظللنا، سلوى وأنا، حتى منتصف الليل عندهم. وقد غمر هو المودعين والمودعات من الأهل والأصحاب بفيض من مراحه يكاد يكون عصبياً ولكنه غطى على مرارة الفراق.

وجاءت أخته المتزوجة بالبنيّتين الصغيرتين فأنامتهما، من المساء، في تختة. نامتا بثيابهما.. ولولا زوجان من الأحذية، أصغر من راحة اليد، يراهما الداخل إلى الغرفة عند قدمي التخت لتوهم أن ملاكين صغيرين راضيين ينامان قريري البال. وبدا لي أن هذه الليلة هربت من صفوف الزمان الطويلة.. كانت رضية خاطفة تشبه إلى حد بعيد ما يراه النائم أحياناً من حلم يمرُّ مثل اللمح ولكنه يترك نشوة أفعل في الخاطر من نشوة الخمر.. حتى أمه كانت تغض النظر إذا هي رأت قبلاتنا المسروقة، المبلولة بالدموع!

وفي صباح اليوم التالي أفقت مبكرة. لم أستطيع مرافقته إلى بيروت، ومع ذلك لبست أجمل ثيابي وأحبها إليه، وجعلت أدور في البيت عصبية، نزقة، وألاحق طوال اليوم في خيالي حركاته وتنقلاته.

* * *

يا للفراغ الذي تركه في قلبي، في حياتي!

ومرّ أسبوع. خيّل إليّ أني سأجن.. إلى أين أذهب؟ في الماضي كنت أخرج إلى النزهة فأراني عنده.. أحمل كتبي وأذهب إلى المدرسة فتقودني

قدماي إليه.. أمسك سماعة الهاتف لأركّب رقم رفيقة فأركب رقمه... فإلى أين أذهب الآن؟ ورقم هاتف من أركب؟.. وزاد همي ما كان ينشره رفاقه عنه، ولا سيما مقالة في «الندى» عنوانها «الحبيب المسافر»، كتبها سليم، أخوه. كانت أشبه الأشياء بقصيدة غنائية عميقة بما تتركه من رنين أسوان يتصل بلا نهائية الوجود نفسها. روى ذكريات ناعمة مثل بوسات الأطفال، وكيف أنه رأى «المسافر» حينما ولد، وعجب لكونه دون عينين..

لقد أبكتني مقالة سليم. ما أعظمه، بل ما أكبر قلبه! وطبيعي أن تنظر إليه رفقته بغير العين المحبّة العارفة البعيدة التي انظر بها أنا. لفت نظري مثلاً مقال ضاحك كتبه سليمان الخاتر، في «الندى» يقول فيه:

«أنا لا أماري في أن الصديق فريد موفد في مهمة رسمية.. من الجامعة السورية. ولكن ما أراه أنه هو الذي أوفد نفسه.. لعله ولع بالخروج، كما يقول الفلاسفة، من جلد الذات! وعلى أية حال يظل ثمة سؤال وارداً: إلى أين؟ أنا لا أشك في إعجاب شاعرنا بدولة الرئيس الزعيم! قد يكون السر كامناً في هذا الإعجاب.. يهرب من البلاد لينشد الأجانب الغافلين الملاحمَ التي نخوضها! أما حياة شاعرنا الأخرى تلك التي يحمل فيها مصباح ديوجين للتفتيش عن ربة شعر له، حلوة، لطيفة، تضمُّ الشعر ودفء الشفتين جميعاً فأحسبها هي أيضاً قد كانت سبباً في هذا الخروج من جلد الذات.. وفخار يطبّش بعضه، اللّهم اعف عنا و.. إلى الامام نحو بلاد الغزل الأصلي والحكي الظريف الفرنساوي واللّه أعلم!»

أيريد أن يزعم أني لم أكن ربة شعره الحلوة اللطيفة التي تضمُّ الشاعرية ودفء الشفتين جميعاً؟ حمار!.. ماذا يعلم من قصتنا!؟

ولكن الذي أقلقني أني كنت أذهب يومياً إلى شباك البريد فلا أجد رسالة في انتظاري. كنت أعود مكسورة القلب، ولكني كنت أخفي ما بي! كان يخيل إلي أن في نظرات الناس معنى من الإعجاب لا حدّ له: هذه هي الصابرة التي لم تخفْ من التضحية.. مثل جان دارك، رضيت أن تلتهمها النيران في سبيل صوت يأتيها من وراء الغيوب، من وراء السدود والحدود!

ومع ذلك فما من رسالة!

ضحيّة مختارة!؟.. كان هو يعتقد أن كل إنسان، مهما يكن شأنه، غايةٌ في حد ذاته. وأنا ألست إنساناً؟

أتراه كتب ولم تصل بعد رسائله؟! خابرت أخاه. أجابني بصوت محتف شديد التهذيب:

- أهلاً وسهلاً آنسة دلال. أرجو أن تكوني في خير. هل أستطيع أن أقدم لك خدمة؟

أجبت في صوت متقطع، متهدج:

- لا، أستاذ سليم شكراً.. كنت، يعني، أردت أن أسأل حضرتك.. أقول، لا أريد ازعاجك، بس قصدي.. هل أخذت رسائل من فريد؟!

- نعم يا آنسة. استلمت أربعة مكاتيب. كتب إلي من كل المحطات الجوية ومن باريس أيضاً. أتمنى أن تتفضلي بزيارتنا.. لا تقولي فريد راح. البيت بيتك يا آنسة دلال. أنت قيمتك عندنا كبيرة. نحن في انتظارك أليس كذلك؟

ولما أغلقت الخط شعرت لهذا الكلام الظريف مذاقاً طيباً في فمي. لقد أربكني وجعلني اضطرب في حشاشة الحشاشة.. كان صوتاً نضاجاً بالرجولة، الرجولة التي تعطي، تعطي، تعطي!..

المقالة، ثم هذه الحفاوة، والحرارة في الصوت!؟ أهذا هو الشاب المغلق الذي عرفته في الماضي؟! شعرت أني وجهها لوجه أنا والسر، واللغز.. السر! أليست حياتنا كلها كفاحاً موصولاً في سبيل غزوه، سبيه، الانتصار عليه!؟

يا للعجب!

* * *

الفصل التاسع

ولكن ما حيلتي في هذا الفراغ؟ أربعة مكاتيب إلى أخيه! أربعة؟!

أنا لا أزال ضائعة، وما من مكتوب يأتيني إلي أنا.. كنت أحس أن الحنين يذوّبني، يقتلني، الحنين إلى الغرفة الصغيرة ذات السرير الحديدي الصغير والمكتبة الحاشدة، والسجف التي عطلت من الرسوم والتصاوير في حين حليت الجدران.. كانت قوة خفية أقوى من صبري وشكوكي تدفعني إلى رؤية غرفتنا، فذهبت..

لم يكن في الدار إلا سليم. لما فتح الباب اندفعت دون أن أكلمه إلى غرفتنا ذات الأحلام والهدهدات، وانكفأت على سريرنا أبكي. ولحق بي سليم ووقف صامتاً.. ثم لم ألبث أن شعرت بيد رقيقة تمسح على شعري، فزاد بكائي. تذكرت كل شيء! انتصب الماضي كله، أربع سنوات من زهرة أيامي، قدام عيني.. ماض انكتب في سطرين، أو كلمتين: يا للبائسة!»... لقد فجرت هذه اليد الحانية الرقيقة في وجداني القروح، وسمعتني أنشج:

- أنا بائسة يا أستاذ سليم، بائسة حتى لب العظام، تعيسة. أنا انتهيت!

فقال سليم في صوت دافيء حنون:

- أتظنين! يجب أن تكوني أكثر شجاعة يا آنسة. إذا كنت محبة حقاً تغير مفهوم الزمان عندك، وانضغطت الأيام، أيام البعاد!.

كان هو أيضاً أديباً، شعاعي القلم، يتلقف القراء ما يكتب كما تفعل الورود بأنفاس الندى... ورفعت عيني الدامعتين إلى وجهه.. كان وسيماً، وديعاً، تتحدر خصلة سبطة فاحمة على جبينه الوضاح. ولم أطل النظر إليه بل عدت لانكفائي على السرير. قلت:

- الزمان، الزمان لا تذكرني بالزمان، آه يا زمان! ما الزمان يا أستاذ سليم؟!.. إنه لص، حرامي حقيقي، اعذرني أرجوك! ألم يسرقه من بين يدي، الحبيب المسافر!؟

فقال باسماً:

- أنت فتاة عظيمة، صبور. لا تبكي!

فقلت في حرقة:

- أتقول لي أنت نفسك هذا الكلام! إذن لماذا بكيت في مقالك الأخير: «الحبيب المسافر»، بكيت وأبكيت؟ أواه! كل شيء يذكرني به الحبيب الغائب. المكتبة الحاشدة، المصباح الصغير.. المصباح! أرجوك يا أستاذ سليم أخفوه عني. هذا ظلم، خبئوه، لا! هذه قسوة أن تدعوه أمامي.. الحبيب، الحبيب! أهديته إياه يوم ميلاده، الحبيب المسافر! ما كان أشد فرحه به. أخذ ينطنط كالأرنب ويقبلني (هنا أطرقت خجلاً). كان يقبلني في كل مكان.. من وجهي ويدي وعنقي، ويردد: «حياتي! سأحبك طول عمري يا دلال، يا دلالي، إلى الأبد»... سافر! آه يا قلبي، ثلاث سنوات! لن أصبر على فراقه ثلاثة أيام، وأراني أذوي، أجف، أذبل، أجن، أموت... أنا ميتة!

فقال لي سليم مضطرباً:

- لا تبكي أرجوك. تصوري أذن بلواي أنا في فراقه. لم نفترق من قبل أبداً. رأيته يولد مثل الشوندرة المسلوقة. لم تكن له عينان، وكان أنفه مثل الثؤلولة. ومنذ ذلك الحين اقتسمنا الحلو والمر. ظللنا مرة ثمانية أيام دون خبز، وأكلنا مرة أخرى جدياً مكتنفاً وحدنا. شق رأسي بحجر حاد، وقبلني.. أصبنا بأبينا معاً، وسلوناه معاً. لما عرفك كنت أغبطه عليك. كان يحبك، لا تبكي. آخر كلمة قالها لي وهو يصعد سلم الباخرة: «أوصيك بدلال!» لا تحزني، سيكتب لك كل أسبوع. لقد قال لي ذلك. اقسم!

صحت منفعلة: - كل أسبوع؟ القاسي! وعدني أن يكتب كل يوم! آه يا قلبي المسكين... كل أسبوع؟!

قال مستدركاً:

- كل يوم، اعذريني أنا مضطرب. لقد قال لي كل يوم!

- مرتين!

- مرتين.

قلت في حسرة:

- رسائل! ماذا تصنع الرسائل. غداً ينساني. إنه في فرنسا، بلد النسوة الجميلات. سينساني. ولكن هذا لا يهمني. سأحبه طول عمري. لن أكف عن حبه حتى أموت.

- لن ينساك!

- من كل بد لن ينساني، من أين يجيء بفتاة في مثل إخلاصي، صرت ابنة البيت!

كان يطرق مكتئباً! ما أقسى أن ينظر الإنسان إلى ملامح الرجولة البادية، وهي كامدة قاتمة. كان بعيد ما بين المنكبين، مفتوح الصدر، مهيمناً كالقدر. وقلت له:

- هل أنت حزين؟

- بعض الشيء. لم يسبق لنا أن افترقنا.

- لقد علمني الحب.. إذا كنت أحسنه الآن فالفضل له، الحبيب الغالي. أصبحت أحب الحب، الحب للحب. لو أردت الزواج لكان لي حتى الآن عشرون زوجاً، أردت أن أقول خطيباً، ولكنني إنسانة روح. أهيم بالشعر والشعراء، والأدب والأدباء، ولذلك أحببت الحب.

قال باسماً:

- هذا، على كل حال، نصر.. خير من لا شيء!

قلت في حرارة:

- الحب نعمة. أنا لا أستطيع العيش بدونه. كان ينظم لي أشعاراً تشعل الغيرة في صدور رفيقاتي كلهن.. أنت يا أستاذ سليم تعجبني، تشبه فارس أحلامي الأسمر..

- عفواً؟

فمسست طرته المتمردة في ذهول:

- لا شيء. ولكن، أنت لا تستطيع أن تتصور معنى أن تحب الفتاة شاعراً. أنت تعجبني ولكنك لست شاعراً، أنت!

وبدا مفكراً، أكاد أقول مكتئباً. وخفت أن أزيد في أحزانه فأمسكت يده معزية، وإذا هو يتشبث بها ويضغطها في حرارة قال:

- لا تبكي يا دلال، أرجوك!

صحت:

- أناديتني باسمي مجرداً؟

- نحن مثل الأخوة!

سمعت جملته الأخيرة كأنها تأتيني من مكان سحيق، خيل إلي أنها ضعيفة واهنة، أرخاها إرخاءً! وكانت يدي لا تزال في يده، وقلبي يخفق في شدة لست أدري لماذا، ورفعت نظري إليه مرة أخرى. كان يحدق فيَّ في عذوبة ولهفة.. النظرة المهيمنة التي لا تقهر نفسها. وإذا أنا أجدني، بغتة، أنتر يدي منه واثب على رقبته، وقد انبجست آلامي وأشواقي على أشدها، وأقول له:

- يا عزيزي سليم أنا خلقت للاخلاص، للعهود، للعهود، أحب الحب..كانت له رائحة عاصفة، تكاد تسلمك إلى ما يشبه سكرة النغم. لم يكن به عطر، و لكنه عبق الرجولة الكاسر.. وشددته إلى صدري!

وسمعته يقول في شبه همس:

- وفريد، في كل هذا؟

فسمعت صوتي متهدجاً، لاهثاً، مفتوناً، كأنه ليس لي:

- أحبه. أنا ما أحببت إلاه. أنت يعجبني طرتك العاصية، وشعر صدرك الكث وشارباك الفاحمان. هذا كل ما في الأمر. أحبه، أحبه.

وإذا هو يقوم بجهد يحاول به أن يتخلص من بين ذراعي:

- وما شأني أنا في هذه القصة؟ ولماذا ورطتني؟

فتشبثت به وأنا أنتحب:

- لا تكن غبياً. افهمني. أنا خلقت للحب. لو قسمت عواطفي على سكان الأرض لبقي لي ما أحب به سكان السماء. تعال، لا تكن أحمق، أني أجن، أموت، آه يا قلبي، إني ميتة.

قال، ولا يزال في صوته بعض التردد:

- أنا لا أفهم شيئاً. في حياتي لم يحدث لي مثل هذه القصة. كيف أخون أخي؟

صرخت:

- أحمق! ومن قال لك خنه؟ ومن قال لك أني أحبك؟ أنا خلقت للعهود، للإخلاص! طرتك وصدرك الكث، هذا كل ما في الأمر. غبي، غبي! يشك في أمانتي! أتصدق أني أحب سواك، سواه يا مجنون؟ الحبيب، الغائب، المسافر! كم أحبه. أحبه فيك وأحبك فيه، بل أحب واحدكما في الآخر، أحبه... أحبك!

واندفعنا بعضنا إلى بعض، واحتدمنا في عناق طويل.. محموم!

كنت أقوى منه. ولما هدأت عاصفة قلبينا العاشقين راح واحدنا ينهب الآخر نظراً ووجداً. قلت وأنا أتلع له عنقي المديد البض:

- سليم، حياتي، ألم يكن يجننك هذا؟

قال ضاحكاً:

- أنت جننت أجدادي!

بين يديه ذقت ما يشبه خمار القبلة الأولى بكل ما في هذه من كشف لأستار الغيب في نفوسنا، من ذهاب إلى اللا مكان واللا زمان في حيث لا يسمع المرء إلا زمزمة السُدُم في الكون المحدود بلا حدود!

ما أعظم ما أحببته! بل ما أعظم هذه الرحلة التي بدأتها في مجاهل نفسه الشاسعة الغنية. تعاهدنا على الإخلاص. كانت فيه غفلة مثل غفلة الأطفال الصغار، وأجوبة تفاجئك حتى تدهشك بقربها وبعدها. كنت أقول له:

- قل لي يا سليم، ما هو الحب؟ هل تستطيع أن تعرفه لي! إنه عندي امتزاج خلاق، وصهر مبدع في ذات المحبوب، فإذا الاثنان في واحد، وإذا أنت تتلمس نفسك، بل وتقرصها لكثرة ما تندمج الذاتان، الواحدة في الأخرى...

فيسكتني ضاحكاً:

- بهدلك فريد وانتهى الأمر. ما أبشع أن تفلسف النسوان! الحب يا مجنونة هو هاتان الشفتان المحمومتان، وهذا الجسد الصبي الذي ينجدل فيه الخمر مع الندى والعافية. اخرسي، لا تفلسفي أبداً. لست أدري، حينما أسمع امرأة تعقل الأمور وتقلبّها، لماذا أذكر تلك البدوية التي طلب إليها حبيبها الحضري أن تغنج له مثل بنات المدينة، وكانا يلتقيان على خشبة، وإذا هي تصرخ في صوت معول مقلوب: أوه يلعن أبوك، أوه يلعن أبوك... فيثب عليها الرجل وينحدر إلى قدميها راكعاً متوسلاً، من أجل خاطر جميع الأولياء الصالحين، أن تكف عن... الغناج.

غير أن هذه النظرة المادية، كدت أقول الحيوانية، إلى المرأة والجمال والمحبة لم تكن لديه إلا قناعاً يخفي به لوباناً هائلاً مزمجراً في روحه المترامية الأطراف. كنت أتقرى هذا اللوبان مفتونة، ولم تُصبْ عواصف الحس من قلبي الكبير وصفائي الشفاف مقتلاً. أردت أن أسمو به، أن أنبش عن السليم الإلهي المختبيء تحت الف فلزة من تراب، طبَّقها فوقه مجتمع خاسر.

وجعلت الغشاوة تتساقط سدولها عن عيني. اكتشفت أني عشقته من النظرة الأولى.. حينما جئت منزلهم أول مرة، ولكني كنت مغلولة اليدين، لا أملك أكثر من أن أشد على يده في حزازة، قل في تشف وتحد. وعرفت سر تجهمه في الماضي أغلب الأحيان... كان هو أيضاً يهواني، يريدني في تصميم فحل، صلب لا يقاوم.

* * *

الفصل العاشر

لم يكن يحبسني في غيرته، كما فعل الآخر. لقد فتح لي باب القفص الذهبي، وأطلقني في الناس، فأصابني ما يصيب السجين حينما يخرج إلى الضياء. تبلبلت أول الأمر، ولكن سرعان ما ألفت الأجواء التي جعلتني اضطرب فيها.

كان يعمل في جريدة يومية، في بوابة الصالحية، تحتل جناحاً من الطابق الثاني، وقبالة مدخلها مكتب لمحام فتى. والجريدة فريدة في بابها. كل ما فيها طريف. الآذنون، قلم التحرير، صاحب الصحيفة. كانت الدروج تحوي، بدل المحفوظات والوثائق، قناني وأقداحاً وحتى بسطرمة ونقانق!

والمعروف أن الدائنين في كل بلاد اللّه، إذا أراد المديون صرفهم عمد إلى التي هي أحسن، بل وقد يتلطف بهم وينافق لهم.. أما في جريدة «الندى» فكان الدائن يجيء على استحياء، كأنه يأتي لتسجيل طلبه لا غير، على حد تعبير سليم، يشم الأخبار الحسنة التي لا تأتي أبداً. ثم إنه لا يجرؤ على الدخول على صاحب الجريدة في مكتب الرابض في صدر الطابق. بل يدلف إلى غرفة التحرير حيث الخلق قائمون قاعدون، وموظف الراديو يفتح جهازه على آخره، والآذنون يختلطون بالمحررين، ورئيس التحرير يسبُّ المحرر، وسليم في زاوية بعيدة، يكتب في استغراق حلو أمام تلال من الأوراق البيضاء، وتحت زجاج مكتبه صور نساء عاريات ومناظر جميلة وكاريكاتور لمكسيم غوركي... ويسأل الديان في ذلة:

- الأستاذ هنا؟

فلا يجيبه أحد، ولا يتلفت إليه أحد، ولا يلبث هو أيضاً أن يغرق في الجو ويروح يتحدث مع المتحدثين ويجادل في السياسة والأدب. وقد يلقي إليه المحرر، سليمان الخاتر، بمسودة ممزقة قائلاً في إهمال:

- خذ بيِّض لنا هالخبر!

ولعل هذا الاختلاط بالمتحدثين هو السبيل الوحيدة التي تعيد إلى الديان اعتباره وتخفف من وحشته وانكساره، ولعله هو كل ما يغنم! إن كان في ذلك مغنم!

أول مرة ذهبت فيها إلى الجريدة أشاع وجودي نوعاً من البلبال الذي نشهده في مجتمعاتنا، نسائية كانت أو رجالية، عندما تضم مخلوقاً من الجنس الآخر. أما رئيس التحرير، وهو فتى مليح، مدور الوجه، سمين، أخضر العينين، ألثغ، له فَرق في وسط رأسه الأجعد الذي يبدو كأنه مكوي، ويدان ناعمتان.. فقد لزم منضدته الواسعة، وتكبَّش، واتخذ وضعية الرجال ذوي الحيثية والخطر، حتى أن الناظر إليه يرجح أنه منصرف إلى الوضع أكثر من انصرافه إلى جدواه.

وأما سليمان الخاتر فقد انحسر، هو أيضاً، إلى مكتبه وهو يلملم ورقة كانت يده.

وساد صمت قطعه سليم بأن قدمني إلى الجماعة:

- الآنسة دلال، أديبة.

وفرقعتْ ضحكة مني طويلة، صاخبة وقلت:

- لا تبالغ يا شيخ!

ولم أدر لماذا... فقد رأيت الثلاثة ينظر واحدهم في الآخر بحواجب شائلة، ولم يلبث سليم أن أخذ يرف بعينيه ويفتل وجهه كمن تلقى ضربة ثم.. انفجر الثلاثة ضاحكين معي. وقال سليمان الخاتر وهو يقبل علي مفتوح الذراعين وورقته لا تزال في يده:

- إي تقبري عظامي. يوه، على قامتي أن شا اللّه! أنت من جماعتنا إذن!

وغمغم سليم:

- ورصاص يفك زورك! يلعن أبوك...

ورنّ رئيس التحرير الجرس فدخل آذن شاحب نحيل، عجوز يتمتم، أغلب الظن بأوردة وأدعية.. فقال رئيس التحرير:

- قهوة على حسابي للجميع يا أبو إبراهيم!

وقال الآذن معتذراً:

- سيدي ما فيه قهوة.

- اشترِ، العمى!

وثّنى سليمان:

- لكْ، لكْ، اشتروا يا أخوان، اشتروا.

فانسحب الآذن وعلى وجهه إمارات الحيرة، وسليمان يتبعه ذراعاه مثنيتان مهددتان مثل الغوريلا وعيناه مقلوبتان في حَوَل مصطنع يميت من الضحك... إلى أن أوصله إلى الباب.

كان سليمان مدور الوجه قليلاً، أفطس الأنف، عذب الابتسامة.

قال سليم:

- لا تزعجك بشاعته. إنه ظريف. وأظن أن دلال توافق على نظريتي في أن القبيح الطيب ينعكس طيبه على ملامحه المنفرة فيخفيها!

فدمدم سليمان حانقاً:

- يخفيك ضريب. يعني جناب رودولف فالنتينو لا يعجبه العجب!

وقال سليم:

- لماذا لا تكمل لنا مقالتك. أعدها حتى تسمعها دلال من الأول. هذه مقالة أوحتها لسليمان حادثة معينة. هل سمعتِ بنمر نادي الضباط؟ نمر

مريض أراد رئيس الدولة الزعيم التخلص منه فأهداه إلى حديقة المنشية وأوعز إلى الصحافة أن تكتب عن الهبة العظيمة.. وقد كتب سليمان مقالة حشاها دساً ناعماً مبطناً.

وقال رئيس التحرير مضخماً الكلمات:

- سبقه إلى ذلك جان دولا فونتين في خرافاته. كان يسلق الرقيب والملك ولا يدع لإنسان مجالاً للنيل منه.

وقلت أنا في تدلع:

- إي أستاذ سليمان، اقرأ لنا مقالتك.

- إي على راسي يا تقبري عظامي. أنا فكري اسميك تقبري عظامي. ما قولكم! هذا لا يهم، نكمّل المقال. العنوان يا تشكلي آسي: «النمر».

وهنا رن جرس الهاتف على مكتب رئيس التحرير، فأمسك السماعة:

- لا يا داد! من أجل فراغ الثالثة، عندنا مقال من الدعاية والأنباء حطه... صورة الزعيم لا بأس نزلها في الأولى.. حط إعلان بونتياك... أخذوه؟! طيب أطلبه من جريدة «الزمن»، ضعهم أمام الأمر الواقع، ما عندنا غير إعلانين...

ونرفز سليمان.

- إي العمى هذا وقتها؟ بدنا نقرأ المقال!

قال سليم:

- اقرأ.

وبدأ سليمان يقرأ مقالته:

«تلطف حضرة صاحب الدولة، الزعيم الرئيس، حباً منه في إدخال السرور على قلب الشعب الدمشقي النبيل، فأهدى إليه نمراً من النوع الذي ندر وجوده في هذه الأيام السود، الفقيرة بالنمور الحقيقية. ولانكتم القراء الأكارم أن طبيباً بيطرياً فهيماً جداً أفضى إلينا لهذه المناسبة بسر شيق حصلنا عليه بوسائلنا الصحافية الخاصة، لا نريد أن نحرم القراء منه، مفاده أن النمر

المشار إليه متحدر من سلالة، قد بدأت تنفرض الآن، هي صفوة الصفوة في النبالة النمورية. ويمكن أن يقال أنه ولد في بيت الإمارة ورضع من لبانها. كان المرحوم جده الأعلى في صوماطرة يكمن للحيوانات التي ترد الينابيع فيثب عليها. ويروي أهالي المنطقة أن أكثر ضحايا المرحوم كان بسبب الرعب الشديد.. لأن صوته كان جهورياً فظيعاً.

«والحقيقة أن صاحب الدولة أطال اللّه بقاه وأيده بحبل من اللّه وحبل من الرسول قد أقدم على حرمان نادي الضباط نفسه من هذه العجيبة وتخصيصها لمحافظة مدينة دمشق الممتازة، مع أن النمر كان لا يكلف النادي أكثر من مئة وخمسين ليرة سورية ثمن سودة وبيض غنم ونخاعات (نكرر أنه من أشراف النمورة).

«وليس صحيحاً أن النمر، ولنسمه من الآن فصاعداً النمر النبيل، مشمئز من الأوضاع الحاضرة... في المنشية حيث يثوي الآن، أو أنه مريض. هذا إفك. إنه ليس مريضاً. إنه نحيف لا غير، والنحافة، كما يجب أن يعلم الجميع، صفة أصيلة في هذا الفخذ من الأسرة النمورية التي أسلفنا الحديث عنها. وما عسى أن يفعل شعبنا الدمشقي النبيل، دخيل اللّه، بنمر سمين مترهل، لا ينقطع عن اللهاث أثر حركة أو حركتين يقوم بهما لإمتاع الجمهور الشامي النبيل. إن نمراً سميناً قد يكلف غالياً. فمن حبوب روش إلى حمية، إلى مياه معدنية إلى... ناهيك بأن من العسير علينا أن نجد له نمره، من مثل أرومته، ترضى به حليلاً، مما قد يفسد أخلاقه، والعياذ باللّه ويزيد في مشاكلنا! ومن هنا جاءت اللفتة الكريمة من دولة الرئيس بادية الرشاد، لا غبار عليها البتة.

«إن هذا النمر النبيل سيكون، لا شك، مقدمة لحديقة حيوانات هائلة تنافس حديقة القاهرة وربما برلين ولندن.

«ملاحظة إلى الجمهور الكريم: يرجى الصبيان عدم إدخال العصي إلى قفص النمر النبيل قصد المزاح معه. عيب نخس النمورة بالعصي والخيزرانات يا أولاد! نحن لا نقول مع المرجفين ودعاة السوء، أعداء العهد

الحاضر، أن النمر قد يموت من مجرد المزاح نظراً لهزاله. ولكننا نخاف أن يفقع ويموت من قهره، لما لنبالته من حساسة شديدة، ولانحطاط عملية إدخال العضي في مكان ما من جسده، كما لاحظ حارس حديقة الحيوان الجديدة بحق، واللّه من وراء القصد!»

كان يقطع المقالة ضحك صاخب. قال سليم:

- يخرب بيتك. واللّه هذا يجرنا كلنا إلى الحبس.

قال سليمان مدهوشاً:

- ليش سيدي؟ يعني الصحف التي نشرت الخبر كانت أقل سفاهة مني! رح اقرأ جريدة «الحقيقة». لقد نشرت خبر النمر في الصفحة الأولى على خمسة أعمدة.

وسأل سليم في مكر:

- مع صورة النمر النبيل؟

- لا ما هو معقول! أتريد أن ينفضح العهد تماماً؟ - لماذا!؟ إن نظريتك في النحافة لا غبار عليها!! - يا إخوان إرفعوا المزح، هل رأيتم النمر؟ هل رأيتيه يا تقبري عظامي؟ كان يضع يده على أنفه كأنه قرفان من العهد!..

* * *

راق لي الجو في الجريدة، وامتدت معارفي إلى أصدقائها من الكتاب والشعراء والفنانين. وفيها عرفت سامي وروحي وجورج وسعيد. لقد بدا لي أني أصبحت سبباً من أسباب وجود هذه الجماعة، إذا شئت المنارةَ التي تتعلق بها الأبصار. كنت أسرح وأمرح كما أشاء وانشر الفتنة واللهفة. وكثيراً ما كنت آتي فأجد الجريدة متأخرة وأبا أحمد عامل المطبعة، يطلب مواد بإلحاح فما أن أضع قدمي في المكتب حتى نسلق المواد في أقل وقت ممكن ثم ننصرف إلى شؤوننا وأحاديثنا.

ومرة كنت وحدي في المكتب، وجاء أبو أحمد يطلب مواد فأخبرته أن المحررين لم يأتوا بعد، فانفتل في بطء وقصد الباب. خيل إلي أن في فمه

كلاماً. ولكنه مضى ولم يقل شيئاً، حتى إذا أوشك أن يبلغ الباب عاد، مثل طفل مذنب، ووقف أمامي مطرقاً، صامتاً، دقيقة طويلة. كان عملاقاً عريض المنكبين، غليظ الشفتين، وديعاً خفيض الصوت. قلت له في رقة:

- فية شيء يا أبو أحمد؟

فطرف بعينيه وزاد إطراقه، ثم أفلت من بين شفيته، في كثير من الحياء:

- آنسة دلال، أنت... أنت حلوة!

قال الكلمتين الأخيرتين في نَفس واحد ثم أطلق ساقيه للريح، تلحقه ضحكتي المديدة! لماذا هو خائف؟

ولما رويت لسليم ما جرى لي قال في لا مبالاة:

- لم يأت دوره بعد!

ولم أعن طويلاً بما قصد لأن حوادث من هذا النوع تطربني حتى الخدر. ما أجمل أن نزرع الآهات في دروبنا! وفي الأغوار من روحي كنت أجد عسراً في مدافعة صورة أبي أحمد، بقامته الباسقة، يقف أمامي مثل طفل خجول، مطرقاً، لا يقول شيئاً. صورة تجعلني أختلج حتى رؤوس الأظافر.

وعلى مر الأيام أصبحت لا غنى لأحد في المكتب عني.. صار رئيس التحرير يشغّلني، وأطبخ القهوة، وانفض المكاتب، وانسخ المقالات وأساعد عامل الراديو. وقد يحدث أن أطبخ لهم طعاماً وهم يهزجون ويشكرونني في صيحات ضاحكة.

وكنت أتألق يوماً بعد يوم وأستشعر في نفسي طفولة جديدة، بل ولادة جديدة. وكلما خلوت إلى واحد من العشيرة أفضى إلي بمشاكله وباح لي بذات نفسه فكنت لا أضن بعطف، ولا أبخل بعزاء، فأضم إلى الصدر، وأبكي مع الباكين، وأنصح الذين يتخبطون في مآزق عسيرة. لقد انطلقت وإذا في برديّ نفحة من النبوة، ناهيك بالجمال المشبوب والألق الناعم!

* * *

الفصل الحادي عشر

مرّة مرض سليم. أصابه نزيف كشف عن قرحة في الأمعاء. طار عقلي وجعلت مستشفى «الأصدقاء» بيتي، لا أغادره إلا لأشتري له أزهاراً وصحفاً. والمستشفى خاص، فريد بين المستشفيات. فأنت لا تعرف الأطباء، من الزوار، من المرضى. وقد يخطر في بال شخص من قارعة الطريق أن يصعد درج المستشفى، ويقصد غرفة الطبيب ويذهب إلى جهاز الهاتف، هكذا لا حاضر ولا دستور، ويتلفن لحبيبته.. وقد تحسبه الممرضات صاحب الطبيب والطبيب زبوناً. وعلى أية حال لا هذا ولا أولئك مستعدون لزجره. لأن الطبيب، صاحب المستشفى - وهو فتى طوال من النوع الذي تحبه النساء البلديات - مشغول أبداً بالسياسة، بالتأليف، بالتهويل على المريضات ومغازلتهن وإقناعهن بأن الشفاء متوقف على إطالة الإقامة في مستشفاه. وكلّهن يطيل الإقامة، وكلهن يتأمل أن يخرج من المستشفى إلى المحكمة الشرعية! وإما الممرضات فكن، على خلاف زميلاتهن في كل بلاد اللّه، لا يلبسن الثياب البيضاء، أو يضعن الطاقيات التي تشبه الحمائم الناصعة بل يتفتّلن بأرواب مصبَّغة فاضحة الألوان. ويظهر أنهن كلهن من القرويات اللاتي ضللن الطريق في المدينة، لذلك كنّ يسرفن في صبغ شفاههن ولزق الأبيض على وجوههن. وهن يتفنن باتخاذ الوضعيات، مثل رقاصات الدرجة العاشرة، في «المسمار» أو «النصر»، حينما يقفن أمام المصور! وقد تقف في حجرة الممرضات ساعة وتكون إحداهن جالسة إلى المكتب في يدها مرآة صغيرة والرميل قد صلّب رموش عينيها.. فلا تلتفت إليك، ولا تعنى بك كأنها تمثال من الجبس مختلطة ألوانه... وفي الأروقة كنت تسمع الوشوشات و... الآهات، وتشم عطراً يصيب رأسك بالصداع!.. كل هذا يحملك على أن

تتساءل: أأنا في مستشفى أم في دار للحريم، في قصة من قصص بغداد القديمة!..

وهكذا، فقد أصبحت غرفة سليم هي أيضاً شيئاً عجيباً، منتدى أدبياً. علق على الحيطان «النهود ذات الورود الحمراء» لغوغان، و«الموسيقيون» لبيكاسو و«الشرهة» لتولوز لوتريك، ولوحات أخرى للونان وفان غوغ. وعلى منضدة الرأس الصغيرة، بين زجاجات وحناجير الأدوية قبع مكسيم غوركي صغير، ضخم الشاربين، قويُّ النظرة.

في هذا الإطار كانت ترن الأشعار، وتقرأ المقالات.. وحمل غسان الصباغ وهو فتى صغير العينين، شفتاه ناضجتان، فيهما بلل دائم وشبه دعاء لقبلة، حمل أكورديونه وسكن المستشفى لا يكاد ينقطع عن العزف سحابة اليوم.. وكان جورج زيات يجيء بمقالات سياسية يقرؤها متجهماً عابساً. وهو شاب نحيل، شاحب يقلقل القاف، ولا يعرف الهزل. إذا غزته فكرة لاذ بالصمت وراح يعبث بأحد شاربيه الفاحمين ويعركه عركاً عصبياً ثم لا يلبث أن يطلق ضحكة قاحلة مدوية ويقول:مرة كنا في اللاذقية...

وأما سعيد الخص فكان قصيراً، ذا عينين واسعتين تغزلان في وقبيهما غزلاً ذكياً، قلْ تضيئان درب صاحبهما بنور أشهل! وكان إذا أعجبه شيء أو نفره تهدلت رموش عينيه الوطف قليلاً وصاح:

- فظاعة يحرق دين الـــ...

كانت حماسته تنزع إلى تكون قبلية بعض الشيء، إذا جاز التعبير، لأنه ما كان يندفع إلا متأخراً.. وحينما يتعلق الأمر بما يقلق الجماعة أو يفرحها. وكان من عادته أن يمد يداً خفيفة كاللص إلى جيب سترته الداخلي الصغير، وينسل سيكارة أميركية.. وإذا يد أخرى، كالباشق، تحوّم في الجو ثم تنقض على الجيب وتخطف السيكارة آمنة مطمئنة. وتكون هذه يد روحي المفتي، شاعر الجماعة، في حوالي الخامسة والعشرين، أجش الصوت، جاحظ، معوج الأنف، رقيق، ينشر حوله أنساً ورحمة كالأمهات.. كان يلقي أشعاراً لطيفة يتخير لها أوزاناً سهلة، تتحدث عن أطفال يحفرون أسماءهم

على جذوع الأشجار، وفتيات يلبسن البرانس وتنضمُّ شفاههن في فتنة وإغراء.

ولكنْ، من بين هذه الشلة الغريبة المتنافرة الملتحمة، كان سامي الحوراني يلفت نظري أكثر من يلفت. كان حينما يتكلم يبسط يديه بإشارات ترى مثلها على المسرح.. كنت تلمح في وجهه بريقاً مؤنساً يطمئنك فينسيك فمه الكبير وشعره المبرغل، مثل شعر الزنوج، وسمرته الشاحبة وإحدى أسنانه المكسورة. كان يقول:

.. ولكن في باريس تجدون كل هذا. في باريس تنصبُّ مطامح الإنسانية كلها وتروى ملحمتها. ترون كيف يتعلم الناس الفن في كل مكان، في الشوارع، في الحدائق العامة، في المتاحف... وقد أقول في علب الليل..

يلفظ هذه الجملة الأخيرة بالفرنسية ويتابع:

- يجب أن ننهض بالفن، ولا سيما السينما، هذا الفن السابع، نقداً وصناعة، أن نجعلها في أهمية الغذاء والكساء. الفن عندنا طرح حافي القدمين!

فيقول روحي المفتي وقد ازدادت مقلتاه جحوظـــــاً وتطبق جبينه طيات تدفع طيات:

- أنا أعتقد أن ثمة نفوساً عندنا تزخر كالبحار الغاضبة، تريد أن تقذف إلى شاطيء الناس بمرجانها ولؤلئها، ولكن كيف السبيل إلى إخراج ما في القلوب من حرارة وخير وتقديمه للناس! كيف السبيل إلى القضاء على أعدائنا، على مبغضينا إلم تفعل هذا، إلم ننثر المرجان واللؤلؤ؟!

ويقول سليم:

- يحرق دين الأعداء! أصبح همنا بلا قافية الحكي على الأعداء واختراع النظريات حول الفن.. مع أن أي زجال شعبي في جهاتنا يظل يعلِّم أمثالنا الفن مئة سنة دون أن يشعر.. إذا استطعنا أن نقول مثل هذه الـــ..

اسمعوا قول المعنى

عالسمر والبيض غنى

أصبحنا في غنى عن تقعيد القواعد...

كانت لسامي الخوري آراء رائعة. هو يعتقد أن أس العلاقة بين الرجل والمرأة يجب أن تقوم على الغفران والصفح الجميل:

- في فرنسا تقول المرأة للرجل إذ تتزوجه: «أنت الأخير»، أما عندنا فتقول له: «أنت الأول».. في فرنسا لا تهبط المرأة على الرجل مثل ورقة اليانصيب. إنها تراه في كل مكان. تتحدث إليه في حرية، وتغازله في حرية. ثم تنتقي من بين عشرات الرجال أباً لأطفالها! أما عندنا فلا محل للاختيار في حيث لا مجال للمقارنة والنخب. والرجل الأول، الزوج، هو الحجرة الأولى في توليد ملكة النقد، حجرة قد لا تكون حجرة الزاوية.

ويسأله سليم:

- في حوران كيف العلاقات الاجتماعية بين الرجل والمرأة؟

ويقول سعيد الخص ضاحكاً:

- في حوران تتغير العلاقات الاجتماعية بتغيير بارومتر الجّو فيرد سامي:

- هذا صحيح، لا تمزح! إن الحياة في حوران جافة، قاسية ولكنها أكثر عافية منها في دمشق. إن المرأة في حوران متاع، مغنم، سعرها سعر أي متاع آخر لأنها من ضمن غزوات الرجل. أما في دمشق فالرجل يشقى نهاره وليله ليقدم إلى الست السمينة، ذات الأساور الذهبية والغبغب تحت الرقبة والبلادة التي لا حد لها، أغذية ورفاها يزيد في جعلها تختاً هزازاً، كنبة مريحة نعم، ولكنها لبخة!

ويقول جورج:

- أنتم تتحدثون عن المرأة ولا ترجعون إلى الآنسة دلال. أليست حريّةً بأن تنير جوانب المشكلة التي تبدو مظلمة بعض الظلمة. مرة في اللاذقية كنا نتحدث عن الحياة القاسية التي تحياها عاملات الريجي وجارتنا آديل تستمع

إلى جدلنا ولا تقول شيئاً. وفجأة فطنّا إلى وجودها وسألناها رأيها فأجابتنا في صوت مكسور:

«وماذا يفيد الحكي، نحن نعمل في قبر لا في مصنع!»

أما غسان فكان يرف بعينيه الصغيرتين ويمدّ يده إلى اكورديونه ويقول في تنهدة طويلة:

- أما أنا فالمرأة عندي فهي ما تسمعون.

ويروح يعزف قطعة من «روميو وجولييت» لتشايكوفسكي تحسم الجدال!. وتماثل سليم من علته وخفت حدة الألم. وجئته ذات صباح فرجاني أن أحمل مقالاً كان كتبه في الليل إلى المطبعة. ذهبت فلم أجد أحداً. صحت:

- من هنا!

وإذا صوت أبي أحمد الذي أعرفه جيداً يجيئني من وراء صناديق الحروف:

- من!؟

قلت في رقة: - أنا دلال يا أبو أحمد.

كان قد خلع سترته واستعد للبس ثياب العمل، فبدا لي صدره العريض ورمانتا كتفيه كأن عضلاته قد نحتت بالأزميل نحتاً، ورقبته المجدولة كأن فيها ألیافاً مشدودة.. استقبلني في بشر ولكنه ما لبث أن عاد إلى خجله. ولما وقفت قربه بدا لي كالعقاب على قنة جبل صخري. قال لي في صوت متهدج:

- أنت غضبانة مني يا آنسة دلال!

فخفق قلبي، قلت له:

- من إيش؟

- هداك اليوم في المكتب!

ولست أدري لماذا خيّل إلي، على الرغم من الرجول الكاسرة التي تصرخ في كل جزء من هذا الرجل، أني أمام طفل صغير يعتذر عن ذنب

متخيل كي يقلفط قطعة سكر. أحسست أن جوارحي تدر جذلاً وغبطة، وإذا أنا، شيء أقوى مني، أثب على رقبته وأتعلق بها:

- أبدا يا أبو أحمد. أنت عزيز، عزيز جداً!

فلم أر إلا والرجل قد تنفض كالبازي، فسدني إليه وغيبني في صدره الرحيب، وأطبق علي بيديه القويتين في جنون محموم، حتى أن فقار ظهري طقطقت طقطقة لذيذة. وبدوت بين يده كأني بنية صغيرة، فتعلقت في رقبته ورأيتني ترتفع قدماي عن الأرض، بل ارتفع أنا نفسي. لأني، عمري كلّه، لم أذق أقسى أو أروع من هذه القبلات.. كان لا يقول شيئاً، ولكن قلبه كان يقرع صدري، وزفرت:

- أبو أحمد!

قلتها في وجد وقبلته أنا نفسي من جديد!

وعلى قطعتين من الخشب الملوث بالحبر جلسنا كتفاً تمس كتفاً.. روى لي أشياء بسيطة عن حياته.. يعمل في مطبعتين وأحياناً يشتغل اثنتي عشرة ساعة، يقبض من الليرة إلى الليرة والربع أجرة العمود الواحد من حجم الصرخة أو الرأي. ورغم كونه لا يقيم وزناً للقرش فإنه يحلم بلمّ قرشين يجد بهما بنت حلال.

وقال: - ولكنك ست العارفين. البنت عندنا تطلب نصف الألف، ويأخذها الواحد، وإذا هي صم بكم عمي! ونحن هنا نعاشر الخلق ونقرأ الجرايد. معلوم جنابك يا ست دلال!

فأملت رأسي على كتفه وأرحته.. وحدقت ببصري إلى الأرض أفكر في أمره. كانت أرض المطبعة قذرة تتناثر في كل مكان منها قصاصات الصحف. كنت تستطيع أن تقرأ على إحداها: «صدمت سيارة كميون يقودها نوري البستاني من أهالي درعا المدعو سليمان الجاسم الفواعري من عشيرة الفواعرة فأصيب...» وعلى أخرى منتوشة الجوانب: «تلقينا من المجند مزيد توفيق الطرودي أن والده المدعو توفيق من قرية زعريقة قد غادر محل

إقامته على أثر القحط الذي أصاب المنطقة متجهاً إلى جهة مجهولة..» وعلى ثالثة: «... ملتهبة قوية هي التي سببت الحريق وقد نظم الضبط اللازم».

وقطع عليَّ أبو أحمد تأملاتي قائلا:

- آنسة دلال..

- قلي لي دلال بس، يا حياتي!

- دلال، لي عندك سؤال!

- قل يا روحي!

- تحبينني؟

- إي معقول أحب غيرك يا أبو أحمد؟

كان يختلج في قلبي حنين غريب إليه، يندفع مثل سحابة العطر فيلفُّه ويضمُّه بين تضاعيفه. عاطفة أبعد مما صنعته القبلات الجامحة التي غمرني بها منذ قليل. شيء يقلق الروح في السدم المدمومة في الفضاء الأثيري اللا متناهي.

ولما خرجت من المطبعة كنت سعيدة، محبة، انظر إلى الناس الذين يمرون بي كأن بيننا علائق لا تنفصم. وددت لو أمسكت كل عابر سبيل فقبلته على جبينه وخده وشفتيه. ومن الغريب أني شعرت أن إنساناً آخر في. هو مني ولست إياه، يطل علي ولا يمل من أن يردد هذا القرار مثل لازمة السمفونية:

- زوجة صفاف أحرف!

أليس فيها شيء شاعري!؟

حينما صرت قريباً من المستشفى وجدتني أطبق يدي على شيء.. تصور؟ لقد كان مقال سليم الذي جئت من أجله إلى المطبعة!

وهكذا.. وجبت العودة!

* * *

الفصل الثاني عشر

غير بعيد المستشفى التقيت سامي الحوارني. تهلل وجهه ولكنه لم يلبث أن أتخذ شكلاً طبيعياً ومد لي يده مرحباً:

- أهذي أنت، يا غزالتنا الصغيرة! ما أحلاك!

قالها دون كلفة كأن بيننا كلاماً من هذا النوع! قلت:

- أترى هذا؟

قال هادئاً، وهو لا ينفك يتأملني من الرأس حتى القدمين:

- أراه!؟ الدنيا كلها تراه. أمعك دفتر صغير؟

- لماذا؟ - اكتبه لك!

وأعطيته دفتر توقيعاتي ضاحكة. انبعث فيَّ فضول غريب لمعرفة رأي هذا النقادة الذي عاش في باريس، في حيث يتعلم الناس المحبة في كل مكان، أربع سنوات كاملة. وكتب لي وهو يمشي إلى جانبي، فقرأت ما يلي:

«أنت نفرتيتي القرن، بل أكاد أقول بياتريس التي خلقت دانتي! فتفجري على أهل الفن، لأنك إنْ لمْ تفعلي اختنقت بأنوارك. أنت لست مجرد جسد جميل، ولكنك أيضاً روح جميل ينبع الطيب والجود.. لقد سُفحت حتى الآن في بيداء جرداء، كافرة الرمال، مع أنك تستحقين أن تزهري في روض تكونين فيه أجمل ورداته!»

وسرنا قليلاً وهو يحدثني ببساطة محببة. قال:

- صحة سليم حسنة. إنه حقاً لا يقهر، وهذه العلة التي تثقل عليه من سنوات لم تستطع أن تنال من حيويته الدافقة.

ولكني كنت منصرفة إلى التفكير فيما كتبه لي، قلت:

- ما كتبته لي جميل ولكن أين الإخلاص في شباب هذا البلد؟ أيستحقون التضحية؟ أيستأهلون أن يرتفع أمامهم رأس شامخ؟! نحن في بلد يا ستاذ...

- قولي سامي بس!

- نحن في بلد لا يعرف العاطفة، والمبادئ فيه مثل الأزياء تتبدل حسب المواسم. إنهم يطلبون من الفتاة أن تكون مثالية، تتعشق الروح، ألا تحب غير زوجها وهم يخدعونها، يحطمونها. آه من الرجال! أتدري يا سامي أن فريد لم يكتب لي حتى الآن مكتوباً واحداً. أهكذا تصنع فرنسا التي تحبها أنت بشبابنا؟ أتدري! سمعت أنه حطم حياة فتاة هناك، ثم هجرها!

قال متنهداً:

- دلال أنا من الشعيرة. فريد صاحبي وأخوه أيضاً. وأنت عزيزة علي. ولكن ما كل ما يعلم يقال، كما يقولون. المهم أني وحيد. أسكن داراً كبيرة عريضة وحدي. فهل تجيئين عندي نثرثر واطلعك على أشياء.. يعني تقولين.. تهمك؟

وكنا قد وصلنا غرفة سليم، واندفع إلينا أكورديون غسان الصباغ، وكنا مرة في اللاذقية، وفظاعة يحرق، ويجب علينا أن نشق قلوبنا... فاختلطنا في الجو، مرحين مثل عصفورين. كان مرحي من هذا النوع الذي يضيء نفوسنا كلما كنا على أبواب سر جديد لذيذ.. وهكذا علت الضحكات.

كانوا يسخرون من غسان، يقول له سعيد:

- ألا تستحي على طولك، قدّ الحمار وتعشقها. بنت خمس عشرة، بنت خمس عشرة.. ألم تفكر في هذا!؟

فيرف غسان عينيه ويدور بهما في الحاضرين كأنه يطلب إليهم النجدة، ثم يقول متأتئاً، تتدافع كلماته فتتآكل أكثرها:

- أنتم حقاً مخيفون، مخيفون جداً. أنا أصرح لكم بصفتي طالب فلسفة، والفلسفة، كما آن لكم أن تتعلموا مني، إنما هي شمول للوجود بنظرة، أعني

تداول في الكليات.. أن المرأة يجب أن تكون شيئاً أكثر من الجمال المجرد وحده.. ولكن المجتمع يعلمنا أكثر من هذا، يعلمنا قبل كل شيء، أن نتخيرها طفلة لم يقيض للبيئة أن تفسدها أو تشوهها السينما، سينما سامي الحوراني مثلاً،القصص الغرامية، القانون الذي عرّف الموظفين بقوله: «كل سوري..»، ولما نوقشت المادة في البرلمان أقر سادتنا النواب أن «كل سوري» هذه لا تشمل الأناثى! كل هذا يجب أن نتفحصه ونجعل المرأة التي نريدها لأنفسنا في معزل من عقابيله السيئة، لأن الكينونة...

هنا ينط سعيد الخص مثل فهد صغير ويقاطعه قائلاً:

- إي اخرس!

يمط الراء مطاً فيه زجر وتهديد، فيقول سليم:

- أنت يا غسان لا تزال مراهق الفكر. المرأة عندنا مشوهة في القماط. قد يكون أسباب تشوهها ما ذكرت وقد تكون الطينة في الأساس هي السبب. وحتى إذا أنت ربيتها على يدك أخرجها ميراث القرون الذي لا يقهر من بين يديك.. لأن العرق دساس!

وسأل سامي:

- ورجالنا هل هم أحسن؟! إن مجتمعنا الراهن مرقعية حقيقية، لا إلى الشرق فتقر المرأة في بيتها، ولا إلى الغرب فتتحرر من مركب النقص الذي غرسته القرون في نفسها، وذكرى الحريم، والدروس عن العرض الذي لا يسلم من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم... المشكلة من كل بد ليست مشكلة إمرأة ولكنها مشكلة أمة.

وقال سعيداً ساخراً:

- أنت من معرفتك بالصحافة تترضى على عنتر!.. أتعلم ما معنى كلمة عرض باللغة العربية يا متفاصح؟

- هذا لا يهمني. أنا آخذها بمعناها الدارج.

- ككل ما تعرفه. أنت كلك دارج، ليس فيك شيء مصفى منقى لا على مذهب الكوفيين ولا على مذهب البصريين!

- فهمنا واللّه إنك سقطت في كلية اللغة العربية هذا العام!

- ولكنك أنت لم تدعس برطاشها!

أما أنا فكان شيء خفي يغريني بخصومة سامي فقلت في غنج وأنا أغض الطرف ولا أنظر إلا خلسة:

- أنتم تقيمون الدنيا وتقعدونها وتتحدثون عن المرأة ولا تأخذون رأيها هي ذاتها.

وصاحوا جميعاً:

- إننا نعتذر.

وقال جورج زيات:

- نحن لسنا مهذبين، قولي يا آنسة دلال.

فوجهت الخطاب إلى سامي، وأنا لا أزال اتبرقع بالخفر:

- ما دمت ترى أن المرأة لا تسوى شيئاً فماذا تهاجم في مقالاتك وإذاعاتك وفي كثير من الضراوة يا أستاذ سامي..

فقاطعني آمراً:

- قولي سامي، ألم أقل لك ناديني سامي فقط.

فخطفت نظرة إلى سليم. لقد تجهم وجهه فجأة وانزلق في السرير ولم يعد يبدو عليه أنه يشارك في الحديث. وتابعت:

- لماذا تهاجم السينما المصرية إذن؟ إنها تعلمنا فيما تعلم الحب والهوى وهما، فيما اعتقد...

وقاطعني هذه المرة غسان ضاحكاً:

- هذه العبارة الأخيرة «فيما اعتقد» ليست منك.

- ممن إذن؟

- من سليم، اعترفي!

فاطرقت في نشوة، لقد ذاع سرنا. ولكن حتى هذا الذيوع.. أليس ملازماً للمحبات الكبرى! قلت في صوت رقيق مثل صوت البلبل:

- دعوني أغرد، عفواً أكمل.. وهما - الحب والهوى - ركيزة الحياة ومغزاها. إن هذه الأجواء الملونة، انتقل خلالها كما ينتقل الإنسان في قفص مسحور، تزيد في عطشي إلى الحياة.. أن نتقرى ونكشف ونسبر كل يوم عوالم، آفاقاً بشرية جديدة! أني لا أتساءل كيف تكون الحياة من غير هذا كله، من غير العطش!

وقال غسان باسماً:

- الحقيقة أن فريد الأطرش يوحي كل هذا.. إنه يوحي حتماً بطحة عرق وزيتونتين وشقة فجلة!

وقال جورج:

- أنا أعتقد أن قوام الحياة ومغزاها هو النضال في سبيل غد أفضل، غد خلا جذرياً من استعباد الإنسان للإنسان، خلا من المجازر، من الحروب، من الاستعمار، من الحسد!

وقال روحي المفتي الشاعر:

- أجل. أحفادنا، وقد أقول أولادنا، سيرون أياماً لا يخافون منها مرارة العيش، ولا يخبئون قرشهم الأبيض لغدهم الأسود، لأنه لن يكون غد أسود أبداً. ونحن الكتبة الفتيان يجب أن نغني هذه الأيام، نجعل الناس يحلمون بها، أن نذب عنها الأعداء! أنا.. نحن، من نحن؟! نحن بناة المستقبل!

واستأنف جورج كلامه قائلاً:

- لما كنا في اللاذقية، قبل أن أتعاطى صنعة الأدب، كنت اشتغل حمالاً في المرفأ. كان متعهد المرفأ يسرق رئيس الحمالين، ورئيس الحمالين يسرق زعماءنا، وزعماؤنا يسرقوننا. ونفتش في نهاية الحساب عن المسروق الأكبر فلا نجد غيرنا، غير الشعب. ومع ذلك فلم يكن المتعهد أو رئيس الحمالين أو

الزعماء يفرّغون السفن ولا ينقلون البضائع بوساطة القوارب ولا يحمّلون أية باخرة، ولكنهم يربحون في يوم ما نربحه في قرن! الاستعمار.. الاستعمار هو السبب!

ومد غسان يده إلى اكورديونه وهو يقول:

- هذه أحاديث مظلمة!

وشده فباح نغم.. ولكن سعيد الخص وثب عليه وهو يقول:

- لا، كفاك، بخشت لنا آذاننا، يحرق..

فأسقط في يد الموسيقي الفتي، وبدا كمن لا يعرف ماذا يصنع.

قال مستسلماً:

- إذن ماذا أصنع؟

- قال سامي هادئاً:

- أرو لنا قصة غرامك.

- أمام الآنسة؟!

- لا بأس.

- القصة في حد ذاتها ليست لها قيمة، ككل قصص الغرام، وأية قصة حب خلت من الحرقات والرسائل والأشواق والدموع. ومن هنا انصرف الكتاب المعاصرون عن الروايات الغرامية البحتة...

وقاطعه سعيد الخص:

- أتريد الآن أن تتدخل في صنعتنا العمى في قلبك.. احك القصة واخلص!

- أنت لا تفهم. ما أنت إلا لص أفكار، لص أدب. أنا أروي للآخرين.

- فظاعة! اشهدوا عليه هاه! تحرش فيّ. أنا كاتب كبير، أنا ما معي لعبة هاه!وقال سامي:

- من شأن اللّه اتركه.

وتابع غسان مهدداً:

- إذا قوطعت مرة أخرى رجعت إلى الاكورديون (إلى سعيد باسماً) ومهما يكن من أمر فيجب عليك أيها المخلوق حينما يتكلم أمثالي أن تلوذ بصمت منتبه، فيه كثير من التهذيب والنعومة، كمي تتعلم.. لأن كلمتين عن الفاعل وثلاثاً عن الصفة المشبهة، وروايتين مترجمتين ترجمة على عماها لا تخلق أديباً..

ونط سعيد محتجاً ولكن الجماعة غلبته على أمره فمضى غسان يقول:

- كنت أقول أن همة الكتاب الآن تنصرف، في الأدب المعاصر، عن روايات الحب الصرف، لأنهم.. ما عساهم أن يقولوا بعد اللواعج التي صورها شكسبير في روميو وجولييت وغوته في هرمن ودوروتيه وفرتر، بل وسليمان بن داود في نشيد إنشاده.. وفي هذه الضراعة الحنون: «يا حمامتي التي في نخاريب الصخر وفي خفايا المعاقل أريني محياك. اسمعيني صوتك فإن صوتك أليف ومحياك جميل»، وفي هذا التأكيد الساذج: «حبيبي لي وأنا له. هو الذي يرعى بين السوسن».. لم تبق زيادة لمستزيد! وهكذا فقد أصبحت قصة المحبّة تروى من خلال رواية الحياة المتطورة، الأبدية التطور. فهي، المحبة، طوراً حادث عارض، وطوراً حافز إلى عمل أو دافع إلى بطولة ولكنها لم تعد في يومنا هذا غاية في حد ذاتها...

وغمغم سعيد الخص متهيباً:

- القصة! القصة! سنموت قبل أن نصل إليها!

وأردف غسان، متجاهلاً غمغمة سعيد:

- لماذا أحببنا أنطون بافلوفتس تشيخوف ومكسيم غوركي وحتى تشالز ديكنز وجون ستاينبك (يلفظ أسماء هؤلاء بانكليزية فصيحة). لقد تحدثوا كلّهم، في كثير من الإسهاب، عن الحب والغرام، عن لواعج سليمان وغيرة عطيل وآلام فرتر، ولكن في كل ما كتبوا كنت تلمح منبعاً للضوء، مهما يكن لونه، يشق دروب أبطالهم. إنهم كلهم مفتشون عن حياة أسمى لا عن حب أسمى..

ولنعد إلى قصتي مع من اسميها ليلاي. إنها إنسانة تأخذ عندي دروساً في الفلسفة واللغة الإنكليزية. أنا معلمها. كانت بالنسبة إلي تلميذة فحسب، تلميذة كثيرة الرقة، مخطوفة الخصر،وطفاء، في صوتها ما يشبه زغاريد الملائكة.. وأما أنا فقد كنت رجلاً، رجلها.. كانت حياتي قبلها، كما يقول المثقفون، فارغة. في حاجة إلى ندى يبللها. تماماً مثل الوردة، لا تبوح بعطرها إلا إذا وُضعت في عنقها سموط الندى. وإذا أنا أبوح بالعطر، وإذا أنا أردُّ. ويجب عليّ أن اعترف أني استغللت، في كثير من المكر، ثقافتي الفلسفية، وأحياناً تصفحي لبعض ما يجود به على القراء أمثالُ يوسف السباعي وإحسان عبد القدوس.. أردت أن أصل حتى إلى موطن الداء... غير أني فيما بعد صرت أنبع من ذات نفسي... ونبتت بيننا علاقة روحية،، على الأقل من جهتي. أنا أخلو إليها فيخيّل لي أني من دراويش الصوفية الذين يصلون إلى مرحلة الكشف. يغيب أمام عيني النهد المدور النافر والشفة الملمومة الصبية.. وقد يزعجها ذلك مني ولكني، أنا، اعتبرني منتصراً في المعركة القائمة بين المادة والروح..

ولم يعد سعيد الخص يطيق صبراً. كان طوال الحديث لا يكاد يستقر على جلسة. وصاح أخيراً:

- حمار!

فنظر إليه غسان في هدوء ومد يده إلى أكورديونه من جديد وهو يقول:

- إذن ابتر الحديث.

- للهوا!

وأخذ يتلألأ في فضاء الغرفة مقطع من باخ، حنون، ساذج كريم يفلت الروح من ربقة الهموم!

* * *

الفصل الثالث عشر

تسكن سلوى غير بعيد من بيتنا، في دار شرقية، ذات فناء أخضر مزدهر، في وسطه فسقية تحف بها شقوف أزهار كثيرة، بهيجة الألوان. ذهبت عندها. كانت خالتي في الفناء، وهي إمرأة دؤوب، إذا صدف أن وجدت نفسها دون عمل أصابتها كآبة عظيمة وحيرة، وأمست كأنها ضائعة. وكانت وقتئذ، ترقّع جوارب زوجها. قالت في لهجة اعتذار:

- شغل البيت لا ينتهي يا دلال. كيف حالك يا حبيبتي؟ وأمك ماذا تفعل؟ سلوى عند رفيقتها. هي مسكينة، مظلومة مع عجوز مثلي. إنها تمل من رؤيتي مشغولة طول الوقت. وقلما يتاح لي أن أحكي معها كلمتين. كيف ترين دروسها؟

- سلوى يا خالة بنت ممتازة، رائعة.

- تحتاج إلى معونتك يا دلال. قواعدها، الظاهر، ضعيفة عمك (تقصد زوجها) قرَّاها مرة في كتاب سميك فصارت تخلّط. أنت تعلمين، هو مدير مدرسة، منذ عشرين سنة، ولا يحب أن يخطيء أحد.

- على كل حال هي تتقدم، ولا تزال طفلة. أنا صاعدة إلى غرفتها أستريح قليلاً.

- اصعدي يا حبيبة خالتك. لن تطول غيبتها.

وكانت غرفة سلوى نظيفة جداً مرتبة ترتيباً بديعاً، لها شرفة تطل على قسم من الحي، المهاجرين، وتمتد أمامها الغوطة. ثم أن حي الميدان يرى منها متغلغلاً، بمنائره العتيقة الفاتحة، في انبساط الخضرة الداكنة.. وكان الدخان المتلوي من المداخن البيضاء لا يلبث أن تلوّنه الأشعة الدامية ترشقها الشمس الغاربة، حين يتاح لها الانفلات من الغمائم الحافات بها.

وقفت قليلاً على الشرفة انظر إلى هذا الجمال العذب الصامت يرتشق في كل مكان، ويخيل إليك إنه دعاء خاشع شاكر ترفعه الأرض إلى السماء.. ولم أدر لماذا أصابني غم أغبر قاتم، فدخلت أتخبأ في الغرفة.

جلست إلى منضدة سلوى، وجعلت أتلهى بتقليب كومة من الكتب مرصوفة عليها: الفضيلة، ماجدولين، العبرات، مانون ليسكر، المجرم البريء، جبل الرعب.. وفوقها رأيت دفتراً صغيراً، فتحته فلفت نظري فيه مقتطفات من أشعار وجمل ومذكرات، قرأت، في إحدى الصفحات ما يلي:

«أنا اليوم مبسوطة جداً. أمس أمسكت مجلة «الروائع» وقصصت منها القسيمة الخاصة ببرنامج ما يطلبه المستمعون في محطة الإذاعة وكتبت حذاء كلمة الاسم: «العاشقة الصغيرة من دمشق» وطلبت أغنيتي المفضلة:

يا زهرة في خيالي	رعيتها في فؤادي
جنت عليها الليالي	وأذبلتها العيـــون

ومنذ الصباح الباكر قعدت استمع إليها!» وقرأت في صفحة أخرى: «.. طلبت من «سين» أن يكتب لي شيئاً في الدفتر، فأمسكني من يدي وقبّـــ... وهو يقول لي: أنت أحب فتاة في الوجود. خذي، سأكتب هذا على شفـــ... أما هو أحسن؟»

وقلّبت كتاب «ماجدولين أو تحت ظلال الزيزفون»، وإذا تحت بعض السطور خطوط بالقلم الأحمر والمسطرة، ورسوم قلوب تطعنها سهام ويقطر منها الدم، وشفاه تتلاقى، وأعين واجدة، ونصف مغمضة.. وأحيطت، في الصفحة الثالثة والأربعين، بمـــــربع أحمر وإطار من قلوب صغيرة هذه الجملة: «.. أنت اليوم حبيبي وغداً زوجي. وكل ما صنعته أني توسلت إلى حبيبي أن يزفني طاهرة نقية إلى زوجي».

ثم إن الغرفة تحوي، إلى جانب هذا كله، شعرات بل مئات من الأشياء الصغيرة والطرف والهدايا: بوذا من العاج، مصباح بشرّابات حمراء وزرقاء، لوحات صغيرة في أُطُر لطيفة، تقويم مصور، الخ.

لم تكن غرفتي تشبه هذه في شيء، ونظرة تلقى عليها تنبي أن صاحبتها، أنا، لا تعنى بالأخذ بل بالعطاء، فضلاً عن أني لا آوي إليها إلا لكي أنام. ومع ذلك فقد أصابني شعور بالغبطة، وجعلت أقول في نفسي: «هذه دروسي. إنها تثمر. ألم أعلمها الحب؟ ها هي ذي تتفتح. ما أجمل أن يشارك المرء الآلهة في الإبداع، في الخلق، أن يحس دنوه من المطلق في حيث لا بدايات ولا نهايات...».

وملت إلى الظن أن «سين» هذا ما هو إلا ابن عمها سرّي. وهو شاب صغير لم ينجح في صف الكفاءة فشغَّله أبوه في محله التجاري في سوق الحميدية.. ورجّحت هذا الفرض لأن سلوى كانت تحدثني ملياً عن غرامه بالسينما واللباس الأنيق وقراءة الروايات الغرامية. وزعمت لي أنه حاول تقبيلها فانفلت منه هاربة وبقي له منها شرطيتها البيضاء!

غير أن جملة في الدفتر لفتت نظري، وجعلتني أرى إلى الطرف والهدايا الصغيرة المتناثرة في كل مكان من الغرفة بعينين شاكتين:

«طلبت منه دراهم فأخرج لي عشرين ليرة وقال لي: هذا كل ما أملك، خذي نصفها، فخطفت الكل، واندفعت أهوي على الدرج مثل شيء يتدحرج...»

ووضعت الدفتر محله، واستلقيت على تختها وأغمضت عيني. بعد حين نبهتني سلوى بقبلاتها. كانت تحبني حقاً وترى فيَّ مثلها الأعلى. وفي المدة الأخيرة لم أعد أحجب عنها شيئاً من أسراري. أما هي فكان من عادتها أن تبدأ متحفظة ثم تنتهي بان تروي لي ما يقلقها. حدثتني مرة أن غلاماً كبيراً ظل يطاردها أسبوعين، ويوصلها من المدرسة إلى البيت كل يوم. حتى إذا صدفها وحدها، ذات صباح في الشارع، زلَّق في جيبها مكتوباً غرامياً ثم اختفى.. لم يفكر حتى بتفحص مدى رد الفعل!

قلت لسلوى

- مضى زمان يا سوسو لم أرك فيه. أين كنت؟

- حقك عليَّ، ولكني منزعجة.

- لماذا؟

- أنا حزينة، ضائعة..

- من شؤون تتعلق بالقلب؟

- أي!

- احكي لي إذن!

قالت وهي تتأوه، وفي صوت حالم:

- أنا لا أريد أن أزعجك. ولكني محبة، محبة تعيسة. مضى أكثر من أسبوع وأنا أتلفن له كل يوم إلى محل عمله. كانوا يجيبونني أنه مريض. ذهبت إلى بيتهم. مسافرون، والجيران لا يعرفون مستشفاه.

- ومن هو؟

- أنت تعرفيه! أتذكرين؟ يوم عيد ميلاد فريد. بدأت قصتنا ذلك اليوم. صرت عاشقة!

أني أتذكر. لم يكن إلا فريد وسليم وقد رقصت سلوى مع سليم أكثر الرقصات. قلت في قلق:

- ومن هو فارسك الجميل يا ترى؟

- إنه فارس أحلامك الذي كنت تحكين لي عنه. كبير، شعره شائب ولكني أحببته.. إنه سليم!

وبدرت مني صيحة على الرغم مني وأمسكت بذراعيها:

- وهل يحبك هو؟

وجاءت كلماتها كأنها من واد سحيق:

- نعم. نحن اتفقنا على المودة والوفا. حينما يقبلني يقول لي: «أنت أجمل جسد في العالم»! وأنا آخذ منه دراهم. يعطيني وهو يهمس في أذني: «خذي، نحن في حكم زوجين منذ الآن!».

تعاهدا على الإخلاص؟!.. وتابعتْ:

- كان يشجعني أنك على صلة بفريد. لما عرفتني بفريد أعجبني، ولكن أخوه.. شيء آخر. اروح عنده فنقعد على البساط، رأسي على صدره، ويدي تعبث في الشعر الكث الرهو على يديه.. وأحياناً يقرأ لي في كتاب «ألف ليلة وليلة» حكايات لذيذة تفتح العين على أشياء لا نراها في كتب أخرى أو نسمعها من فم أحد!.

وقامت تتخطر في الغرفة، وأمام مرآة الخزانة حلت ضفائر شعرها الفاحم الأجعد وجعلت تعبد صورتها في المرآة، وتنظر إليها في تجسداتها العديدة، مندفعة الصدر إلى أمام، في خيلاء أو توسل، في حلم أو يقظة.. وقد تحسر روبها إلى ما فوق الركبتين فيبدو فخذاها البديعان الدافئان غاية في الانسجام والتناسب... فما كان أشبهها بنرسيس بن سيفيس في عكوفه على أمواه الغدران وتمليه جماله الإلهي...

وبدا عليها أنها نسيتني قليلاً، فاصابني غم ثقيل، أسلمني إلى ما يشبه حلم يقظة. رأيتني عجوزاً متغضنة قد قدمت حفلاً راقصاً أقيم في حديقة حسنة التنسيق جميلة الأضواء، فيها عين جارية لمائها وشوشة رطيبة. وكان كل من في الحفل فتى في أول العمر... ولما بدأت الأمسية كانت الأزواج، من فتيان وفتيات، تترفق بالعجوز المسكينة ولا تبخل عليها بكلمات عابرة لطيفة. ولكن.. لما دنا الليل من هزيعه الأخير، ودارت الأفراح في القلوب، أفراح خمرتها همسات أول الليل... أطفئت أنوار كثيرة، وخلا كل محب إلى حبيبه ورقت هينمة النسيم بين الغصون... ونُسيت العجوز البائسة في الظلام، وحدها، على مقعد قصي.. حتى دموعها التي كانت تنسرب على خديها في هدوء وصمت، كان الظلام يلفها، هي أيضاً، بالنسيان. ويكون على المقعد، قربها، طفل نائم، يفيق باكياً، فتأخذه بين يديها وتضمه إلى صدرها كأنها تلوذ به لياذاً.

وانتشلني من حلمي صوت سلوى ينطلق بأغنية فيروز:

يا غزيّل يا بو العبا

كانت الــ «أوف، يابا»، كما لو أنها خيط رخص في مكوك غبطة، إذا جاز التعبير، حنوناً، عاشقة.. ما أشبهنا نحن النساء بالطبيعة. كلانا ينطوي على لغز. نمرّ بشجرة الورد فترى برعماً مخبأ بين الأوراق، برعماً مغلق العينين مثل طفل وضعته أمه منذ دقائق. وتغيب يوماً أو بعض اليوم، وإذا البرعم وردة ذات شرائط معقوصة في خيلاء، وعطر ناعم جواد، ودل وغنج، وإقبال يُعطي، وانفلاته ممانعة تجرر الروح وراءها.. وإذا أنت أمام اللغز من جديد.. ولكنه لغز جميل تفتح ونضر!

وسلوى أيضاً، كانت في صوتها هذه الغنّة. لقد أصبحت امرأة مكتملة بين عشية وضحاها! وسألتْني فعلَ من لا يهمه الرد:

- أنت تعرفينه، ما قولك فيه؟ ولكن لا، أنت لا تستطيعين معرفته. الآن أصبحت أفهمك.. حينما نحب لا يعود في الدنيا إلا المحبوب ونحن. أتدرين يا دلال! قلت له: «أنت تربح جيداً، ولكن يدك مبخوشة يجب عليك أن تضبّها... من أجل مستقبلنا».

يا إلهي! أهؤلاء الشبان يريدون أن يخلقوا مجتمعاً أفضل! أهكذا أعامل أنا التي أحبته وفهمته وجعلت له من قلبها بساطاً وثيراً يدوس عليه، أنا التي ما تعودت قط أن تعطي نصف ما تملك حتى من الثقة واللهفة! أهكذا تعامل بنات العرب المسكينات! الرجال كلهم خائنون لا قيمة لوعودهم وعهودهم! آه لو أستطيع الحقد.. إذن لتطلعت إلى الناس من عل، وكشفت مشاغلهم القاتلة، ونفوسهم السوداء، وقلوبهم الميتة، ولم أتسلح إلا بابتسامة ساخرة مريرة! ولكن أنى لي أن أحقد وأنا محبة!

* * *

تركت سلوى مع المغيب وذهبت إلى المستشفى. كان وحده، فجلست قربه لا أقول شيئاً. في بعض الأحيان يبدو لي مثل ولد يغرق في لعبه، حتى يشط ريقه ولا يشعر.. كان وقتئذ يفرش أطر الصور ويصلح من شأنها، فبدا

مستغرقاً، جبينه متكوم وحاجباه مرفرعان في انتباهة ساذجة.. قال دون أن يرفع رأسه:

- ممرضتنا الجميلة حرمتنا أنسها أكثر النهار!

قلت في لهجة ذات مغزى:

- كنت أقعد على بساط واقرأ في كتاب ألف ليلة وليلة. لم يبد عليه أنه فهمني:

- نعم؟!

- طيب، كنت أكتب على شفتي رجل هذه الكلمة:

«أنت أجمل جسد في العالم!»

هذه المرة انقطع عن لعبه وأمسك بيدي وقال لي غاضباً:

- ماذا تقصدين؟

- لم أقصد شيئاً، ولكني متأسفة حقاً على إخلاصي.

- فهمت! أتريدين أن تلمحي إلى ولدنات كانت بيني وبين بنت خالتك؟

فقذفته بنظرة عتب وعذل حادة، غير أنه جذبني إليه وأجلسني على التخت وهو يقول:

- مجنونة، مجنونة، هذه زبدة الكلام. أتظنين أني أحب سواك! كان ذلك قبل أن أعرفك، وشغلة ولدنة!

كنت في حاجة لأن اقتنع، كانت أشياء كثيرة في نفسي تركض وراء القناعة. قلت:

- كذاب!

فأطبق على فمي:

- أتظنين أني قادر على أن أحب سواك، مجنونة! مجنونة على المضبوط! أتدركين معنى ما بيننا؟ إن المرأة التي تهيج مثل هذه الزوابع في قلبي لم تولد بعد! وعلى أية حال، أنت لي، حبيبتي المعبودة، لي وحدي. وإذا تركتني قتلتك أو هجرت الكتابة!

أأدعه يهجرها؟ لا وحق هذه السطوة الكاسرة. أنا أضعف من أن أقاوم شوقي الجارف يفري مهجتي. إنه فنان، ذو لهفة إنسانية. قال لي:

- كنت أغازلها لأن فيها شيئاً منك، من رائحتك.. ثم سألني ضارعاً:

- والآن قولي لي هل غفرت لي؟

وقد غفرت. كان كل ما حولي مفتوناً بي. كنت نجمة المجتمعات الراقية، ولكن رجلاً واحداً كان نجمي. لو أردت الزواج لتزوجت منذ زمان بعيد. إنما.. أريد الحب، الحب!

*   *   *

الفصل الرابع عشر

أفقت في اليوم التالي مع الفجر البليل. كنا، على ما ذكر، في أيلول. ولفجر أيلول لذعة برد حلوة. رأيتني موفورة النشاط أغني. ولما وقفت أمام المرآة بقميص النوم، ولم أكن قد استيقظت تماماً، ضحكت غصباً عني حينما تذكرت حلم الأمس، حلم العجوز المتنغصة المهجورة. كنت فاتنة مثل حورية تبرز من بحيرة مسحورة. وطفقت أغني من جديد، وإذا أبي يدخل عليَّ الغرفة ويحييني. قال:

- اللّه يصبحنا بأنوار النبي. أفقنا اليوم مبكرين! شو القصة؟

قلت وأنا أقبله بحنان:

- أنا ذاهبة للدرس، عند رفيقتي.

- اللّه يوفق. بدنا ننجح ها الدورة موهيك يا دلال؟

- من كل بد يا بابا!

ولبست ثيابي على مهل. كنت لا أكاد أفارق المرآة. أقف عندها وقفات طويلة في الذهاب والمجيء. ولما فرغت، جعلت أتسلى بادارة قرص الهاتف، وإذا أنا أركب رقم سامي الحوراني.

لعل فكري، مع هذا الصباح البهي، انصرف إلى ما حرمني منه سليم حتى الآن: الصداقة! أن أضع رأساً متعباً بريئاً على صدر حان، فيفضي إلي بهمومه وأشجانه وأسمعه أنا أرق كلمات العزاء. وليت شعري، حينما نصبح في ذرى النغم، في حيث يلتقى الموجود بالواجد، في حيث لا زمان ولا مكان، أي شيء يبقى لنا غير هذه الرقة المصنوعة من خفق القلوب المحبة!؟

كان صوته نعساناً، ومع ذلك أجابني في رقه:

- دلال!

قلت متعجبة:

- كيف عرفت؟

قال لائماً:

- أتسألينني كيف عرفت، أنت!

لم أفهم ما أراد أن يقوله. غير أن ضحكتي فرقعت في السماعة، وأضاف:

- دلال، أنا لا أزال انتظر. تعالي اليوم، الآن. تعالي نتحدث في هدوء بعض الوقت.

- أريد أن أذهب عند سليم.

- تذهبين بعد أن تمري بي.

- لا، فكري عنده.

- أنا أنتظرك، أرجوك!

الحقيقة أن الروح في بعض تعبيراتها عن وجودها، كما يقول غسان، تشبه المعدة. وكما أن هذه في حاجة إلى مختلف الأغذية وشتى الطعوم، كانت الروح في حاجة، هي أيضاً، حيناً إلى الصداقة البريئة الوادعة، وحيناً إلى الحب العنيف المتأوه، وآخر إلى الأمومة، الأخوة، الرفاقة، إلخ.

وهكذا فقد ذهبت إلى سامي الحوراني. كان بيته، قرب البرلمان، بسيطاً ملموماً. صالة وغرفة صغيرة، شددت على يده في حرارة كعادتي، وقعدنا في الصالة. كان رف من الكتب مرصوفاً كتاباً يضغط على كتاب، أكثرها مؤلفات في النقد الأدبي والفني والإخراج السينمائي والمسرحي. قال سامي:

- أنت لا تستطيعين أن تتصوري مقدار فرحي بك. شكراً لك. ظننت أنك لن تأتي.

كان عاطلاً من الجمال، ما فيه ما يغري فتاة فاتنة مثلي أن تحبه وتعشقه. وأنا أحب سليم بكل قوى روحي رغم خيانته. ولكنها طبيعتي في أن أنفذ إلى أعماق الأشخاص، لا أتوقف عند مظهرهم الخارجي أو تركيبهم الجسماني. ورأيي أن كل إنسان ينطوي على بذرة خيرة. وينحصر واجبنا نحن في التنقيب عنها وتعهدها بالرعاية والحنو واللهفة. ولم تغير التجارب القاسية التي ألمت بي من نظرتي إلى الناس، ولكم أحبّ الناس! لعلي كنت أرى فيهم نفسي الكريمة التي لم تعرف إلا البذل والعطاء. قلت لسامي:

- ما أشد ولوعك بالسينما. يخال من يستمع إليك أو يقرؤك أنك لا ترى الدنيا إلا من خلال الآلات الفوتوغرافية واللعب المسرحية!

قال في أسى:

- معك حق. إن القراء يظنون أن الناقد إنسان خلا من العاطفة، مرآة شغلتها عكس السيئات وتضخم العيوب. ثم إن السينما على الرغم من الإقبال عليها، ليست عند أكثرية الناس، إلا تزجية فراغ، ألهية. في فرنسا ينظرون إلى السينما، دون أدنى ريب، نظرة أخرى. إنها عندهم فن المستقبل. هناك تنمو حركة واسعة لتأسيس نوادٍ للسينما يعمل المشتركون فيها، هواة، على رفع شأن هذا الفن. وأنا لما سافرت إلى باريس كنت أعد العدة لدراسة الطب! ولكن الجو الأوروبي إنساني، أغلب الظن واقعنا الفقير فرأيتني أدرس الإخراج المسرحي! أين أنا مما يربحه الأطباء؟! كل جسة نبض خمس وعشرون ليرة عداً ونقداً. انظري لي! ليس في هذه البلدة غير استوديوهات دار الإذاعة ومصوري قصر العدل!

قلت مفكرة:

- ولكن خلق فن جديد يحتاج إلى ضحايا. والمال، في اعتقادي، لا يعدل ذلك التوتر المسر الذي يهبنا إياه العمل الخلاق، ولو كان مجحوداً. تماماً كالحب!.. حبَّ، توجّدْ، ولا تطلب عند محبوبك شيئاً، كما يفعل التجار، تبلغ مرتبة التحليق..

قال وهو يصعّد تنهدة محرقة:

- هذا حق، ولكني لا أفهمه. إن ما تقولينه عظيم ولكنه يزيد في بؤسي.

- لماذا؟

- أنت تعلمين! يظن من يتعرف إليك للوهلة الأولى أنك إمرأة بسيطة لعوب... فإذا كلمك قليلاً تبين أنك، دون أدنى ريب، فتاة تسبق عصرها. أنت بعض الشيء، جورج صاند، كليوباترا. بل أنا أفضلك عليهما، لأن جورج صاند مثلاً لم تكن تحيا في مثل هذا الجو القاحل الأعجف الذي نحيا فيها. كانت تحيا فيها فرنسا القرن الماضي، أشد القرون خصباً وتلوّناً وكفراً وإيماناً. تذكري أنها ولدت في بداية القرن، في أعقاب انهيار الأمبرطورية، وتدركين ما معنى أوروبا في ذلك الحين. كانت قيم الثورة الفرنسية تنتقل من بطون الانسكوبيديات، من كتب فولتير، روسو، فونتسكيو، إلى القلوب فتؤجج فيها الجنون والتصوف. ومن بين هذا كله كان يقام معبود جديد هو، دون أدنى ريب، الحرية!

كان يتحدث في حماسة لم أرها فيه من قبل. وسمعتني أقول في نفسي: «هذا شغلك يا بنتي!» وكنت حقاً أتجه إليه بكليتي وعليَّ كل مظاهر الانتباه العميق. لم أكن أعرف جورج صاند هذه ولكني بدأت أحبها واهتم لأمرها. وبدّل سامي مقعده. أتى فجلس على الكنبة التي احتلها، وتابع كلامه وهو يطيل فيَّ النظر:

- ما أعظمك للمسرح، للسينما!

- أو...ه، سامي. - أقول لك جاداً، دون أدنى ريب. أنت تعبر قسماتك قبل أن تفتحي فمك للكلام. السينما أداة جديدة للتعبير، وضعتها الآلة بين يدي الإنسان، وهي لهذا أكثر من مجرد فن سفلي كما يخيّل إلى الكثيرين منّا. ونشر الفهم السينمائي، وإنماء ملكة النقد يقتضي مفكرينا أن يعيروا هذا الفن الصاعد مزيداً من العناية والحفاوة.

قلت محتجة. - والجمهور! أعندنا جمهور نحن؟

قال في هدوء وهو يقطب جبهته العريضة الشاحبة سمرتها:

- أنا لا أوافقك! خذيهم من أيديهم إلى كونسير. اسمعيهم الارتعاشة الأزلية في قلب بتهوفن وهو يعزف قصيدة فردريك فون شيلر:

أفضل شيء في الوجود

هو الفرح بملكوت الطبيعة الواسع

فيا أيها الملايين إنني أطوقكم بذراعي

وهذه قبلة بهيجة لكم جميعاً

في السمفونية التاسعة.. اجعلي الكونسير كالسينما شيئاً شعبياً، ثم تعالي أدرسيهم بعد ذلك. إنهم يبدؤون بان يلبدوا في مقاعدهم مدهوشين متهيبين، ينظرون إلى أقواس الكمجات صاعدة هابطة، تارة في نزق وأخرى في صفح جميل، طوراً في صخب العاصفة، وطوراً في مثل وسوسة أمواه ساقية مضيئة في منسرب مرصوف باللآليء. قد يبهرهم مشهد هؤلاء «الآلاتية» (قالها مبتسماً) يتلولبون ويتثّنون كأنهم يدقون ليرُقصوا أنفسهم!.. ولكن أدمني أخذهم إلى هذه الملاحم الموسيقية الرائعة، اجعليهم يستمعون في قصصهم الهينة، يرويها لهم راويهم في قهوة ركيكة من ضيعة منعزلة، نتفاً عابرة تفسّر شهرزاد كورساكوف والدانوب الأزرق الجميل لستراوس والبولونية لشوبان.. ثم تعالي انظري كيف ينصرفون عن ترقب الحركات الجسدية إلى تأمل خلجان الروح، كيف تتفتح أرواحهم وتقذف، دون أدنى ريب، بكل ما ميّع فريد الأطرش وخنّث محمد فوزي وبهدل كارم محمود وحتى «أنا والعذاب وهواك» إلى جهنم الحمراء وبئس المصير!

وابتسم في بذل. قل هدأ وقال في كثير من النعومة:

- أنا ما ترجيتك أن تأتي كي أسمعك هذه الثرثرة.

نظرتُ إليه مستفهمة، فغض من طرفه وتابع متلعثماً:

- أترين إلى هذا البيت؟ يبدو للوهلة الأولى، دون أدنى ريب، وادعاً يغري بالقراءة والتأمل! إي، إذن اعلمي أنه في بعض الليالي يخيفني.. ما فيه خطرة ناعمة. أنا وحيد يا دلال، وحيد حتى لبَّ العظام. يحدث لي أحياناً، وأنا

عائد إلى البيت، أن أفتح الباب الخارجي، وأهرول إلى غرفتي، يخفق قلبي بنوع من الأمل الغامض في أنَّ... إنسانتي، فتاة أحلامي التي ستكون لي الأهل أنا الذي ليس له أهل، في أن إنسانتي هذه قد اختبأت لي في السرير، وأخذت اللحاف فوق رأسها وجعلت تنتظر أوبتي... تصل معي الأشواق إلى هذا الحد من أحلام اليقظة... ولكنَّ السرير، تحت الضوء، يبدو أكثر خلواً ووحشة مما كان عليه في الصباح، وأغطيته أشد ترتيباً مما تركتها! وقد يطرق الباب فأقوم فرحاً، مترقباً هذا المجهول الذي لن يأتي، وإذا أحد الناس قد أخطأ الباب!.. ليس من عادتي أن انكشف على الناس. ألفوا مني الحديث عن الآلات وحياة سلفانا منغانو وريمو وشارلي شابلن! حتى هؤلاء يبدون لي في هذه الصومعة من ضمن أدوات وحشتي وعذاباتي! وهذا النظام القاسي الذي أخذت به نفسي؟! أنا أعرف القرش الصغير أين يروح ومتى يجيء.. هذه الآلية الدقيقة التي اخضعت لها وجودي، تخفي... ماذا عساني أن أقول؟ اعتذر يا دلال!

كان يتحدث في صوت عميق جهم. ورفع رأسه. كانت عيناه نديتين. ولكنه ما لبث أن اهتزَّ كمن ينفض أفكاره، وأمسك يدي في حركة مسماح، لا كلـــــفة فيها وقال:

- اعتذر، ليس عندي ما يبهج، وأنت، صباك، جمالك، أحقُّ بما يطرب لا بما يقلق ويغم!

إذن فهو يجهلني. يجهل أني روح سخيٌّ، نبع جود. أبقيت يدي بين يديه وأقبلت عليه بكل جسمي وأنا أقول:

- أنت واهم، يمكنك الاعتماد عليّ.

- وهو كذلك. صرت أعجز من أن أكبح جماح نفسي، أن أمنعها من أن تندفع فتركع بين يديك على علاتها. أتعرفين؟ فريد ردّ اللّه غربته كان متى ما ينظم قصيدة يسرع، إليّ، قولي يهجم عليّ في تشعثه الطفولي المعهود، ويهتف بي حتى قبل أن يجلس: «تعال أيها الناقد الخطير، تعال اسمع» أذكر أنه أنشدني قصيدة نظمها، من كل بد، لك:

في الليل قد تدرين وحشته

ومرارة التذكار في الليل

أنا ليس لي أهل أبث لهم

حزني فأنت على النوى أهلي

أما أنا فليس لي حتى تذكار مرير..

ولم أعد أسمع شيئاً... لماذا ذكرني بفريد؟ لقد كنت حقاً أهله وعشيرته. واندفع إلى حنجرتي من وراء الغيب ما يشبه يداً بمخالب فقبض عليها. وخفق قلبي. ولم أدر لماذا شعرت، أنا أيضاً، بالوحدة، فأسندت رأسي المتعب إلى كتف هذا الإنسان الطيب البائس وأطلقت لعبراتي العنان.أما هو فقد ضمني إليه ضماً قوياً. سمعت قلبه يعربد في شدة. كان يتألم.. كان حزنه كبيراً مثل قلبه! ورفعت عينيّ إليه وشفتاي تهمَّان أن تنفتحا عن كلام كثير، وإذا هو ينقض على شفتيّ ويسكتني بقبلاته المجنونة...

لما رجعت إلى نفسي وجدت الكنبة قد فقدت - وقد يكون ذاك للمرة الأولى - ترتيبها، فتكون غطاؤها وانحزم هنا وهناك في غير نظام... ومن الشارع كانت تجيء أصوات الباعة تنادي على مختلف أنواع الخضرة والفواكه، فتذكرت وأنا قلقة أن سليم مريض، فقمت أعدو غاضبة على نفسي..

ليس لأحد الحق في أن يصرفني عن حبيبي المريض!

* * *

الفصل الخامس عشر

بادرني سليم بقوله:

- أطلت عليَّ الغيبة يا حبيبتي.

كان في وجهه أشراق وتهلّل، يهدل ويبدو كأنه استكمل صحته. ومع ذلك فلم تطل غيبتي. لقد تأخرت قليلاً، هذا كلّ ما في الأمر. قال لي وهو يمسك يديّ الاثنتين:

- دلال! أريد أن أبوح لك بشيء. أنت تدرين يا حبيبتي المعبودة أنك صنعت كثيراً من أجلي. أنا قصرت في حقك، ما في ذلك شك. سمحت لقلبي خلال الأشهر الفائتة أن يتعلق بسواك. ولكنني أعود إليك تائباً، محباً. أن ملازمتك إياي طوال النهار، حنوّك عليَّ، قد كشفا لي عن أنك حبيبة وأم وأخت. أنت ملاك يا دلال. وأنا أفكر ما عساها أن تكون حياتي لو لم أعرفك. (هنا خفق قلبي كثيراً فشددت على يديه ورفعتهما إلى شفتي) والفضل لهذا المرض الذي جعلني أطيل النظر في علاقاتي السابقة كلّها. جعلت اسائلني: «أأستطيع أن أحيا دون دلال؟». إن حياتي القلقة وجوع نفسي إلى الحب، وندرة الانفعالات النبيلة في أيامنا المتواترة، وأنوثتك الناضجة الباهرة، ومحبتك الصامتة التي تغفر كل شيء، تعطي كل شيء ولا تطلب عوضاً.. كل هذا أنبت في رأسي فكرة.. فكرة أن تكوني لي إلى الأبد!..

رجوته ألاّ أن يضيف شيئاً على ما قال. ما أعجز كلماتنا عن التعبير! وفي لحظة واحدة، في رعشة قلب سعيدة واحدة، يعيش الإنسان تجربة عمر كامل.

وقمت أرتب الغرفة وأقص الزهور الذابلة وأغيّر ماء الزهريات، وكلما مررت بالسرير قبلت سليم قبلات عاجلة خاطفة. وفتحت النوافذ على

مصاريعها فدخلت الشمس، عذبة دافئة كأنها هي أيضاً يفرحها منا جذلنا وسعادتنا.

وبدا حبيبي مطمئناً هانئاً.. أمرني أن أحضر له المرآة الصغيرة ومقص الشعر.. جعل يقصقص شاربيه ويدندن، على عادته حينما يكون سعيداً، أغنية شعبية من بلدهم:

ع الماني يا يمه ماني

وماني خايف من السلطان

وطرق الباب فدخل سامي. نظرت إليه كأنه غريب، ولكني تلطفت به وأهلت وسهلت:

- أدخل أستاذ سامي. سليم عال..

قلتها وأنا أنطرح على حبيبي أضمه إلى صدري وأطلق يدي في شعره السهل أداعبه وأفتله على أصابعي، بينما كان هو يرفع إلي نظرات شاكرة متيّمة تطفح غبطة.

كنت أسترق النظر إلى سامي. لم يبدّل شيئاً من هدوئه.. خيّل إليّ، للحظة قصيرة عابرة، إنه همد واعتكر.. ولكنَّ الحقيقة أنه كان مثل الجدار لا مبالاة وبرودة. قال له سليم وهو يحيط عنقي بذراعه:

- أترى كيف تتلألأ مثل ورد الربيع!؟

فأجاب في هدوء، طلق الأسارير:

- دلال ظريفة، تحفة.

- وما قولك بها زوجة؟ انظر، ألم تخلق لكي تكون أم عشرة أطفال أصحاء جميلين مثلها؟

فغمغم سامي من بين أسنانه:

- هوْم! من كلّ بد!

ولم تلبث العشيرة أن بدأت تتوافد واحداً إثر واحد. قدم باديء الأمر سعيد الخص وغسان الصباغ في بدلتين كحليتين.. وعند الباب وقفا جامدين لا

بريمان. كانا يردّان رأسهما إلى الوراء في خيلاء ولا يستمعان إلى صيحاتنا.. ولم يطلْ وقوفهما فقد تحركا إلى الداخل، وسعيد يلتفت إلى وراء ويقول لشخص في المدرب، مفخماً الكلمات:

- تعال يا غلام!

وإذا ولد حوالي الرابعة عشرة، بسترة بيضاء يحمل طاقة كبيرة من الزهور، ملفوفة بالجلاتين.

- ضعها هنا!

ومدّ سعيد يده إلى جيبه وأخرج قطعة عملة معدنية وانتهر الولد قائلاً:

- خذ هذا. يا اللّه.. إليك عني!

ثم نظر إلى غسان وأشار إليه برأسه، وإذا الاثنان يجلسان كأنهما لعبتان! وبإشارة أخرى من رأس سعيد لف الاثنان رجلاً على رجل. وقال سعيد:

- بلغنا، حضرة الأستاذ، نبأ مرضكم وقد تشرفنا... ولم يعد أحد، حتى هما نفسهما، يستطيع ضبط الضحك الذي ضج في الغرفة..

وجاء بعدئذ روحي المفتي. كان متألقاً، وأسمعنا قصيدة بديعة تتحدث عن راع عاشق ليس له صديق إلاّ المزمار، يروي له حكاياته ويذيع أسراره أنغاماً رقيقة بريّة. ولم يسمح لغسان أن يلعب على اكورديونه، فقبع في زاوية من الغرفة مثل ولد مجازى، وقد مرط شفته وقطّب جبينه وضغط حاجبيه الكثيفين بسبابته على صورة تحملك على أن تعضّه من المحبة. وقال سعيد وهو يغمز ناحية غسان:

- فظاعة شو معي حكايات!

فلاحقه الجميع بالأسئلة:

- احك لنا واحدة، دخيلك.

- بدنا ما نتخانق مع بعض الناس!

- خذ حريتك، احك!

ونظر إلى غسان من جديد وقال:

- فرط الحبّ!

وارتفعت أصوات ونهض روحي ثم جلس، وقال سليم:

- صحيح غسان؟

قال غسان في بساطة:

- صحيح. وأنا - حتى لا يصطد الدساسون في الماء العكر - لست مهتماً للأمر إطلاقاً!

- فظاعة ما أكذبه!

- طيب سمِّعنا القصة من أولها، ماذا جرى؟

- القصة ليست مهمة. وكلّ ما جرى أن ليلاي، داخل معترضتين، كانت برسم البيع فانباعت.

- فسّر فسّر، فظاعة! إنه يكذب على نفسه يا أخوان.. اشهدوا!..

قالها سعيد محتداً فتابع غسان مهدداً:

- إذا قوطعت أثناء الرد بترت القصة..

وارتفعت أصوات متوسلة، لائمة مهددة:

- من شأن اللّه بس سعيد.. من شان اللّه يا هو!

ورفَّ غسان بعينيه وأدارهما في الجماعة وحطهما على سعيد وبدا منتصراً. قال:

- أنا، من طرفي، ما اندهشت. المسألة، في كثير من البساطة، أنه، في إحدى كفتي ميزان، أنوضع الأدب والموسيقى والفلسفة والشباب.. وفي كفة أخرى أنوضع مال القبان من سوق البزورية. وطبيعي أن يدقّ مال القبان في الميزان أكثر مما تدقُّ الأشياء الأخرى! هذا هو المتن أما الشرح فقد أتى تاجر من البزورية وخطب ليلاي من أهلها. تصوروا. هو كهل في حوالي الخامسة والأربعين وهي في السادسة عشرة. وقبل الأهل يا سيدي. ولم تجد البنت

مانعاً. والطرافة في أن تدرس الفتاة بعد الخطبة. طوت كشحاً - اغفروا لي التفاصح - عن الأحاديث العليا التي كنت أفضي إليها بها، عن مرحلة الكشف التي نندغم فيها مع واجد الكون، عن القلق الخصيب الثر الناعم المتألق الذي يميزنا من اللاصقين باللا سؤال... وجاءتني تزفُّ إلى النبأ، وهي تنطهُ من الفرح!! ولكنَّ الأطراف من هذا أن العريس العتيد قد وضع شرائط قبلية لزوجة المستقبل. وهو متمنطق مع ذاته تماماً: ما دام يدفع فعليه أن ينقي، مثلما ينقي شاري النعنع أو الكراسي. وهكذا فقد اشترطها بيضاء، طويلة، حشو جلدها، يداها جميلتان، تعرف تقرأ وتكتب. وليلاي تملك كل هذا ولكنها ليست طويلة. أتدرون ماذا فعلت منذ بدء المفاوضات، منذ أن سمعت بالشروط القبلية؟! أصبحت لا تخرج إلا بكعب عال...

هنا انفجر سعيد في ذهاب صبر وغضب:

- وأنت يا حضرة الفيلسوف، ماذا صنعت دفاعاً عن سعادتك التي تفرُّ من بين يديك وعيناك متفتحان؟! كنتَ (يقلد كلامه) منشغلاً بدراسة الذات فيما وراء حدود المعرفة.. مندغماً مع الكون.. تخلّص نفسك من اللصوق باللا سؤال؟! العمى في قلبك! واللّه لو أني مطرحك لكنت خنقتها وخنقته ونيشنت الأم والطايفة.. بنت الكلب. فظاعة، العمى في قلبهم، فظاعة لو كنت أنا!

أجاب غسان في برود:

- لأنك، بكثير من البساطة والموضوعية وغير قليل من الإنصاف، حمار!

- أنا! يحرق..

- من كل بد. ما عساك أن تصنع بسلعة للبيع. أنت، عفواً أقصد أنا، في حاجة إلى علاقات بين حر وحر. وأنا كنت أعتقد أن الآفاق التي حسرتُ عنها السدول إذا تجلت للمرء مرة واحدة أصابه منها ما يشبه الوجد وانصرفت أبصاره إلى الأبد، إلى الأبد، إلى تأملها وتمليّها.. من تحمله جناحاه إلى هذه الأجواز يقض العمر كله في الشوق الجامح إلى بلوغها مرة أخرى..

ولكن! إذا بلغها محمولاً على جناحين غير جناحيه وأوهم نفسه وأوهم الناس ذلك.. فيا موت زر!

وسأل سامي:

- وماذا فعلت؟

- لا شيء. صرت أتفرج على هذه المسرحية الهزلية العجيبة مثل أي فرد من النظارة، لا كممثل.. لأنها لم تكن هزلية مراحُها مما كان ينشره موليير وتشيخوف.. ذلك المراح الذي يصفه الفريد دوموسيه قائلاً: «هذا المرح المشؤوم الذي كلما أراد الناس أن يضحكوا منه غلبهم البكاء!..» وأما هزليتنا هذه فهي نوع من التهريجة (فارْسْ) الإيطالية التي عرفها المسرح على اعتبارها نزوة عابرة لا جذور فنية لها.

في هذه الأثناء قدم جورج زيات، يجرُّ وراءه صفاً من ممثلي الإذاعة. وصفهم عند الباب وفتل شاربيه وفرقعت ضحكته العصبية الجافة وقال:

- ما جلبت باقة زهر هذا اليوم.. عوضناها بباقة من الأزهار الإنسانية.

ثم إنه لكز فتى أزرق العينين كستنائي الشعر، أجعده، ذا ابتسامة خجلانة بكوعه وقال له:

- قدّم الجماعة.

فصاح الآخرون.

- نعرفهم.

وتقدم الفتى من سليم وشد على يده.. قال سليم يقدمه لي:

- ألا تعرفينه؟ الأستاذ عدنان السنداني مخرج الفرقة.

وتعرفت على الآخرين. استرعى انتباهي من بينهم ناظم صدقي،. وهو من كبار المطلعين على الموسيقى الكلاسيكية الغربية. كان كثَّ شعر الوجه، تصل لحيته الفاحمة السوداء المحلوقة حتى عينيه، يتحدث فعل إنسان واثق مما يقول.

وانفرطت الجماعة حلقات، وحمي أوار الحديث. ضبطت المخرج عدنان السنداني يسرق مني النظرات، فإذا وقعت عينه على عيني أدار وجهه في حركة عفوية رقيقة. وسمعته يشكو من أن فرقته تفتقر إلى عنصر النساء:

- يقوم بدور النساء عندنا رجال. أليس هذا مخجلاً!

وفي حلقة تضم صدقي وسامي الحوراني وغسان وروحي وسعيد كانت تجيئك نتف من حوار عن الموسيقى. قال سعيد:

- ولكْ يا أخوان مسألة الموسيقى الكلاسيكية أنا لا أفهمها.

قال ناظم:

- دعك منها. إنها تحتاج إلى معرفة عميقة وتثقيف دؤوب.

- طيب اشرح لي مثلاً السمفونية التاسعة. أنا سمعتها عشرين مرّة ولا أزال أجهل أين تبدأ الحركة وأين تنتهي، فظاعة!

- السمفونية التاسعة يا مولانا تبدأ بالفرح فالحزن، فالفرح بين حزنين فالحزن بين فرحين.. وأخيراً يأتي الفرح الإنساني!

وغمغم سعيد:

- اللّه يلعن أبي إذا كنت فهمت كلمة.

وقال غسان:

- انتصرنا!

وعاد سعيد يسأل:

- طيب، وهيْ، شو اسمها؟ الباتيتيك لتشايكوفسكي.

- فقال ناظم هادئاً، واثقاً من نفسه دوماً:

- هذه تطوق عدة مواضيع موسيقية وتبدأ بالحزن فالفرح...

فصاح سامي وغسان بصوت واحد:

- فالحزن بين فرحين، فالفرح بين حزنين..

وضحك غسان حتى قلب على مسند الكرسي وقال بين الضحكات:

- أساساً مثل كسارة البندق وحلاق إشبيلية وحصار لينغراد...

وقلب ناظم صدقي شفتيه احتقاراً وقال:

- أتسخرون!؟ إن الموسيقى الكلاسيكية تحتاج إلى معرفة عميقة وتثقيف دؤوب، أين أنتم منهما؟!

وقطع على هؤلاء ضحكهم أن جورج نهض خطيباً:

- أيها السيدات والسادة نحن...

وقاطعه سعيد:

- أنت، ما صنعتك؟

- موردّ ممثلين، اخرس! أتابع.. نحن نعتذر من عدم إهداء طاقات الزهر ومجامع الحلوى بتقديم مسرحية صغيرة ليست من قيمتكم.. موافقين؟

صاح الجميع:

- نعم!

وقال الممثلون.

لعب رسمي سعد الدين، وهو كهل قصير، كبير الأنف له طقم أسنان، دور إمرأة عجوز شحيحة تساوم حذّاء (عدنان السنداني) يفهم منطق النسوان، فيطلب إليها سعراً مرتفعاً، تجيب عنه باللوم والعتاب والأمثال العامية التي تبشّر المسلم الغشاش بنار جهنم تشوي وجهه. ولكنَّ الحذاء، الذي أعدَّ لكلّ أمر عدته، ينفلت عليها بوابل، لا ريب فيه، من الإيمان المغلطة، أقلّها الطلاق الثلاث أنه يخسر إذا باعها الحذاء بمثل هذا السعر، غير أن خاطرها غال فما يفعل!؟.. وفي هذه الأثناء يتدخّل صديق للحذّاء (وحيد زيزي، فتي كبير الرأس ضاحك العينين، غليظ الصوت يتكلم شامية شعبية كثيرة الألوان) قد اتفقا فيما بينهما على الخروج من مثل هذه المآزق.. فيزعم الصديق أنه زبون وأنه يريد أن يشتري الحذاء نفسه لامرأته.. وترضخ العجوز، وتروح تخرج، في بطء قاتل، المبلغ من محفظتها، مصروراً في كدسة من الخرق. ويسطع وجه الحذّاء، ويتصنع الصديق الأسف والغيظ. ولكنّها - العجوز - فجأة تعيد

العملة إلى خرقها ثم تدسّها في المحفظة، وتدير ظهرها.. وتقصد الباب في مثل همة الصبايا وهي تؤكد أن حذاءها لا يزال جديداً، وأنها ليست واثقة من أن يمتد بها العمر فترى حذاءها قد تخّ واحتاجت إلى سواه.. وأخيراً تصرّح أن مجيئها ما هو إلا نزوة، ساعة خرف:

- يوه تقبروني يا حبيباتي شو صاير لي؟! هذا الخرف لا تواخذوني.. إي خاطركم!

كانت جلسة بديعة، سمعت فيها ضحكاتنا ملء المستشفى، بل والشارع أيضاً، فما أجمل كل هذا!

* * *

الفصل السادس عشر

لما هبط المساء بدأت الجماعة تتصرف. لم يبق إلا سامي وروحي المفتي وأنا. قال سليم:

- تعالوا نلعب بالورق.

قال روحي المفتي:

- أنا أعتذر، سأذهب الآن وقد أعود في الليل. أتوصيني بشيء يا سليم؟

- لا، شكراً، ولكن أوصل دلال إلى بيتها. أوصيك بها. دلال. خابريني وقت وصولك، لا تنسي! سامي، أنت باق أليس كذلك؟

- إي نعم.

وكانت الأمسية هفهافة، حنوناً، والشمس الغاربة قد خلفت وراءها بحراً من النيران يشتعل في نثار من الغمامات الشاردات.

سرنا معاً، نتحدث ونتأمل. وسألني إذا كنت أسمح له أن يروي لي مقطوعات من أشعاره، قال:

- أتعرفيني يا دلال! أودُّ أن اسمع رأيك في أشعاري.

لقد أبعدتني الأيام من هذه الهمسات الشاعرية منذ أن ذهب الآخر... وهاأنذا أصغي وأتذكر. وكان فيما أنشدني قصيدة للشاعر الفرنسي شارك بودلير، وعنوانها الرحيل. ولما أنشدني هذا المقطع:

... في حيث الشموس نديانة

شموس تلك السماوات الملثمة

التي لها في روحي

السّر المستتر

الذي لعينيك الغادرتين

المضيئتين من خلل الدموع..

قال لي ووجهه يعكس حيرة عميقة:

- كيف نصنع من مثل هذه الأخيلة الغريبة القريبة شعراً؟! إن أوزاننا، فيما أعتقد منغومة على شكل يعسر معه نظم الأفكار المهموسة. يجب أن تخترع أوزان جديدة، التطريب فيها أقلُّ حتى تستطيع نقل حتى هيمنة الخفق في القلب الواله! وأنا لا أمتدح لك نفسي، ولكن ثقي أني شققت للشعر العربي دروباً جديدة رائعة. ستكون طريقتي في المستقبل بداية عهد جديد في الشعر، عهد يورخ له!

ثم إنه رنا إليّ على استحياء وقال لي معتذراً:

- دلال، في هذه الأمسية العذبة.. وأنا أقرع أذنيك بلوثتي!

قلت وأنا أمسك يده مشجعة:

- حديثك عذب يا روحي وأنا لا أملُّ منه.

وضربنا في شارع أبي رمانة إلى أن ضمتنا الحديقة الصغيرة الأنيقة في ساحة المعري. كنت أستشعر برد الراحة وصفاء القلب، ويخيّل إليّ أني أسمع رفيف أجنحة الملائكة في السماوات البعيدة.. وانسربت مع هذا القرار الحزين يسيل من روحه الشاعرة حيناً ومن هذا المساء الخريفي حيناً.

وقطع نبع حديثه العميق فجأة وأمسك بيدي الاثنتين وقال لي في صوت جعلني أغمض عينيّ واستسلم للأحلام:

- دلال، هل تدركين قيمتك، قيمتك الحقيقة في دنيا القلوب الولهانة هذه؟!

وفتحت عينيّ. لم أجب. جعلت أتمرى في عينيه القلقتين الحالمتين مثل بحيرة تحت ضوء القمر. أضاف:

- أنت يا حبيـــ... يا دلال لحن لم يقبّض له العازف. أواه لو تدركين ماذا تفعلين حينما تنقلين خطواتك من مكان إلى مكان! هل رأيت لوحة «الربيع» لبوتشيلي الإيطالي؟ الآلهة تنقل خطواتها فتوج تحت قدميها الأزهار المضيئة... أنا أعرف أني إنسان لا يمكن أن يكون له وزن في حياتك، ولكنك لا تملكين أن تمنعيني من خلقـــ... عفواً من عبادتك..

صحت به وأنا أضع يدي على فمه:

- روحي، حياتي، أنت تظلمني...

فأخذ يدي برفق ورفعها إلى فمه وعيناه تمتلئان بالدموع. تركته يفعل. أنا لسليم جسداً وروحاً، ولكن ماذا أصنع إذا كان الناس كلهم يعبدونني؟!

لما دخلنا في زقاقنا تنهد روحي وقال:

- ما أسرع ما افترقنا!..

وفتلني نحوه في عصبية وأمسك يدي وشد عليهما وجعل ينظر في عينيّ فوضعت رأسي على كتفه. قال:

- لن أنسى لك هذه المنّة يا دلال. إنك جعلتني أحيا أروع أمسية في عمري. سأفكر فيك كثيراً وأحبك كثيراً وعلى الأخص ستكون أشعاري كلها لك، لك وحدك.

ولما مضى أطلت الوقوف أمام المنزل، أرقبه وهو يبتعد ورأسه إلى الأرض.. ولما بلغ نهاية الزقاق التفت نحوي.. أخيراً وقعت على صديق يفهمني!

فيما أعقب من أيام انتقلت حلقات المستشفى إلى الجريدة. شفي سليم واستكمل صحته فأزداد تلألؤاً وفتنة وازداد هوى ووجداً. ولكن! ولكن الإشارة التي جعلتني، ذلك اليوم في المستشفى، أسعد بنت في العالم لم تتوكد أبداً. كنت أحنُّ إلى أن استقرَّ، إلى أن أنتهي من هذه الحياة المترقبة الضائعة. لا أنكر أن حرارة عاطفته لم تخب أبداً. كان هو وحده الذي يشعرني بأني محتواة، مملوكة، معبودة.. ولكنّ الإشارة، الإشارة!

وهكذا.. بقيت روحي، كما كانت، تطلب الطعوم الأخرى، تلك التي ذوّقني إياها سامي وروحي. ولذلك فقد أصبح هذان شغلي الشاغل، وإن لم أقطع حبالي بسليم.

كنت ألقى روحي على الأخص في الأمسيات، فنسلم أنفسنا إلى نداء الطبيعة لا نتصنع في الاستجابة إليه. وبعد الظهر أذهب عند سامي. أعطاني مفتاح بيته فجعلت، منذ اليوم الأول عاليه سافله. أعدت ترتيبه من جديد. صار البلاط يزقزق نظافة ويلمع لكثرة ما دلكته بالليف والصابون. ورتبت السرير ترتيباً لا يختلف في شيء عن ترتيب أسرّة المتزوجين.. ونسقت الكتب، كل فّنٍ على حدة. كان واضحاً أن أنفاس امرأة، أنفاس زوجة قد هبت على الدار.

وكثيراً ما كنت أثير مشاكل مما قد يحدث بين امرأة ورجلها، فأفتح حلقي على المصراعين، وأشتم سامي وأقرعه لأنه.. تأخر في السهرة أو لأنه تكلم مع امرأة في الطريق.. أحابيل مختلقة ليس لها أساس، إلاّ رغبتي في أن أبسط ملكيتي على كل شيء! أما هو فما كان يهتمُّ لشيء إلا لوجودي. لم يسألني قط ما إذا كانت لي علاقات مع غيره. وكان يسوؤني ذلك أحياناً، فأروح ألفت نظره من بعيد لبعيد إلى أن صلاتي بسليم لم تنقطع وأني أتنزّه مع روحي وأدعه يسمعني كلمات الغزل والوله.. ومن الغريب أنه ما كان يزيد على أن يقول في هدوء قاتل:

- إذن هكذا!

ويضمني إلى صدره دون كلمة غيرة واحدة، حتى ولا كلمة حب! وصدف أن اقترضت منه خمساً وعشرين ليرة احتجت إليها في بعض شأني، فكان لا يسهو يوماً واحداً عن تذكيري بها! خيّل إليّ أني أصبحت في عداد أشيائه الرتيبة المحسوبة حساباً دقيقاً. ولما دفعت له المبلغ في غضب، قل قذفته في وجهه، لمّه من الأرض ودقق في القطعة تدقيق الناقد الحصيف

وراح يطويها في عناية ويضعها في محفظة نقوده. ومع ذلك فما كنت قادرة على هجره. كان بيته، بيتي.. يربطني إليه بأمراس مُؤلمة الشد، لا أستطيع تقطيعها. فما أعجب هذا!

في غفلة مني كانت تجري أمور عكرت حياتي، وجعلتني في حيرة من أمري. رحت مرّة أزور سليم، فرأيته مكفهر الوجه تعيساً، فأنشأت أربت على خده مداعبة، وإذا هو يقبض على يدي ويبعدها منه في قسوة أذهلتني. قلت في دهشة:

- حياتي! فيه شيء؟

فرجمني بنظرة من جمر تفيض بغضاً واحتقاراً وصرخ بي:

- حياتك يا خائنة! يا كاذبة لِكَمْ من العشاق تقولينها في وقت واحد. قولي! من يدري؟! لعلك كنت تقولينها لسامي منذ دقيقة في وقت واحد. وروحي! سمعت أنك فسحت له مطرحاً في بساطك الممدود القذر أيضاً. قولي لي هل كان يسلّيك أن تجلسي إلى عشاقك الثلاثة في وقت واحد - ومن يدري فقد يكون وراءهم عشرات آخرون - وتستمتعي بشعور: إنك كنت لهم واحداً واحداً. انظري يا خائنة. أنا أغتفر الآن، في هذه اللحظة، لكل إمرأة تبذل جسدها لآلاف الرجال، ولا أغتفر أن أحداً عرف ما فوق ركبتيك! ما أنبل سامي. قال لي بكل براءة: «لا أصفح عن نفسي أني كتمت عنك علاقتي بدلال!» هذه الكلمة بدلت كل شيء. ومع ذلك تهيأت للعفو. ظننت أن علاقته بك قد نشأت لما كنتِ مع أخي ثم انبترت وقت عرفتني، ما كان أشد غبائي! علمت منه أنك في اليوم الذي جئتني، بعد الساعة التاسعة من صباح الأحد، كنت عنده منذ الساعة السادسة والنصف صباحاً. أريد أن أعلم فقط: إذا كنت أحببتني فما سبب علاقتك بسامي؟ وإذا كنت تحبينه فما السبب في أني كنت إلى عهد قريب، حتى أثناء علاقتك به، أدعى: حياتك؟

ثم إنه انتصب واقفاً، وجعل يقطع الغرفة وهو يزفر:

- إن ألدّ أعدائي لا يفعل بي فعلك. تلحيّن علي بالزواج وتقيمين في الوقت ذاته علاقة أثم ومنكر مع أصدقائي. فلولا أن قدّر اللّه أن أكون عاقلاً إلى هذا اليوم، فلا أرتبط معك برباط شرعي، فماذا تكون النتيجة؟ أن أدرج في عداد القوادين وأصحاب القرون!.. ماذا تريدين؟ الانتقام من أخي بي! أم هل سوّلت لك نفسك أن تستمتعي بأخي عن طريقي بعد أن فشلت في اصطياده!؟ الآن أعرف أن أخي إنسان عظيم. لقد شككت ذات يوم بنبل معدنه، شككتني أنك يا خائنة. ولكنني بعد أن عرفت السّر، سرّك، علمت أنه ما يزال أنبل إنسان، وإن هجره لك كان تبصّراً منه، منشؤه أنه فتى طيب وأن أطياب الناس تحميهن من الشرور عناية غير منظورة.

ومضى يشتمني بأقذع من هذا، كنت أحسّ شيئاً مثل أسياخ الحديد المتشهب يلسعني، وقال لي أخيراً:

- أنت تعرفين نعمة حمدي، صديقتك ما شاء اللّه وأنت من من المجنونات إعجاباً بها لمجرد كونها قلفطت زوجاً.. أنت تعرفينها ولا بد، ولكنك تجهلين أني نلتها ذات يوم، في نفس الوقت الذي كان ينالها أخي وغير أخي. ولكنني مع ذلك أحترمها اليوم أكثر منك، لأنها لم تقل لي: «حياتي!»، ولم تتطاول إلى حد مطالبتي بالزواج. كلُّ ما في الأمر أنها اشتهتني فبذلت لي، ثم أعلنت بقطيعتها المفاجئة أنها نادمة على زلتها.. لم تبذل لي نفسها وهي مخطوبة أما أنت فقد فعلت رغم يقينك أني رجل طيب، وأن لي قلب إنسان، إنسان عاشق، وأن نيتي كانت متجهة إلى ضمك لحياتي إلى الأبد. أيتها الساقطة المريضة. ظني أنك تؤمنين بما يقوله لك عشاقك من أنك نفرتيتي أو جورج صاند. الحرمان هو الذي أنطقنا كلنا بمديحك. وأخي، طوال الأربع السنوات التي عرفك فيها، لم يكن يكتب إليك أنت رسائله الشاعرة.. كان يكتب إلى إنسانة خلقها هو، فنه وجده بالمجهول. نفرتيتي، جورج صاند!؟ الخير لك أن أسمعك حقيقتك: أنت سخيفة مجنونة، بلهاء، فاشلة، مائعة، أنفك مشوه، وكبير أيضاً. سكربينتك أكثر من أربعين،

تحلقين ساقيك بالشفرة، ويداك ما فيهما ريحة الأنوثة، يدا مكنّس.. هاك حقيقتك يا كلبة!

لم يترك كلمة مهينة إلا طعنني بها. كان أهوج، مجنوناً، شديد الغيرة، جواداً في السيئة جوده في الحسنة سواء بسواء، فاتناً مقيتاً. ولم يكتف بهذا المزراب من الشر يصبّه عليّ، بل أشرع كفه وصفعني.. كان يحبني حباً مجنوناً، القاسي!

بكيت، وخرجت من عنده محطمة مكسورة القلب. أنا لم أعتد أن يوجه إليّ أحدٌ مثل هذه الكلمات. ماذا فعلت حتى أُهان؟ أهكذا يجازي من كان في الناس يداً مهدهدة وقلباً رؤوفاً رحيماً ملهوفاً. ومهما يكن من أمر فأنا لا أحب أبداً أن يصفعني أحد!

كنت أستشعر الوحدة والكآبة. رأيت الناس شريرين، قساة، غلاظ القلوب. وفي الطرق التقيت أبا أحمد. إن هؤلاء البؤساء المساكين من الفعلة خير من المثقفين، حاملي المشاعل الكاذبة.. لملمت شعث نفسي وحييته في إقبال وحفاوة. لقد غاب من عينيه ذلك التلميذ المذنب.. كان يرتدي بدلة جميلة، وخيّل إليّ أن رجلاً مثله قادر على إسعادي أكثر من كلّ شعراء العالم وكتابهم.. إن أمثاله يعبّرون عن عواطفهم الكريمة لا بأنهار هادرة من الكلمات، بل بالفعل الصامت العاشق. ما أجدرني أن أفتح عينيّ، وأفيء إلى رجل يجدني نعمة من السماء، رجل لا يكذبني! ما أجدرني أن أقلع عن طلب العيش في كنف مغن أو ممثل أو ملحن! وقلت:

- كيف حالك يا أبو أحمد. صار زمان، أتعرف؟ ألم تشتق لي؟

فأجاب لائماً:

- لكْ يا ست دلال، لكن كيف. ولكن أنا مشغول في ها الأيام، ع إقبال عندك أن شا اللّه. أمي خطبت لي من ضيعتنا. أما يا ست دلال نقفة صبية، متل شقفة العسل. والكلام بسرك ما كلفتنا إلا رحمة اللّه.

- ليش ما تزوجت واحدة من المدينة!؟

قال مستفظعاً رأيي:

- لا يا ستي، بعد اللي شافته عيني...

تركته واجمة. محرونة يفرقني الغم. وفكرت في روحي الشاعر! كان وجداني يعذبني إذ جنحت، في ساعة ضعف، إلى الاستسلام.. أن أقبل رجلاً، أي رجل، لا تتوفر فيه مطامحي العليا!

ذهبت أفكاري إلى روحي لأني كرهت الرجال الذي ينظرون إليّ كما ينظر العبد إلى شهرزاد توفيق الحكيم، إلى جسد جميل. كنت أتشوق إلى من يراني روحاً جميلاً، خاطرة حسناء، وحياً جميلاً.

كنت وأنا ذاهبة من عند سليم أعجز من أن استمّر في التفكير بقسوته المميتة.. ومع أني عذبت وأهنت وضربت فقد كنت لا أزال مؤمنة بأن الخير لم ينفق من الدنيا.. كان يحدوني مثال نعمة حمدي. وما كان أشد احترامي لهذا الإنسان الشهم الذي تزوجها.. كنت عندها من أيام.. هي الآن حبلى، تترهدن في الطريق مدلة، كثيرة الخيلاء!.. لقد مجدت هذا الإنسان من كل قلبي، لأنه رفس القيل والقال بقدمه، وغاص في اللجة الوسخة كي يخرج للعالم نبتة جديدة كريمة. رأيتهما يومذاك في عشهما بعيني الاثنتين هاتين.. فتى أبلخ وضاء الأسارير، بادي الرجولة، سعيداً بما ظفر، هنيئاً، يناغي نعمة مناغاة رقيقة، ويتحدثان عن طفلهما الآتي (حبلى خمسة أشهر)... ولما انصرف جعلنا نستعيد ذكرياتنا...

* * *

الفصل السابع عشر

كانت نعمة في السنين الأولى من الثانوي، زيادة على قصرها والشاربين والذقن، سميكة الذهن، تقف أمام أبسط الأشياء جامدة مغلقة. كنت تحسّ لهاثها في اللحاق بنا. أما نحن فكنا نقطع عليها السبل في قسوة. واذا خطر لها أن تشارك في اندفاع الصف إلى أمام، بأن تستوضح عن مسألة، هبت عليها عواصف مديدة من الضحك. حتى الرفيقات الكسولات، اللاتي. كن قادرات على أن يطرحن أسئلة أشد سخفاً وأكثر دلالة على الجهل، كانت تدمع أعينهن ضحكاً على نعمة. وأعتقد أنَّ هذا المظهر الوديع الذي يظهر به مجتمعنا يخفي في جملة ما يخفي قسوة دامية. بل أميل إلى الظنّ أن هذه هي أبرز ما وراء القناع. وإذا كنت ممن يتتبعون أخبار الجرائم في الصحف لاحظت أن جرائمنا يتّسم أكثرها بالغدر والحقد والقسوة، ولاسيما حينما يتعلق الأمر بما يسمونه: «الدفاع عن العرض». هنا لانرى إلا «مراجل» دنيئة، رخيصة لا تكلف أكثر من ثلاثة أشهر في الحبس. ولا أنسى عمري خبراً قرأته في إحدى صحف الجرائم (وهي شديدة الانتشار في بلادنا والحمد للّه!) إن فتى لكعاً ضرب أخته ست عشرة سكيناً وهي تقبّل قدميه وتطلب غفرانه! كانت تحبّه كثيراً ولعلّ أساءتها إليه كانت أفعل فيها من ضرب السكاكين.. ولما تم له الأمر حز رأسها وفصله، الخ... ثم إنه شكل في عقاله وردة حمراء، وردة كان يجب أن تهدى إلى حبيبة، وراح يتبختر في أزقة القرية إلى أن وصل المخفر.. فسلم نفسه!!.

.. وهكذا فقد أدخلت نعمة في روع أهلها، بعد أن هجرها فريد، أن لا نجاح لها إلا اذا تابعت تلقي الدروس الخصوصية. ووقع في اعتقادي أنها كانت تقيم علاقات غرامية مع مدرسيها كلّهم، يسيطر عليها في ذلك فكرتان

شديدتا الإطباق على كلّ حركة من حركاتها. الأولى تدبّر زوج، أي زوج. والثانية النجاح بأي ثمن . ذلك لأن ضياعها، بعد فريد، لم يطل.

كانت -مثلما روى لي سليم وهو يشتمني - لاتطيل العلاقة. تجعلها من هذا النوع الخاطف الملهوّج، الذي لايثير في قلوب الرجال غيرتهم وأنانيتهم، ينسونه بسرعة، على اعتباره غزوة من الغزوات الهينة اللينة.. أما أنا، فمنذ البدء، كنت عندما تغرز رجلاي في علاقة، سرعان ما أغطس فيها حتى أذنيّ، أظلُّ أغطس حتى أغرق. وأذكر أن سميّة باطوش، إحدى رفيقاتي، طاردت رجلاً يعمل في إحدى القنصليات حتى ظفرت به أياماً معدودات.. لا لأنه جميل أو غني أو شاعر، بل لأن له وجهاً صغيراً يشبه وجه الفارة. كان فضولها يحملها على هذا السؤال الملّح: «كيف تبوّس هذه الفارة؟».. وعرفت رفيقة أخرى كانت تعشق بالهاتف، تركب الفيش في غرفتها اذا نام أهلها، وتخابر محرري الصحف الصباحية الذين يسهرون حتى الفجر. كانت تخبيء الجهاز تحت اللحاف، وتظل تتكلم ساعات تصف خلالها ملابسها الداخلية.. وهذه الرفيقة ذاتها حكت لي أن أحد أقربائها قدمها إلى ديبلوماسي أجنبي، نصراني، فجعلت تردد في سرّها طوال النهار: «أنا زوجة ديبلوماسي!؟».

ولست أدري هل كان انعطافة نعمة، بعد فريد، نحو الجد أشقّه، ووقوفها عند الدعاب العابر وحده، ناشئين عن يأسها من الزواج أو من سبب آخر.. غير أن ما شهد به كل زميلاتها، وأنا نفسي، أنها انكبت على التحصيل انكباباً فظيعاً. وبينما كنت أرسب في جميع المواد ما عدا اللغة العربية والتاريخ، كانت هي تقفز الصفوف قفزاً سريعاً. وحدث أن سقطنا معاً في الصف الثامن، فارتضيت أنا أعادة السنة. أما هي فقد تركت مدرسة التجهيز الرسمية وانتسبت إلى مدرسة أخرى خاصة، قبلت أن تضعها في صف البروفيه. ومنذ ذلك الحين لم توقفها إلا الجامعة!.

وفي الجامعة، هذا الخاتم لبيك، كلُّ شيء يهون.. في برج بابل هذا يجلس، على مقعد واحد، القروي الذي لايعرف من أمر بنات المدينة إلا الأرواب اللطيفة التي يفصّلها جبران أبو دقن وألبير أبو راشد، قرب الشامي

الخبيث الذي قطّع السابلة قبل دخوله الجامعة.. وعلى مقعد واحد أيضاً تسمع الصوت الأنثوي الأغنّ يهفهف باللهجة الشامية التي تفعل بالرجال ما فعلته الخمرة في دبّ ديمتري كرمازوف، أو مايفعله الاستر كينين في خيول السباق.. يردُّ على هذا الصوت آخرُ من الشمال، يخرج من الحلق، ويلفظ الجيم مثل التشه الانكليزية، ويغلظ لفظ القاف حتى تخاله يحشرج بها حشرجة!.

ولعلّ نعمة، على بلادتها، قد فهمت برج بابل العجيب ذاك! كانت تدخل الصف حسنة اللباس، عظيمة الجد، مرفوعة الرأس، لاتنظر إلى أحد!.. أغلب الظن أنها كانت تقلّد دلال التجهيز، دلال التي علمت الصبايا كيف يكّن مليكات على عرش القلوب. ولكن وا أسفي! كنت في تلك الأيام اتبغدد بين خلق من بنات جنسي، في دنيا ما فيها ناس!.

وفي درس من دروس الجغرافيا جلس قربها زهير العفار، زوجها الآن، وهو شب من مدينة صغيرة في الشمال، مدينة لا تزال نساؤها وراء المنديل الصفيق والملاءة الزّم، وابنة العم لا تظهر لابن عمها اللح.. ولاحظت نعمة أن الفتى مرتبك، متبلبل.. بلبله مجرد أنه أنوجد قرب أنثى. كان يخيّل إليها أن بؤبويه يندفعان ناحيتها اندفاعاً شديداً يكاد يخرجهما من حجريهما، واذا صدف أن مسّ مرفقه زندها سحبه في سرعة وتحرج وغبطة عظيمة. وهمست في أذنه:

- أنا لاأفهم شيئاً!

فاختلجت عيناه كثيراً، وانفتل نحوها منكّس الرأس، ثم تلفت حواليه وحدّق في وجه الاستاذ قليلاً، ولقط باصبعين من اليمين ظفر اصبع ثالثة من اليسار و... لم يقل شيئاً، ومضت هي تقول:

- أأنت تفهم؟

فأجاب في صوت مخنوق وعيونه دوماً إلى الرَّحلة:

- نعم!

ولما انتهى الدرس تعمدت أن تمسَّ كتفها كتفه عند الباب، قل إنها زحمته، فتأخر لها وقدمها، ولكنّها التفتت إليه وقالت:

- أنا لاأزال أسأل نفسي كيف أستطيع أن أهضم هذه الدروس!.

وسارا معاً. اقترح عليها أن يشرح لها الدرس. كان متفوقا، لأنه لايعرف غير غرفته والجامعة. وفي النادي شرع يشرح لها الدرس في حماسة.. أشعرته بتفوقه وحمايته. وفي خلال أسبوع اعتادا تحضير الدروس معاً، ثم لم تلبث أن دعته إلى بيتها وقدمته إلى الأسرة.

كان حادثاً مهماً في حياته أن يُستقبل في أسرة، ولاسيما أنه يحيا وحيداً، وفي بلدته ليس له إلا خالة عجوز وعمٌّ طيب يشرف على أملاكه. ومنذ اليوم الأوّل أحسّ أنه بين أهله. كانت أخت نعمة الصغرى تتعلق به وتسأله أن يعينها في حلّ مسألة حساب، وبنات الأسرة البعيدات يمازحنه بالكلام الشامي، وأمها تشركه، على عادتها، في مشاغل الأسرة وتبكي له وتخاطبه «يا دادا» أو «يا أمي». أما الأب فقد وجد في صمته وحيائه مستمعاً دسماً لمصيبته في الوظيفة.. ولم يطل الحال، فقد جاءها ذات يوم وجهد أن يخلو إليها، فلما تمَّ له ذلك، اندفع بهذه الجملة في نفس واحد:

- نعمة! هل تتزوجيني؟

وأظهرت دهشة منافقة. لم يكن بينهما، حتى ذلك الحين، قبلة واحدة، وهذا ما جعل انتصارها كاملاً. هؤلاء الرجال! إنهم لا يستحقون منا نظرة واحدة قبل الزواج! وقالت في مكر:

- أنت تعلم يا زهير أن.. إني .. أردت أن أقول إنك شب ظريف، ولكن الحب.. أنا أقصد.. انظر إليك نظرتي.. إلى صديق، إلى قريب من البيت، من العائلة!.

واندفع يقول لها متحمساً:

-ستحبينني يا نعمة. حبي سيتغلب عليك. أنا أحبك يانعمة كنت ضائعاً قبل أن أعرفك. نعمة أرجوك!.

وقالت وهي ترفع حاجبيها مستسلمة:

- على كل حال، أنت تعلم! أبي وأمي، يجب أن أقنعهما! وظلت أسبوعين لاتعطيه جواباً قاطعاً.. وزعمت له أخيراً:

- خجلت! قل لهما أنت.

وقال لهما.. إن أدبَّ دبّ في العالم يحزر أنها قالت لهما، وأنهما رضيا، وأن أمها صاحت «أو ..ها»، وأن أباها انتهرها فبكت.. وأنهما موافقان قبل أن تستريح سفينة نوح على جبال أرارات.. قال له أبوها:

- يابني أنا أعطيك جوهرة.بنت ما باس تمها غير أمها.خطبها قبلك كتير، ولكن أنا يا عين عمك لا يوافقني إلا الأخلاق. كنت أسهر الليالي وأنا أفكّر في مستقبلها. ولما فتحت عينيها على الدنيا كانت يد أمها اليمين.. في صغرها كانت تلفُّ المكنسة بالقماط وتغني لها أغاني حتى تنام.. هي! هي! هي! وتمسح أرض البيت! وأعظم طباخة! أممـــ.. مم تأكل أصابعك! أمها محالة على التقاعد من عشر سنين، شغلتها صانعة عند نعمة! أنا معلومك موظف حكومة وترى عيوني من العال إلى الدون، والانسان وينك! في حكومة الزفت هذه يجب أن يصبر. لم أنل درجة واحدة منذ ست سنين.. وهات يا شغل! واللّه يا عين عمك لا أرفع رأسي من الثامنة حتى آخر الدوام. وغيري قاعد مثل الحداد بلا فحم، لا شغلة ولا عملة درت بالك. خليها لمالك الملك!.

وأعولت الأم:

- هدي أمانة في رقبتك يازهير. أنا طلعت من دنياي عليها. ما شفتها صبية إلا مات فيَّ كل يوم عرق بين يدي ها الظالم هذا!.

ولاحظت نعمة أن أباها قد احمّرت عيناه ويريد الخصام. فأخذت زهير من يده وخرجا إلى الشرفة، وبعد حين يسير بلغتهما زغاريد الأم، ثم أصوات شجار فأغلقت باب الشرفة.. وحاول زهير أن يقبّلها واذا هي تغضب وتبرطم وتركي رأسها على كتفه وتتباكى وهي تقول في لوم:

- ماذا فعلت؟!

فأخذ يدافع عن نفسه في حرارة وهو يغصُّ بالزهو ويشرق بالفرح. ولم يزده الصدّ إلا وجداً وافتتاناً. ما أعظمها ! قال لها في انجذاب:

- حبيبتي!

فانضغطت على صدره في تدلل، ورفعت نظرها إليه، فأمسكها من كتفيها وقال لها في حرارة:

- أنا ولدت اليوم يا نعمة، بل يوم عرفتك يا مليكتي الصغيرة المعبودة! انتهت المدرسة. انتهت، خلص. أنا لا أريد لهذا الدماغ الصغير المحبوب أن يتعب في تضاريس جبال لبنان أو خط الانهدام. أنا أريدك أن تكوني لي، ولأولادي، لرزقي!.

وقالت نعمة مستنكرة:

- والعلم!

العلم؟! كانت قادرة على أن تمدّ لسانها لنيوتن، وترفس اينشتين على معدته، وتدحرج فاراداي من سطح بناية كسم وقباني! العلم!؟ كأن مربّع الوتر إذا كان مساوياً لمجموع مربع الضلعين.. كأن ملح الطعام إذا انقسم إلى كلور وصوديوم.. كأن.. هزّتنا نحن هذه الرعشة التي لا نهاية لجمالها حينما نضع طفلنا الرضيع على ذراعنا فيشدنا من شعرنا أو يلتهم أنفنا! كأن نابليون بونابرت اذا تسخّم على عمره ونشر عام ٩٩٧١ منشوراً باللغة العربية يعلن فيه إسلامه.. إنما نشرت شهادة ميلادنا في المحكمة الشرعية!..

وهي الآن حبلى، تتصنع الشكوى من الزلال وتتوحم على القهوة المحمصة، وتحسُّ بأعراض لم أتذوقها.. وزوجها هدّل بها، فخور بنفسه، يشمُّ ويلمّ ويضم.. أما هي فتروح تتفاصح علي:

- الزواج! لا أنصحك به يا دلال! صعب! مسؤولية كبيرة، وحبل ووضع ورجل يعودك عاداته! أين حرية البنت العزبة؟

وأنا أكذب عليها، وعلى نفسي وأحسُّ أننا أصبحنا في برزخين بعيدين، بعيدين، فأقول:

- نعمة، أنا لا أعتقد أن الزواج غاية في حد ذاته. الأصل أن يعيش الإنسان، في الأيام المقبلة، في أولاده.

فتضحك مني قائلة في ثقة:

- أنت لا تزالين رومانتيه يا دلال. الزواج ليس غاية؟!

كيف تسمحين لرأسك أن تندس فيه هذه الأفكار؟! اذن ما الغايةاذا لم تكن هذه المملكة الصغيرة الهانئة التي تتحكم بها وبسيدها كيفما نشاء!؟.

كان واضحاً أنها تشعر بتفوقها عليّ. ولما حدثتها عن روحي المفتي والصداقة الحالمة وأمسيات الخريف التي يغرق فيها الأفق في بحر شاحب من الأضواء، عن الفجر في الغوطة يلوّن الوجود بفرح بنفسجي أهيف وغبطة لانهائية، قالت لي قاطعة عليّ حبل الحديث:

- دلال! ألا تعتقدين أن منظر المقلاة وهي تنشّ فوق البوتاغاز، وزوجك جوعان، ومريلتك معلقة في رقبتك، والمكواة حامية، وابنك يشدُّ لك ذيل رُوبك.. ألطف في العين، وأحلى على القلب من كل ما خلق اللّه من آفاق غارقة في بحر من الـــ لست أدري؟!

كان بيتها عشاً حقيقياً.. ثلاث غرف وصوفة فرشت فرشاً وثيراً. المقاعد من المخمل النافر، والسجادة كاشانية فاتحة اللون فيها عروق حمراء. وفي الوسط منضدة مدورة عليها مرآة بلجيكية فاخرة، وصحن سيكارات من بورسلين سيفر على شكل راقصة تفتح حضنها للأعقاب. وأما الحائط فتحتلّه صورة ذات إطار مذهب فخم: نعمة في ثوب العرس الأبيض السابغ والتاج على رأسها، وزهير عن شمالها. قلت إطار مذهب فخم وكان علي أن أقول إطار من البهجة، يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار!.

ولكنّ ألطف ما في العش الشرفات. كانت نعمة تحبُّ الأزهار حباً جماً، فنثرت في كلّ مكان على حواجز الشرفات شقوفاً من النسرين والنرجس

والليلك والفلّ. وفي الفيراندا المطلّة على بستان الكزبري، عن يمين، صبية فارعة الطول من زهر العسل، تتدلى منها أجراس كالأقراط الذهبية، ويتضوع منها عطر يحملك على أن تغمض عينيك وتشهق كأنك تحت رذاذ شلال معطر في يوم محرق!

وتزوجت أيضاً أميمة الشافي، رفيقة الصف الصغيرة التي، لما صار الحسون حراً، اختار العبودية في جوارها! وقت تزوجت كان عمرها ست عشرة، ولا تزال رقيقة، نجيلة، أنيسة.. ولم تلبث أن حملت ووضعت طفلاً، فخلع زوجها - وهو فتى صغير مثلها - من الفرح، حتى أنه لم ينتظر خروجها من المستشفى أو نموَّ الطفل.. بل نزل فوراً إلى السوق، ورجع يحمل تلالاً من الألعاب والزمارات، ودبّاً يسير في أبهة، وقطاراً كهربائياً، ولعبة اذا أنمتها أغمضت عينيها لها عربة صغيرة و.. اشترى كلّ هذا وحمله، إلى المستشفى، ثم وثب راجعاً وقصد إلى سوق الصاغة ينتقي تحفاً وأساور للأم.. لما عاد وجدها قد هجرت سريرها، وقامت إلى الدبّ تربط نابضه، والقطار تشغلّه، واللعبة توقظها فتفتح عينيها وتنيمها فتغلقهما!

أما أنا، الحائرة البائرة.. كانت تطين صدري كآبة سوداء لست أدري لها سبباً. كـــــان قلبي متورماً يؤلمني، وجسدي متكسراً مرضوضاً. وتبدّت لي الأشياء لا لون لها ولا طعم، وخيّل إليَّ أن الشعر والأدب والتمثيل أساس الشرور كلها في هذا العالم المخيف المسعور!.

* * *

الفصل الثامن عشر

أنا لست شريرة، ولكنني اعتزمت ألا أسكت لسامي الحوراني. كانت وشايته تحيّرني أكثر مما تحنقني. هو يعلم أني لا أحبّه، وهو نفسه بارد، لايملك أن يحبَّ حباً جامحاً مثلي. فمن أين أتته الغيرة؟ ولماذا عمد إلى الدسّ والوقيعة اللذين لايرتفعان على أساس؟! كان من المستحيل أن أصدَّ نفسي عن الذهاب إليه وصفعه بحقيقته السيئة.

كان في المطبخ يجلس على كرسي صغير ،ويقشّر كومة من البصل أمامه.. وقعة طعامه المشهورة التي لا تكاد تتغيّر. بيض مع البصل المقلي واللحم. ولما رفع عينيه إليّ كان على شدقه محاولة ابتسام لم أدعها تتم، إذ اندفقت عليه مثل السيل العرم:

- أنا هنا حتى أعلمك من أنت.. أنت لا تستحي! أنت حطمت حياتي ومستقبلي. أنا لم أكن يوماً محبَّة لك. كلُّ ما منحتك إياه لم يكن إلا من قبيل الشفقة عليك، لا أكثر ولا أقل. ولكنّ نفسك الرديئة زينت لك الفوز بي إذا أنت علكت في سيرتي معك! أتدري ما فعلت بي يا.. ياأسود! سلبتني أعز انسان عليّ. سلبتني سعادتي وأملي. أنت! ماذا أقول لك؟ أنت أبشع انسان وقعت عليه عيني! فهّمني بس، أتظنُّ أن لك سلطة عليَّ، أنت؟ أعلم أني حرّة، حرّة، حرّة!.

لم أكن بذيئة، ولكنني شعرت أن فيَّ إنسانة أخرى لا حد لغضبها. قلت له كلاماً كثيراً غير هذا.. فما كان أعظم دهشتي حين رأيته يبتسم في بلاهة ولا يقول شيئاً.كان جامداً كالجدار، ولم تضطرب له يد، بل كانت حركة يديه في نزع قشور البصل تحافظ على إيقاع لم يتغيّر. وكان المطبخ على حطة

يدي كما يقولون، مطبخي الذي شهد سلطتي ورتبته يداي وجعلتاه يتلألأ مثل صحن من الفضة. وبدا كلامي ينزلق على جموده كما ينزلق الماء على جسد البطة، ومرّت فترة لم يرفع خلالها رأسه.. إلى أن قال لي أخيراً:

- ألا تعاونيني؟

أنا ما رأت عيني قطُّ مثل هذا المخلوق. لم يدافع عن نفسه، ولم يشر إلى الموضوع الذي جئت من أجله. ماذا أصنع به؟.

مددت يدي إلى كومة البصل وقبضت، ودمي يغلي في شراييني، على سكينة كانت ملقاة عليها، فسألني في هدوئه المغلق نفسه:

- ماذا تفعلين؟

قلت محنقة:

- أقشّر!

قال باسماً، كأن ما قلته له كان مزاحاً:

- أأنت جائعة؟

- نعم!

- أنا لم أشتر كفاية من البيض واللحم. اذا كنت جائعة فروحي اشتري لنفسك بيضتين وأوقية لحمة. عندي بصل زائد.

كالعادة! كلُّ شيء محسوب على الشعرة. لا الشجار ولا الخصام يمكنهما أن يغيّرا دقّة واحدة في هذه الساعة الرتيبة، المربوطة أبداً!.

لما رجعت أحمل طعامي كان يقف عند المجلى يملِّح اللحمة. التفت إليّ وحاجباه إلى أعلى:

- خراطتك حلوة، وشعرك! لففتيه أنت نفسك، أو عند الحلاق؟

كأني، في تلك الساعة، كنت أملك رأساً يستطيع التفكير في مثل هذه التفاهات. أنا لاأحبُّ أبداً أن يصرفني أحدٌ عما يدور في رأسي. أنا من الناس الذين يسيرون إلى أهدافهم على خط مستقيم. قلت:

- أنا لا أؤمن بذوق الحلاقين، وكلٌّ وجه تليق له تسريحة لاتليق لغيره. الحلاق لايفهم هذا، ألا تعتقد؟

وساد صمت قصير بيننا، لا نسمع خلاله إلا ضجة الشارع المخنوقة وصوت التقشير، ووجدتني وجهاً لوجه أمامه كما كنا في الماضي. كنت أجلس في إهمال، فانحسر روبي الضيّق عن ركبتي وظهر جزء من فخذي. نهضت وأصلحت من جلستي. فنظر إليّ هو في عتاب صامت وعاد إلى شغله. وقال أخيراً:

- عندي كشكة جديدة.

- يالطيف كم تحبُّ الكشكة.

- فيها قوام غذائي كامل، ورخيصة.ألا تعلمين أنها خلاصة الحليب؟

ثم إنه توقف عن العمل قليلاً، وراح ينظر إلي في عطف.

كنت أراه بجزء من عينيّ وأحسُّ نظراته. وقال في رقة:

- دلال، أتريدين أن نتفاهم على روق؟

- لا، لا تكلمني!

- أنت مخطئة، طيبة حتى الغفلة، ومالك في ضياعك الفظيع هذا إلا مخرج واحد. اسأليني ماهو!.

- ماهو؟

- أنا! مالك غيري. أنا أحبك يا دلال. وأريد أن أقتلع من حواليك هذه النباتات الضارة. لقد غرروا بك ودسوا في رأسك الغافل المسكين، دون أدنى ريب، ألف سفاهة وتفاهة..

- أنا لا أسمح لك بتوجيه مثل هذه الألفاظ إلي.

- اسكتي، هس. من كلّ بد هسّ! لقد سخروا منك دون أدنى ريب. أعطيتِ كلَّ شيء ولم تظفري إلا بالغمز والضحك، فتاة مثلك في بلد يحترم نفسه، مثل فرنسا، تحتلُّ صدر المجتمع.. يتسابق أجمل الشبان إلى الركوع

أمامها! أتعرفين ماذا يفعل الآخرون معك؟ يكسبون المعارك على حسابك. ماذا استفدت من فلان؟ ومن أخيه؟ ومن علان؟ لاشيء، صفر؟ من كل بد صفر!.

كانت دموع تسيل على خدي في صمت. دموع كان لها في قلبي ينبوعاً لايغيض، تجمعت فيه أحزان الدنيا كلها قلت:

- أنا متعبة يا سامي، متعبة!

- لا تجزعي. ثقي بي، ودعيني أعمّر مستقبلنا، على طريقتي الخاصة، في تأنّ وصبر ومعرفة. أنا لا أحبّ سواك. وشعوري نحوك شعورٌ غريب حقاً.. مزيج من الصداقة والإعجاب والإكبار والحبّ. ثقي بي أخلّصك من كل ما يتعبك ويضنيك؟ أنت في حاجة لي، لقبحي وحكمتي، في حاجة لإنسان أتيح له أن يتحرر من عليقات مجتمعنا الشرقي السخيف. من كل بد لن يفهمك أحد مثلي. حبيني تنتصري.

- آه، اسقمَ فريد قلبي ودفنه أخوه، اشبعه دفناً.

- هراء لم يسقم فيك شيء ولم يندفن شيء. أنا، دون أدنى ريب، لا أريد أن أسمع من فمك هذا القول مرّة أخرى. أنت لا تزالين الشباب والجمال والأمل. أما فلان وأخوه فأنا أعرفهما. نحن أصحاب قبل أن نلتقي بك. إن الآخر، الذي في فرنسا (يقصد فريد) خاسر، فاشل. وهو لا يرى من باريس غير نسوانها. وقعت بين يدي رسالة منه إلى أخيه يروي فيها مغامراته مع امرأة سوداء متزوجة من فرنسي ولها فتاة صبية خلاسية. وبينما كان يفاوض السيدة السوداء على الطلاق من زوجها كان يغازل البنت ويعدها بالزواج.. وقد انتهت غزوته الغرامية هذه نهاية غير سعيدة إذ خرج من البيت مودعاً بالرفسات! وهو لن ينجح في دراسته دون أدنى ريب.. باريس فظيعة يا دلال إذا عمي الشاب فيها إلا عن النساء الجميلات. إذا المرء لم يجد في باريس إلا امرأة حسناء تكشفت له المدينة العظيمة عن عجوز شمطاء، ليس لها أسنان. وفي الحدائق العامة يجلس جنباً إلى جنب رجل يقبّل فتاته نصف نهار وآخر منشغل في مسألة فلق الذرة!.

وأخذ يدي، فعل الحالم، وراح يعبث بها في ذهول ثم قال: - القلب! هذا الوعاء الغريب! إنني أفكر أحياناً: ما أجمل لو كان يهدي إلى الطيّب كما تهدي الحيوان غريزته فلا يأكل النبات السام. ولكنَّ قلوبنا.ما أكثر ما تضلنّا! يجب أن نحكّم العقل والإرادة. قد نحبُّ إنسانا لأننا في لحظة معينة ومكان محدود استروحنا انفتاحة في القلب نحو هذا الإنسان.

ثم نروح نحبُّ حبنا، ونستشعر بؤس الدنيا كله في فراق هذا المحب المتوهّم.. نحبه!؟ فلنحبه ما حلا لنا الحبُّ. ولكن علينا أن نتزوج ، دون أدنى ريب، الإنسان الآخر، ذلك الذي -وإن كنا لا نهبه إلا نصف إعجاب، نصف مودة، نصف شفقة - يجيد الطبخ، أو يملك دار سكن وقرشين نظيفين جمعهما بعرق الجبين فأحبهما، فحرص عليهما!

ثم صمت قليلاً وجعل يغمغم في حزن:

- أعلم أنك لاتحبينني!

أنا؟! لماذا يسيئون كلهم فهمي؟

أخذت يده في وجد وشددتها إلى صدري والتممت مثل بنية صغيرة واستندت إلى صدره..

وفكرت في أقواله.. بدت لي حججه مثل سور يرتدُّ عنه الطرف، يحيط بي من كل جانب، فوثقت به وعدت أوثره وأحبه. قل استعدت مملكتي الصغيرة، ولملمت أنفاسي التي قطعها سليم. لقد كان سامي أريباً حاذقاً في اعادة ثقتي إلي. استطاع أن يعيد إليَّ شعوري القديم أني لست ضائعة وأني فتاة ندرت مثيلاتها.

كان مثلاً لا يكتب شيئاً إلا قرأه لي وأمسك قلبه بين يديه انتظاراً لحكمي. فإذا وجدت ما كتبه موافقاً فرح فرحاً عظيماً، وراح يعدُه للمطبعة. وأما إذا قلت له: «هذا المقال عادي، يا حياتي» اكتأب، وطلب مني أن أدّله على المواضع التي أراها ضعيفة. كنت تستطيع أن تستروح أنفاسي في كل ما يكتب ويقول.

وكنت أهتم لملبسه ومطعمه، أكوي له قمصانه، وأغسل له في بعض الأحيان ثيابه، وأصلح من وضع المنديل في جيبه.. والخلاصة، كنت أحرص على أن يظهر بين الناس في أحسن سمت. كان يقول لي:

- كم فهمك الناس فهماً غبياً يا دلال!

لقد أصاب كبد الحقيقة، كما يقولون. هو وحده الذي فهمني: انتشلني من حزني وعلمني أن الحياة تسوى أن نعيشها ونحبّها ونتلذذ بطعميها كليهما، المر والحلو. وهكذا فقد أحسست صفائي القديم يدبُّ إليهَ من جديد، فأعود سخية العواطف، رؤوفاً، مؤمنة بنجاحي وقوتي. كان يريدني من هاته النسوة الفذات في التاريخ، من أمثال المركيزة دو رامبوييّه ومدام روكاميه وسواهما، اللاتي خلقن فنانين وأدباء.. أن يشار إلي بالبنان، أن أصنع جيلاً جديداً . ناهيك بأنه فتّح عينيَّ، وأخذ بيدي في صميم المصاعب ونبهني إلى ما يراد بي في الخفاء.

ولم يكن يروعني اقتصاده الشديد، وشكواه الدائمة من العسر.. بل كنت أرى فيهما، على العكس، خليقة ضرورية للرجل الذي يريد أن يؤسس لنفسه بيتاً ويبني أسرة. أصلاً، كان الحديث يمتد بيننا فيشمل المستقبل في دقائقه الكثيرة: البيت والأولاد وثيابهم ولعبهم! وكان هو يتحدث عن هذا كله بما يشبه الهيام ويقول:

- أمي ماتت وأنا صغير. أنا لا أكاد أذكرها. ومنذ أن تزوج أبي، وأنا في السابعة، شعرت رغم سني أن البيت، أبي نفسه، أخوتي منها، لم يعد ليّ!

كان أبوه يزوره في بعض الأحيان كما يفعل الغرباء، وهو رجل معروق، شره عصبي المزاج.

وكنت أواسيه، ولكنني أراني مضطرة إلى اللجوء، كعادتي، إلى التلميح، فأذكر بضرور إعلان علاقتنا على الناس!.. كان يهمني أن أنسيه تربيته في غير حضن الحنان.. ولكنه كان يحدق بي في هدوء، ويقول لي باسماً بسمة شروداً بعض الشيء:

- ألم نعتمد أن أكون أنا ربان السفينة يا دلال. هسّ، ولا كلمة! اتركيني أتصرف في حكمة وأتدبّر الأمور كما يجب.. الطبخة إذا أعطيتها زيادة في النار احترقت دون ريب، وأنت، دون أدنى ريب، ماذا أقول؟! طفلة فهمها الناس فهماً غبياً!.

طيب، أي ما يمنعه أن يفهمني فهماً ذكياً. المسألة ليست معقدة. سوق الصاغة ليس بعيداً، وأساساً هو سوق ظريف، مسلٍ، الناس فيه طوال النهار، رائحون وغادون، وحيرة النسوان في انتقاء حلاهن ظريفة ومماحكاتهن على السعر أظرف، وقد يستطيع الأديب الذكي أن يعرّق مئة قصة وقصة. ثم.. نحن نعلم جميعاً أن المحابس لا تحتاج إلى ثروة! أنا، بالطبع، لا أتكلم عن محابس الألماس أو الياقوت، ولكن! محبس سحب، بسيط صغير، محفور داخله بخط صغير.. تاريخ صغير.. ما هي ثقلته!؟.

*　　*　　*

الفصل التاسع عشر

ومهما يكن من أمر فقد رأيتني رهن غمار جديد، انغمس فيه حتى أكاد أنسى نفسي. مزجني سامي بالممثلين فأصبحت أحضر اعاداتهم في ناديهم وأحياناً أمثل معهم بعض الأدوار. وتعصبت للمسرح. خيل إليَّ في فترة من الزمان أن الدنيا إذا هي خلت من المسرح أمست خراباً لا حياة فيه. ومع ذلك، ليس لدينا مسرح بالمعنى الحقيقي، والممثلون الذين عرفتهم موهوبون ولكنهم مغمورون، فقراء الثقافة، ميراثهم كله ما رأوه، في أيام الخير، من فرق مصرية تطوف في سورية وتقدم بعض الكوميديات القائمة على الإضحاك التهريجي وصبغ الوجوه بالسواد، ولبس الطربوش شرابتُه من أمام والسترة على المقلوب. ولذلك فهم مغمورون، يعملون لأن في أفئدتهم تتضّرم شعلة الفن. يلحون على الخلق الفني في بلد شوهت أذواق أهله تفاهات فريد الأطرش وزوزو نبيل وكوكا!.

وكنت أحبُّ عيني عدنان السنداني الزرقاوين كثيراً. لم يكن عظيم الثقافة ولكنَّ حبه العمل، وتفانيه في سبيل الفن تفانياً صامتاً، يكاد يكون خجولاً، كان يحيطه بهالة من نقاء الملائكة،تسلكه في المتصوفة ومنشدي المعابد القديمة.

وظهرت مرة في إحدى القطع التي يخرجها. كنت امرأة من النوع البلدي (كان سليم يسمي هذا النوع من النساء: تختته منه وفيه!) لا همَّ لها إلا أن تكسل طوال النهار وتقرأ الروايات الغرامية. وكان زوج المرأة، في المسرحية، رجلاً عصامياً، غنياً، بنى نفسه بعرق جبينه، ولذلك بقيت في أحاديثه إشارات قريبة أو بعيدة إلى غناه، وإعجابه بمن يخرجون من صف

الفقراء فيصبحون سادة البلد وحكامه. وكان يموت قهراً من الطفيليات التي تعيش على جهد الآخرين، ولا تقدم لقاء خبزها جهداً. وذات يوم يشتهي الزوج (عدنان) أن يتذوق طبخي، فأبذل جهدي، وأخربط البيت، وأنتهر الخدم والطاهية الصبية التي تنجرح كرامتها فتلوذ بغرفة منعزلة من القصر وتسلم نفسها للعبرات. وتنتهي المسرحية على الشكل التالي: بغضب زوجي لغضب الطاهية التي تكسب خبزها بطبخها الحسن، فيلمُّ بها في غرفتها ليسترضيها، وإذا هما يخرجان هاشين باشين.. بل تخرج الطاهية وقد أحاطت خصر زوجي بذراعها وفي عينيها، هذه المرة، دموع الفرح لأنهما... عزما على الزواج!

يروي المشهد الأول قصة الزوجين في بدء معرفتهما، وينقضي أكثره في الغزل ومسك الأيدي والقبل.. وكنا، زوجي وأنا، بين الكواليس نشرف على الديكور وننتظر رفع الستار.قلت:

- أنا خائفة يا عدنان!

قال مشجعاً:

- وهم! خائفة! لماذا!؟ النظارة كلهم أصحابنا.

وكان ذهني مشغولاً بدوري كثيراً. كنت خائفة، وقلبي يخفق. توسلت إليه:

- الظهور على المسرح صعب لأول مرة. تعال نتمرن على الدور مرة أخرى.

فضحك في جذل مثل ضحك الأطفال وربت على خدي:

- طيب، قولي.

واتخذ وجهه معنى من الوجد والافتتان، كما يتطلب الدور، وانعكس في عينيه البديعتين تألق ساب ودنا مني أكثر فأكثر. فتح فمه للكلام ولكنني سبقته إليه:

- وأخيراً ياحبيبي. أنت ملكي، أسيري، أحد سباياي..

ثم أخذت يديه كلتيهما بين يدي ورفعت إليه نظراً عاشقاً ورحت أهمس:

- أنت لاتستطيع أن تتصور مدى ماتفعله عيناك الفاتنتان بقلبي المسكين! أواه لو كانت المرأة هي التي تبدأ البوح.. اذن كنت، كنت...

وأجابني في لهفة ملتهبة، وهو يضمني إليه ويغمرني بقبلات مثل زخ المطر:

- يا حبيبتي.. أصحيح ما تقولين؟ ما أسعدني أن أسمع هذا! أنا أحبك يا دلال، أحبك.

هذا الكلام لم يكن في الرواية! وكان اسمي فيهما مُيَسر.. ولكنه أصبح لنا عادة مزمنة أن نحرف المسرحيات الغرامية بين الكواليس، وكل أسبوع تقريباً! ويظهر أن الحياة الخفية التي يحياها الممثلون في غفلة من النظارة، ذات أثر عميق في تصرفهم على المسرح، لأني كنت باهرة حقاً، وجعلت أصبح، عند هؤلاء أيضاً، لا غنى عني!.

كان ناظم صدقي يحضر إلى النادي في بعض الأمسيات، فيجلس مترفعاً، لايعجبه شيء مما نصنع. وتحرَّش به سامي، على أثر إحدى المسرحيات القصيرة. سأله رأيه في التمثيلية فقال:

- لاتسوى شيئاً.

فضّج الموجودون احتجاجاً، وصحت أنا:

- ليش سيدي؟

قال هادئاً، واثقاً من نفسه:

- من كل بد! المسرحية تعبّر عن فرحة رجل فقير بطفل يأتيه على عدم. ومع فرحه يذهب فكره إلى مشاكل تربية طفله الوحيد فأين الحزن فالفرح فالحزن بين فرحين؟!.. خذوا السمفونية التاسعة لبتهوفن..

وصحنا كلنا:

- إلى جهنم أنت وبتهوفن!

فقال مشمئزاً:

- جهلاء!

كانت أكثر كوميدياتهم مكتوبة باللغة العامية، ومعدّة للإذاعة نظراً لخلو البلد من المسارح إلا مسرح النادي. وكان يقع في خاطري أن فيها جهداً لا بأس به. ولكنها - فضلاً عن كونها لا تقبس من الناس تجاربهم وآراءهم عن طريق احتكاك عينيّ مباشر معهم - تشعرك بثغرات لا أستطيع تحديدها على وجه الدقة. لعلّ منشأها كون الحوار، بل والعقدة أحياناً، قائمة على المفارقة المضحكة التي يحسُّها السامع عندما تفاجئه اللغة العامية، المغرقة في عاميتها، يُتحدث بها. مثلاً حينما تسمع رجلاً في ثوب امرأة يقول، عوضاً عن زوَّجوني، «زوزوني» وهي كلمة مهجورة لا تقولها إلا العجائز الجاهلات في الأحياء البلدية التي لما تدخلها المدارس، وما أقلها.. حينما تسمعها تضحكك كأي لعب بالألفاظ. ولا أدل على ذلك من أن تكرارها يتركك جامداً، وأحياناً، مقطب الوجه قاتماً. ثم إنك إذا ترجمتها للغة أخرى، ماذا يكون من أمر عقدتها وقوامها؟ في اعتقادي أن الكوميديا يجب أن تقوم على المفارقة المركبة في الطبائع. إن تشيخوف في مسرحيته الصغيرة «الدب» (وقد حاولنا تمثيلها مرَّة ثم أهملناها) يروي قصة امرأة تحاور خادمها العجوز، الذي يريد لها أن تحتفي بأيار المزدهر، أن تخرج إلى النزهة وتنزع عنها لباس الحداد. فتجيبه أنها امرأة مخلصة لذكرى زوجها الذي مات منذ عام تماماً، وأنها ستحيي ذكراه، لا بالاحتفاء بأيار المزدهر، ولكن بالحزن والصمت والمكوث في البيت.. ثم إن قادماً يقدم عليها، هو دائن يطالب بذمة له على زوجها، يطالبها غير مهتم لحدادها أو حزنها، بل يسمعها أشد الألفاظ فظاظة.. فيتشاجران ثم يتحابان و.. يتزوجان!

والواقع أن عدنان كان لا ينفك يجأر لي بشكاته:

- نحن لا نقرأ! نحن لا نعيش! وكثيراً ما أجدني يا دلال، يا دلالي الحبيبة، فارغ الرأس ليس عندي حتى ما يجترُّ اجتراراً! واسأل نفسي أكنَّا نستطيع الاستمرار لولاك؟

وأما أنا فكنت أعتقد أن المعضلة أعمق من أن تحلّ بالقراءة. إنها تكمن في مخافتهم... كلُّهم جبناء. وأميل إلى الظن يوماً بعد يوم أنهم خونة كلهم، الممثلون والكتاب! ومخافتهم فيما يتصل بالسمعة والماضي والعلاقة بالمرأة إجمالاً تنسحب على تصرفهم في ميدان الأدب والفن.. ليس بينهم من يواجه الناس على اعتباره أديباً فحسب أو ممثلاً فحسب ولكن تتبغي لهم ضمانات من وظائف ثابتة تحميهم من شر كساد السوق. لماذا لا يهجرون كلّ شيء، الأمن والدعة والمطامح الرخيصة في وثارة العيش ورقته وينقطعون لفنهم؟ لماذا لا يبدؤون بمسرح جوال يدور في قرانا، ويبذر، مع القمح والذرة، الحركة اللطيفة والإيماءة ذات المغزى.. إذا لم يصبح فلاحونا، في القرى النائية، القوامين على التراث الفني، النقدة، والحكام، لم تقم للفن في بلادنا قائمة أبداً.

وأذكر الآن أن فريد حدثني عن تجارب له في المسرح لما كان تلميذاً صغيراً في بلدته النائية. كانوا يمثلون روايات من مختلف الأنواع في دار مكشوفة، في صدرها ليوان، هو المسرح. كانت السطوح تتحوّل إلى غمامة سوداء من النسوة، وفناء الدار يكتظ بالكراسي حتى المسرح. ومثلوا مرّة رواية تاجر البندقية لشكسبير، فلما كان الغد سمع لحامْين يتحاوران. قال الأول: «إلى متى انتظر المدينة؟» قال الآخر: «أنا ما معي فلس الآن! أتريد أن أقطع لك قطعة من لحمي كما أراد اليهودي أن يفعل بمدينه!»

إذن ليس الذنب ذنب ناسنا! وإذا لم تتجه جماعة من الرواد اتجاهاً مؤمناً إلى الحقول والمصانع لم تغنهم الإذاعة شيئاً وقضي عليهم بالهلاك. الإذاعة! ما أشبهها بتكية السلطان سليم!؟ مأوى للعجزة، ملاذ لمن لفظتهم حتى علب الليل. إنها مصح للمتقاعدين من الفنانين المتهرئين!

ومن هنا تجلى لعينيّ عظم التضحية التي أقوم بها: فتاة من أشد الأسر عراقة وأمجاداً، ذات جمال باهر ساحر، تحمل صليبها حتى في أشد الأوساط جحوداً، وترفع راية الفن الجميل عالياً، عالياً!. ولعمري ما قيمة الإنسان إذا لم تكن له قضية!

لن أنسى، عمري، تلك الأيام التي عشتها في نادي الممثلين. لقد علمتني، غير الفن، كم يحتاج الخلق إلى المرأة! ولكنني هنا أيضاً ذقت كثيراً من الآلام. لأن عدنان تعرّف إلى امرأة مطلّقة، سمينة، شغفته حباً، وعلى الرغم من أنه ظل لطيفاً معي، غزلاً، إلا أن انصرافه إليها كان ظاهراً، مقلقاً. ولما فاتحته بالأمر شدّ أذني في رقة وقال لي:

- من كانت مثلك لا تغار من امرأة في الوجود أبداً!

*   *   *

الفصل العشرون

ولم أنقطع عن روحي الشاعر. كان هو الآخر يحتاجني لفنه ويمتزج في لقاءاتنا التنهد بالفرح. وكانت حديقة السبكي تشهد، في أغلب الأمسيات، فتاة طوالاً تتأبط كتباً وأوراقاً، وتتأطر في مشيتها.. ورجلاً رفيق الخطو، ناحلاً، جاحظ العينين، يمشي متأخراً عنها خطوة أو بعض الخطوة، وأنظاره الوالهة متعلقة بها.

وذات أمسية سألني على استحياء أن أذهب معه إلى بيته، فقلت:

ألا تفضل أن نبقى على هذه الصداقة البريئة الممتعة؟

قال في عتب:

- أتقولين هذا الكلام لي أنا؟ أتظنين أني أستطيع أن أسيء إلى هذه الصداقة أو أن أنظم الشعر من دونها؟

كان له أربعة أخوة أصغرهم في الخامسة عشرة وأبوه وأمه لا يزالان شابين. وأما بيتهم فكان يسبح في فوضى حلوة. وقد تجد الكنبة أم التاج، من الزي الذي كان سائداً أيام العثمانيين، قرب مقعد من طراز لويس الخامس عشر بمسندين أنيقين وألوان زاهية. على أن أبرز ما في البيت انقشار اللوحات الفنية وأدوات الطرب في كل مكان. كان أكثر ساكني البيت مولعين بفن من الفنون. وروحي ذاته يدقّ على العود ويرسم. تجد في غرفته ذات الصميمي، مشاريع لوحات بالفحم كدست فوقها مجلات عربية وفرنسية.. وكتباً في كل ركن حتى على الكراسي.

كانت جلسة هادئة متنوعة الأحاديث. طفق يشكو لي خصومه الذين يأتمرون ضده ويتكلم عني، قال:

- الشيء الذي صنعته لي عظيم. أنت وطدت أقدامي. في صناعة الشعر فغدوت لا أخاف أعدائي، بل أقف أمامهم منتصب القامة، شامخاً، مثل الطود العظيم. ومنذ أن عرفتك جعلت أشعاري تكتسي أثواباً جديدة. أحسُّ أني أنظم لك ولو كنت أغني جحافل الصناع الذين يبنون الغد الجميل. في الماضي كنت اتخيَّل أشعاري تخيلاً. وهي الآن حقيقة جميلة، جعداء الشعر، شهلاء، فاتنة. والذي يبهرني فيك أن لك إرادة من حديد، إرادة رجال.

وسمعتني أقول له:

- أوعندنا رجال؟!

- آمل أن تتحسَّن نظرتك إليهم يا دلال. ولك من تفتحك للحياة ما يجعل منك كوليت بلادنا.

وفهمت منه أنه يفتش عن الحياة في كل مكان، حتى في علب الليل وأماكن المجون، ولكنه كان مثلي عموماً، لا يشوقه إلا هذا البوح البكر المهموس بين قلبين متفاهمين. قال:

- أنا أعتقد يا دلال أن محبّة الوطن لا يمكن أن تبنى على أساس هلامي. يجب لها أن تتجسد في محبوب بعينه ثم تنسحب منه على الوطن، طبيعته، سمائه، ناسه،مستقبله. مثل النهر يتفجّر من مكان محدود يسقيه أول ما يسقي، يغنّيه أولى أغنياته، ثم يروح ناشراً العشب والصفصاف والشحارير والنواعير في كل مكان.. حتى أن الأطفال - على مسيرة أميال من الينبوع - يسبحون في مائه ويتراشقون به.

قلت له وشغاف قلبي يرتعش:

- ما أجمل ما تقول؟

فضحك وقال:

- نظمت لك هذا الكلام شعراً.

- لي أنا؟!

- أجل اسمعيه.

وانطلق ينشدني قصيدة يتذكر فيها قريته في منطقة الساحل، قرية جميلة ترتاح على سفح خصيب، والخمائل والربيع، وهو وأترابه يؤلفون عصابة تلحق العصافير وتسيّر السفن في السواقي الخضراء، وتسرق العنب والكرز والمشمش، عصابة يخافها النواطير ويحسب حسابها الرعيان الذين يسوقون قطعانهم بالشّبابة الحنون! وتنتهي القطعة بهذا البيت:

- أنا قد عشقت مرابعي الخضراء منذ قبَّلت ثغرك.

فلم أعد أطيق صبراً. قبلته، وأنا أهمس في أذنه:

- حياتي!

ولا حاجة بي أن أصف فرحته. كان يقفز مثل طفل صغير تفاجئه بعلبة سكر. كان يقبل يديّ وينطّ من الفرح.

ثم إنه قال لي متوسلاً:

- دلال، لي عندك رجاء، لا تخيبيني. نظمت لك قصيدة سألقيها في حفل يقام إحياء لذكرى الجلاء. ستكونين هناك يا حبيبتي، ستكونين أليس كذلك؟ سأنشدها لك، لك وحدك!

ولم أعده.. تركته يضطرب بين الشك واليقين. ولما كان يوم الاحتفال ذهبت. كان المكان مقهى واسعاً في عين الخضراء، ازدحم ازدحاماً شديداً، والوجوه مستبشرة، وهدير الخلائق يشبه تدفق شلال غضوب. ونسي الشبان أن قربهم فتيات، كانوا ينتظرون، في تشوق، بدء الحفلة..

ودخل روحي المقهى يحف به موكب من رفاقه وتلاميذه. أخذت أنقز على الكرسي لأريه أني هنا، أني أستقبله، أني أنتظر قصيدتي! ولم يكن هو في حاجة لنقزي. رآني أول من رأى. واختجلت عيناه بغمزة شكر عريضة، غاض معها كلُّ ما ينفّر في وجهه، فلم يبق إلا الجمال والصفاء. ولاحظ الناس كلَّ شيء، ولكنّه لم يهتمَّ بأحد. لقد صدق، لم يعد يهمنا الأعداء. لم يكن في المكان آلاف.. كل ما هنالك إنسانان محبان، روحان هائمان متدغمان.

وحظّرت عليه علب الليل ورفقة السوء. كنت أتلفن له ليلاً. وتدوم مخابراتنا أحياناً حتى مطلع الفجر. كان روحانياً مثلي، وهذا هو المهمٌ عندي!

لقد رفعني فوق الصغائر، المشاغل التافهة، والعواطف الصغيرة، فغدوت مناراً يهتدي به الناس. صالحت سليم وأعدته إلى الصواب، ومضيت أنقرّ في نفسه المعقدة، المتذبذبة بين الحسن والسوء، عن الخير واقتلع جذور الشر فعاد أكثر حباً ورغبة فيّ وجنوناً بي، واعتذر عن نعته إياي بالقبيحة.. وأوحيت إلى عدنان السنداني تمثيليتين رائعتين،كان أجمل جزء فيهما ذلك الذي مثّل بين الكواليس.. وعبّر لي جورج عن إعجابه فأسمعته كلمات مشجعة.. وألّف لي غسان الصباغ رقصة مرحة أسماها «دلال»، وأهدى إلي سعيد الخص أقصوصة غرام تجري في ربوع الجزيرة..

وتعرفت على رسامين جنّوا بي جنوناً، فوقفت لهم وأتحت لهم أن يصوروا جنونهم على الورق لوحات باقية على الدهر، وفي أذني همسات عاشقة لا تنسى.

ولكن المهم أن جريدة «الندى عادت تسمع ضحكاتي، وتأكل الأصابع وراء ما اخترع من مآكل لذيذة. كنت ست الجريدة وحاضنتها.

ولم يهنأ أبو أحمد بزواجه، فكان ينفرد بي، يشكوني، على طريقته الساذجة في التعبير، فقدان الانسجام بينه وبين امرأته، التي تظنُّ أن تسييع وجهها بالبودرة والحمرة يجعلها من بنات المدينة.. ويجعل زوجها يموت عشقاً.. فكنت أشجعه وأقوي من نفسه المعذبة.

وكنت إذا تغيبت عن الجريدة سلق رئيس التحرير، ذو الفرق اللطيف وسط الرأس، عدد الجريدة سلقاً، وتخانق مع الآذنين وعمال المطبعة، ولم يكفّ، طوال النهار، عن الإيمان المغلظة، يدحرجها بلثغته الحلوة، أنه سيترك العمل. أما سليمان، المحرر المجدور، فقد بكى مرّة بين يديّ في حرقة وهو يقول:

- دلال، أصحيح أنك تكرهينني؟

قلت متعجّبة:

- أنا؟ أعوذ بالله! من قال هذا يا سليمان؟

كلُّهم! ألأني قبيح يا دلال، أنت تبغضينني؟ أنا بائس، بائس جداً يا دلال، طول عمري كنت كذلك. في صغيري، حتى أمي كانت تراني زائداً.كانت تملأني رغبة في أن أكون نافعاً، قريباً من القلب، ولكنّ الجميع كانوا ينظرون إلى ما أفعل على أنه لا قيمة له، ولا يستحقّ أن تلقى عليه نظرة. وحتى حينما كنت آتي بأشياء لا يقدر عليها رفاقي في المدرسة كانوا يرون إليّ رؤيتهم إلى قرد يجيد التقليد! ومع ذلك فأنا لا أحمل ضغناً لأحد. خذي نفسك مثلاً يا دلال. أنت عظيمة مع الكل، أما أنا فلا أفوز منك إلا بفتات أنسك ولطافتك وجمالك.. نظرة شفقة في أحسن الحالات. ثم إني أعمل عشر ساعات في اليوم. قلبي أصبح أعمى، ولكنك أنت، منذ أن ألفت التردد على الجريدة بدأت حياتي تحصل على معنى.. صار فيها بصيص بعيد، بعيد، من نور! أهو أمل في أن تكوني لي، أن تحبيني، أنا الإنسان الخاسر البائر الذي لا نفع فيه! لا لم يكن هذا ما ينير حياتي، ولكنك أنت، وجودك، اضطرابك كالقطة الأليفة في كل مكان من الجريدة، ضحكاتك المغنية الصافية، عطاؤك الذي لايطلب شيئاً.. لست أدري أي شيء فيك يجعلني في مأمن وطمأنينة. صحيح أني لاأسكت عن السخرية مني والضحك عليّ، أقابله بضحك أشد.. ولكنه يجرحني يصيب مني مقاتل. أما أنت! أنت لاتسخرين مني أبداً، غير أنك لاتلتفتين إلي أبداً.

لقد أبكاني. أحسست أنه يروي أحزاني. قلت له في رقة لامزيد عليها:

- كذب، واللّه العظيم كذب! يريدون أن يشغّلوك ليس غير يا حبيبي! أنا أحبك ياسليمان. ما أشدّ سوءهم إذ يدخلون في رأسك مثل هذه الأكاذيب. لاتصغ إليهم يا حبيبي. تعال، تعال. الرجل ليس الجمال كلّ زينته!.

وأخذت رأسه على صدري، فأصابه فرح لايوصف، وكانت جلسة مشهودة!..

وأعلن رئيس التحرير أنه يريد أن يصنع مني صحافية كبيرة. كنت أجلس إليه وقتاً طويلاً، يشرح لي أسرار الصنعة على حد تعبيره. كان شديد

الترتيب، يعرف على الضبط ماتحتوي دروجه من أوراق ولوازم، حتى الشيب المبكّر الذي يلوّن فوديه كان يجعله أنيقاً مرتباً. أبداً لم أجد خصلة من شعراته في غير محلها أو عقادة رقبته تنحرف ملميتراً واحداً عن موضعها في القبّة. وكان يعسر عليه أن يعمل اذا وجد أن موضع جهاز الهاتف قد تغيَّر تغيراً لايكاد يدرك.

في تلك الفترة كان بادي التحفظ في الحديث عن أسراره لا يكاد يفتح فمه حتى يحملق فيَّ غامضاً، معقداً ويقول:

- ماأكثر لمعانك!

ثم يتابع:

- أتعلمين يا دلال! إن هذه الأمور تبدأ كلها هكذا. يحس الإنسان بميل لا يقاوم إلى الإفضاء بعواطف بين يدي كائن قريب من القلب.. ثم يكتشف بغتة أنه يروي أسراره لا من أجل العزاء، بل لأنه يريد أن يشرك هذه الكائن في حياته، أن يجعله جزءاً منها!

وكنت أفهم مايريد أن يقول، ولا أضنُّ عليه بلمعاني كما يسمي هو نفسه هذا الفيض من العطف الذي اغمر به كلّ الناس..

غير أن سامي كان أشد الناس سعادة بي. أدخلت على بيته تحفاً ومباهج جديدة. وقضى في كنفي أسعد أيام حياته. كان يزداد بي شغفاً صامتاً، ولايخبيء عني شيئاً من أسراره.. والحقيقة أن سامي ينفرد، بين كل من عرفت، بفهمه الصحيح لي. كان يعلم علم اليقين علام ينطوي مايسميه الناس، ظلماً وعدواناً، ضلالً، ويسميه هو هدى واشعاعاً. ولذلك كان تصميمه على ضمي لحياته إلى الأبد، صامتاً مثل حبه..

* * *

الفصل الحادي والعشرون

وعاد فريد من فرنسا يتأبط ذراع امرأة فرنسية سمراء، ذات عينين سوداوين واسعتين تشبهان عيني بقرة تنظر إلى قطار يمرق! طويلة، صدفاء قليلاً، نصف أسنانها ساقط. كانت مفتونة به، تقعي أمامه كالكلب، وتصغي إليه يتكلّم العربية، وكأنه ينطق بالآيات البينات، فإذا ضحكنا لما يروي رفعت إليه نظراً متوسلاً، وقالت له في حياء:

- حبيبي، ماذا تقول؟

فيشرح لها متأففاً، أو يتولى نسف الحديث من أساسه وسوقه إليها على شكل جديد تماماً، يثير هو أيضاً الضحك، فتلاحظ جاكلين، وإذا هي تقول له مدلّة، كأنها اكتشفت المريخ:

-أنت تكذب عليّ يا حبيبي؟

فيرد معابثاً:

- لا! إي معقول؟!

وكان يجد الحرج في حضرتي. لعله آت من كوننا اعتدنا، طوال سنوات أربع مديدة، أن نتطارح الأحاديث رأساً لرأس، في غير هذا النطاق المزدحم، الجريدة، الذي تجب فيه مواضعات سلوكية معينة!

لم يكن يبدو عليه أنه يحب زوجته. وسمعت أن في وده التخلص منها لولا أنه تورط وصار له منها ولد يحبه كثيراً.

تغير تغيراً عميقاً.. من حيث الصورة، لا تزال شفتاه ناضجتين ووجهه مضيئاً، وسن فكه الأسفل سوداء متأخرة عن أخواتها. نصح قليلاً، وزادت جبهته عرضاً. ولكن ماتغير فيه كان أبعد من الصورة.. ومع ذلك كان يخفق

قلبي إذ أراه ينثر الظرف، ويدير أحاديث ملونة، وذكريات لا حد لطرافتها. لملمها من فرنسا.كان واضحاً أنه عاش، عاش بكل قوى روحه وتوفز وجدانه! إنه يقبض على أربع سنوات من عمري لما كنت في عمر البنفسج الذي أحبَّه هو كثيراً. أربع سنوات هي ملكه وحده، لاينازعه فيها أحد. هو الذي علمني كيف أمنح، وكيف أحب، وكيف أكتئب.. هذا الأنف، هاتان الشفتان، الأذنان الصغيرتان.. كل هذا كان ملكي. وكان لي هذا الصوت الدافيء، العصبي، العمي أحياناً مثل طفل يتعلم الكلمات الأولى. كان ينشد لي، لي أنا، أرق أغنيات الوجد، وأقدرها على شق اجواز الغيوب في حيث لا شيء إلا المطلق.. عرفت شعراء غيره. شعراء قد يقولون شعراً أبرع، أحذق صناعة، ولكنهم كانوا شعراء مضافاً إليهم أشياء أخرى. أما هو، الحبيب القديم الآسر، فقد كان شاعراً صرفاً.. حتى حينما يتحدث عن بدلة جوخ يفصلها عند خياط بالتقسيط! ووقع في خاطري أن تشعثي بعده وانتشاري على عشرات الرجال من دونه، ما كان إلا تفتيشاً لاهثاً، غير راشد، عنه هو، لوباناً بين الناس عن انساني الذي فقدت.. واذا لم يكن كل هذا صحيحاً، فما بالي ثكلت الطمأنينة! وما باله هو خرس كالجبانة المهجورة لايغني ولايزقزق! لم يعد يقول شعراً، ويبدو أنه كان يعاني أزمة عميقة، لم أستطع القبض على مفاتيحها!

وكان هذا الأمر موضع نقاش بينه وبين الشلة. قال له روحي مرة:

- لم تعد فريدنا القديم، لقد تغيرت!

فتبسم محزوناً وسأل:

- ماذا تغير فيّ؟

- لست أدري، أصبحت أميلَ إلى الصمت. وليس الوقت وقته. إن صمت أمثالك لايسر إلا الأعداء.

- ما أشد ولوعك بخلق الأعداء!.. أما الصمت، فنحن في حاجةإليه بين حين وآخر حتى يكون لنا كلام أثمن منه.

وقال جورج:

- في اعتقادي أن معركتنا الآن معركة إنتاج. حياة وإنتاج، هذا كل ما تحتاجه. لنخطيء، لنسفّ.. هذا أمر يمكن إصلاحه، يحدث حركة، ينبي عن حياة. لما بدأت العمل في اللاذقية عاملاً مسكيناً، كان رب العمل يستثمرنا مثل الأقنان القديمة، أما الآن فالعمال يدركون أن لهم حقوقاً يجب الدفاع عنها، أن لهم قانون عمل على الأقل، أعرج، بيد واحدة، ولكنه قانون على أية حال. وهكذا الأمر في الأدب.. ليس المهم أن يكون، في هذه المرحلة التي نحياها، شاهقاً كامل البنيان ولكنه يجب أن يكون نافعاً، أدب معركة..

وقال فريد:

- أنا لست من رأيك، أنا أشد الناس نفوراً من أن تقتصر مهمة أثر أدبي ما على القيمة التاريخية، وأظن أن تجاربنا نحن أهل الفن محدودة، وتنقصها على الأخص المعرفة الواسعة ندرس بها مفارقات مجتمعنا، وهي كثيرة، بل أكاد أزعم أنه غني بها غنى فريداً. وحرفة الكتابة لاتزال تبدأ عندنا في أغلب الأحيان مثل حلية من الحلي، أو درجة يتوصل بها إلى أمر من الأمور التي لاتمت إلى الفن بسبب، كالوزارة مثلاً، المهم أن نستشف، في قرارة ما نكتب، هذه الأناشيد الخفية التي تميز شعبنا الكريم المسكين، في هذا الزمان العجيب الثائر الجامح.. ونحن، في كل ما كتبنا ونظمنا ورسمنا، لانصنع أكثر من أن نخط أول حرف في أبجدية فن الغد. إن مشكلاتنا الكبرى لما تقضّ مضاجعنا أكثر مما يقضها الحب الأول. ونحن مصابون بيتم روحي، وكثير من أفكارنا تفوح منه رائحة القدم، لأنه كما يطلق كاشٌ الحمام حمامه فيعود له بطيور جديدة. قصة البذر الجيد في الأرض الجيدة..

حينما يتكلم بمثل هذه الحرارة يروح وجه امرأته يشع سعادة لا حد لها، وعيناها تتسكعان بين الوجوه في فضول وخيلاء واستفسار: «أأنا ملومة في عشقه!».

ولكن الخصلة التي لم تتبدل في فريد أبداً، بل على العكس نفرت وتأكدت واكتسبت سمات واضحة تكاد تلمس وترى. هي نوسانه بين أسخى البِشْر وأقبح التجهم، بين الرقة التي تدنو من الخفر الأنثوي الأصيل والغلظة

الشنيعة.. مثل أخيه وأمه وأهله جميعاً. وأغلب الظن أن هذا الداء موروث عند هذه الأسرة الملعونة المحبوبة!.

كنت أجيئه أحياناً فيتشبث بي مثل ولد صغير ويأخذ يبثني أشجانه، يقول لي شاكياً:

- لم أعد قادراً على الحب يا دلال! أنا إنسان خاسر، تافه، غليظ القلب، وحسي ميت. وغالباً ما أشعر كأن إنساناً يتكوم في قلبي وينتحب في لوعة وحرقات. أنا لاأسوي شيئاً،لانفع فيَّ أبداً.

في مثل هذه الأحوال أود لو أخذته إلى صدري، ومسحت على أحزانه وهمست في أذنه همساً رقيقاً ناعماً: «يا حبيبي، يا حبيبي المسكين!» أو أبكي له وأتقطع حسرات. من يفهمه غيري، هذا الحبيب الغالي؟.

زوجته! كانت الملعونة حينما يحلو لنا الأسرار تبدو وكأنها سُلحت بحاسة خاصة تنبئها عن مواقع الخطر، فتسرع إلى قطع نجوانا المتسقة البديعة بهتفاتها الملحة:

- تكلم بالفرنسية يا حبيبي الصغير، ماذا تقول؟

أو تحاول أن تشير إلى وجودها، فتوطن بالكلمات العربية القليلة التي تعلمتها:

- ياهبيبي أنت أليل أدب.

أو تتمسح بفريد، فيلعب بشعرها في ذهول..

وقد يكذب عليها فيقول:

- نحن نتحدث عن ابننا.

فيفتح البشر والادلال في وجهها، وتأخذها خفة غريبة، فتروي في تفاصيل لانهاية لها كيف تكركره فيسبها.. كأن ولداً لايزيد عمره على ثلاثة عشر شهراً يسبُّ! وأكثر من هذا أنها تعتقد أنه يشبه أباه كثيراً، فهو متناقض مثله، متقلب، هوائي!.

ويظهر أن الشلة كلها قد لاحظت أن أشواقنا القديمة أخذت تعود إلى الأزهار، أقوى مما كانت وأنضر. رآنا رئيس التحرير مرة نتسامر في هدوء، ولهفة، فحدق فينا طويلاً وأوراقه بين يديه وقال في مكر، كأنه يحدث نفسه:

- التاريخ يعيد نفسه يا إخوان!

فوثبت عليه، ورحت أشد أذنه في غناج. ماذا يريد أن يقول؟ ألست أعتبر في حكم المخطوبة لسامي؟ فكيف يتقوَّلون عليهَ هذه الأقاويل؟! كيف تخطر في بالهم مثل هذه الأفكار؟ ناهيك بأن فريد، على نظراته المحبة، متزوج وله ولد!.

وكان لايزال مهملاً، مزمن الافلاس، شأنه قبل سفره وزواجه. روى مرة أنه رأى فيما يرى النائم أن بنطلونه اليتيم قد انفزر، ففز من سريره مرتعباً جداً.

كان في حاجة إلى ست بيت مثلي ترعاه، ولكن! هذه البقرة التي تحدق في القطار المارق!..

وكان أحياناً ينظر إلي كأنه لايعرفني. يقول لي في اهمال ظاهر:

- ألا تزالين ضائعة أنت؟!

ويروح يتودد إلى زوجته ويناديها في لين: «يا حبيبتي الصغيرة المعبودة!» فتنتفش هي مثل الديك الهندي وتصير في معاملتي أميل إلى البر والحفاوة، ثم تروح تتسكع بين المكاتب ترتبها، ولاسيما مكتب زوجها، وتتعمد، وهي تحرك يديها أن تمس وجهه أو يده!.

وذات يوم كان على مثل هذا المزاج السيء، منغلقاً تماماً من دوني. وخيل إلي أني ألمح في وجه زوجته اثارة من شفقة علي تخفي سخرية مهذبة، فجن جنوني.. هؤلاء الرجال! كأن ليس في الدنيا غير دولتهم! قلت له انتهره والكلمات تتدافع في فمي:

- أنت، أنت، أنت سيء وامرأتك كذلك.

فزم عينيه كأنه يريد أن يراني جيداً وقال:

- ليش؟

- لأنها سيئة، وأبسط بنت في البلد أحسن منها!

- في هذه بدك ما تؤاخذيني. واللّه يا بعد عيني أنا لا أقايضها بكل نسوان البلد.. أبسط بنت في البلد؟ ليَ أنا تقولين هذا الكلام؟!

قلت محنقة:

- الحق معك، معلوم، مع هذا الجمال الفتان!

فأجاب ساخراً:

- ولكنها محبة. من سنتين قالت لي أنها تحبني. ومنذ ذلك الحين أحرقت كل السفن وراءها. هجرت أهلها، وطنها، جامعتها وربطت مصيرها في فوضاي وجنوني وتعتيري، إلى الأبد! الأبد الأصلي، لا الأبد التقليدي الهستري الذي يقال مئة مرة في اليوم لمئة رجل. عرفت بعض الفتيات في هذا البلد يا آنسة، لو تزوجتهن لما أمنت عليهن من أبي إبراهيم الآذن العجوز.. أما هذه المرأة الصدفاء فهي إنسانة بسيطة طيبة، متوازنة، كل صفاتها المحبة، تحملتني، تحملت نزواتي وخيانتي وتشردي في صمت ونبالة..

صحت به مقاطعة:

- ومن أضاعني؟ من مرغني في الوحل؟

- لم يضيعك إلا جنونك. ظننت أن هذا التفتيش المستكلب عن الرجال يوصلك إلى هدوء النفس، فكنت كلما أمعنت فيه زاد تغريزك في الضلال.

- هذا صحيح، وكنت كلما ازددت انحداراً ذكرتك باللعنات!

- العني ما بدا لك. ليلة سفري أقسمت لي ألا تكوني إلا لي أو لعزرائيل، أتذكرين؟

- أنا دوماً لك، ولكنك خنتني وتزوجت!

- علاك، لقد بلغتني أخبارك بعد أيام من وصولي إلى فرنسا. ما كان أقبح خيبتي!.

- لم تكتب إلي! تركتني دون خبر أو تحية ترسلها في رسالة إلى صديق. لقد خدعت بك وبأشعارك التافهة.

كنت أغلي. ومن عجب أن زوجته قد لبدت في مكانها لاتتحرك ولاتنهال عليه بأسئلتها الملحة المائعة: «حبيبي، ماتقول؟» كان يعس فيها فرح رجيم خفي، أخفى من أن يدرك، بينما لاتفعل أكثر من أن تلعِّب عينيها بيننا.

خرجت غاضبة وصممت على ألا أضع لي قدماً في هذه الجريدة، أو على الأقل ألا أرى لهذا الخائن وجهاً. وفي اليوم التالي جئت عند رئيس التحرير فوجدت فريد عنده، وزوجته قربه على مألوف عادتها، فلم أكلمه، ولم أسلم على امرأته، واذا هو، بين دهشتي وعجبي الكبيرين، يخاطبني في رقة لانهاية لها:

- دلال، عندي مفاجأة لك يا عزيزتي الصغيرة.

وتثب امرأته عليه بسؤالها الخالد: «حبيبي، ماذا تقول؟» فلا يرد عليها بل يتابع حديثه الوادع الرقيق، ويخبرني أنه يعد مجموعة من أشعاره الغزلية سيهديها إلي: «ملهمتي.. الآنسة د!»..

وقال رئيس التحرير كأنه يكلم نفسه

- يا إخوان التاريخ..

- فهددته، في غنج، بشد أذنه وتشعيث شعره الأنيق فقال لي:

- أنا لا أكلمك. أنا أحكي مع حالي.

وقال فريد كما لو كنا وحدنا.

- أتعرفين يا دلال؟ مابيننا أبعد من أن يستطيع الآخرون اللعب به. لاتردي عليه.. ستبقين أنت دلالي البديعة العزيزة التي تفهم حتى الخلجة العابرة في وجهي.. كيف نشرح هذا للناس!

وفي المطبخ لم يكلفنا الرجوع إلى قبلنا المجنونة، الشاكرة أي شعور بالغرابة. لم تختلف عن القبلات القديمة إلا في أنها كانت مسروقة.. ولعلها كانت ألذ!.

وعلى أية حال فقد كنت، في الأعماق، أحس أن كل هذا تفاهة وبوار يجب أن أقتلع نفسي منه كله!.

* * *

الفصل الثاني والعشرون

بات سليم شديد القسوة. لم أعد أملأ حياته كما كنت. تعرف على سعاد الدرباني، وهي فتاة في حوالي السابعة عشرة من عمرها، ميالة إلى السمرة، نحيفة، شاحبة، تقول أنها مسلولة، كلامها رخو، تمطُّ كلمة «سلامات» فتجعل منها «سالامات» مائعة تطلع الروح. لم يعودا يفترقان إلا لماماً، يجيء بها إلى مكتب الجريدة، فخوراً بها، ويظلان الساعات الطوال رأسه قرب رأسها، واللّه وحده يعلم ما عساهما أن يثرثرا. في غيابها كان يتحدث عن وجده بها في صفاقة غريبة، غير محتفل بي ولا متحرج مني، كأني أصبحت من سقط المتاع. كانت من أسرة متفككة عجيبة. الأب موظف شيخ، والأم مهووسة بأمجاد الماضي تزعم أن جدها كان مشيراً في الجيش العثماني.. والبيت كله ليس.. ما أقول؟! ليس نظيفاً.. والغريب أن سليم هو نفسه الذي زودنا بهذه المعلومات القيمة، ولكنه رواها، على طريقته في تهوين الموت، كي يدلل على أن فاتنته النقية، البتول، تسوى أعجاباً مضاعفاً.. فهي عنده راهبة في مكان للعبث وهذه أعظم درجات العفة والنقاء!.. كان اذا تحدث أمامك عنها، وأنت تعرفها معرفة جيدة، حملت حملاً على الظن أنه إنما يتحدث عن امرأة ليست من عالمنا الملموس هذا، امرأة من كوكب آخر، الفانون فيه بلغوا مرتبة الكمال المطلق، مثل أي إله.. وكان يقول:

- نحيفة؟! ولكنه عمرها. إنها في زمن التفتح والأزهار. ومن كانت لها بنيتها الغضة الرخصة أمنتْ أن تفور في سرعة كي تذبل في سرعة أعظم، مثل أرض حقنتها بالسماد الكيماوي.. وهذه - والحمد للّه - علة أكثر بناتنا. بين السابعة عشرة والثامنة عشرة فورة كاسرة، جامحة ثم.. يبدأ الترهل والسنادات والمشدات و.. ألا توافقينني يا دلال؟

يريد أن يعرض نموّي المبكر، الخاسر! ويتابع في حماسة أشد - هذه بنت تملأ الدنيا أولاداً وتظل كأنها فتاة عازبة! كلامها ممطوط؟! ولكنها الغنة الموسيقية الناعمة التي تسحب اللهفة والوجد والتنهد حين تنسحب على القلب! هذه أميرة، هذه.. الأسرة؟! إنها تنبت نقية طاهرة في وسط التفاهة والانحطاط. بل هي رجل البيت. إنها تتفرد بغرفة منعزلة، مثل الصومعة، تنسج لنفسها فيها جواً مضيئاً عذباً لا علاقة له بالبيت.. كنت عندها مرة، وامتد بنا السمر حتى الفجر، وإذا أبوها يدخل علينا ويسمعني كلمة سيئة. ومنذ ذلك الحين لم توجه إليه كلمة أبداً! وهي تنتهر أمها وتحتقر أسرتها كلها.. إنها أشد الناس ثورة على منشئها! ولكن مايدهشني فيها لايقتصر على هذا وحده. إنها على الرغم من كونها بين الأوليات في الصف، تجد متسعاً من الوقت ترسم فيه. فنانة حقيقية. رأيت لوحاتها الأولى. إنكم لاتستطيعون أن تتصوروا أعظم منها. فيها شيء من رينوار والتأثريين: إفراط في الرقة وحساسية شديدة بالألوان.. الأصالة في الفن لاتخبيء نفسها، منذ ضربات الريشة الأولى!.

وبدت هي أيضاً مفتونة به. اذا لم يكونا معاً تلفتت له. وفي دروسها كانت ترجع إليه دوماً، مما اضطره على العودة إلى كتب القواعد والعروض والتاريخ. أمسى كثير الوسواس بالقواعد، تندس في كلامه اشارات عن البصريين والكوفيين مثل سعيد الخص.. وقد يفاجئنا - وهو يمط رأسه من الباب - بقوله:

- حزركم، يا أيها الراسخون في العلم، أين الشاهد في:

أعد نظراً ياعبد قيس لعلما

أضاءت لك النار الحمار المقيدا

ولكن أكبر ما روعني أن الجريدة كلها، من رئيس التحرير إلى أبي إبراهيم الآذن العجوز، صارت تهتم للرسم. لم يبق لسواه موسم في «الندى» أبداً. كان رئيس التحرير يقول في عصبية:

- جريدتنا مقصرة، مقصرة. إنها في حاجة إلى دراسات فنية. يجب أن نعطي لمحات عن الفنانين العظام، تجاربهم، حياتهم. وحينما ننشر لوحة من

اللوحات يجب أن تتبعها دراسة عن مواضع الإبداع فيها. علينا أن نكسب طبقة جديدة من القراء، المثقفين، وإن كانت الجريدة لايمكن أن تحيا على القارىء العادي.

ويتنهد سليمان ويقول في حزن ظاهر:

- ماذا أقول في حق أبي وأمي! في صغري كان لي ميل للرسم. وذات يوم لم يكن أحد في البيت. خطرت لي فكرة، ما أسرع ماحققتها: قلعت باب الخزانة شية أمي وحملته إلى النجار. قلت له: أريد أن أصنع مسنداً أرسم عليه. كان في ذهني نموذج لمسند خفيف نظيف، يطوى فيصبح مثل صندوق ستوضع فيه مواسير الدهان والريش. فلم يبد عليه أنه فهم. قال لي في بلاهة: «يعني بدك سبَت؟» فزدت في الشرح، ورسمت له القطع المركبة قطعة قطعة حتى انتهى إلى فهم لم أثق به كثيراً، فلم أنهض عن يده حتى أخذت مسندي كاملاً. وكانت أمي لاتزال غائبة وأبي في القهوة. دخلت البيت دخول الأبطال الفاتحين. وشرعت لساعتي أفرش العدة في حديقة المنزل، أمام شجرة مشمش كان يبدو خلفها كشك بيت الجيران.. وعادت أمي، فلما رأت ما حلّ بباب خزانتها، ورأتني منكباً على عملي الفني، سألتني في رطوبة قلب عما اذا كنت أنا الفاعل!.. ولما استوثقت لم تصنع أكثر من أنها قبضت على مسندي من رجله، وانهالت به على رأسي حتى كسرته (أقصد المسند).ومنذ ذلك اليوم صار عندها ولع لامزيد عليه بكسر أدوات الرسم واتلافها حتى قبل أن أدشنها!

كانت سعاد تضحك حتى تقلب على قفاها، فينظر إليها الخائن نظرات هائمة ويزداد حديثه حماسة:

- اضحكي ياتقبري عظامي، اضحكي. لو كنتِ محلي ماضحكت. وتقول سعاد وهي تمط كلماتها كالعادة:

سليمان، كمل قصتك!

- إي على رأسي، تشكلي آسي. كنت أحكي عن أمي. ولكن حظي في المدرسة لم يكن خيراً من حظي معها. وما كنت لأهجر الرسم لو كان كذلك. كان مدرس الرسم عندنا انساناً غريب الأطوار. فتى ظريفاً، أبيض، صارخ

الأناقة. مشكولاً دوماً بدبوس. درس الفن في ايطاليا وعاد منها شديد القرف من بلادنا. كان يعرّف الرسم بأنه صناعة الجمال، ويراه غير منفصل عن الرسام. ومادامت النفوس في بلادنا يقتلها الصغار والحسد والنفع الرخيص، فلا قومة للفن فيها. كل هذا حسن من مدرسنا الفاضل ولكن حضرته يتوصل أحياناً في نظرياته إلى نتائج عجيبة.. مثلاً، لما كان الفن لاينفصل عن الفنان والفن صناعة الجمال فالفنان لايمكن أن يكون قبيحاً، أو مجدوراً مثلاً. لذلك كان ينظر في وجهي طويلاً ويقول لي في اشمئزاز: «أمثل هذا الوجه يصنع أشياء جميلة؟» ثم يلتفت إلى رفاقي مستنكراً ويقول لهم كأنه يستعديهم علي: «وشوفوا لي هاالهيئة، ها البدلة!». ومع ذلك كنت أرسم لرفاقي كلهم، فيأخذون علامات متفاوتة ترتفع كلما زادت نسبة الوسامة والأناقة. أما أنا فكنت أفوز بالطرد من الصف لأقل هفوة!.

وجاء يوماً سليم منفوشاً. كان يحمل إلى سكان الجريدة روائع فاتنة العبقرية.. لاأقولها غيرة أو حسداً، ولكن أبسط قواعد الذوق السليم تنبيك أن هذه اللوحات المزعومة ليست إلا خربشات بالألوان لا قيمة لها. إحداها مائية، تصور ضريح الشيخ عبد الرحمن في شارع بغداد، مدخل الديوانية. فهمت ذلك، يعلم اللّه، من الكلمة المثبتة في أسفل اللوحة!.

ولم يكن سليم يقبل مناقشة في نباهة فاتنته، ولاسيما في غيبة فريد. وتجدر الإشارة إلى أن سليم، على الرغم من كونه البكر، كانت فيه نقطة ضعف، فيما يخص فريد، لاتجدها إلا في الآباء، ذوي الأطفال الوحيدين. كان اذا أقسم برأس فريد لايحنث، واذا هاجم فريد رأياً من آرائه التي يدافع عنها في ضراوة، رّف بعينيه وغمغم في احتجاج واهن، ثم لاذ بالصمت.. بل أخذ وجهه ذلك الانجذاب المدهوش الذي كنت ألمحه في وجه امرأة فريد نفسها.

كان سليم يعرض ضريح الشيخ عبد الرحمن الأثري، ويخطب:

- أليست عبقرية حقيقية! فريد انظر لي نظرة بحياة بيّك! ولك سليمان، تعال يا قرمة الهم، يا دب، تعال جّلخ عيونك، تعال ياتقبر عظامي الجحش، فريد، بصلاة محمد قل لك كلمة!.

وقال فريد وهو يتأمل الصورة:

- أنت جاد؟!

- أعوذ باللّه، جاد؟ واللّه العظيم جاد!

- اذن فاعلم أن الذي همَّ البنت أكثر ما همها هو أن تعوج الطاقية على رأسها، وتشعث طرتها السمراء وتضع مسند الرسم في شارع بغداد وتتعرض على السابلة..أما الشيخ عبد الرحمن، المسكين، فلا أظنه لعب دوراً ذا بال. إن حشو هذه اللوحة لم يكن الرغبة في الفضاء الفني، ولكنها الوقفة وراء مسند رسم في شارع عام.. صورة ذاكرية لما نقرؤه عن فناني الحدائق العامة في أوروبا!

فألتم سليم ورف بعينيه السوداوين وغمغم:

- ياخيّ، أنت تبالغ..واللّه ظريفة.

ثم انتشر من انكماشه وأضاف في لهوجة:

- خيّ، بعد كل واحدة أنا لاأعرف. أنت لاتقدر أن تتصور كم تحبني!

فقال فريد مبتسماً:

- هذه مسألة أخرى لاعلاقة لها باللوحات المائية! ومع ذلك فأية فتاة في هذا البلد لاتحب أي فتى إذا خلوا بعضهما إلى بعض!

ولملم سليم لوحاته وهو يختفي من المناقشة.. انطلق يغني بصوته العميق القرار:

درب حلب ومشيتو

كله شجر زيتوني

واحتج سليمان قائلاً:

- واللّه ياتقبروا عظامي أنا نفسي لو أردت رسم الشيخ عبد الرحمن لما تمنيت أبدع من هذه اللوحة!

فضحك فريد:

- إذن تسمح لي أن أعترف أن أمك كانت وليَّة.

وقال جورج:

- أعتقد أن الفكرة موفقة لأن نقل معالم بلادنا على القماش والورق فكرة وطنية والفن يجب أن يكون متحيزاً، إن يلتزم.

هنا ثارت ثائرة فريد، واحمرت عيناه:

- أنت مولع حقاً بترديد أشياء لم تتوصل إليها أنت نفسك، أشياء لم تهضمها. ما دخل التحيز في هذه الخربشة الولدانية؟! في اعتقادي أن ما نقوله وما نردده ينحو في أكثر الأحيان نحواً شديداً أن يكون ذهنياً بحتاً. أنا أعتقد أكثر منك أن علينا أن نفتش عن موضوعاتنا في ترابنا في أرضنا، في أغانينا وفلسفتنا القديمة، بل في أنفسنا. أنا لا أماري في أن فنانينا يتعرضون، وهذا أمر إنساني، لتيارات صارخة تهب علينا من أوربا، ولكن المهم أن تكون تجربتنا ذات لون إنساني، أن يكون فيها حدّ أدنى من لغة أممية يفهمها كل الناس! إن الفن لايمكن أن يكون فتاتاً رخيصة مما يعلق بذاكرتنا.. إنه، كأي عملية خلق أخرى، مثل مخاض الشجرة كي تلد الثمرة، عملية خاضعة للزمن والانضاج والشرائط الطبعية التي يجب أن تأخذ حدها ونهايتها. إن من السهل عليك أن تقلد غوركي. وإذا كنت ذكياً غششت حتى غوركي نفسه.. ولكن، أن تضع مولوداً أنت حملت به تسعة أشهر!.. هنا المسألة كلها..

كان يسميها البزاقة. ولما سمع أخبار سلوكها مع أهلها، وعلى الأخص مع أبيها الضعيف الهرم، قال في مرارة:

- أنا لا أجد لها صفة إلا اللزوجة. إنها لزجة حقاً، وأظن أنها قادرة على أن تكون كل شيء إلا فنانة. قد تنجح في سرْك متنقل أو مدرّسة في تجهيز تفتن مفتشي المعارف، أو ما كان عند بياع قبعات.. ولكن فنانة! اتقوا اللّه في الفن يا جماعة، فنانة وتنتهر أباها العجوز!.

وكان لايكتم عواطفه في حضرتها، يسخر من طريقتها في لبس البنطلون الأزرق، زي رعاة البقر، ودراجتها ذات المرايا وريش الطاووس..

وقد يسميها «حسن صبي» .. ويلفت النظر إلى أن وجهها، وهذا أعجب شيء رآه في حياته، له استحالات شتى مثل الحشرات فهو حيناً يعكس براءة وسذاجة مصطنعتين، وحيناً - اذا هي برطمت - تطعَّم على وجه قرد! ومن الغريب أن كلامه كان صحيحاً..

أما هي فكانت متبلدة، مستغرقة، مفتونة، لاتفتأ تنشطُّ مثل المعلل في الشمس. وفي بعض الأحيان كانت لاتتورع من أن تقترض مبالغ قليلة من المال لاتفكر في ردها أبداً.

شيء مثير للغثيان حقاً!.

* * *

الفصل الثالث والعشرون

ذهبت عند سامي الحوراني.. منذ أكثر من أسبوعين لم أضع قدمي في بيته، ومع ذلك فقد كانت الصوفة بادية النظافة، حسنة الترتيب. وعلى منضدة الوسط زهرية فيها باقة ورد رطيب، تتعلق في بعض وريقاته قطيرات متلألئة من الماء.

كنت منصرفة عن القطرات المتلألئة على ورق الورد. أحسّ هديراً يمنعني من أن أسمع غيره. كنت أكافح في سبيل الخروج من هذه المتاهة التي طال علي فيها امتداد الظلمة وإطباقها، وعزَّت علي معرفة السبيل إلى الخلاص.

ولاحظت أن سامي قاتم هامد.. كان أمامه كتاب فرنسي يخيل أنه مفتوح منذ فترة طويلة على صفحة معينة. لما دخلت نظر إلى نظرة تشبه أن تكون تنهدة. قلت:

- اشتقت لك.

ورنوت إليه في عطف وحنو:

- سامي! ألا تسأم هذه الحياة المشتتة التي تجررها. خذ! كان فريد أشد منك غرقاً في الفوضى. أنت تعرفه. إنه الآن على الأقل، لايلبس بنطلوناً ذا ركب ولاقميصاً مدعوكاً. ثيابه تكوى كل يوم، وامرأته كما رأيتها ليست مهووسة بمسألة النظافة. إنها مهووسة به وحده!.

فلم يجب. كان يطرق ويظهر واضحاً أن شاغلاً ملحاً يشغله. تابعت:

- وأنا أفكر فيك حينما أكون بعيدة. ما أجمل ألا أفكر فيك، أن أكون مطمئنة عليك، أن أكون قريبة منك! أنت الانسان الوحيد الذي دفعني في الطريق المستقيمة. أنت معلمي. ولست أدري ما عساي أن أصنع من دونك!.

قال ساهماً:

- وأنا أيضاً لا أدري ما عساي أن أصنع. كنت ثمينة جداً لي غالية علي. أنت زرعت الأنس في وحشتي وكنت لي أهلي ووطني ودنياي .

- سأكون لك كل ذلك، أنا لا أستطيع أن أعيش إلا لك.. أنت معلمي وحبيبي. أنت تعرف يا سامي أني لولا أبي المسكين لكنت بلا أهل. إن علاقتي واهنة بأسرتي ولاتصلني بهذه الدنيا إلا الروابط التي خلقتها أنت لي. ما أسعدني اذا رضيت لك ولي أن أكون أكثر حدباً عليك وأكثر قرباً!.

قال في لهجة واهنة، كأنه يصرفني عن الحديث صرفاً:

- اسمعي، لك عندي بشارة.

- ما هي؟

- لا أقولها لك، احزري.

- لا أعرف، قل، قل!

قال وحاجباه الكثان يتقوسان في ضحكة محزونة:

- نشرت مجلة «الأدب الفتي» مقالك عن البطولة.

ومدّ يده إلى رف الكتب وراءه ونتر المجلة. ونطتت أنا أخطفها من يده:

- باللّه عليك!؟

وفتحت المجلة في نزق ورحت أقفز الصفحات قفزاً إلى أن وصلت إلى صفحة «ما يكتبه القراء» واذا مقالي يتصدرها:

إني أحلم به ذلك البطل

الجهوري الصوت، ذي الشاربين الأنيقين والمشية الرقيقة الذي سيجيء إلي من خلف غمام المزن.

فيضمني إلى صدره الكث!

يعسر علي أن أصف فرحتي. ولكن! سامي، مابه؟ ما كان أشبهني بحديث ناظم صدقي، الناقد الموسيقي، عن السمفونية التاسعة! كنت بين قلق وفرح أو فرح بين قلقين أو..

ولم أدع الموضوع يفلت من بين ديدي. قلت:

- ألست تحبني يا سامي؟

- بلى يا دلال!

- ألا ترى أن أفكارك في بعض الأحيان تحتاج أن تؤمن بها أنت نفسك؟ ألا ترى أنك تخاف الرأي العام، أنت ناقده ومفتاح عينيه؟!..

- ولكن دلال..

- ألم تعلمني أنت نفسك أن الرأي العام يجب أن يظل أدنى مرتبة من الناقد، أن يخافه ويحبه ويتخذه مثالاً!؟ لماذا تتحاشى مواجهتي بآرائك؟ لماذا لاتبوح لي بسرك؟ أنت رجل له ماض وأنا أيضاً.

ولكن الفرق بين الاثنين أن ماضيك قد تخيرته أنت في حرية، أردت كل سفاهة فيه. ألم تكن لك عشيقات في فرنسا؟ ألم تتبجح بأن لك ولداً من امرأة متزوجة؟ ألم تحيَ؟!.. وهنا في دمشق ألم تكن تذهب إلى دور الدعارة، ألم تقل لي إني حميتك من هذه الحياة الخليعة؟ لماذا لاتقول إني وفرت عليك ما كنت تموت وأنت تدفعه هناك؟ أما أنا فما ماضيَّ؟ حماقة، ولدنة، ليس وراءها تخيّر ولا وعي! ألم تقلها لي أنت نفسك! أنا لاأنكر أني، حتى بعد أن عرفتك، تابعت سيرتي القديمة وضياعي. ولكن، ألست أنت، بعض الشيء، مسؤولاً؟ من يضمن لي أنك تنسج على منوال غير منوال الآخرين! إنك من قماش غير قماشهم؟ كلُ ما ظفرت به حتى الآن لايعدو الكلمات. سيل، نهر، اوقيانوس من الكلمات. الحب؟ لقد فقدت الكلمة طعمها في فمي، أصبحت ضحكة مجروحة. فرنسا، الصفح، المغفرة، الجمال المطلق، الوجود والعدم؟! لقد كفرت بكل شيء، وما أنا إلا أنثى، معذبة، مجروحة، بائسة! قل لي، قل في صراحة، أأنت جاد أم كاذب كالآخرين؟!

وانطرحت على الكنبة أنشج في حرقة.. خيل إلي أن الأرض تنبع دموعاً، وإني في مكان قفر، أجرد، لايعرف أحد موقعه، ضائعة، مهجورة

ليس لي أهل ولايعرفني أحد، أنا الإنسانة التي غمرت الدنيا بالأنس والمحبة.

وإذا سامي، آه يا ربي كلما تذكرت ذلك! يقترب مني وينهضني، ثم يضمني إلى صدره في شدة كأني كنت هاربة منه، وينخرط هو أيضاً في بكاء مرير تقطعه شهقات متتابعة:

- دلال، ياحبيبتي المسكينة، اغفري لي دخيلك، اغـــــفري لي، أنا إنسان خاسر مشؤوم!.

هذه أول مرة أرى فيها رجلاً يبكي. لقد جرح قلبي، فرأيتني أضيّع رشدي حقاً وتغلب عليَّ طيبتي فأضمه إلى صدري وأخاطبه في رقة عظيمة:

- بل أنا التي أعتذر. اصفح عني ياسامي. لن أعود لمثلها أبداً. لعنني اللّه ما أشد حماقتي..

فقال وهو لايزال ينشج:

- لا، ليس من أجل هذا يا دلال.

- لايهمني .خنّي اذا شئت أظل دلالك التي عرفتها.

فزاد نحيبه:

- هذا يمزق قلبي أكثر.

- اسكت ولا كلمة. خلص انتهينا.

- دلال، لاأستطيع.. أنا.. أنا خطبت وغداً تلبيس الخاتم.

قالها مثل طلقة المدفع، دفعة واحدة.. فسمعتني اسأل:

- ماذا؟ من؟

- خطبت.. ابنة خالتي!

وتشردت في الأزقة.كان على معصمي أثر قبضته لما حاول يائساً أن يستبقيني. كنت أود أن ألوذ بغرفتي وأذوب دموعاً وحرقات.. ومع ذلك لم أكن متجهة إلى البيت. كنت أضرب في كل مكان. أمشي وأمشي كأني أهرب

من ذاتي.. ورأيتني في شارع أبي العلاء. كان المساء حزيناً، بادي الشحوب، مضني، يشكو التعب. وتصورت أن الشارع والغروب والأبنية الجامدة الباردة كلها ترثي لحالي. وكان الناس يتنزهون في كسل واشمئزاز.وجلس بعض النسوة على عشب الأحواض في الحدائق المتناثرة على طول الشارع العريض، ينظرن إلى الرجال، كما تنظر الكلاب الشاردة إلى لحام مشغول. وتكاسل هؤلاء حتى عن التحديق بهن والتفرس بما قد يظهر من ركبهن وزنودهن، بل مضوا في طريقهم غير مبالين. وتسلقت شجيرات من الياسمين الأسيجة على جانبي الشارع، وبدت زهيراتها البيضاء البريئة واهية التعلق بالأغصان، فكانت تسَّاقط في صمت بين حين وآخر فلا يحسّ بها أحد. وجرى أمامي، فجأة، طفل كأن الأرض انشقت عنه، نحيل، أشعث، وجعل يقلد بوق السيارة ثم لم يلبث أن سكت وجعل يجر قدميه في وناء.. وأقبل شيخ يتبعه ولدان، أحدهما أعرج، يقذف رجله في الهواء كلما تقدم خطوة ويثبتها في مكانها كي يستند إليها في الخطوة التالية.. وأما الثاني فقميء، هزيل، أصفر، يداه سوداوان من قذارة ورجلاه دقيقتان كأنهما مسماران، تنتهيان بنعل قديم قد طار نصفه، وظهرت من النصف الآخر أصابع الولد ذات الأظافر الطويلة المنحنية إلى أسفل. كان يقول للأعرج في براءة:

- اسبقني!

والأعرج يجاهد ويتحرك كله، فتظنه إنسانا يتعلم السباحة. والشيخ في المقدمة، له سروال واسع برز في منتصفه، من أمام، شيء كالصرة ينوس بين رجليه! كان يسير في المقدمة وساقاه متباعدتان الواحدة من الأخرى، ورأسه الصغير يتمايل كأنه يعينه على المشي!.

وتابعت السير. بلغتُ صبية صغيرة عن يمينها غلام مراهق في مثل سنها أو أكبر قليلاً. كنت أرى الجانب الأيسر من وجهيهما. مليحين. الصبية تلبس بلوزاً أبيض وخراطة ولدانية قصيرة.. قصرت من خطواتي، فسمعت نتفاً من حديثهما. كانت البنية تقول في غنج.

- ولو، اقرأه لي.

فيتمنع الفتى:

- ما دمنا اجتمعنا لايش قراءته؟

- مابدي، أقرأه.

ويطيع الغلام أخيراً.. يسحب من جيبه ورقة بنفسجية اللون حسنة الطي. يفتحها ويقرأ:

«حبيبتي هند، أنا أحبك يا حبيبتي الصغيرة وأحلم بالأشياء الصغيرة التي تدور أحاديثنا حواليها: البيت الظريف الذي له جنينة تغص بالياسمين وفم السمكة والقرنفل. هناك نحمل، أنا وأنت وأطفالنا، أوعية الماء ونسقي زهورنا..».

وضحكت الصبية الصغيرة في غنج أكثر وقالت:

- نسيت المرجوحة يا موفق!

- اسمعي حتى أكمله.

- والعربة الصغيرة!

- إي، اسمعي، اسمعي.

- وخناقنا اذا رجعت إلى البيت متأخراً..

كانا يهدلان مثل الحمائم، منصرفين عن كل ما حولهما.. أو فضت السير حتى غاب عني هديلهما ومناغاتهما التي تقطعها الضحكات الهانئة..

ومن البعيد كان صوت يجأر بأغنية:

يا أم العيون الكحيلة.

ليش بخيله

لما وصلت إلى البيت كانت أمي تضع كومة الملاقط الكبيرة اللامعة تُعقرب بها شعرها الخفيف الجاف، فبدت كأنها قرع بقبع.. كانت في يدها

مرآة تتأمل فيها وجهها الكالح الذي هربت منه الدماء. وكان الدرويش يقعي أمامها، ينظر إليها نظرات مفتونة ويسمع إلى ثرثرتها..

وللمرة الأولى في حياتي رأيتها كثيرة القبح! وأخافني هذا الشعور فتحركت أريد أن أقفز إلى غرفتي.. لم يكن في ودي أن أرى هذه التمثيلية الحقيرة التافهة، يقوم بها ممثلان وجبت لهما الراحة. لم يكن ذلك في قدرتي.. وهو نفسه كان سبباً في زيادة غيظي ومصيبتي.. لما رأتني أتحرك طفا على وجهها ذلك المعنى الذي تريد له هي أن يحمل سخريتها ورثائها المصنوعين، وقالت للدرويش:

- حبيبتي الصغيرة لا تسلّم! هي مشغولة بالأدب والأدباء. البنات من قدنا صار لهن طرش ضنى. أما نحن، اللّه يحفظنا، فما عندنا وقت لغير الشعر والأدب. اسم اللّه علينا، يخزي العين!

لم يكن في البيت أبي، الطيبُ المسكين. لذت بغرفتي. كانت قفراء موحشة. وتبدت الكتب لعيني سوداء غارقة في بحران، في ضباب من الغم!.

لماذا ينظرون إلي هذه النظرات؟ لماذا يضطهدونني؟ لماذا لايخطبني أولئك الذين يباهون بحبهم لي؟ أنا يا ربي في أعماقي تقتلني الأشواق إلى قلب يضمني إليه، يحنو علي، يرحم ضعفي وضياعي. أنا واللّه مثل بقية النساء، مُحبة لأولادي ينبثقون مني، أنمو فيهم وأكبر، يحملون حبي وحزني ووجدي، يزقزقون حواليَّ ويشدُّونني من شعري، ثم يكونون عكازة شيخوختي! ألوذ بهم إذا نبا بي عطف أبيهم، ويسعون بيننا بالصلح إذا نحن تخاصمنا حتى نبكيَ من رضى وفرح. أعلمهم أولى الكلمات فيناغونني بها، وأغني لهم أغنيات تسلمهم إلى رقاد عميق يبتسمون خلاله للملائكة ولي!

ماذا فعلت؟ أأنا ضالة؟ لقد قالوا لي دوماً أني في خفقة القلب وخطرة الخاطر وغنَّة الشعر! لقد قالوا لي دوماً أن الطريق إلى قلوبهم هي النعم وليست اللا! فلماذا ينفضّون من حولي؟ ماذا فعلت لهم؟ كم أحببتهم وبكيت

بين يديهم؟ كنت أحسُّ أن تنهدة راحة تندُّ عن صدر إنسان إكليل غار أتوَّج به فما لهم يضفرون لي أكاليل الشوك؟ لماذا يسخرون مني؟

أنا متعبة، حزينة، تاعسة! أحس أن الأمل نفسه يحتضر فيّ. أين الصفح والمغفرة؟ أين المحبة التي تشمل الوجود كلّه؟ أما من خفقة حانية يخفقها لي قلب محب رحيم! قلب واحد، يا إلهي!

*   *   *

أجراس البنفسج الصغيرة

رواية

١

الباب يغلق في تؤدة، ولكن استدارات الجسد الباهر لا تزال تملأ أعيننا الأربع.. هذه النسب، التي تقرع أبواب الكمال مزهوةً، نادرة في بلدنا. الباب يوصد ويغدو جزءاً جامداً من الجدار الجامد، قد يتميز منه باللون البرتقالي والأُكرة المعدنية.. غير أننا، عبد المجيد وأنا، لا نحول نظرنا عنه.. نرى فيه أبداً انخطافة الخصر وإندفاعة الردفين، وشموخ النهد الأيسر، وتشلل الشعر الأسود الاثيث.

كنا نراها كل صباح، ونراها عند الانصراف، ونغضّ الطرف أمام هذا الحسن الذي يلوي، يقهر.. ولقد كانت جالسة على هذه الديوانة منذ هنيهة تجاذبنا حديثاً هيّناً، فكنّا ننصرف، كلما فتحت فمها بكلمة، إلى تأمل وجهها العذب.. ولكنها نهضت، فاستطعنا أن نخطف نظرة عجلى من تلك الخطوط البارعة التي كانت تختبيء، لسنا ندري كيف، تحت معطف درويش أو روب فضفاض أخرق.. وها هي اليوم في هذا الثوب الكحلي البسيط ينحبك على الجسد المياد، لا يعصمنا منها عاصم.

وقال عبد المجيد:

- هل تعرف شيئاً عن رامبرانت؟

يا لذكاء فؤاده! الجماح الجسدي الكاسر، الألوان الحيّة الحارة، الاتساق الملحّن في كل تفصيل من الجسد.. هذا كله لايصلح له الاّ رامبرانت. وحتّى ما بدا لي اضطراباً يفصح عن نفسه في انضمامة اليدين وتقارب الحاجبين والنظرة المشتتة.. لا يفعل إلاّ أن يؤكد الخطوط التّي يتألف منها هذا الكائن الريان المذهل.. وماذا كانت تقول قبل ان يغيبها هذا الباب؟ كلمات قليلة تلك التي نثرتها.. كأني بها قالت، إجابة عن سؤال طرحه عبد المجيد: «البنفسج في حديقة الجيران يتفتح كل يوم..» هل قالت«يتفتح» أو«تلد بنفسجة صغيرة كلّ صباح؟» عدت غير قادر على الجزم. اختلط عليّ الأمر. كنت منصرفاً إلى دراسة الألوان والظلال حتى استغرقتني، ولكني متأكد من أنها ذكرت البنفسج. كان هذا لمّا التقت نظرتانا للمرة الثانية. في لقياهما الأولى لم تغضّ الطرف.. حَولتْه إلى النافذة التي عن يسار.. وأما في المرة الثانية فقد أسبلت أهدابها الوطف وعبثت بثوبها.

حسيب كيالي ج٢ – م١٢

وسألتُ عبد المجيد:

- فيم كان اضطرابها؟

- لاحظته؟

- ماذا يريد المدير منها؟

- شكاها رئيس القسم.

- لماذا؟

- ارتكبت خطأً في الجداول التي ترسل إلى المصرف المركزي.

- معقول؟ كلّ هذا ال...هذه لا يمكن أن ترتكب...

- لا، فعلا.. كنت عند المدير العام لما شكاها رئيسها.

- وحتّى لو أنها.. ماذا في ذلك؟ كلنا يخطىء.

- لم انتبه جيداً إلى الشكوى. قد يكون المخطىء غيرها، ولكنك تعلم أن الأخطاء تقع دائماً على صغار المستخدمين. هؤلاء أخطاؤهم لا تغتفر.

وساد صمت قصير. قلت:

- وبعد؟

- وبعد، قام المدير ولم يقعد واستدعاها.. أنت تعرفه. إنسان لا غبار عليه، ولكنه مستقيم أكثر مما ينبغي. ولعل استقامته هي السبب في نزقه. أتعلم؟ لو لم يكن مديراً فما عساه أن يكون؟

- ماذا؟

- راهباً. يا إلهي، لماذا يأخذ هذا الإنسان نفسه بكل هذه الشدة والزهادة؟ رجل لا ينقصه شيء. عنده المال والجمال وكل ما يجتذب المرأة. هل تدري أن الموظفين يضبطون ساعاتهم عندما يدور به الباب صباحاً؟

وصمت عبد المجيد لحظة ثم أنشأ يقول مخلصاً:

- ليكن الله في عونك يا سهام.

- أتظنّه يقسو عليها؟

- إنه يقسو على كل الناس. هؤلاء الذين تجفّ حياتهم فلا تبلّها زقزقة الأطفال وفوضى الزوجة الأم قادرون على أن يقسوا. لست أدري أين قرأت قصة قسّ رأى كلبة قد جاءها المخاض في الشارع فوضعت بضعة جراء أمام عدد من الأطفال فهاله أن يطّلع هؤلاء على منظر« الدنس» فانهال على الجراء دعساً...

- لا تكمل أرجوك. أنت أيضاً تحتاج إلى بعض الندى يبل... ومهما يكن فأنا أعتقد أن قسوة المدير لا تشبه قسوة قسّك الفظيع في شيء.. هذا متعصب أسود القلب. وأما المدير فشدته نوع من السجايا التي تتصف بها العدالة عندما يجسّدونها في لوحة أو تمثال.. اذكر لوحة رفائيل في الفاتيكان عن العدالة. إنه يصورها بسيف وأطـــــفال.. ووراء عبوس المدير وزهادته ينبض قلب أرق من أرج البنفسج مع الربيع الوليد..

- قد يكون يا حسين.. وأنا من جهتي أحبّه على الرغم من الضرر الذي أنزله بي أيام الترفيعات الأخيرة. ولكني أعترف أن أحداً في المصرف لا ينازعك عاطفتك العميقة نحوه.

- نعم، أنا أحبّه. وقد أتساءل أحياناً عن سرّ إيثاري له، على الرغم من أني قادر - وأنت تعلم هذا جيداً - على أن أجد عليه ما وجدته أنت. هل مردّ هذا الإيثار إلى العطف؟ الحق أقول إني أرثي له من أعماق القلب، هذا الراهب المتوحد كما سميته أنت. غير أني أذهب بعيداً، في أحيان أخرى، فأرى رثائي نفسه يعود إلى أن بيني وبينه نقاط تشابه كثيرة. كلانا قد عاش حياة عريضة وتقلّب بين الناس والبلدان. وكلانا يحيا الآن وحشة لا تؤنسها زقزقة ولا فوضى على حد قولك. ولعلَّ وحشتنا كلينا تردّ إلى شطط أحلامنا، شطط توهّمنا فيه منتهى التناغم!

- ولكن فروق السن بينكما..

- أصبت. وربما كانت هي سبب الفروق بين الخلقين. أنا لست شديداً لا على نفسي ولا على الآخرين. وقد أفهم كل الفهم أن يهب الإنسان شطراً من حياته من أجل بذار الابتسامات على الشفاه المتعبة.. المدير كان له، كما تعلم، بدايات فنية في الرسم بالزيت والإخراج المسرحي.. ولكن التيار جرفه إلى هذه الغرفة الوثيرة من المصرف.. أحياناً أدخل عليه غرفته، صومعته إذا شئت، فأروَّع.. أراه ينتزع نفسه في قسوة ضارية: فرع اللاذقية يجب أن يوقف الدفع فرع حلب يستمر.. آلو، وزارة الزراعة، كيف حال الأمطار في الجـــزيرة؟ في حوران؟ إنه يهتم للأمطار في حوران لا لأن القرى هنالك هدمها الجفاف حتى صارت غامرة مهجورة.. لا لأن الفلاحين المهرة، عشاق الأرض الطيبة، باتو حمالين في سوق الهال أو شحاذين في الأزقة.. إنه يهتم لها لأن شـــــح الأمطار يوهن جلد البلاد وقدرتها على التعاملات المصرفية.. إذن:« خفف الدفع يا فرع درعا!». وأما أنا فلا أزال أضابح، أغالب التموّت الذي يغزوني، وأحاول بنوع من ازدواج الشخصية ألا أدع لمراقبة الفروع التي أقوم بها أن تتسرب من يدي إلى قلبي.. قد يكون هذا هو جوهر الاختلاف بيننا. العمل الذي تمتد عيناه إلى مأمل بعيد عزاء يا عبد

المجيد، عزاء عظيم. بعض الناس لا يستطيعون مثل هذا العمل فيفتشون عن العزاء في ذراريهم، وأخالك تذكر المقارنة التي عقدتها لك ذات مرة بين أخي هاشم وأختي زوجة الطبيب...

وقطع حديثنا إنفتاح الباب بيننا وبين المدير في التؤدة التي أُغلق بها منذ قليل، وخرجت سهام وفي يدها منديل، ودنت من الديوانة الجلدية التي كانت تتخذها مجلساً عن يميني أنا، وقعدتْ.. كانت تند عنها شهقات خفيفة يرتعد لها جسدها كله. لم نكن نرى وجهها، إذ كانت تشيح به عنا وتنظر إلى الباب الآخر المفضي إلى الممر..

وحولت عيني إلى عبد المجيد. كان يسارقها نظرات حانية طيبة ويتململ في مجلسه. صمتت آلته الحاسبة، واحتارت يداه بين الأوراق، وظهرت في جبينه ثنيات من يشغله شاغل.. ولكن هذا التساؤل المحيّر لم يطل اللبث في قسماته.. لحيظات، وعاد البريق الحي إلى عينيه. استراحت أساريره واختفت الغضون من جبهة.. وقام مستأنياً حذراً، ودنا بخطوات مخملية من الديوانة وقعد عن يسار سهام وهو يبتسم ابتسامة معابثة.. ثم إنه مد يده بحركة مسرحية إلى كتفها ونقر عليه نقرات خفيفة جداً فبدرت من الفتاة محاولة التفاتة ظهرت لي معها أهدابها، فقال في وداعة:

- سهام.

فحركت الصبية مرفقها حركة خفيفة كأنها تدافعه فاستمر:

- أي؟ وبعد؟ سنظل نبكي؟

لم تجب ولكن الشهقات هدأت قليلاً. وتابع هو:

- والله يا ستيّ إذا وجب علينا، كلما اخطأنا في الحساب أن نبكي، فأنا أعمل نائحاً في المآتم أربح لي..

وانقطعت الشهقات، ولكن صوتها ظل باكياً حينما قالت:

- ولكن.. هو.. لماذا لم يدقق؟

قال عبد المجيد مواسياً:

- دقق، ما دقق، المهم أن نضحك، انتظري. سأحكي لك حكاية.. لا، أقلد لك من؟ أنت تعرفين من سأقلد لك، هيء، هيء، هيء، إ إ إ...

وقالت سهام في ضحك باك:

- ألا تنتهي؟

وقمت أنا وتركت الغرفة..

* * *

٢

إذن قد قسا! أحمد الله على أنه لم يخلقني مديراً.. إلى أين أذهب؟ تذكرت: كان لدي عمل في وزارة العمل يتعلق بنقابة المصرف، ذهبت. وكنت أحسبني سأضيع أكثر من ساعة في هذا الشأن، وإذا المسألة تنحل في دقائق.. وخرجت من الوزارة وأنا أرى قدميَّ تسوقاني إلى سوق ساروجة، حيث تسكن أختي سميحة..

ما أقساني! منذ أكثر من أسبوعين لم أزرها.. وهي، يعلم الله، عزيزة على قلبي.. بل هي، بعد أمي، أعز أهلي. ولعل إيثاري لسميحة ينبع من فيض المرحمة الذي ينسرب في قلبي نحوها فهي لم تنجب، إنها متزوجة منذ أكثر من خمسة عشر عاماً، وزوجها طبيب ناجح، له عيادة في أحسن نقطة من شارع المجلس النيابي، ومزرعة صغيرة. صحيح أن صهري ليس غنياً، وأن جمهرة كبيرة من مرضاه لا يدفعون شيئاً، ويخرجون من عنده ومعهم الدواء أوثمنه.. ولكن الرجل على كل حال، موفور الرزق، مستور..

ويا لمحبتهما، وأحدهما للآخر! إن بينهما من العواطف الرقيقة الخفية ما يعلّق قلبي على شعرة حناناً وعطفاً. في بعض الأحيان يخيل إليّ أنهما طفلان مهجوران في خربة بعيدة عن العمران وقد أنشد بعضهما إلى بعض طلباً للدفء، والإنس، لعل وحشة الخراب أن يبددها العناق العميق..

وكان أكثر ما يفجعني أن سميحة بالذات هي التي لا تنجب من بيننا نحن جميعاً، سميحة التي خلقت لكي تكون أماً، إنها أم في علاقتها بي، بأخي هاشم، بأمي، بمالك زوجها.. وعلى الأخص مالك، إنها تسكب كل أمومتها الكامنة المعطلة على رجلها الأنيس الوديع..

لما تزوجا كنت أنا حدثا يافعاً، ولكني أذكر البدايات التي لم تكن هينة قط.. كان ينشب بينهما نوع من النزاع الخفي، ربما كان خفياً حتى عليهما، هما ذاتهما.. من المسؤول؟ أقوال الأخصائيين تحمل العزاء إلى الفريقين كليهما. كذا في السنتمتر المكعب لا يكفي.. بل يكفي وزيادة، أنتم تتحدثون إلى طبيب. صحيح أنه ليس طبيباً مختصاً ولكنه يفهم.. المشكلة في أن الرحم منعطفة، ملوية، ولكن حتى هذا الانعطاف ليس مانعاً نهائياً.. وانتهى البحث في هذه المشكلة إلى الانطفاء منذ أمد بعيد... ودأبت أسرتانا على أن تتحاشيا الإشارة إليها من بعيد أو قريب... وما دام الزوجان راضيين. ومع الأيام صارا يندمجان في واحد. شيء غريب حقاً. كنت ترى بينهما تشابهاً حتى جسمانياً، تشابها في الحركات، طريقة المشي، الامتعاض: يتكوم الأنف تكوماً طفولياً وترتفع راحة اليد والأصابع الخمس منفرجة... أحياناً يصابان بالصداع في آن واحد، مثل توأمين.

ماذا أقول؟ آلاف الأشياء الصغيرة. حتى السكر، الذي يقدم في الاستقبالات تخبئه أختي لمالك... وكانت لهما وساوس ولدانية ينظران إليها نظرة تدهشني جديتها. مثلا كان عند سميحة لعبة « تفتح وتغمض» اشترت لها مصاصة، وأطلقت عليها إسماً مدللاً..

وقد يهرع صهري هاتفاً بأختي: «قومي لبنتك.. المصاصة وقعت من فمها»، فتقوم أختي عجلى هلوعاً.

وكنت في الماضي أتأمل علاقتهما وأتساءل: ما هي النتائج التي يخلفها هذا الحرمان في نفس كل منهما؟ أكثر من هذا، هل يمكن أن تكون ثمة صفة مشتركة تجمع الذين لا ينجبون؟ هؤلاء تعوزهم في الأصل الأمراس المتينة التي تشد المنجبين إلى الحياة. أنهم لايستمرون في ذراريهم، ويدركون على نحو غامض أن الحياة معادية لهم ما دامت لا تسمح لهم بالخلود في الزمان.. ولذلك فهم يأخذونها أخذ خفة، لا يتشبثون بها لأن العُرى مفككة. هي ترفض وهم يرفضون... وظللت أتقرى البراهين التي تؤيد وجهة نظري، بنت المنطق البارد، هذه.. ولكني مع الأيام أضربت عنها. وحملتني تحرياتي في أزواج آخرين على أن أميل إلى الظن أن العكس هو الصحيح، وأن استنتاجي الأول لم يكن إلا ابن المنطق حقاً.. والمنطق لا تأبه له الحياة النابضة الزخارة، التي قد تهزأ بالنظرة العقلانية إطلاقاً. إن للحياة خمارا عميق الهدير في دمائنا. وربما يكون العقم سبباً إضافيا للتعلق بجزئيات هذا الخمار. العاشق الذي تطرده محبوبته قد يأوي إلى بيته فيطمر وجهه بمنديل نسيته هي عنده ويبكي.. وأغلب الذين لا ينجبون، هؤلاء الذين صدتهم الحياة عن الاستمرار فيها، يتشبثون بالأعلاق الصغيرة، بالأزهار، بترتيب البيت، بالدراهم.. إن براد بيت أختي له غطاء من الدانتيلا وتخاله قد خرج اليوم من مصنعه مع أنه عندهم منذ سنوات.. والراديو مدلل أيضا و... ولكن كل هذه البعثرة لا تنسي الزوجين أملهما المخيّب.. وأحب دعاء تسمعه أختي من أمها حتى الآن: « إن شاء الله لا أموت قبل أن أرى لك ولدا يا عين أمك..».

كان عند أختي هاشم وأمي.. وكانت سميحة منهمكة في العناية بطفلة رضيع، طفلة حقيقية من لحم ودم، ولكنها شديدة النحول على نحو مخيف. لم أر مثل هذا النحول المرضي إلا على أذرع القرويات أمام المستشفيات العامة. جلد على عظم. واللون شمعي. وعيناها جامدتا النظرة كأنهما من زجاج. وكان أخي هاشم يتضاحك:

- شوفوا ما أحلى قماطها. هذه تحتاج إلى كفن. ألا ترين أنها تموت. ولماذا تتبنونها؟ تعالي خذي ستة من دسته العفاريت التي عندي... من يراهني على أنها لا تعيش حتى المساء!

وأمي تقول له لائمة:

- يوه، يا لطيف شو كتير غلبة. هدي شغلتك؟ سبحان الخلاق العظيم، والله حلوة..

وأما أختي فكانت كلها لقنينة الحليب التي ترضع منها الطفلة.

وسألت أنا عن القصة، فتولت أمي الرواية.

بينما كان صهري في عيادته هذا الصباح جاءته امرأة تقدم رجلا وتؤخر أخرى، تستر جسدها أسمال رثة، وعلى ذراعها هذه البنت.

قال لها: «أيش هذا؟» قالت: « بنتي» قال وهو يفحصها: «إيش هذه؟ ميتة! ألا ترضعينها؟» فقالت إنها لا ترضعها لأن ثدييها جافان، ولا تجد ما تطعمها إياه إلا مرق الرز والخشخاش. ولم الخشخاش؟ - حتى تنام! وقالت الأم محزونة إن أحد أصحاب زوجها عرض عليه أن يأخذها فيربيها بين أولاده.. ووافقت هي وزوجها، ولكن ابن عم بعيد من أسرة زوجها غضب غضبا شديداً وصاح بالزوج المسكين:« تربيها عند الناس! لا وحياة راسي وتربة أجدادي لا أدع هذا الأمر يتم. بنت من أسرتنا الشريفة تتربى في بيوت العالم؟ إي شو نحن صرنا شحاذين!»... والحقيقة أنهم ليسوا شحاذين، ولكن الحال واقف، وأبو البنت بطال منذ سنة، وعندنا، البساط الذي تحتنا بعناه وأكلنا حقه...

كانت أمي تروي لي كل هذا وعيناها نديتان وصوتها مرتعش...

واستمرت تقول:

- وقال لها صهرك: «شوفي يا أختي، هذه البنت إذا عاشت اليوم فلن تعيش غداً. هاتي اعطيني إياها. ما قولك؟ فقالت المرأة: «خذها» وتركتها له وانصرفت.. ولم يلبث هو أيضاً أن غادر العيادة إلى دائرة النفوس رأساً،والبنت على كتفه وسجلها على اسمه وحملها إلى هنا...

بعد قليل عاد صهري. لم يكن وقت عودته ولكنه أغلب الظن لم يستطع البقاء في العيادة:

- كيف حال الحسونة الصغيرة؟

فقال هاشم:

- حسونة خرسا.. أراهن...

فلم يدعه مالك يتم جملته:

- اسكت أنت دخيلك! حسين أنت هنا؟ أين هذه الغيبة يا ابن الحلال؟ ما قولك في « أملنا» الصغيرة...

وقاطعه هاشم بدوره:

- أنا أريد أن أتساءل فقط كم ستكلف هذه الصعلوكة حتى يصير عمرها أربعين. لماذا لا تتبنوني أنا؟ خذوني.. تبنوني عوضا عنها. أنا لست إنسانا من أقربه... أنا تاجر بناء أنفعكم.. وعمري أكثر من أربعين، مربى خالص.

- وماذا نفعل بك يا ذكر النحل؟

- وهي، ماذا تفعلون بها؟ إذا عاشت وصارت صحيحة فأقصى ما تقدمه لكم أن تضحك إذا مددت إصبعك إلى شفتها السفلى.. تعال، أنا مستعد لأضحك لك طول النهار، حتى ولو لم تضع إصبعك على شفتي...

- مفهوم، واحد مثلك ما جن ماذا يتقن غير الضحك!

والتفت مالك إلي واستمر يقول:

- أتعرف يا حسين أنني سجلت أسمها في النفوس« أمل». كيف تم هذا الأمر، الحقيقة أني أنا نفسي لا أدري. كان أقوى مني.. كانت المرأة تستر وجه «أملي» الصغيرة بخرقة رقيقة بيضاء متسخة،فما أن أزاحتها وبدا لي وجه البنية حتى خفق قلبي خفقات مجنونة.. وسمعت كأن صوتا في قلبي مكسوراً ملوعاً يهتف:« يا بنيتي الحبيبة، يا عين بابا، لماذا فعلوا بك كل هذا!

» ولما حملتها الي سميحة غانماً كان رد فعل أختك الأول أن صاحت متهللة حانية:«تسلمي لي».. حسين بالله عليك اليست جميلة! حبيبتي..

وقال هاشم ملحاً:

- ستموت...

ولكن صهري لم يعره التفاتا بادىء الأمر ثم ما لبث أن انفتل نحوه هاتفاً:

بل ستعيش يا غراب البين أنت، أساسا يرزق الله الأجاص لمن ليس له أضراس! اثنا عشر ولدا عندك وعقل أمل أكبر من عقلك.

فاحتج هاشم قائلا:

- أنا! هذه أول مرة أسمعها. لا، صحيح، زوجتي تشاركك هذا الرأي. والحقيقة ما هو العقل؟ وهل يبقى لإنسان عقل في بيت مطعم على ثكنة يعسكر فيه دستة أولاد؟ أنت ببنت واحدة طار نصف عقلك، مثلا! وغداً ستسمعني أخبارك.. ستمل من الواع والويع.. ستمل!

ولكن بشاشة صهري وفرحته كأنتا أمنع من أن يعكرهما نقاش أبيض مثل هذا.. كان الجو حلواً، يختلط فيه المزاح بالجد.. وبينهما يرنّق أمل غامض. كانت البنت لا تزال شبه ميتة، وإن كان حولها - وهي لم تدخل البيت إلاّ منذ ساعات - حشد من الأغراض والقناني والحليب المعلب... وفهمت من أمي أن صهري لا يصنع منذ الصباح إلاّ أن يخرج خالي الوفاض، ويعود وقد تكدست الإغراض على ذراعيه.. وأنه أوصى على سرير وخزانة، قل غرفة نوم كاملة « آخر طراز » ستكلفه أكثر من ألفي ليرة.. ومنذ الآن تدور أفكار الأم والأب الجديدين حول اللعُّبَ والمدرسة والرفيقات وآلاف المشاكل الصغيرة..

وبدأ هاشم نقاشاً جديداً، نسي الطفلة تماماً واندفع يتواثب من موضوع إلى موضوع. وصرح:

- هذه الأيام تشغلني مشكلة الموظفين.. كلما ذهبت أراجع في رخصة بناء أسألني: لماذا خلق الله هذه الطائفة؟ أنا أفهم أن يكون في الدنيا فلاحون، بناؤون، عمال.. وأما الموظفون! يجلس لك الموظف وراء مكتبة (ويجب أن يكون عليه لوح بلور من سماكة ستة ميلي على الأقل) ويرن الجرس، فيدخل الآذن... الرقاصة في الكباريه تقدم شيئاً، وأما... أساساً أنا أفكر أنه لم يكن في البداية آدم واحد. آدم التوراة إنسان فلاح.. وأظن ان لكل طائفة من الناس آدمهم... الموظفون آدمهم أصفر الوجه ما فيه همة تسعفه في تناول كأس من الماء. يحتاج إلى آذن بلا قافية..

كنت أود أن أدير مع سميحة حديثاً معيناً، ولكن البيت كان يشبه أن تكون فيه ولادة، فقمت انصرفت. وقبل أن أذهب ألقيت نظرة أخرى على الصغيرة. أغلب الظن أن هاشم على صواب. إنها لا تتحرك. وأي هزال يا رب! ولكن مع ذلك، لست أدري لماذا بدا لي أن عينيها قد دبّ فيهما طيف شديد الخفاء من حياة.. لم تبق لهما تلك النظرة الزجاجية الميتة التي أطلّت عليّ لما نظرت اليها أول مرة... ولم ألبث أن رأيت شفتيها تتحركان حركة واهنة كأنهما تقليد لحركة الرضاع في الشفتين.. إنها حيةّ، على الاقل، في شفتيها.. ومددت يدي إلى عينيها فتحرك الهدب.. ما لون عينيها؟ في هذه السن يصعب التحديد.

كم عمرها؟ ثلاثة أشهر؟ أربعة؟ وتساءلت: « ألا أكون واهماً! ألا يكون مراح مالك واستغراق أختي الواله هما السبب الخفي لهذه الرؤية الطيفية!».

* * *

٣

لما عدت لم أجد سهام ولا عبد المجيد.. كان على الديوانة، في الموضع الذي كانت تتخذه سهام، الأستاذ حسني معلمنا في الابتدائية. إنه لا يزال في التعليم، ويبهجه من حين إلى آخر أن يمرَّ بي، يشرب فنجان قهوة ويطرق ألف موضوع، والوجه بسام على الرغم من الشيب الذي غزا رأسه وشاربيه، والضحكة ضحكة طفل.. وبادرني معنفاً مثلما كان يفعل أيام كنا ندخل الصف متأخرين:

- أين كنت؟ صار يسر كم يا ملاعين أن تتركوا معلميكم الأفاضل ينتظرون الساعات الطوال.

- هل شربت قهوتك؟

- شربتها، ولكن ليس بالقهوة وحدها يحيا الإنسان، وقديماً قالوا جنة بلا ناس لا تنداس.. أين عبد المجيد؟

- لست أدري، قد يكون عند المدير، لماذا؟

- أنتم أيها الأولاد تسببون لي كثيراً من القلق. لم أكد أخلص من شيطنتكم على مقاعد الدرس، من تعذيب معلمكم المسكين، لم أكد أراكم فتياناً حتى رحتم تلاحقوني بهموم جديدة. وأظنكم فاعلين حتى يوم القيامة. ماذا ينتظر عبد المجيد هذا حتى يتزوج؟

قعدت على الديوانة قربه. كيف استطاع المدير إن يعنفها؟ هل يسوى خطأ في الجداول، مهما يكن جسيماً، دمعة محرقة وشهقة تزعزع الجسد؟ آه من هذه الجداول الملعونة. آه من الحساب. وقلت للأستاذ حسني معاتباً:

- ماذا يصيبك أنت إذا كان حاصل ستة في سبعة أربعين؟ ألا تزال تضرب الأولاد؟ ألا تستحي؟

فرفع كفيه مبسوطتين وحاجبيه أيضاً وهو يوليني صفحة خده في حركة تأكيد بديعة:

- لا أزال. أنا معلم قديم. منذ أن كانت وسائل الإيضاح تفصّل من جلود الطبول العتيقة.. هل تذكر الأبجدية الإيضاحية التي كنت أعلمكم بها في الصف الأول؟ اعلم أني فصلتها من طبل اشتريته من غجري. نعم. كنا نحتال على تعليمكم الحيل وننجح.. معلمو اليوم يفاخرون بأنهم، بلا قافية، درسوا مجلدات من وسائل الإيضاح. هذا هراء. العلم في الصدور أيها الأساتذة المجددون. لا يا سيدي أنا معلم قديم، عقليتي رجعية - كما يحلو لشبان اليوم أن يتفاصحوا - لا أفهم في طرق التربية الحديثة، في الطريقة الاستنتاجية، ما شئت ولكن العصا خلقت من الجنة.. العصا لمن عصا يا روح معلمك...

- كم كنت تقولها لنا!

- وأقولها الآن.. ومن جهة أخرى، قل لي ابوس يديك، ألم تصنع عصاي منك رجلا؟

- بلى، رجلا مذعوراً.

- مم؟ هراء. جيلكم يرفع الرأس. أنا رأيتكم في المظاهرات أيام الفرنسيين، تحت رصاص مثل زخ المطر.كانوا يقولون لعنترة:« كيف تقهر الألف؟» فيجيب:«عندما يكون ورائي ألف؟» أنتم خير من عنترة بن شداد. كنتم تهجمون على الألف وليس وراءكم فرخ ابن يومين.. شراذم من الأطفال الصغار مثل الحساسين.

قلت:

- قد يهجم الانسان وهو مذعور.

- حكي، الانسان...

- صبرك عليّ.. الجسارة ليست في الهجوم تحت رصاص مثل زخ المطر وحسب.. المهاجم في دوامة القعقعة والهدير والأزيز تحركه الغرائز. ولكن الجسارة الأخرى، الحقيقة إنما تكون في مواجهة الحياة. انظر مثلاً: أكثر أولاد جيلنا لم يجرؤوا على الزواج حتى الآن. وقد تجاوز معظمنا الثلاثين...

- خطأ هذا جبن وخوف معشش في قلوبكم.خذني أنا.. تزوجت ابن ثمانية عشرة ولم أخف. لماذا لا تتزوجون؟ المرأة ليست غولا ولا ضبعاً تكمن للمسافرين في الليالي الشاتية تحصبهم بالطين المتجمد ثم تنقض على حنجرتهم وتشرب دماءهم. المرأة مخلوق من مخلوقات الله، مثلها مثلنا... نعم تزوجوا. أنا زوجت ابني عدنان لما كان في العشرين. رأيت أنه عكروت، ليس أهلاً للعلم مثل أخيه صبحي فضببته. إذا انضبّ الولد بالزواج أمنت عليه من الضياع والهيمان وراء التنورات التي يلعب بها الهواء (أيام أم عدنان لم يكن الزي زي التنورات القصيرة، وحتى لو كان.. تصور أم عدنان بتنورة!) ولكن عدنان حمار، لا يفهم للمرأة قيمة. المرأة مخلوق ملائكي. هاك. عند عدنان طفلة صغيرة أنا أهيىء لها الحليب صباحاً قبل أن أذهب إلى القهوة.. أبرد لها القنينة وأتأملها. إنها تعرفني من الآن. تنظر إليّ نظرات لم تستقر بعد وتحرك شفتيها الصغيرتين.. يا رب! هاتان الشفتان أحلى على قلب

أستاذك المسكين من فلقة الفجر في الربيع. كدت أنسى الأطفال الرضع قبل أن تأتينا ندى. الآن هي شغلي.. أجلس أحياناً ساعات طويلة أتأملها نائمة.. الأسطورة تقول أنها تبتسم للملائكة. أنا أصدق.. لأنها وإياهم من طينة واحدة.. أبوها الدّب لا يدرك أي كنز انفتح له. قد يفهم في المستقبل، عندما تسقط أسنانه ويصير يقول خبج بدلاً من خبز... وأمها صبية صغيرة جاهلة.. ثدياها ما فيهما حليب. أنا يا حسين أظن أن الأم التي ترضع طفلها أشد أمومة من التي لا ترضع، ألا تعتقد؟.. لا بد أن هذين الفكين بلا أسنان (أنا لا أحب كلمة فك تقال لندى. يجب أن تكون في اللغة كلمة ألطف للتعبير عن فكوك البنيات الرضيعات) عندما يعضّان على الثدي، يحدثان ما تحدثه الدغدغة.. أنا لو خلقت مرضعاً لكنت متّ من الضحك والحنان. ولكن، لماذا يهرب الحليب من صدر الأم في ظنك؟

- خوف، صدمة، تحدث تنبهاً في العصب الودّي.

- قف. قل إنه يعصى.

- إذا شئت... وأضفت ضاحكاً:

- والعصا... فقاطعني مهللا:

- لا، هنا العصا لا تنفع.

- لماذا؟ يجب أن تكون القاعدة عامة!

- معلوم. ماذا تريد لإنسان ابتلاه الله بامرأة لا تفكر إلا في لبخ الأبيض والأحمر على وجهها والنطنطة من سينما إلى سينما ومن استقبال إلى استقبال.. ماذا تريد لمثله أن يفعل؟ المرأة يا عين أستاذك مثل الطفل الصغير. الطفل يمد يده أحياناً إلى النار. الجرو أفهم منه. هل تتركه يحرق يده؟

أجل لايزال معلمنا القديم العزيز. الاشارة عنده جزء من الكلمة. عندما يتحدث يشترك في التعبير الحاجبان واليدان والجبهة جميعاً. وربما لعبت

ساقاه دوراً من الادوار حتى ولو كان جالساً.. انه يحركهما، فاذا استنكر - أثناء الحديث - تصرفاً أو استهجن فعلاً رفسه بقدمه.

قلت فيما يشبه الهمس:

- أستاذ حسني.

- قل.

- ألا تشعر بالمرارة وأنت ترى نفسك في مطرحك بينما تلامذتك يسيرون؟

- لماذا أشعر بالمرارة؟ النظرية التي تقول إن المعلم جسر بائس خرافة. الشيخ الفاني الذي زرع شجرة فرآها بعد حين تزهر وتنشر الظل والعطر، وتجود بالثمر، بينما يموت فيه كل يوم شيء حي.. هل ييتئس هذا الشيخ؟ لا تصدق أصحاب نظرية الجسر.. هؤلاء قلوبهم جافة مثل البرتقالة المهجورة. إنهم ناشفون كالتبن.. ليس لهم طعم أبداً.. هجرتهم المحبة منذ الأزل أو أقل لم تمسح على صدورهم...

ونظر الأستاذ حسني في ساعته وقام عجلا:

- أليس ما أقوله لك شعراً، هجاء إذا شئت ولكنه من النوع الرفيع.. أساساً أنا ما عندي وقت لثرثرتك. تذكر دائماً أن العصا هي التي جعلتك (مفتشنا يحب كلمة بوأتك فلنسايره) بوأتك المقام الرفيع الذي أنت فيه، زادك الله من فضله...

ونهضت أودعه إلى باب الممر:

- وما أنا؟

- أنت إنسان يُفتخر به لا لأنك من أركان هذا المصرف.. وأدنى فمه من أذني وهمس:

- المصرف المفلس مع هذا الركود الاقتصادي في البلد.. واستمر يقول بصوت عال:

- هذا عمل يغنيك عن الشحاذة، يؤمن لك الخبزات بلا زيادة.. ولكن قيمتك فيما تنشر على الناس.. لو أن بلادنا على فكري لكنت تعيش الآن من قلمك. خاطرك لا تحزن. ستصير الدنيا على فكري ذات يوم. كل ما تراه في الدنيا من معجزات صنعتها يد الانسان كانت أمنيات.. وأنت ستهجر المصارف والحساب الجاري وغير الجاري والفائدة المركبة والتي من غير تركيب وتضحي كاتباً بلا زيادة. ابني صبحي يهديك السلام. . فرنسا تعجبه كثيراً. وأنا منذ الآن أعنون المكاتيب اليه:« ولدنا الأمجد، الدكتور صبحي أمين ».. قل لعبد المجيد أن يتزوج.إطالة الخطبة يا عين أستاذك أمر سيء، يصيب الخطبين بالملال، والملال ينخر في الجسم مثل السوس..

خاطرك. لماذا لم تعد تأتي إلى القهوة؟ محمد سعيد النادل يسأل عنك دائماً آه يا كسلان! جلسة الصباح تحتاج إلى النهوض الباكر..نم مبكراً وقم مبكراً يطل عمرك. في القفقاز، أو في مكان أخر، يعمر الناس إلى ما فوق المئة. إذا مات واحد منهم في المئة بكوا على شبابه. وأما عندنا ففي الخمسين يمسي الانسان من صنف الأموات.. خاطرك.

أية خطبة يعني؟أهي تلك القصة الخالدة لعبد المجيد مع ابنة الجيران السمينة بلا عجيزة، أم تراها قصة جديدة لما أسمع بها؟

* * *

٤

ما أنشره على الناس! قد لا يوافق الأستاذ حسني عشرة قراء في هذه المدينة.. حتى أصدقائي الذين تربطني بهم وشائج متينة - وهم ميسورون على الأغلب - يعيشون في دوامة من الشواغل اليومية تستنفد قواهم فلا يصبرون على قراءة بحث مجرد. والجمهور! ماذا أستطيع أن أقدم لإنسان منهوك يعدو لا هثاً وراء الرغيف؟ ما أنا إلا باحث يهتم بدراسة قضايا يحتاج التفكير فيها إلى حد أدنى من الترف المعاشي والذهني يضاف إليه الاهتمام والتعود. وناسنا في هذا البلد إما ألا يقرؤوا البتة، إما أن يقبلوا إقبال المتفضل على القراءة الخفيفة التي تيسر لهم أن يناموا بسرعة.. وإما أن يتهافتوا على ما يتصل، من قريب أو بعيد، بالهدير الملح الذي ينبعث من حاجات لم تطمأن.. إن كراسة تتحدث عن فضيحة أخلاقية وقعت في بيروت، مزينة ببضع صور خليعة قُصت، كيفما اتفق، من كتب جنسية رخيصة،نَفِدَ منها - كما أخبرني بياع الصحف الذي يبسّط أمام قهوة البرازيل - ثمانية آلاف نسخة بين الساعة الثامنة صباحاً والثانية بعد الظهر. وهذا أمر طبيعي، لأن الكراسة مهما تكن قيمتها - إن كان لها قيمة - تضرب على وتر جعله الحرمان مرهفاً مريضاً.. والجائع السّغِب لاينظر إذا كان الخبز الذي يقدم اليه طازجاً أو منتزعاً من أنياب الفيران.. تركيب المجتمع هو الذي روج لمثل هذه الكراسة.. وأما البحوث في اللغة والفكر.. فأي وتر تحرك؟ لقد نجحت الصحافة اليومية في إبعاد القراء عن الفكر الجاد والتأمل العميق، ونجحت نجاحاً أكبر إذ أبعدتهم في نهاية الأمر حتى عن نفسها.. المطالعة عادة لا تلعب إلا دوراً ثانوياً واهناً في حياة الناس.. وقد تقع على الطالب في كلية الآداب وتسأله عما يقرأ فيدهشك أن تعلم أنه لا يمد يداً إلى غير الكتب التي

تنفعه في نيل الشهادة أخر السنة... وفي جلسة ضمت أربعة أو خمسة من معارفي أشار أحد الحاضرين إلى مقال لي نشرته مجلة علمية تصدر في لبنان، فاتسعت أعين الجلاس الذين يعرفون كل شيء عني، كل شيء،إلا أن أنشر مقالاً في مجلة علمية. من أين لي هذا؟ ألست موظفاً في مصرف أجنبي؟ وقد تدلهمُّ عليَّ الفكر في بعض الليالي فاتساءل من أعماق وحدتي عما إذا كان لما أكتب قيمة. ما قيمة صفحات يوحيها السأم؟ ترى لو أني أحيا، أكنت أُدمن على هذه الخربشة التي يقيّمني الأستاذ حسني بها؟ أرسل غوركي مرة إلى انطون تشيخوف صورته وابنه ألكسي على كتفيه، وجاء في إهداء الصورة:« خير ما انتجت »... هذه كلمة يقولها مثل غوركي الذي كان يكتب بلغة ليس فيها ازدواجية.. ان المدرسة في أحسن حالاتها تفتح نوافذها على ثقافات متعددة، ولكنها تقيم، مقابل ذلك، سوراً منيعاً من الصوان الأصم بيننا وبين سواد الناس.. كنت أجلس ذات مساء في مقهى صيفي، وحول منضدة مجاورة تحلق ثلاثة أو أربعة رجال أحدهم فقط يلبس البنطال والسترة والآخرون بالالبسة البلدية.. وكان حديثهم في البداية ملوناً ضاحكاً ولكنه ما لبث أن احتضر وبدأت تقطعه التثاؤبات.. وجاء بائع صحف صغير ففرض عليهم بالإلحاح جريدة.. فلما مات الحديث نهائياً ولاحت في الافق رغبة في إحضار لوحة الدومنو مد الرجل ذو البدلة الرسمية يده إلى الصحيفة وراح يقرأ من هنا وهناك بصوت عال. وأصخت سمعاً مرهفاً إلى طريقته في القراءة. أعجوبة من أعاجيب الدنيا. وأذكر أني اشتريت الجريدة ذاتها وقصصت الخبر الذي قرأه بتمامه وحفظته في محفظة نقودي، وهأنذا انقله فيمايلي:

«أذاعت المديرة العامة للآثار والمتاحف بياناً قالت فيه أنه عثر، في حفريات رأس الشمرة، على مجموعة من التماثيل البرونزية الصغيرة في غاية الجمال والأهمية العلمية ودقة الصنع، منها ثلاثة تماثيل محلاة جزئياً بالذهب».

العجيبة أن الرجل لم يقرأ كلمة واحدة، من الستة والثلاثين كلمة التي يتألف منها الخبر، من غير خطأ ما.. وأخطاؤه يمكن تصنيفها إلى زمر.

فبعضها يتعلق باللفظ: المديرية تلفظ بالإمالة العامية. وبعضها تشويه يقلب معالم الكلمة من أساسها، مثلا: «في غاية الجمال» قرأها: «في غابة الجمال» و« دقه الصنع» قرأها: «ودقّه الصنع»، يعني أنه قلب دقة الاسم إلى الفعل الماض « دقة»... وأخيراً، ارتكب أخطاء مردها إلى غرابة الكلمة في ذهنه مثلاً «البرونزية» قرأها «البروازية» ربما ظناً منه أن التماثيل مبروزة أي ذات أُطر...

والجلسة إجمالا مطرفة، ضحكت منها أياماً ولكنها مرعبة أيضاً. ما نحن الذين كسرنا رؤوسنا سنين طوالا حتى تعلمنا أن الهّم بكسر الهاء تعني الفاني والقدح المكسر فإذا فتحت الهاء حصلت على حشد من المعاني يتراوح بين الهم المعروف ورجل هم أي ذو همة.. وأن كلمة جنة معناها الجنون والدرع والفردوس حسب تحريك الجيم بالكسر أو الضم أو الفتح، إلى أخره.. وغوركي يكتب قائلاً أن ابنه خير ما أنتج فما عساني أن أقول أنا؟

أسرة الحلاق الذي يسكن في القبو تحتنا كبيرة. ستة أطفال والأم حامل. وكلهم صغار.. الأب ذاته لا يزيد طوله على مئة وخمسة وخمسين. الأم أيضاً...مرات لا أكاد أميز صوتها من صوت ابنتها الكبرى التي لم تتجاوز العاشرة.. والصغار كذلك ليس بين الواحد وأخيه إلا سنة أو سنتان على الاكثر... عندما تخرج البنت الثالث (خمس سنوات) بأخيها الرضيع، السادس، تتزهه أمام البناية، أراها تخب، تلهث، تترنح كأنها تحمل طفلاً في مثل سنها.. وبيتهم، ودراجة الأب، والثياب المنشورة أكثر الأيام على الحبال في حديقتهم التي تطل عليها شرفتنا الداخلية، وشجيرات الورد المشذبة.. كل هذا يحملك على الظن أنك في دنيا من اللُّعب..

في الجهة الجنوبية من الحديقة شجرة ليمون تتشهى أن تشذ عن هذا العالم كله. تدفع أحد اغصانها فينمو على هواه حتى يكاد يقفز من فوق الجدار.. وإذا الأب، ذات يوم من أيام الاثنين، يحمل مقصه ويوقف الغصن المتمرد عند حده، ويحمله إلى مكان ما في الحوض ويغرسه.

وتستيقظ الأم مع بزوغ الشمس. ويرتفع صوتها آمراً ناهياً، أو راجياً متوسلاً. ولكنه ابداً رفيع، طفولي.. وفريق من الأولاد يتأهب للمدرسة، وفريق يُصرف إلى الحديقة مع ألعابه.. بعضهم يرضع، وبعض تبدّل ثيابه وتقذف في طشت الغسيل... وتغيب المرأة الصغيرة عن عيني أحياناً ولكن صوتها أبداً عندي، صوت أدرسه أيام العطل طوال ساعات، أدرس نبراته، رنينه.. ربما يطفح من مرارة. وهو في بعض اللحظات غضوب عصبي، زاجر، صارم ضيق العطن، ملول... بيد أنه في قراراته رغيد قرير.. وحينما يحتاج كل هذا العناء إلى بوح تنده الأم الصغيرة جارتها العانس في الطابق المواجه. وتروح تحكي لها حكاياتها... الصغيرة هي أيضاً! أنها حامل، في شهرها السابع، تعاني أوجاع المخاض منذ الصباح، ولكنها لا تستطيع أن تغفل لحظة واحدة عن رعيتها الصغيرة. بعثت في طلب أمها، غير أن هذه مستغرقة في هموم أولادها الكثر. أن على كتفها هي أيضاً طفلاً رضيعاً... وقد لا تأتي إلاّ هي والقابلة في آن واحد...

والجارة الصغيرة لا تطمح إلى الراحة حتى بعد الوضع. لن يتسنى لها ان تستريح في السرير طويلاً.. ستعود إلى لوبانها النملي في هذا العدد اللا متناهي من الأفعال الصغيرة.. ولكن أبا الأولاد (الصوت الآن باسم، مدل، فيه خفر خفي) قال لها إلاّ تشتغل.. أنه هو كذلك، الله يلبسه ثوب العافية، تعبان.. صنعته ما هي هينة. من طلوع الشمس حتى صلاة العشاء وهو على رجليه. خطرات يجيء مساء إلى البيت فيبقى أكثر من ساعة وساقاه ممدودتان، لا يتحرك ولا يقول شيئاً..

هذا الأب المتعب نشأت بيني وبينه مودة صافية على أثر حادثة بسيطة. رآني مرة أداعب طفله الرضيع أمام الباب.. كنت أُضاحكه فيفتح لي فماً واسعاً ما فيه إلاّ سنان في الفك العلوي، ويجاهد للتخلص من أخته والارتماء بين ذراعي، حتى إذا انتصر أخذته وأخته إلى سمان الشارع واشتريت لهما بسكوتاً كثيراً ولعباً صغيرة. وكان الأب ينظر اليَّ صامتاً ويده على دراجته.. لم تطل وقفته. ركب دراجته ومضى.. لما هبط المساء طُرق الباب. كان هو .. دخل على استحياء

وجلس على القاطع في غرفتي مطرقاً وحقيبة العدة ذات القفل بين ساقيه... ظلّ برهة لا يقول شيئاً فسألته ما إذا كنت استطيع أن أقدم له خدمة... لا، إنه يريد فقط ان يقص لي شعري، إذا تلطفت بالقبول.. لأن الجار له على الجار...

فيم هذه الخواطر كلها ذلك اليوم؟ كنت أُحس بخاصة أننا مدينون لهذه الحياة بترنيمة شكران ومحبة. بل إن نشيداً والهاً هائماً يطوف في قلبي.. إني مستسلمٌ استسلام الطفل لدعاب أمه. إن الدنيا لا تزال طيبة على الرغم من الأشواك التي تمزق أقدامنا في الدروب المنسيّة المهجورة...

* * *

٥

كان أمامي كدسة اوراق واردة من شعب المحافظات تحتاج إلى تدقيق ولكن يدي لا تمتد إليها.. الحقيقة ان المصرف فقد جّوه القديم. هيمن عليه شعور بأننا لا نؤدي جهداً يسوي الأجرة التي نقبضها. وملاحظة الأستاذ حسني حول ركود العمل صحيحة. وأظن أن اعتبارات تتعلق بسمعة بلد هذا المصرف الأجنبي هي التي تجعلهم يحجمون عن إغلاقه.. وخرج عبد المجيد من غرفة المدير يتأبط أوراقاً، ويبتسم ابتسامة عريضة. قال:

- جئت؟ قم ادخل لك دخلة على المدير وتفرج على العجب العجاب.

- ما به؟

- وضعت أمامه أوراقاً للتوقيع فكان يمد قلمه ولا يدري أين يوقع... وأي عبوس! أخافني ولكنه شفى قلبي من غالب.

- رئيس سهام؟

- نعم.

- شكوى جديدة عليها.

- لا، المدير استدعاه لأمر بدا لي تافهاً. احزر ماذا؟

- ماذا؟

- نحن الآن في الشهر الثالث وكان غالب قد تأخر يومين متواليين في الشهر الثاني، وسبب تأخره مشكلة مع مراجع عجلان.

- وماذا قال له المدير؟

- نبش عن ماضيه، قبل أن يعين في المصرف بوساطة كبراء لم يسمهم، أيام كان موظفاً في الجمارك، وذكره بأسباب اخراجه من عمله غير متوج بأكاليل الغار.

- ولماذا أُخرج ؟

فتضاحك عبد المجيد.. كان جذلان طوال الحوار:

- هل يعنيك ماضي الرجل إلى هذا الحد؟ لا بأس، غالبك هذا يا سيدي كان موظفاً صغيراً في الجمارك.

- هذه قلتها..

- ألا تصبر علي؟ أقول كان صغيراً ولكن فعله كبير..

يقال أنه دوخ الجمرك. كان يؤلف عصابة من ثلاثة موظفين من قماشه يحتالون على الناس: يأتيهم قروي يفتش عن عمل، عن وظيفة خفير، آذن، حارس، فيطوقونه ويسوقونه إلى رئيس العصابة، يعني غالب، الذي تسلح، كما تعرفه، بلسان يخرج الأفعى من جحرها. ويتكبش صاحبنا وراء مكتبه، ويشرع يفيض بحديث، يتعمد توجيهه إلى انفار العصابة لا إلى القروي، عن نفوذه وسيطرته على الادارة من مديرها العام حتى بوابها.. وينبهر القروي المسكين وينشلّ، ويروح يتوحوح متكلماً عن عيشة الكلاب التي يحياها أهل القرية، والجفاف الذي افترس كل شيء حي، وفأر الحقل الذي أجهز على البواقي..و: والله يا حضرة البيك جارنا نايف الحاج سليم نزل حماره إلى السوق، سوق الدواب، اجلّك الله، في درعا، فدفع له رجل من فيق ورقتين حقه.. ورضي نايف الحاج سليم ولكن الرجل الذي من فيق عاد إلى الحمار، اجلك الله، وأكب عليه يفتح له فمه ويشد ذنبه.. وكأنما وجده ضعيفاً فأدار ظهره ومضى في حال سبيله، وخربت البيعة.. وهجمت الدنيا على نايف الحاج سليم، الله يفرج كربتنا وكربتكم وكربة أمة محمد، والحمار بعيد عنك يكلف حق علف وتوابعه.. فنزع الجلال عن الحمار وتركه يهيم في السوق وعاد إلى القرية.. في فجر اليوم التالي كان الحمار أجلك الله يدفع باب نايف بخيشومه.. معلوم جنابكم الحيوان يفهم مثلي ومثلك استغفر الله العظيم..

- هل جرت هذه الحادثة فعلاً؟

فقال عبد المجيد متضاحكاً:

- أما حكاية معك: أتظنني مؤرخاً؟ المهم أن مثل هذه الحادثة تقع كل يوم في أربعة أطراف ريفنا المحروم العطشان. الخلاصة.. يكون القروي قد تدبر مئة ليرة، الله أعلم ماذا باع من متاع البيت حتى حصلها فتتلقفها العصابة.. ولا حاجة بي إلى القول أن القروي لا يُعيّن حتى ولا مكنساً على باب الجمارك، حتى ولا عتالاً.. لأن الانتساب إلى العتالة هناك يخضع لشروط، والعتالة لها نقابة وأنظمة..

- فظيعة!

- ولكن أنتظرني قليلاً.. لم يكن هذا هو الميدان الوحيد لنشاط العصابة.. كانوا يشترون الأدوات المنزلية، من برادات و غسالات و راديوهات، تقسيطاً من الوكالة،ثم يبيعونها نقداً للموظفين الكبار بثلثي ثمنها. البراد الذي يسوى ألفاً ومئتين بألف!

- يخسرون اذن؟

- لا، بل يربحون تسعمئة.

- أنت تمزح.

- لا والله، أُكرر انهم يربحون تسعمئة.. لسبب بسيط جداً هو أنهم لا يدفعون إلا قسطاً واحداً، القسط الأول - مئة ليرة - وينامون على الباقي نوم الرضى، نوم قرير العين هانيها.. كما يقول الشاعر في كتاب المحفوظات في المدرسة!

- العمى، والله هذه لا تخطر في بال ابليس نفسه.

- يجب ألا ننسى موارد أخرى للعصابة..

- أيضاً؟

- هذه سمّها إذا شئت موارد مشروعة،موارد مهنية يدرها التعجيل بمعاملة، تسهيل عملية تخليص، إلى أخره.

- عد بي إلى البرادات وهل يسكت صاحب الوكالة؟

- لا، يقيم الدعوى ويكسب الحكم فيقسط المبلغ أو المبالغ على الراتب.. والقانون لا يجيز حسم أكثر من عشر الراتب. وبديهي أن العصابة لا تقع تحت طائلة القانون. وقد أخرج غالب من الجمارك إدارياً، من غير محاكمة، لما فاحت رائحته وكثرت شكاوى القرويين السذج عليه.

- أتدري يا عبد؟ أنت تروي هذه القصص ضاحكاً ساخراً، ولكنها في الحقيقة مبكية. الإنسان العادي إذن أعزل أمام الشر والظلم والسفالة، لا يحميه إلا الصدفة. القانون نفسه يبدو في بعض الأحيان سلاحاً في يد الظالم الشرير.. لماذا لا تدرس هذه الأمور، وتوضع أمام الناس باردة كالموت، حادة مثل حد السكين؟

- أنتظر، قبل أن تغرق حتى أُذنيك في الموت والسكاكين.. اسمع هذه القصة من الجمارك.

- ألم تشبع قصصاً؟

- لا، هذه تكاد تكون خرافية، مبالغة للضحك، ولكنها واقعية أستطيع أن أسمي لك ابطالها.

وقطع جرس المدير حديث عبد المجيد إذ قام على عجل وهو يقول:

- يحرق دين القصص.. لم أصنع اليوم شيئاً. لا تكلمني بعد الآن. لا تكلمني حتى الغد.

كانت الساعة تدنو من الثانية ولم أنجز عملاً مذكوراً. كان علي أن أعود بعد الظهر، أن أنهي الأوراق المتراكمة، أن أدرس قضية إحداث صندوق للتوفير يستطيع ذوو الدخل المحدود أن يودعوا فيه ما يوفرونه على دفعات صغرة.. فالمصرف في حاجة إلى المال. وأنا أفكر منذ أيام بأن زيادة نسبة الفائدة قد تجلب لنا حشداً من صغار المودعين.. أكثر المصارف تعطي ثلاثة بالمئة فلماذا لا نرفعها نحن إلى الأربعة أو الأربعة والنصف؟ ولكن، هل تحيا «أمل» مع هذا الهزال؟ ما هو القدر؟

أتصوره في بعض الأحيان مارداً قادراً قد أصيب بسأم مزمن فراح يتسلى بالناس. هذه البنية الصغيرة التي امتدت إليها يد عزرائيل وكادت تقبض على روحها.. مصادفة، لمحها القدر فأبعد يد ملك الموت وأنهض أمها وحمّلها البنت ودفعها إلى عيادة مالك.. ثم فتح دفتر أنصبتها وإذا فيه: تلد من أبوين فقيرين. الأب عاطل. الأم تغذيتها سيئة. لا حليب في ثدييها. تموت في الشهر السادس جوعا... فمزّق الصفحة وكتب: بنت طبيب. غرفة نوم وثيرة. الطفولة في روضة أحداث الفرنسيسكان، الثانوي في الفرنسيسكان والجامعة الأمريكية. الجامعة في سويسرا والسويد. دراسة البيانو على يد أستاذ شهير. دراسة في المعهد العالي للموسيقى في فيينا. زواج من آغا خان، إلى أخره. لو أنني أقنع هذا القدر بأن يطلعني على سجل سهام... لو أنه يتيح لي أن أكتب فيه: « سعادة! » ماذا تفعل سهام في مثل هذا المصرف؟ بعض القسائم ذات لون أصفر. اخشى ان تتسرب صفرة الأوراق إلى لونها المؤنس الحيّ !لست أدري لماذا أتوهم أحياناً أن المصارف دور للعبادة. الاله هنا هو المال... أمس كنت عائداً إلى المصرف من وزارة العمل. على الباب لفت نظري أجير القهواتي يتهارش مع واحد في مثل سنه (الثامنة عشرة تقريباً) ويتلاعبان. كان يصيح ويضحك في قهقهة وضجة عظيمتين. ما أكثر ما هو حر! حر كالهواء والطيور البرية.. ثم رأيته بعد ساعة أو بعض الساعة يحضر قهوة إلى الموظفين في البهو. رحت أرصد حركاته منذ أن دار به الباب حتى أوصل صينية القهوة إلى الحاجز الخشبي الذي يقبع الموظف وراءه. عجيبة! كدت أنكره..

أين الضجة والقهقهة والصياح والحرية؟ كان ينقل خطواته على رؤوس الأصابع ووجهه آخذ في الحذر والتهيب.. كدت أقول الخشوع. والبهو كله صامت، إلا من وسوسة هنا أو ههنا. موظفان يتهامسان. وعند الصندوق خشخشة الأوراق المالية من مختلف الأحجام والصور.. خش، خش،خش، ألف وخمسمئة. رن، رن، رن. وخمسة وسبعون قرشاً - عددت؟ مضبوط؟ وينسحب القابض كأنه تلقى التناول المقدس في كنيسة.. وسهام في روبها

الكحلي المنحبك، وألوانها الحية.. ومجموعتنا الشمسية تندفع نحو نجم في السماء قصي اسمه السماك الرامح.. وألسنة في المريخ تعادل سنتين مما نعد في أرضنا هذه.. وشفتا أمل تتحركان تفتيشاً عن حلمة.. قنينة الحليب، حركة لا تقل غرابة عن حركة السيارات حول الشمس أو حركة القلب الإنساني بين يدي الحبيب. لو أن عبد المجيد يقرأ أفكاري لأضاف ضاحكاً:« وحركة لأوراق النقدية إذن؟»

*   *   *

٦

إذا كان المصرف قبل الظهر يشبه المعبد إلى حدّ ما، فهو في المساء معبد من غير مصلين، مافيه إلا الرهبان العاكفون على صلواتهم في صمت الأروقة وهدوء الحجرات.. ذلك اليوم عدنا، عبد المجيد وأنا، إلى غرفتان، وغرقنا بين الأوراق حتى ساد الليل وخلا الحي من أصوات النهار، وعاد لا يعكر الهدوء إلا وقع أقدام، أو صدى حديث يتبادله عابراً سبيل تحت النافذة لايلبث أن يبتعد وينطفيء... ورفع عبد رأسه عن أوراقه:

- العمى. صار رأسي مثل الطبل.. كفاية اليوم، هدنة! لم يرد لا في معقول ولا في منقول أن نلفظ النفس الأخير فوق الأضابير. هل تعلم يا حسين أن كهلاً في حوالي الخمسين مات أمس ميتة غريبة؟

- من هو؟

- نسيت اسمه.. ذكروه لي وكان عند امرأة معينة، في محل معيّن.. وكان قد خلع ثيابه وتمدد قربها يغازل ويداعب وأطلق فمه يتقرى عنقها وخدها واذا هو يموت.. مات وشفتاه ترسمان « أو».. تصور ذعر المرأة المسكينة! ما رأيك؟ أتظنه يذهب إلى الجنة لاحساب ولا عقاب أم تجرجره الزبانية إلى جهنم! العمى من البارحة حتى اليوم وأنا أتصورني محل هذه المرأة. يا رب سترك.. رجل يمد شفتيه ليقبلني فيموت... ويلي.. أليست فظيعة يا حسين!

- وماذا جرى بعدها!

- أأنا أعلم! ماذا تريد أن يجري؟ ولولة، ركض، تحقيق، تشريح جثة. العمى، بهدلة حقيقية آخر العمر. ويظهر أن المرحوم قد قضى عمره في الأعمال المظفرة حتى توّجها له القدر بهذه الخاتمة الرائعة..

- طيب، اطو لنا الآن صفحة ميتك المظفر هذا وتذكر أنك كنت قبل الظهر تحدثني عن غالب..

- أجل، ووعدتك أن أروي لك قصة رهيبة.. قد لا تكون رهيبة حقاً ولكني استفظعتها.. وعلى كل حال اسمح لي أن أحتفظ بالأسماء فلا أذيعها

- الأسماء لا تهم، أحك.

- صحيح. القصة يا مولانا أن أحد موظفي الجمرك العاملين في المطار كان يتجول بين الركاب قبل صعودهم إلى طائرة سعودية وجهتها جدّة. كان يحدق في وجوههم ويدرس هندام كل منهم، فإذا راوده شك بأحدهم تحسس ثيابه وجس جيوبه.. ولفت نظرَه في تجواله رجل قلق في وقفته، شاحب بعض الشيء. فمدّ يده يتحسس ويجس وإذا هي تقع على شيء صلب يتزنر به الراكب.. فأشار الموظف إليه أن يتبعه فأطاع:

- « أيش معك؟ ».

وإذا الراكب تتسع حدقتاه ويختنق صوته إلا من بضع كلمات.

«دخيلك، يدي في زنارك!» فقال الموظف ضاحكاً:« يدي أنا في زنارك. الحقني!».. ولحقته الضحية فاقدة الإرادة، بلغ منها الذعر مبلغاً عظيماً. في المستودع طلب الموظف إلى الراكب أن يخلع ثيابه.

خلعها وإذا هو مزنر بزنّار محشو بالذهب.. فبصق صاحب الجمرك في راحة كفّه وإنهال على الضحية، كما تقضي التقاليد... صاح الضحية مستغيثاً: «دخيلك، لا تضرب، هنا ثلاثة آلاف إنكليزية. خذ نصفها وخلّ لي النصف، وأتركني أتيسر!» قال رجل الجمرك:« أحك كلّ ما تعرفه. قل لي من هم شركاؤك..» فأقر الراكب أن معه رفيقين يتمنطق كل منهما بثلاثة ألاف إنكليزية إم حصان.. مزورة. تماماً، ولكن«خواصها» مسحوبة قليلاً. وكانت الطيارة قد أقلعت ولكن رجل الجمرك أوعز إلى برج المطار أن يأمرها بالعودة على مسؤوليته الخاصة. وفتش الركاب فعثر على الستة آلاف الأخرى. إن إخراج الذهب من البلاد لم يكن جرماً في تلك الأيام، ولكن ذلك

الذهب مزور. كيف؟ في دمشق بضعة مصانع تضرب هذه الليرات الإنكليزية التي لا تختلف في شيء عن الإنكليزية الأصلية إلا بكون المزورة مكونة من خلائط نسبة الذهب فيها ٢١ من ٤٢ قيراطاً. هذا الذهب يباع في السعودية والهند و باكستان على أنه ليرات إنكليزية خالصة تتحلى بها النساء. وفتح تحقيق في القضية في الليلة ذاتها، وأودع الذهب صندوق رجل الجمرك في المطار.. وقد كشفت التحقيقات الأولية عن أن المتهمين الثلاثة سعوديون مهمتهم الوساطة بين أصحاب المصانع في دمشق وتجار في السعودية.. ونظمت الملفات الجزائية تمهيداً لا حالة المتهمين على القضاء.. في الساعة التاسعة مساء جاء أول وسيط، وهو مدير شركة جوية أجنبية، يعرض على رجل الجمرك خمسين ألف ليرة سورية لقاء السماح بابدال الذهب المزور بذهب حقيقي.. ورفض الموظف. ثار وجدانه المسلكي، وهدّد الوسيط بابلاغ السلطات محاولة الرشوة هذه.. ولم تمض ساعتان حتى جاء وسيط آخر:« لم ترسل عينة من الذهب إلى التحليل. وإستبدال ذهب صحيح بالذهب المزور أمر لا يدري بأمره أحد..» وارتفع الرقم إلى ستين ألف ليرة سورية.. عند منتصف الليل بلغ العرض رقماً قياسياً: ثمانين ألف ليرة سورية. ولكن رجل الجمرك الفقير رفض: لا، القضية إنسانية: امرأة سعودية أو هندية تقضي عمرها كله في الكدح والشقاء حتى توفر ما تشتري به بضع ليرات تتركها حلية في عنقها تضمن لها شيخوختها! لا، لن أقبض رشوة.. وسأفضح المزورين.. سأمضي في القضية حتى آخر الشوط!

صباح اليوم التالي ظهرت نتيجة التحليل. نسبة الذهب لا تتجاوز ٢١ من ٤٢. وسلم رجل الجمرك الذهب إلى أمانة جمرك دمشق عداً فزاد المبلغ مئة قطعة، سلمها هي أيضاً.. مع أن الإفادات تنص على أن المبلغ تسعة آلاف لا تسعة ومئة كما ظهر عند التسليم!

وأخذ الناس يلغون في الأوساط التجارية بالقصة.. وتفّجر نشاط محموم على مستوى الوزراء. أنفقت أموال طائلة.. وانتهت القضية نهاية سعيدة كالأفلام الأميركية.. فقد صدر قرار ينص على إعتبار هذه العملة حلى للزينة

يسمح بتصديرها واستيرادها.. ولا سيما إن إنكلترا صاحبة العملة الأصلية تمنع التداول بالنقد الذهبي، إلى آخره.. وذات يوم سمع موظفنا صاحب الوجدان المسلكي حواراً بين اثنين من زملائه.. قال أحدهما:« ما يدهشني في هذه البلاد أنها تستورد الحمير من قبرص.. مع أننا عندنا هنا مثلها!» والحقيقة إن نظرات الإستحمار والإستحماق كانت تلاحق صاحبنا من زملائه أينما توجه..

وصمت عبد المجيد لحظة باسم الأسارير، وأضاف معابثاً:

- ماذا تفعل؟ الحياة مركبة هكذا، على المقلوب، منذ أن كان أبونا آدم في الجنة. أنت لا تعرف شيئاً.. ابنة أختي الصغيرة تفهم في المشكلات التي تحيط بها أكثر منك. قد لا تجد اثنين في مدينتك هذه يغرقون في الكتب والبحث غرقك أنت. وددت لو قلت سفرك.. لأنك حاضر غائب. أي مشكلة أكل الدهر عليها وشرب تدرسها الآن.. منذ أيام كانت إنتصار العلم، أليس كذلك؟

- بلى، أنت تسخر مني ولكن العلم، الروح العلمي إذا شئت، هو السبيل الوحيد لخلاصنا.إن الروح الخرافي، الغيبي، هو الذي أفقدنا هويتنا. ولما كان الغيب كلمة مرنة إلى أبعد حدود المرانة فقد وهنت حتى مقولات العقل الأساسية في أذهاننا، وقعدنا، مثل بني إسرائيل، نشتهي الإصلاح ولكننا في الصميم نربط إمكانه بحدوث معجزة.. ولا علينا بعد ذلك أن نسوق أياماً عقيمة، فارغة، جوفاء، وأعيننا تنظر في بلادة إلى آلاف العبقريات تذوي، تهزل وتسقط ثم تموت.. أسخر بالفكر العلمي ما بدا لك، ولكن أولادنا لن يسخروا.

تعال، انظر، اقرأ لي هذه الجريدة، خذ. إن الكاتب هنا يفسر للناس سرّ غلبة المسلمين في بدر على المشركين. اسمع: «.. وعن سهل بن حنيف، قال: لقد رأيتنا يوم بدر وإنّ أحدنا ليشير بسيفه إلى المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف.. وروي عن ابن السيد مالك بن ربيعة - وكان قد شهد بدراً - قال بعد أن ذهب بصره:« لو كنت معكم اليوم ببدر ومعي بصري

لأريتكم الشِّعب الذي خرجت منه الملائكة لا أشك فيه ولا أتمارى»... كيف لا يسرق غالبك القرويين بعد هذا؟

- كأنك تكرهه!

- لا، أنا لا أكره ولا أحب. هذه المشكلات يجب أن تبحث في برودة العالم الذي يراقب غليان الماء..

- ولكن ما علاقة الفكر الغيبي، كما تسميه بالسرقات؟ أنا لا أرى الصلة بينهما... ناهيك بأنه، حتى غليان الماء لا تخلو مراقبته من حب وبغض.

- هذا صحيح. وأما عن الصلة بين الفكر الغيبي والسرقة فهي وشيجة وإن كانت خفية بعض الخفاء. واسمح لي أن أحاول الكشف عنها، لا كما عودتك، ببحث يغلب عليه التجريد، و إنما بحديث مجسد ذي صور.. ولعل الصورة أن تكون أقل ترفاً من التجريد ولكنها تظل أشد حرارة ودفئاً.. يوم الأحد الماضي كنت أتسكع في المسكية، وأتأمل دكاكين الوراقين. تصور: رائحة القِدَم. الوراق ذاته جزء من القدم الذي يميز السوق. الجامع الأموي. حجر قديم مرّت عليه أحقاب. بلاطة.. واستوقفني كراس بسيط عند وراق:« المجموعة المباركة الكبرى في الصلوات المأثورة والأعمال المبرورة ودعاء عبد اللّه بن سلطان، إلى آخره».. وفتحت الكراس وقرأت هذا الحديث المنسوب إلى النبي:« يكون منبر إبراهيم عن يمين العرش ومنبري عن يسار العرش» فقيل يا رسول اللّه أنت أفضل من إبراهيم واليمين أفضل من اليسار فكيف جعل إبراهيم عن يمين العرش وأنت عن يساره؟ فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: الطريق إلى الجنة عن يمين العرش، والطريق إلى النار عن يساره، فأكون على طريق النار أنظر من يؤمر به من أمتي فأشفع له. فبينما أنا على منبري أسمع رجلاً من أمتي ينادي: نقصت حسناتي وزادت سيئاتي. فأقول للملائكة: ردّوه فيقولون: نحن ملائكة غلاظ شداد، لا نعصي اللّه ما أمرنا به ونفعل ما نؤمر به. فأنزل عن منبري وأسجد بين يدي اللّه تعالى سجدة واحدة فيأمر اللّه سبحانه وتعالى الملائكة أن يردّوه علي وأطرحها في

الميزان فتزيد الحسنات وتنقص السيئات فيتعلق بي ويقول: من أنت الذي خلصتني من هذا الأمر العظيم؟ فأقول أو لم تعرفني؟ أنا نبيك وشفيعك...».

وطرب عبد المجيد لهذه القصة وقال متهللاً:

- واللّه قصة حلوة يا حسين. أنا من جهتي أود أن أصدقها.

ماذا نخسر إذا نحن صدقنا؟ مهما نفعل على هذه الأرض تدركنا الشفاعة والرحمة. ههنا شاعرية لا ريب فيها، ألا تظن ذلك؟

- ظن ما شئت ولكن هذه القصة من جهة أخرى تلائم غالبك كلّ الملائمة أيضاً. الشاعرية الحقيقية ليست خارج الحياة. إنها لا تكون إلا فيها في النغم المُستَتِر، المتدفق في عروقها، في البسمة والدمعة الصامتة والعذاب الذي لا لسان له..

*   *   *

٧

وصمتنا..عدت أفكر في سهام، وفي جارتنا الصغيرة تتحدث عن أبي الأولاد، ومكتبي في البيت والأوراق متناثرة عليه، وخزائن الكتب تحيط بي من كل ناحية.. والليل عميق والحي هادىء إلا من أصوات متباعدة تتناهى إلي من بعيد.. وفي الشارع يدنو وقع أقدام رتيبة من نافذتي ثم يبتعد في مثل رتابته مقترباً.. وأشعر أني وحيد، صلتي بالعالم الخارجي لا تتعدى هذه الأصوات المتباعدة، وذكريات تشتد وتخبو.. وأمي لا تدنو من غرفتي الموحشة إلا إذا اشتهيت الحديث اللين.. هذه الإنسانة الكريمة كم تلح علي أن أملأ البيت زقزقة وصيحات صغيرات:« ستي، ستي!»

وتذكرت إقدامي ذات مرة، منذ أمد بعيد على خطبة فتاة أعجبتني.. كنت أراها في غدوها إلى الجامعة ورواحها.. وكنت آنذاك على أهبة السفر إلى أوروبا، سفرتي الثانية. وقد علمتني رحلتي الأولى أن تركيبي لا يحتمل أن تكون زوجتي ذات ماض، فأقنعت نفسي أن أسافر هذه المرة متزوجاً، لأني - فضلا عن ثقتي بأن زوجتي لم تكن لسواي - وددت أن أمزجها بجوي الذي لم يبق شرقياً صرفاً بعد رحلتي الأولى.. يومها وسّطنا أحد معارف الصبية في أن يجس نبض الأهل فجاء يخبرني أنهم ينتظرون زيارتنا إذا كان مساء الغد.. وذهبنا، أمي وأنا، فاستقبلتنا الأسرة بأفخر الأثواب. الفتاة على الأخص كانت تلبس كوكتيلا من البروكار الفضي وتضع في معصمها ساعة بأسوارة من الذهب المطعم بالالماس، دقيقة الصياغة مثل يديها وأذنيها.. وكان في الثوب خيوط من الفضة تهبه سطوعاً حتى ليكاد يضيء على البشرة البيضاء. وانسدل شعرها الأسود على كتفيها العاريتين طليقاً من الأمشاط والملاقط...

لم يكن بيتهم موسراً، أو كما يقال، آخر كلمة في الزي. ولكنه كان نظيفاً مرتباً ينبيء عن أسرة مستورة، متوسطة الحال. كان الأثاث قديم الطراز. بضعة مقاعد من خشب الجوز تحمل زخارف ونوافر شامية.. وفي أحد الجدران مكتبية صف على رفوفها أنماط من عدة الشاي وأركيلتان من الكريستال القديم...

وبدأ الحديث متسكعاً، متثاقلاً، تديره أم الخطيبة، عن صهرها، زوج إبنتها الكبرى.. وهو تاجر كبير يسلم لقلبها كم هو كريم، طيب، لا يألو جهداً في إسعاد إبنتها الحبيبة.. ولكني تحايلت على إسكاتها، أو قل توفقت في تجميدها، حولت عليها أمي، وإنفردت ببقية السماع. الوسيط، والأخت العزباء، وغادتي..

لم تكن هذه لتحول عينيها عني طوال السهرة. كانت تضحك ضحكاً ليناً من حكاياتي وتشرك بتعليقات تخبيء قدراً من الذكاء والإقبال، وأكاد أقول الإعجاب.. وتقضت السهرة ناعمة تملأ القلب من غبطة رقيقة غامرة. وإنفض السامر في موهن من الليل. وقمنا، أمي وأنا، نودع الأسرة.. كانت أمي مغتبطة كذلك على الرغم من أن الفتيات اللواتي يعجبنها قليلات.. إنها تنظر إلي بعينيها الرؤومين، عيني الأم التي لا ترى أجمل ولا أكمل من ابنها.. وأما في تلك الليلة فكانت تدعو اللّه أن يختار الخير، أن يُمنَّ علي بذرية صالحة تملأ السهل والحزن...

في اليوم التالي إنتشر نبأ الخطبة.فأصبحت استقبل رفيقاً ناصحاً يريد أن «يسر إلي كلمتين» وأودع آخر «أسر كلمتيه» وقصد الباب.. هذا يهنيء على إختياري الموفق لهذه الدرة المكنونة، وأما ذاك فيروي لي حديثاً متواتراً، خلاصته أن خطيبتي ذات ماض، تحضر حفلات سرية خليعة، في قصر موسرٍ كبير منحرف، فتخلع ثيابها قطعة قطعة كما تفعل فتيات الستريب - تيز في علب الليل المشلطة، وتعرض جسدها البض المتسق على جنون موسيقى ماجنة، وصليل أقداح الشمبانيا، إلى آخره. وقررت حازماً أن أصم مسمعي وأنتظر الجواب. كانت جلستها الوادعة، والطفلة التي كانت في عينيها

وهي تصغي الي تلك الليلة.. كل الجلسة تكذب، تغير حتى فكَري السابقة! قد يكون لهذه الحسناء ماض أنا لا أخالها مسؤولة عنه.

في جلسة الخطبة استطعت أن أشرق بحديث لا أظنها سمعت مثيلاً له في الصدق والبساطة والتلوين.. مرت لحظات وجدتني فيها أتحدث لها وحدها، لمستقبلنا الوضاء الذي سنبنيه معاً.

خيل الي، أن الغرفة خلت من السمار، من الأخت والأم، فلم يعد بابها موصداً إلا علينا نحن الإثنين، هذين المستكشفين المخلصين لمجهول شديد الإغراء.. ولما تحدثت، عَرَضاً، عن أسطورة النصف الثاني في الأدب اليوناني، لمست أني وفقت في روايتها، وتخريج المعاني الجميلة منها حتى بهرت من تشويق وإيماء.. كان وجهها يعكس تجاوباً رائعاً.. لا أزال حتى الآن أذكر قسماتها. أي معجزة لا أستطيع أن أجبلها من هذه الإستجابة الزاخرة التي تتضفر من الأشواق إلى الأجواز الطاهرة، أشواق الإنعتاق من ربقة الطين البارد الغث الرتيب؟ ما كان أعمق وجداني، وأنا أتأمل وجهها البديع، بقدرتي على التحليق وإعادة الخلق.. رباه! كم كنت أحبها وهي ترفع إلي عينيها الحوراوين الوارفتين.. ورحمة اللّه وحدها هي التي لم تكتب لتلك الجلسة الساحرة أن تعاد.. لو أُعيدت لبت خليقاً أن أهجر كل شيء وأروح أنام على باب دارها.

وجاء جواب الوسيط.. إنهم يتشرفون بالإنتساب إلى دوحتنا الباسقة، نحن الأسرة العريقة، الخ. ولكن، ولكنك أدرى بأن «الوقت» يتطلب شروطاً معينة إذا كانت الفتاة المقدمة على الزواج في مثل شرف خطيبتي وثقافتها وجمالها.. إنهم لا يسألون أكثر من مسايرة « الوقت» والظهور بمثل ما يظهر به أترابها في هذا.. «الوقت»! .

ما هي هذه الشروط؟

ماذا يتطلب « الوقت »؟

كانت شروطاً معقولة كلها، لا غبار عليها، لو أنني كنت أميراً من أمراء السعودية، أسبح على أوقيانوس من الذهب الأسود: بيت في شارع أبي

رمانة، سيارة.. إن أختها - زوج التاجر الكبير - تحتها سيارتان بويك وبونتياك وفي خدمتها سائق.. ولكن طيب محتدي، وكرم أرومتي مبرران لقبول سيارة من نوع أوبل بأربعة أبواب، أو فرساي في أقل تقدير.. وأستطيع أن أتعلم قيادة السيارة أنا نفسي إذا كنت أجهلها فنوفر أجرة السائق.. والأثاث؟ يا للفرحة! إنهم لا يلحون على أثاث من فرنسا، طراز لويس الرابع عشر أو الإمبراطورية أو أي لويس في الدنيا، كما فعل التاجر الصهر، يسلم لي.. لا بأس بكردوس، مسألة عشرين ألفاً.. وأعترف أني لم أكن أدري ما كردوس ذاك.

أكان طرازاً من طراز الأثاث؟ وإنفضحت: كان كردوس نجاراً.. ثم إن أخت الخطيبة تنهى وتأمر على ثلاث خادمات وطباخة.. وأما نحن فتكفينا مبدئياً، واحدة.. الأخت عندها أولاد مضطرة.. وأما المؤخر فمؤخر المثل.. أختها، إلى آخره.

في تلك الأيام كنت على قدر من السذاجة، من البله إذا شئت. كنت أقول في نفسي مستنكراً: فتاتي لا تقبل مثل هذا المزاد العلني. العينان الحوراوان، والبشرة التي عجنت من أوراق الزنبق، والقامة الميادة مثل ذؤابات البان، والإستجابة العميقة.. كل ذلك ينفر من النخاسة.. لا بد أن الجواب كان من نظم الأم وتلحينها، وما عسى امرأة عتيقة فانية أن تفهم في الوشوشة الوامقة تنساب بين عاشقين؟! إذا ظفرت بفاتنتي فأنا باتر ما بينها وبين هذه الحيزبون بسيف ماض. والتجار الكبار أيضاً لا يناسبونني البتة!

وكمنت لفتاتي عند محطة الحجاز ذات صباح.. فلما أطلَّت دنوت منها وحييتها فردت التحية من أطراف شفتيها، ورفعت إليَّ وجها مفكراً مستفهماً أربكني وجعل في ساقيَّ إختلاجة. ومع ذلك فقد تشبثت بأذيال شجاعتي الهاربة وتابعت السير قربها.. وأنا أفأفىء وأجمجم بأحاديث خرقاء عن الطقس وذكرياتي في الجامعة.. والحديث لا تصغي إليه عينان واسعتان يدب إليه الوهن فيذوي ثم يموت... وأجهزت سيدتي على فلوله

المنهوكة لما صرنا على باب الجامعة الخارجي، إذ مدت إلي يداً ميتة وقالت لي في صوت لا حياة فيه: «مع السلامة!».

بعد هذه الحادثة عرفت حدّي. كففت عن التفكير في النصف الثاني.. من أين أدفع ثمنه؟ مددت يدي، أنا أيضاً، إلى الأحلام المورقة، إلى زقزقة الأطفال، إلى خفقات القلب المدنف، وقلت لها جميعاً، في صوت ميت: «مع السلامة!» .

*   *   *

٨

الآلة الحاسبة تتكتك في صمت الغرفة، وعبد المجيد يُعمل يديه الإثنتين، ينقر بأصابع اليسرى نقرات كأنه يربط بها علبة موسيقى، وإذا الآلة تئز وتمضي لنفسها في قرقعة متلاحقة تخمد بعد ثوان.. ثم يلقي نظرة على الآلة ويكتب باليمنى على أوراق أمامه. ومن البعد تنتهي إلينا جلبة الشارع مخنوقة ملحاحاً... وصمتت الآلة بعد قليل، ورفع عبد المجيد رأسه قائلاً:

- هل تدري يا حسين؟ غداً بعد عمر طويل، إذا جاءني عزرائيل يريد أن يسترد الأمانة، أخاف أن يضبطني وأنا أعدّ له أزرار معطفه الملائكي، أو شعرات لحيته.. الأرقام علّة حقيقية، نوع من الجنون!

- أنا أفهمك ولكن يظهر أن للعدد موسيقى خاصة أحسّها أنا نفسي، وأكاد أدرك أحياناً لماذا أراد بعض الفلاسفة أن يعيدوا إليه الوجود ذاته.. مادة الوجود عند فيثاغورس، كما يقال، هي العدد، الواحد. والعدالة في نظر الفيثاغوريين أربعة.

- عن أي موسيقى تتحدث، وأي وجود؟ أنا لما كنت في الصندوق كدت أجنّ من الأرقام. كنت أحفظ أرقام السيارات الواقفة في الشارع، أي شارع، وأجمعها. وأعد شبابيك البنايات وأقسمها على عدد الطوابق، وأزرار المارين، وملاقط السيدات اللواتي ينتظرن على أبواب السينما..

- والشعيرات التي تؤلف الهدب الظليل!

- لا ياحسين، أؤكد لك أن الذين يعملون في الأرقام أنصاف مرضى.

- وما تزال تعد؟

- لا، بعد إنتقالي إلى هنا شفيت بعض الشيء.. أنا الآن لا أعد غير درجات السلالم.. تصور، إذا صادف وأخطأت وأنا صاعد أهبط الدرج مرة أخرى.

صمت.

- عبد المجيد؟

- نعم.

- هل من جديد في قصة الأمس؟

- أين كنت؟

- في وزارة العمل.

- اليوم أيضاً؟ أراك تهتم لحكاية الأمس كثيراً.

- وماذا في هذا؟ ألست موظفاً!

- في الماضي لم تكن تعنى بالحكايات الصغيرة التي تجري في المصرف.. طيب يا سيدي أنت تعلم أن سهام، علاوة على عملها على الآلة الكاتبة، تهيء السندات المحسومة في المصرف المركزي.

- أعلم.

- وهذه السندات أنواع، ولكل منها جدوله، فإذا وقع خطأ، إذا أرسلت سهام سنداً زراعياً في جدول السندات التجارية أو الصناعية أعاده المصرف المركزي إلينا.

- اختصر، اختصر.

قال متهكماً:

- أنا أطيل من قبيل تذكيرك بمنسياتك. إذن أعاد إلينا سنداً زراعياً بخمسين ألفاً. يعني أن مصرفنا - وهو بحاجة ملحة إلى أوراق نقدية كما تعلم من دراستك لصندوق التوفير - قد تضرر..

- ولكن هل سهام هي المسؤولة؟

- بعض المسؤولية، ولكن المسؤول الأول هو رئيسها، لأن تدقيق الجداول التي تهيئها هي قبل إرسالها إلى المركزي من واجباته وحده.

- إذن لماذا إنفردت هي بغضبة المدير؟

- لأنها بنت.

- أعوذ باللّه. كل شيء إلاّ هذا يا عبد المجيد. أنا أعرف المدير.

إنه أبعد الناس عن التمييز بين الموظفين على أساس.. من جنسهم، تصور!

- لم تفهمني. قلت لك إنها بنت وأعني أن حياءها قعد بها عن الدفاع عن نفسها. أمي تقول أن المرأة بجناح مكسور. وعلى أية حال أدرك المدير العام أنه تسرّع.

- أما تزال حزينة؟

- لا، منذ أمس لم أدعها تخرج من هنا إلاّ بعد أن استعادت صفاءها وانطلقت الضحكات، ولا بد أنك رأيت البداية. هرّجت. قلدت لها أمها عندما تضحك هيء هيء هيء. أنا يا حسين لا أطيق رؤية الدموع الصبيّة. منظر أرض المعركة وقد احتشد بالجثث أهون.

أصلاً المدير كلفني أن أستدعيها وأسترضيها باسمه.

وقف..

ومدّ يده إلى الجرس فحضر الآذن.

قلت:

- أنت تعرف أسرتها إذن؟

- أنا إذا شئت صديق الأسرة. بين أمي وأمها زيارات.

ودخلت سهام، تصنّعت أني غارقة في الكتابة وأن أفكاري تقتضي النظر إلى الأرض عن يميني. القدمان الصغيرتان بالحذاء الأسود تتقدّمان بنقلات خفيفات حتى تبلغ عبد المجيد أمامي:

- مرحبا.

ثم تستديران وتتجهان نحوي، ويد صغيرة تمتد إليّ.. ونفرت واقفاً. قالت:

- مرحبا أستاذ، عفواً.

ظللت واقفاً:

- أهلاً وسهلاً تفضلي.

وأشرت إلى الديوانة الجلدية كأن سهام جاءت تراني أنا.

وقال عبد المجيد:

- آنسة سهام، نحن استدعيناك...

فقاطعته باسمة في رنة سخرية بيضاء:

- من أنتم؟

- نحن؟ نحن الموقعين أدناه..

مرح مؤنس أفعم الجو. وتابع عبد المجيد متكبشاً:

- نحن يا سيدتي وسيدة هذا الإنسان (يشير إليّ فتوجه سهام إليّ نظرة باسمة وأحسب أنا المتحدث بنظرة تعجّب) المدير العام لهذا المصرف نعتذر إليك عمّا بدر منا في مقابلة الأمس.

قالت مقلدة لهجته:

- قبلنا عذركم أيها السيد الطيب النزق.

- أنت أيتها الموظفة في معيتنا، ارتكبت خطأ يستحق اللوم ولكن إعتذارنا ينصبّ على ما قلناه لك من أنك لا تصنعين شيئاً طول النهار، إلخ.

وهتفت أنا:

- هل قالها؟

وخفضت صوتي وأنا أتوجه إلى سهام من غير أن أثبت نظري في عينيها، ولكني كنت أرى أنها التفتت إليّ بجماع وجهها. قلت:

- ولكن، وددت لو أنك لم تبكي!

فاستفهمت:

- لماذا؟

- تصوري، دموع من عينيي.. هل يستحق المصرف كله!

- أنا لم يبكيني المصرف.

- الكلمة القاسية من إنسان «طيب نزق»!

- وحتى هذه لا تبكي. أنا يا أستاذ حسين بكيت لأن المديرظلمني.

وقال عبد المجيد:

- الأستاذ حسني أمين، معلمنا في الإبتدائية، علمنا أن الظلم هو الذي أشعل الثورة الفرنسية.

قالت:

- وقد يكون سبب كل الثورات!

- ولكنك بكيت.

- أنا، أنا عندما أثور أبكي.. أنا بنت. لقد حزنت كثيراً.

أجل يا صغيرتي العزيزة.. الدموع ثورة الضعفاء، ثورة محزنة لأنها كسيح.. وسألتُ:

- إذن فالظلم هو الذي أثارك؟

- نعم وأبكاني.

- ولكن معنى هذا، إذا نحن تجاوزنا المثال الفردي، إن حزنك لا عزاء له.

- لماذا يا أستاذ؟

- لأن العدالة، منذ أفلاطون، أُمنية.

- كنت أشعر شعوراً غامضاً أنها تفهمني، أن فيها ملامح من أمي: صفاءها، بُعْدَ قرارتها. أنا أستطيع أن أخوض مع أمي محادثات لا أجرؤ على

طرقها مع طالب في الجامعة، على الرغم من نصيبها الزهيد من المعرفة. حتى نظرية فلق الذرة أستطيع أن أفهمها إياها. لست أدري من أين جاءني هذا اليقين مع سهام. قالت:

- صحيح. أنت قلت أنها أمنية. ولكونها كذلك لا أجد مبرراً للحزن بلا عزاء. أليست الأمنية سبيلنا إلى المستحيل.

وابتسمت ابتسامة اعتذار لا حدّ لرقتها وعفويتها وأضافت تحذرني بمراح:

- ها أنذي أتفلسف. احذر يا أستاذ حسين، سيسجلها عبد المجيد علينا.. سيسحب عنها فلماً.

فأجاب عبد المجيد ماكراً:

- أنا؟ أعوذ باللّه. واللّه أنا يا جماعة مظلوم.. والظلم يثيرني، يبكيني!

مرح. وابتسمت أنا سادراً. قلت:

- ولكن اسمحي لي أن أرجوك عدم الخروج عن الموضوع. ما هي في رأيك السبيل إلى تحقيق العدالة على الأرض؟ بل ما هي العدالة إطلاقاً؟ فقلّبت نظرها بين عبد المجيد وبيني وهي تفتح ثغرها نصف فتحة كأنها تستنجد وقالت:

- واللّه يا أستاذ أنا لا أعرف.. أنا لم أدرس دراسة لها قيمة.

وعادت إلى بسمتها المعتذرة، ولكنها استمرت تقول:

- أفكر بادىء الأمر أن العدالة مطلب بعيد كما قلت أنت، مطلب من اختراع الأمنيات.. لأن الطبيعة ذاتها لم تعدل حينما وزعت هباتها. أوراق البنفسج وأشواك العليق.. وأتصور أن الإنسان قبل أن يخرج من الغابة لم يكن يفكّر في تعريف العدالة.. وقد يصعب مبدئياً أن نتخيل العدالة الاّ مع المحبة. أنا أحب اذن أنا...

فقاطعها عبد المجيد هاتفاً:

- إذن أنا عادل !

فالتفتت إليه مستفهمة، غفوراً كأنها لا تدري قيمة ما قالته. واستمر يقول:

- نعم أنا عادل لأني أحبّ الفراريج المشوية!

فاستنجدت بي ضاحكة:

- ألم أقل لك يا أستاذ حسين. أحمني منه، أرجوك. ولكن عدلك يا عبد المجيد من نوع عدل الدرك. لو أنك تركتني أكمل لأضفت الرحمة.. ثم إن العدالة يجب أن تستهدف حماية الناس من أنفسهم..

وصمتت. هذه المرة كان التشابه بينها وبين أمي أكثر وضوحاً، لولا العبارات الفصيحة عند سهام.. الإثنتان تغرفان من الينبوع الصافي العميق ذاته. وكلتاهما تُخرجان من قلب الجدّ مراحاً.. وأية نوطة متواضعة في الصوتين!

وانفضت الجلسة.. اعتذرت سهام بأن عليها أن تنجز أشغالاً مستعجلة. وظللنا، عبد المجيد وأنا، صامتين. كنت أنظر من النافذة المطلة على المنور، لم أكن أرى الجدار المغلق، وإنما حشداً من الناس، آلاف الوجوه، بعضها باسم وبعضها متأمل حالم.. تنظر إليّ، يمحو بعضها بعضاً ويتحلق بعضها حوالي بعض. كنت أرى أزهاراً وأطفالاً.. يلعبون بينها. البنفسج في الأرض وفي الثياب ولا أدري لماذا كنت أراني وعبد المجيد، كتفانا متماستان ورأسانا متدانيان. كنت أشعر أنه قريب من قلبي، إن عليّ إشراكه في أمري كله. نحن زميلان منذ أمد بعيد، فعلام أحس الآن كل هذا الود يشج بيننا؟

*   *   *

٩

لماذا لم يدعها عبد المجيد تمضي في تحديد العدالة؟ لقد إحتاج إفلاطون إلى سفر ضخم لكي يعطي للعدالة حداً ما... ومع ذلك فقد «ظلم» العبيد. إن ما قالته سهام خطير عجيب، ما كنت أتصوره يصدر عن واحدة من نسائنا. نساؤنا لما يتحررن. إنهن يرسفن في قيود من مختلف الأوزان و الأشكال. قيود تلد معهن وتنمو ما نَموْنَ، حتى ليخيل إلينا إنهن لا يكن إلاّ بها، أنهن تعودنها فعدن لا يستشعرون لها قرقعة ولا ثقلا.. فكيف حطمتها هذه الإنسانة، وأنشأت تتواثب في فلك الفكر خفيفة كالظبي، حرّة كالنسيم! إن الحرية شرط الفكر المبدع الأصيل.

وماذا قالت؟ - إن الإنسان قبل أن يترك الغابة ويتّحد في جماعات بدأت تبني الحضارة الإنسانية لم يكن يفكر في إعطاء حدّ للعدالة.. أرادت أن تقول أن الإنسان استطاع أن يبدع العدالة لما وعى نفسه وأطلق لفكره الحرية. والفكر الإنساني مولع باعادة خلق الكون، أي الثورة على الطبيعة ذاتها.. والمحبة؟ إنها تلحّ على المحبة لأن القانون في بعض الأحيان عربة ضخمة عمياء، صنعت في الأصل لتواصل الناس إلى مأمل خصب مونع، وإذا هي، في بعض الأحيان أيضاً، تسحقهم تحت عجلاتها. ولكن ماذا أرادت إذ قالت إن العدالة تستهدف حماية الناس من الناس؟

كان عبد المجيد قد عاد إلى آلته الحاسبة، فجعلت أُراقبه حتى إذا فترت ضوضاؤها ورفع رأسه لحظة سألته:

- أهي من أسرة محترمة؟

- واللّه ياحسين محترمة. أنعم وأكرم، جماعة دراويش مثلنا.

الأم تقبض راتباً شحيحاً مثل تقاعد أمي، والأخت درست الخياطة في مدرسة الطليان. سهام هي التي درّستها على حسابها.

- سهام؟

- أجل كانت تعمل، مع شغلها في المصرف، بعد الظهر في محلّ تجاري.

- حتى الآن؟

- لا، إنهم الآن في يسر. الأخت خياطة ناجحة.

ثم نظر إليّ متصنعاً الدهشة وقال مرحاً:

- ولكن، ظني أنك تفتح معي محضر تحقيق كاملاً!

وخجلت أنا، كنت، صدقاً، أحقق معه. وسألت نفسي تعليلاً لهذا الإهتمام الذي جرفني منذ الأمس. إن المرأة العاملة ما تزال، على الرغم من إعتيادنا رؤيتها، تحرّك فينا، بين حين وآخر، أثارة من بلبلة. ربما يستيقظ فينا صاحب الحريم القديم الذي كان يعيل قطيعاً لجباً من النساء، لا يراهن يمددن إلى عمل يداً إلاّ ما كان متصلاً بزينتهن وإستعدادهن للقيا محتملة عندما يهبط الليل..

على أني أوغل في سؤال نفسي عن سرّ إهتمامي الجديد.. لماذا أحتجُّ بصاحب الحريم القديم، الذي كان جداً لجد جدي؟ أيكون مرده إلى هذه الدهشة التي هيمنت عليّ منذ قليل؟ أم إلى تلك الموجات الدورية من الشعور بالوحدة، موجات تتدفق عليّ فتعلق قلبي على شعرة من الشوق إلى إنسان ناعم رفيق يدخل الإنس على حياتي الممحلة ويهبني كائنات صغيرة تضفي على جديتي المرة حلاوة العبث الطفولي الآسر! ما ألطف الأستاذ حسني وهو يتكلم عن الألم اللذيذ تسببه عضات الطفل الرضيع! وقد تلوذ الأم بالزوج شاكية إليه ابنه في نبرات كلها رضى وقناعة..

إذا كان المدير قد أخرس تحننه القديم حين قطر نفسه إلى رحى العمل الدائب الأجوف.. إذا كان عبد المجيد قد وجد العزاء في التشعث والبعثرة على مئات الروافد فاختنق هدير التيار المزبد المرعد في قلبه..

فأنا لا أستطيع أن أقنع مثلهما لا بالدوران ولا بالبعثرة.. قد أخاف التجربة، ولكن يجب أن أواجهها، عندما أخوض غمراتها، بكل قوى روحي. وأنا بعدُ قد جاوزت الثلاثين منذ أمد.. وإذا كنت قد طوفت في البلدان والناس فقد منعني من الغوص حتى القرارة توهمي بأني خلقت للبحث العلمي المتقشف البارد. العمر يمضي ولا يعاد، وهأنذا أرى شعرات بيضاء قد اندست في اللمة الفحمة.. ومنظر الأطفال الصغار أبداً، يجعلني أسير كآبة خرساء لا تدري لا متدادها في الصدر سبباً. تصور إن بعض البُنيات الصغيرات في حيِّنا يقصن شعرهن الحريري اللطيف على شكل ذيل مهر، ويتراكضن على الرصيف بأقدامهن الصغيرة التي لم تتعلم الخطو إلا منذ قليل.. وذيل المهر، مربوطاً بشرائط ملونة، ينوس ويتناثر ويلمع. وقلبي كذلك ينوس ويتناثر ويلمع.. يا الهي! .

لم أستطع صرف خواطري عما أنا فيه. وكان عبد المجيد ينظر أمامه ولا يعمل شيئاً فغالبت حرجي ومضيت أقول له مرة أخرى:

- هل تتحملني قليلاً؟

- قل.

- والسمعة؟

- أنا أفرضها طيبة. ولكنك تدري ما يدور عن الفتاة التي تضطر إلى العمل.

- مثلا؟

- أقاويل كثيرة، أأنا أعلم؟ وما أكثر الأقاويل! زعموا أن لسهام علاقات مريبة تخفيها تحت هذا القناع من البراءة.

لست أدري لماذا هبط قلبي. ومثلما يضيء البرق أشجار الغابة ثم يعود الظلام المطبق، انخطف فكري إلى شارع فوجيرار بباريس..

رأيت حتى السرير المسَّور بمك

تبات صغيرة، والخزانة البنية والمشجب، ورقعة المخمل الحمراء الممتدة أمام المغسلة، وشارلوت... ورأيتني أسند صدغي إلى يدي محزوناً ملوعاً!

ثم عدت إلى عبد المجيد أسأله:

- ورأيك أنت صديق الأسرة؟

- أنا؟ لعلك تخطىء إذ تسألني رأيي. الفاسدون مثلي لا يعول عليهم.. الموازين التي يزنون بها رديئة... ومع ذلك، اللّه ما بيني وبينها. ما رأيت عليها إلا كل خير. إنها تكسب خبزها بعرق الجبين كما يقولون...

قالها عبد المجيد وهو يشد قميصه إلى الأمام متبرئاً، فلم تعجبني الحركة. بعض العامة يقومون بها إذا أرادوا السخرية. وأضاف:

- ثم إن سهام نفسها مثقفة. صحيح أنها تركت المدرسة من الصف الثامن الثانوي ولكنها تقرأ... فتاة مثقفة بالمعنى الصحيح للكلمة، لا بمعنى كتاب الأحوال المدنية..

- أرجوك ألا تقول مثقفة. قل قارئة، مطلعة، ولكن لا تقول مثقفة.. هذه الكلمة تحزنني لا أدري لماذا.

- أعد الكلمة إلى أصولها اللغوية يهن عليك الأمر. يقال: ثّقِف الشيء أدركه وبلغه، وثقّف الرمح قوّمه. وسهام على ما أعلم قد أدركت قدراً من المعرفة موفوراً قوّمه صفاؤها العريق الذي رأيت أنت نفسك بعض ومضاته.

- ولكن سمعتها.. ما هو مصدر هذه الأقاويل؟

- ألا تدري أن كلمة تخاطب بها الفتاة شاباً تكفي لكي ينسج لها ماض طويل عريض.. المخيلة المبدعة عندنا خصبة، والحمد للّه. أنا نفسي إرتكبت مثل هذا «التخيل المبدع»، غفر اللّه لي..

قال هذا واكب على أوراقه..

إن هذا الإنسان قد عاش. أحكامه على الناس مستمدة من غوص على الأعماق.. عبد المجيد مزيج مدهش من الحنان واللامبالاة من الخير والشر،

من الجد والسخرية.. إنه كالحياة نفسها الليل عنده يعقب النهار والحزن يختلط بالحبور! ترى هل أجد عنده الحل؟ ماذا لو ارتميت أنا في اللجة التي تجرفه أواذيها الزاخرة؟ في إحدى رحلاتي البحرية رأيت سمك الدرفيل تتلاعب به اللجج، وهو يقفز من فوقها ويغوص معها ويسابق السفينة ويهدأ قليلاً، ثم لا يلبث أن ينتخي للهراش، ويظفر بالقوت أو لا يظفر ولكنه يتابع غليانه.. ألسنا نحيا حياة واحدة فلماذا لا نجعلها تغلي، تفور؟..

قلت:

- عفوك يا عبد المجيد، غداً عطلة ونفسي ضيقة، فهل تود أن نلتقي؟

فقال متعجباً:

- من كل بد، ولكن أيام العطل عندك لها برامج حافلة. أنت تكرسها للعمل الآخر عادة.

- فليكن. أين نلتقي؟

- تعال إلى بيتي.

* * *

١٠

مع الأيام تزداد أمي رقة وشفافية. صوتها ينساب كأنه الهمس، صوت واهن، عندما أُصغي إليه وحده يصيبني حزن عميق أحسه في قرارة روحي. لماذا أمست أمي متقدمة في السن نحيفة، يصدر عنها هذا الصوت الواهن المكسور؟ لماذا لا تظل أبداً صبية قوية، تجول كعادتها القديمة في الأسواق والناس وتقبل علي ببيادر من الملاحظات الغنية الدقيقة! إن الحادثة العادية تصبح في فم أمي عالماً متحركا تشمه وتسمعه وتلمسه بيديك كلتيهما. من أين جاءها هذا الإندماج الذي يكاد يكون عضوياً مع الحادثة الحية؟ إنها لم تتعلمه من الكتب، فهي لا تقرأ إلا القرآن، تعلمته عند الشيخة منذ أكثر من نصف قرن.. ثم إنها لا تفهم أكثر كلماته. أبي؟ لا أظن. كانت صلاتهما أقرب الأشياء شبها بما يقوم بين السيد المطلق وعبده.. كانت له شواغل فكرية، أذكر ذلك. في أخريات حياته كان يلخص كثيراً من قراءته في دفتر ما يزال عندنا، تجد فيه أشياء لابن سينا وابن داود الأنطاكي، وأخرى لشوبنهور ونيتشه ودارون، لعله كان يستخلصها مما كان ينشر في مجلتي المقتطف والعصور في أوائل هذا القرن.. وأخاله كان ضنينا بعالمه الفكري، على صغره، أن يشرك فيه امرأة، وظيفتها العمل في البيت، في طهو الطعام اللذيذ لتلك الشلة الصغيرة من الأصدقاء الذين كانت تضمهم مائدته أكثر من مرة في الشهر.. وعلى الرغم من أنه توفي وأنا يافع صغير، أراني إذا فاضلت بينه وبين أمي أُفضلها عليه. لم يكن عالمه الفكري منسجما مع صلاته بها. كان فيه إنسانان: الباحث - إذا إنطبقت هذه الكلمة على قراء بداية هذا القرن في بلادنا - وإنسان الحكم التركي الذي كان يموت.. مطالعاته لم تهده إلى أن أمي ندٌ له لا تابع.

وأما هي فرائعه حقا في إنسجامها مع ذاتها.. وخيل إلي أنها تحررت، بعد وفاته، روحيا.. صارت أكثر إنسانية بما تخفف عنها من ربقته.

لما وصلت إلى البيت ذلك اليوم بعد إنتهاء العمل في المصرف رأيت أمي قاتمة بعض الشيء. إنها أبداً تحاول أن تظهر لي بسامة الثغر ولكني أبداً أحزر إذا كان يقلقها أمر. قلت:

- ما بك؟

- لا شيء يا حبيبي؟

- لا تتكري. أين كنت صباحاً؟

- عند أختك.

- كيف حال الصغيرة؟ هل تحققت نبوءات هاشم المخيفة؟

- لا، أمل تتفتح من دقيقة إلى دقيقة وتزهر. وأظنها ستعيش مئة سنة.

- إذن؟

ولم يطل كتمانها: حينما خرجت من بيت أختي لقيت طفلاً صغيراً في كومة أسمال يمد يداً صغيرة عجفاء، غير مدرَّبة على السؤال، فيها شقوق متبقية من الشتاء. قال لها بصوت راجف: « معك فرنك؟» فأعطته خمسة وسألته: « ليش مالك أهل يا ابني أنت؟».. لا ليس له أهل، ولكنه ليس وحيداً في هذه الدنيا. إنه رب أسرة صغيرة: أختين أصغر منه. وهم يسكنون سيارة قديمة مهجورة في آخر المهاجرين، في الجبل. إنه هو عائلهما الوحيد.. وتسأله أمي عن أبويه فيقول بلغة لا تزال فيها لثغة الطفولة المبكرة إن أباه كان يضرب أمه كل يوم وكان عندهم طعم مبيد للفيران (يسميه الولد دوا الفار) فسفّت حفنة منه. - وأبوك؟ أبوه مات بعدها بأيام. ولا يذكر كيف طردوا من البيت. كل ما يعرفه أنهم أصبحوا بلا مأوى.. كان صوته يرتجف كأنه أختزن الزمهرير الذي تشهده بعض الليالي حتى بعد وفود الربيع. وقال لأمي لما آنس عطفها: «وين دارك أنت؟» فسألته: « ليش يا حبيبي؟» قال إنه يريد أن يعرف دارها لعلها تعطيه شيئاً يلبسه هو أو أختاه.. في الليل يقع برد شديد على المهاجرين.

كانت أمي تروي الحادثة ويرتعد صوتها.. نظرت إلي بعينين طافحتين بالدموع. واستمّرت تقول إنها دلته على بيتنا ولكن بيت أختي في سوق ساروجة ونحن في جناين الورود فهل يهتدي؟ وأفرغت جيبها من النقود وصبتها في يديه الصغيرتين، وقطعت المسافة ماشية.

وقالت:

- أنا عدت لا أصلح للخروج..

وتضاحكت بين الدموع وأضافت:

- يظهر أني كبرت !

هذه عادتها. الحزن لا يتأبّد في هذه الروح الصافية. أم تراها استشفت أن قصتها قد تركت في قلبي إنساناً ينتحب في حرقة صامتة لا عزاء لها، فا نتزعت نفسها، في مثل هذه الفجاءة من قاع حزنها؟

ومسحت الدموع وقامت باسمة:

- ولكن لا تخف، أسرتنا تعمّر. جدي بلغ المئة وخرف آخر أيامه. أتدري على إيش إنصب خرفه ؟ على الزواج كان يتدلع على جدتي ويقول لها: «ما بدي، زوجيني»!

قلت:

- أمي، هل كنت تحبين أبي ؟

- كيف لا أحبه يا ابني ؟ رجلي الذي رضيه اللّه لي. كان يكبرني بست عشرة سنة. فكنت أرى فيه الزوج والأب والسيد.. وقد أعجب أهلي وأحبوه.

- وهل كنتما تتحدثان أحاديث جدية ؟

- نتحدث.

- مثلا ؟

- ما يدريني. في بعض الليالي كان يتكلم كثيرا.. كثير مما يقوله كنت لا أفهمه، ولكن وجهه المضيء، صوته العميق كان ينقلني إلى عالم مريح، ينسيني تعب النهار كله.. في أيام أخرى كنت أحس أنه مغلق، بعيد مني..

ظني أنك ورثت عنه هذه الطباع. وأخوتك هكذا أيضاً.. هذا الجنس المتقلب تحبه النسوان.. النسوان يا بني لا تحب الكبر. المرأة التي ترى كائنا صغيرا يخرج من قلبها، كائنا أمامه سنوات من النمو، لا تصدق أنها هي نفسها تهرم. تزوج يا ماما تشارك امرأتك كل هذه الأشياء..

إنها تفهم الحب على طريقتها: عملية خلق. أمومة وأبوة، لا كلمات وتنهدات تذروها الريح. هكذا تحبني وتحب إخوتي وتريد لي أن أفعل !.

بعد الغداء حاولت أن أقرأ قليلا فلم أستطع، خرجت أضرب في البساتين.. كل شيء مزهر مسته أنفاس الربيع المبكر. الأدواح تستيقظ وتأخذ زينتها، والقمح بين الأشجار أخضر بليل تلمع أوراقه تحت الأشعة المائلة إلى الغرب.. في منفسح غير بعيد من الدرب، بضع شجرات من الحور الرومي باسقات. قد يكون عمر الواحدة ستين، ثمانين سنة، ولا يزلن في جمال متجدد كل عام... وهذا الميَسَان في الذؤابات العليا للنسيم اللطيف، والهيف في القد! لماذا لا يظل الإنسان حتى في الثمانين مياس القد، أهيف يتجدد كل ربيع ويَخْبِتُ للمحبوب كما يخبت العاشق المستهام ؟ آه يا قلبي الذابل الخامد ! ترى هل تفيق كما تتنفض الدنيا الآن، وتتفتح غرفاتك المغلقة على أشعة الشمس وتنتشر ما فيها من قدرة على المحبة والوجد !

ما أحوجني إلى قلب رحيب يتلقى هباتي الكثيرة كلها. ماذا يُسيغ تائه متوحد يضرب في مفازة ما فيها آثار قدمين !

*　　*　　*

١١

انتهى بي التسكع إلى المزرعة فدخلتُ حديقتها. كانت المقاعد قفراء فجلست على واحد في المذهب الرئيسي.. رؤية الغرفة الصغيرة في باريس كانت تسكنني، تتملكني منذ الظهيرة. أحاول أن أتخلص منها فتأبى أن تريحني.. كان هذا في أول رحلة لي إلى أوروبا، وكنت عائداً من لندن بعد أن أتممت دورة تدريبية على أعمال المصارف. وبعد إستشارة الميزانية، عقدت العزم على أن أقضي شهرين أو ثلاثة في العاصمة الفرنسية. نزلت في تلك الغرفة بشارع فوجيرار في الحي اللاتيني، قرب الأوديون. هناك مقهى صغير يطل على حديقة اللوكسمبورغ كنت أتردد إليه. أقرأ أحياناً وآخذ مذكرات، أو أجتمع بالطلاب السوريين ونطرق أحاديث متنوعة.. في هذا المقهى تعرفت بفتاة من الألزاس تدرس في كلية الطب. دار بيننا حوار عن بلادي، عن الرحيل، عن مقاطعتها. كانت عيناها الواسعتان أقرب إلى الزرقة، عندما يزدهر حديثي أرى فيهما حرارة وما يشبه أن يكون كائناً حفيا يقول لك: «زدني، ما أبدع ما تقول!..» مثل هاتين العينين وحدها تنساب إلى القلب.. وكانت شارلوت جرمانية من ناحية الأب لاتينية من ناحية الأم، وقد جمعت يعلم اللّه أجمل مافي هذين العرقين. رقة هذا وحرارته، وعمق ذاك وإستقامته.. ومنذ اليوم الأول لتعارفنا عرفنا أن ما بيننا لا يمكن أن يكون صلة عابرة. طوال ذلك اليوم كنت أحكي لها حكايات من بلدنا.. رويت لها أساطير شعبية لملمتها من رحلاتي في سورية. حكيت لها حكاية الأمير الذي أغضب الساحرة فأحالته بتعاويذ ورقى كثيرة جرواً صغيراً في قصر حبيبته الأميرة الصغيرة.. ووغنيت لها الأغنيات الحزينة التي كانت الحبيبة تغنيها

لجروها المسكين فتتلألأ العبرات في عينيه ويهرّ بين يديها ويتمسح بذيل ردائها..

ولما هبط الليل، انتهى بنا المطاف على أحد أرصفة السين، بين جسر سان ميشيل وكاتدرائية نوتر دام دو باري، ومعنا قنينة هيفاء من النبيذ الألزاسي، وود يبتدىء بأولى كلماته، ولكنه قوي.. بوهيمي ولكنه.. يعلم ما يريد.

جلسة الأرصفة هذه إنتقلت إلى غرفة الفندق. ما أقول؟ لم أقل لشارلوت شيئا.. كنت آخذ ذراعها وأسير بها حيثما شئت. عند باب الفندق أحجمت لحيظة أقصر من إرتداد الطرف، فلما سألتها عما بها قالت متحيرة:

- ولكن.. ألنا أحب ؟

فدفعتها دفعة متلطفة ولكنها حازمة:

- تعالي، ستحبين، ستحبين كما لم تفعلي من قبل قط..

غرور الفتوة !

في الغرفة الصغيرة جلست شارلوت تتصرف كأنها في بيتها، كأنها ربّة البيت.. حتى بدا لي كأن الغرفة لم تكن يوما إلاّ بها.

صنعت لها شاياً. لم نَنَمْ. تلامحت أضواء الفجر الأولى، والفجر الصيفي في باريس مبكر، ونحن ملتفّان في غبشتين من الأضواء والعاطفة لا تصفهما الكلمات..

وأفقت في اليوم التالي ضحى. كانت الغرفة قد مرّت بها لمسات من يد حفية فأدخلت عليها رونقاً أنثويا تكاد تشمّه. الكتب على الرفوف التي تحف بالسرير قد نسّقت، عدة الشاي عند المغسلة مرتبة، وقرب الموقد الكحولي الصغير علبة كبريت. المنضدة مرتبة إلاّ ورقة واحدة موضوعة على نحو يلفت النظر. أخذتها.. كانت كلمة من شارلوت، لا أزال حتى الآن احتفظ بها «يا حبيبي الصغير، كنت على صواب، أنت تعرف نفسك حق المعرفة. هأنذي عاشقة، عاشقة حتى لبّ العظام وسأظلها حياتي..

هل أنت ملم بكل تفاصيل الكون الرحيب الذي فتحت عيني عليه أيها المعشوق الساحر ؟ أنا لا أسألك إلا أمراً واحداً. أدلّ عليّ وازْه ما شئت، ولكن حبّني قليلاً. أنا ذاهبة الآن إلى الكلية.. ترى هل أستطيع أن أفهم كلمة مما سيلقيه الأساتذة؟ لا أظن.. حاول أرجوك أن تأتي إلى قهوتنا الصغيرة ظهراً. إذا لم تأت أعلنت الصيام حتى ألقاك. أضمك إلى صدري بكل قوى حناني وحبي، شارلوتك».

«حاول، أرجوك»! أأنا في حاجة إلى رجاء؟ ما كان أقدرني على اللحاق بها حتى آخر الدنيا. عند الظهر صحبتها إلى مطعم تحت الأرض في شارع مونبارناس، مطعم غال، هاديء أضواؤه تتشلل من فوانيس في الزوايا ذات ألوان وديعة. من مكان ما تنبعث موسيقى ناعمة.. وعَمّرتُ المائدةَ بألوان من الطعام أردتها فاخرة، ونبيذ معتق. كنت أستمتع برؤيتها تأكل. اللقمة الصغيرة ينفتح لها الفم الململم نصف إنفتاحة، والأسنان تكاد تضيء والحديث خافت.. أستمتع برؤيتها أشد من إستمتاعي بما آكل. أكاد أستشعر دبيب غذائها في عروقي أنا، ولا أصدق أن هذه السمفونية من الحسن لي، لي أنا.. يا حبّي !

بعد أيام..

بينما شارلوت تتوسد ذراعي في غرفتنا وترفع إليّ عينيها الواسعتين المتبتلتين فأغوص في بحيرتهما الساجية المتلألئة.. اندفع إلى شفتي سؤال لم أملك حبسه:

- هل عرفتِ قبلي رجالا كثيرين ؟

فأجابت ببساطة مذهلة:

- واحداً.

- من هو ؟

- فتى من الألزاس كان خطيبي.. وجدتني، بعد بضعة أشهر، لا أحبه..

- إذن كيف استسلمت له؟

كيف استسلمت؟ إنها لا تدري. مثل هذه قد تحدث نتيجة فضول طفولي يمسك بتلابيب المراهقين.

قلت محزوناً:

- فضول! ولكن، يا حبيبتي الصغيرة، أنت كنت عذراء فلم تبقي إياها. أكنت تدرين أي كنز تضيعين؟

لبثت لحظة مديدة لا تجيب. خيل إلي أن صراعاً ينشب في نفسها.. وكانت قسمات وجهي سبب هذا الصراع: إذا قالت إنها لم تكن تدري فهي تخشى أن أظن الظنون بتربيتها.. وأما إذا كانت تدري فكيف ضيعتْ ؟

- قالت:

- لا أد... بل أدري.

- طيب أرو لي التفاصيل.

روتها.. أنا نفسي رأيتني لا أدري. الحكم هنا يحتاج إلى معرفة أشمل، أعمق، أشد صميمية بأوروبا الوجدان لا بأوروبا العقل..

وأنا الآن أفكر في ذلك كله، أذكر ملتاعاً كيف إعتكر صفاء حبيبتي، كيف داهمها الذعر بعد الطمأنينة،وهي تتلعثم باعترافها أمام قاضيها المقطب القاتم الذي كنته. كنت ليلتها أعمى، مجنوناً.. أسمعتها كلمات أستحي من تذكرها. لم تجبني.. كانت ترتعد في حرقة وتنتحب صامتة.. وأنا مندرج في زوبعة من الغيظ والغيرة والجنون.. فلما ثبت إلى نفسي قليلاً ضممتها إلى صدري.. شددتها إلي أحبسها بكل مافي ذراعي وحبي وحزني من قوى.. وعادت شارلوت العزيزة، شارلوتي الباهرة إلى صحوها الجميل.

قالت متوسلة:

- غفرت !

قلت:

- لا نعد إلى هذه القضية أبداً. موافقة ؟

- موافقة، أرجوك يا حبيبي.

وإنقضى يومان أو ثلاثة في رغادة.. لم يكونا أربعة أيام، أنا واثق.. وإذا الغرفة الصغيرة تشهد فصلا آخر مثل ذلك: استعدتها التفاصيل، فروتها صادقة، مخلصة، معتذرة.. تمنيت أن تكذب عليَّ، أن تنكر إعترافها السابق، أن تقول إن طارئاً... ولكنها لم تقل.. وجننت أنا مرة أخرى !

وجرى الفصل الثالث بعد فترة أقصر من سابقتها.. كانت نائمة فأيقظتها معتذراً. عم أعتذر ؟ إنها راضية بأن تنتزع من نومها قبيل الفجر مع أن عندها درساً في الثامنة. تنتزع من فراشها فلا تكاد تفتح عينيها حتى تبتسم إبتسامة زادتها اليقظة غير التامة رقة.. ولكن ماذا يريد هذا الساهر الأشعث! إنه ليس ساهراً بل مؤرق مسهد.. لقد فاته تفصيل واحد من قصة إستسلامها.. وعاد الجنون الفظ!

شهران في هذا الجحيم. عدت لا أرى من باريس إلا مأساتي.

شهران سأظل أذكرهما موجع القلب.. وكم أود ألا تعاودني ذكراهما. أين أنت الآن يا حبيبتي الصغيرة؟ لقد هجرت باريس فجأة. جارتك في غوبان قالت لي إنك لم تتركي عنواناً. رحت أسأل في كلية الطب فلم أعد بنبأ اليقين. في ديوان الكلية قالوا لي أنك حصلت على مصدقة. كتبت إلى ستراسبورغ فارتدت رسالتي خائبة.. «المرسل إليه مجهول الإقامة» إن ستراسبورغ عاصمة الألزاس ولكنها ليست الألزاس كلها! لهفي، هل غيّرت الجامعة حتى تتخلصي من تلك المصيبة التي رماك بها القدر في شخصي؟ أنا يا حبيبتي مريض، ومرضي ربما تسأل عنه أجيال بعيدة ومع ذلك لا تزال في عروقي.. لقد كنت طاهرة،نقية، محبة بينما كنت أنا عكراً، تسرب المرض إلى عظامي. كنت تقولين لي: « إذا هجرتني تركت الطب إلى الرهبانية. وإنك لتفعلين. أنا أعلم أن ما أفضتُ به خليق أن يوصد قلبك من دون الناس جميعاً. تلك الأفاضة كنت ترين أثر يديك في تفجيرها، فأيقنت أن أحدنا قد خلق للآخر.. ولكنك لم تدركي أن بعضها، ربما أكثرها، من صنع الأبواب الثقال الغلاظ التي كانت موصدة على أرواحنا.. حتى إذا ما تساقطت في

جوكم، إنطلقنا نحن أعنف ما يكون الإنطلاق، كالسيل العارم، نهيب بالناس: «هذه بيادرنا التي لم تمس، فاغرفوا ملء اليدين!».. يا حبي! لقد خلق أحدنا للآخر حقاً، لولا هذه العلة التي شردتني فأصبحت واحداً من هؤلاء المضيعين الذين تسميهم باريس «كلوشار». هل تذكرين يا حبيبة؟ كنا نتخذ مجلسنا قرب مراقدهم تحت الجسور، ونجاذبهم الحديث في بعض الليالي ونتكلم على ظاهرتهم في ليال أخرى.. وأنت لا يخطر لك على بال أن تتقرّي الكلوشار الكامن فيَّ! .

يا واحة عمري! أأنا بعدك قادر على أن أحبَّ؟ ربما! ولكن ما أوقن بقدرتي عليه يقيناً هو أن حبيبتي يجب أن تكون نقية كالأطفال، لا نقاء الروح وحده كما كنت أنت، بل نقاء الناس في كل بلاهتهم وعطالتهم!

* * *

١٢

يا للخواطر القادرة ! إستغرقتني حتى صبغت الحديقة الشامية المشمسة بلون باريس الوارف.. كانت الرؤى من الحدة في حيث خيّل إلي أني أرى أحد أثواب شارلوت. ثوب أصفر له زنّار عريض وثلاثة أزرار تحت القذال إمتزجت صورتها بالزغب الخفيف الصاعد من الظهر.. ذات يوم كنت أنتظرها في حديقة مونسوري قرب المدينة الجامعية. حديقة كنت أحب مرتفعاتها المزروعة بالعشب الأخضر الندي وأشجارها المعمرة الغريبة. إن فيها أرزة من لبنان، وشجرة خطمية من سورية. ذلك اليوم لست أدري لماذا بدا لي أن الجو إصطبغ بالبنفسج. أينما أنظر أرى هذا اللون.. حتى العشب ضربتْ فيه عروق، لمسات لها زرقة السماء في بلادنا.. فجأة من قلب هذا اللون الغالب حتى على خواطري، برزت أمامي صفرة نرجسية عجبت لها باديء الأمر، ثم هززت رأسي وأعدت النظر كرة أخرى وإذا شارلوت واقفة ترنو إليّ رنوة مشرقة طويلة..

في جلستي الشاردة على مقعد حديقة المزرعة كان ما أخرجني من خواطري وقع أقدام جاءني عن يسار.. هنا أيضاً إختلط الواقع بالخاطر.. إلتفت وإذا سهام مقبلة. كنت أجلس في مذهب الحديقة الرئيسي الذي يصل بين شارعين. كل الناس يسلكونه، ولكني توهمت في لحظة خاطفة أنها مقبلة علي.. وسرعان ما تبينت خطئي، لأن سهام حيّت، وعلى الرغم من نهوضي لاستقبالها، خطت خطوة أو خطوتين في إتجاه المخرج الآخر. غير أن حركة يدي هي التي استوقفتها. كنت واقفاً أبسط لها كفي متهللاً، خجلاً بعض الشيء. وصافحتني، فقلت:

- ألا تجلسين ؟

جلستْ. لم تستند إلى ظهر المقعد. كانت تلتفت نحوي. وجهها هنا أزهر، حي الألوان، غيره في مكتبنا. لعلها صفرة الأوراق هي التي تتسرب إلى كل شيء.. في شمم أنفها ما يشبه التساؤل المتعجب. وأما شفتاها ففي إنفراجتهما الدائمة معنى يحير.. أهذه الحمرة الطبيعية الغريبة هي السبب؟ وأنا الآن لا أستطيع أن أتأملها من غير حرج، أرى دقائق لم أنتبه إليها في اللقاءات السابقة. كانت عيناها حوراوين. وأهدابها جعداً، وفي الجانب الوحشي من العين خط يمتد كأنه الكحل. الحاجبان بدوا أكثر كثافة مما كنت أظن، ولكن كثافتهما في الإتساق العام تزيد من جمالها. الفم ممتليء بليل. الشعر ضفيرة واحدة من الخلف، وأما من الأمام فطرّة متناثرة على الجبين في فوضى حلوة..

وأضفتُ:

- على ألا تكوني مشغولة.

- لا أبداً.

- كنت في نزهة ؟

- لا، كنت مدعوة عند صديقة، وقد تركتها الآن إلى البيت.

- بيتكم هنا ؟

- نعم هنا قريب. وراء هذه الساحة. سطح البناية التي نسكنها يطل على الحديقة. هل تأتي إلى هنا كثيراً ؟

- كنت أتشرد بين البساتين.. العشب والهدوء والربيع.. حتى الخواطر تزدهر في مثل هذه الأيام. يضوع منها عرف هانيء. النفوس الحزينة تتعزى أيضاً.. تحلم بربيع أبقى !

كانت عيناها تلمعان بدهشة أظهر. قالت:

- هل أنت حزين ؟

كان في صوتها غنّة حنون، شيء أمومي. قلت وأنا أحاول الإبتسامة:

- أيحق لي، حتى ولو كنته، أن أجيب بنعم ؟

- ولم لا ؟

- من يدخل المحراب يخشع، يتبتل، ولكنه لا يفضي بأحزانه.

ثم أن الإفضاء بها يحبسها بين جدران اللفظ. وأما إذا تركت في رحاب الصدر فإنها تظل فضفاضة، غامضة حلوة..

فارتسمت على جبهتها بضعة خطوط.. وقاربت بين حاجبيها مقطبة مفكرة.. ثم لم تلبث أن إنبسط وجهها في تضاحك راض وقالت متماكرة:

- أنا معك، ولكنه داخل المحراب يستطيع أن يقول ترنيمة.. يحمّل النغم ذاته شكاته.. الجدة في أحد كتب غوركي تحكي لربها حكايات.

- وماذا لو أن الشكاة طويلة طول الدهر، تحتاج روايتها إلى ألف ليلة وليلة ؟

قالت ضاحكة:

- ننتظر الليل إذن ؟

كنت قد أفقت تماماً. ووجدتني متشبثاً بهذه الجلسة غير المتوقعة، فقطعت حديث التبتل والشكاة وفاجأتها بهذا السؤال:

- سهام، هل أحببت ؟

تأملتني متفحصة لحظة وأجابت:

أحببت.

- من؟

- الآخرين، الناس. أنا لا أمل من تأمل الناس، أنظر إلى وجوههم وأصنف من معانيها حكايات.

- غريب !

- وما وجه الغرابة؟

- طيب، قد نعود إلى هذا الأمر فيما بعد. ولكن اسمحي لي الآن أن أذكرك بحديثنا الذي لم يتم هذا الصباح، هل تذكرينه!

- أذكر!

- كنت أسألك عن العدالة. وإذا لم تخني الذاكرة فقد أجبتني بأنها أمنية ظهرت أول ما ظهرت مع العمران. والدليل أن إنسان الغاب لم يكن يفكر في العدالة.. فهل لي أن أسألك متابعة البحث؟ ولا أكتمك، قبل أن أستمع إليك من كل قلبي أني عجبت من أجوبتك.

لم أكن أظن أن فتاة من عندنا، وفي سنك قادرة على مثل هذا التفكير.

قالت باسمة:

- أخشى أن تكون قد أعدت صياغة أجوبتي، أن تكون أبدعتها من ثقافتك الشاسعة.. وأحب أن أقول لك مبدئياً أن المرأة لا تحب التجريد. أمام نادي الضباط بياع كتب ومجلات قديمة أنا زبونته. أمس إشتريت من عنده بضعة أعداد من مجلة الرسالة التي كانت تصدر في القاهرة قبل الحرب الأخيرة.. قرأت في أحدها حادثة طريفة: أثناء محاضرة كان يلقيها أحد الأساتذة عن شوبنهور في لندن سأل المحاضر المستمعات: ماهي أمنيتهن؟ فأجابت فتاة صغيرة: « أن نستريح من التفكير».. وما دمت تبحث عن العدالة فلأجبك بمثال: حينما كنت في صف السرتفيكا كنا نقرأ تاريخ أوروبا، ولا سيما فرنسا، وأتعجب من أن يجرؤ بعض المفكرين على الإيمان بنظرية الحق الإلهي للملوك. من أين جاءهم هذا الحق؟ وكيف هبط على ملك أبله، أو ملك درويش مثل لويس السادس عشر؟ لو أن هذا الملك ولد ابن خباز أو لحام لكان، في أحسن الحالات، تاجراً صغيراً في قرية...

- إذن فأنت تعتقدين أن الملكية الخاصة تنفي إمكان العدالة...

ولكنك في أحاديث الصباح ذكرت المحبة..

- أجل. هل يستطيع أن يعدل بين الناس حاكم لا يحب الناس؟

- في رأيي أن عليك أن تضيفي عنصراً أخيراً هو الحرية. الحاكم المكبل الوجدان أو اليدين لا يستطيع أن يعطي إلا أحكاماً..

سجينة قالت شبه هامسة:

- صحيح وأنا أضيف شيئاً آخر: الشاعرية واللحن. العدالة إتساق نغمي. إذا قدرنا على التسرب إلى وجدان الأشياء، إلى الإنسجام اللانهائي في لون الوردة وأرجها وحتى شوكها.. الظلم نشاز.. وهذا التسرب لا يتسنى إلا للمحب الواجد!

يا سهام العزيزة! أين كنت مختبئة يا فتاتي في هذا الزحام من تسريحات الشعر والأرواب الهفافة والتبجج والغثاثة التي نحتت في ذهني مثال المرأة في بلادنا فعدت غير قادر على أن أتصور لها مثالاً آخر.

المجتمع الذي ينشد الإتساق اللانهائي.. المحب الواحد... أأنا في حلم! قلت في مثل همسها:

- أو تلمين بكل الجمال الرحيب الذي يشع من أقوالك هذه؟

أنا لا أزال أتساءل عن الينبوع الكريم الذي تغرفين منه!

فابتسمت وبدت كأنها تخرج من حلم وقالت باسمة:

- وحتى لو أن ما قلته ينطوي على بعض القيمة فأظن أن الحياة هي التي تعلمنا.

- هل تغفرين لي، ولكن ما عسى أن تستطيع فتاة، وفي مثل محيطنا المغلق، أن تتعلم من الحياة العريضة؟

- قد يكون هذا صحيحاً من ناحية الكم..

- هل تضربين لي مثلا، من حياتك؟

- أستطيع. والأرجح أنه غير مطرف. أب يتوفى عن طفلتين وأمهما العزيزة المسكينة، مخلفاً لهن راتب تقاعد غير سمين وثلاث دور. أخوه يصبح وصياً على القاصرتين، ولكنه وصي معيل، أسرته كبيرة وهو فقير.. فتمتد يده إلى ريع الدور ثم إلى إحداها.. وعندما تبلغ كبرى البنتين سن الرشد تنقذ ما يمكن انقاذه فتشتري هذه الشقة هنا، وتروح تكدح من الثامنة عشرة حتى الآن لتوفر للأسرة حياة ميسورة..

كنت أصغي بكل جوارحي، انتبه إلى الوجه الجميل، إلى رنة الصوت. حاولت أن التقط نبرة صعيفة واحدة فلم أستطع كان الصوت بريئاً، صافياً، فسيحاً، مواسياً إذا شئت.

وأضافت ضاحكة:

- أمي تسميني السيد سهام.. تعتبرني رجل البيت. ومأأثار إعجابك من حكمتي يعود إلى أني طعنت في السن.

سألتها:

- هل تقرئين كثيراً؟

- أقرأ! ولكن القراءة عندي تشبه أن تكون آفة. في صغري كان لنا جار مدرس، عنده مكتبة عامرة. وكانت ابنته - هذه التي تغديت عندها اليوم - رفيقتي في المدرسة تعطيني منها روايات مغامرات، وكتباً للأطفال عوّدني ما فيها من تشويق على القراءة السريعة. أشعر أحياناً أني أقرأ ولا ابتهج مثل مدمن التدخين، وقد أدخل المطبخ باحثة عن صحن سيكارة أو كأس ماء فأنتهي إلى الصحف المفروشة على الرفوف! ولكن.. ياربي. جلستنا كلّها انقضت في الحديث عني.. ألا تحدثني عن نفسك؟

لم أفلت سهام إلاحينما غابت الشمس وتركت في الغمامات المتناثرة في الأفق الغربي حُمرة مُتَشَهّبّة مسالمة. كنت أستعيدها بعض الجمل كأني لا أصدق أنها هي التي تنطبق بها، إن قراءتها هي التي دفعتها إلى الشفتين. ولكن البساطة التي تتحدث بها كانت لاتفتأ تعيدني إلى حقيقتها الخلابة.. ورويت لها طرفاً من حياتي.. وسألت نفسي بعد أن ودعتها عند باب بيتها: «ما عسى أن يقول الناس عن كل هذا العالم الأرحب إلا أقاويل. أمثلها يهوي إلى حضيض الابتذال ويكون له ماض؟!».

ولكن الجلسة كلها كانت تشبه اعصاراً مفاجئاً قصيراً، أخذني بغتة.. فلما هدأ رأيتني مرة أخرى: «ماذا لو أن لها ماضياً؟ لو أن فضولها دفعها ذات مساء بين ذراعي فتى مائع من ذوي القبّات المنشاة وربطات العنق

الطليانية والبناطيل ذات الأكمام من ستة عشر سنتمتراً، والأحاديث عن الغزوات الغرامية مع سهـــ.. وأحسست شيئاً يقبض على حنجرتي ويكاد يخنقني وغضباً يجرفني جرفاً لاهوادة فيه.. يارب اصرف عن قلبي هذه الخواطر. هذا مستحيل! فتياتنا لسن من الغربيات في شيء. هؤلاء لايتزوجن إلا بعد أن يكون لهن ماض. الزواج خاتمة البحث عندهن.. وأما فتياتنا فتكاد القبلة المسروقة وراء باب الدار تخلّف على شفاههن ميسماً أبدياً.. مستحيل! إن سهام عالم وحدها.. ولكن.. لا، أوهام! أصلاً ذات الماضي لا...

*　*　*

١٣

تشردت طويلاً. تسكّعت بين الأحياء حتى الجسر الأبيض ومنه سايرت خط الترام حتى آخره في المهاجرين.. هنالك جلست في الساحة المطلة على الربوة والمزة وطريق بيروت. آثرت أن أصرف فكري عمّا مر بي أثناء اليوم. عندما تحتشد الانفعالات علي أقبض عليها بقوة وأخبئها في مكان ما من قلبي. أنتظر استقرارها، سكون فورتها حتى يتاح دراستها ووعيها.. في مثل هذه الأحوال أفضل الإسترخاء الروحي. أتأمل الليل، الأضواء المشعشعة في الضواحي، المتسكعين المتوحدين في آخر الخط.. دمشق تتسلق الجبل ظريفة رشيقة.. وعندها تلتقي الصحراء بالخضرة. متى ولدت هذه الصبية العجوز؟ وماذا بقي من دمشق الأيام الغابرة؟ بضعة أبواب.. أضرحة علقت عليها مصلـــحة الآثار لوحات من المرمر« ممنوع لصق الإعلانات - بناء أثري».. أهذا كل ما تبقي من روحها القديمة، أم أن هذه الروح لا تزال كمشعل الرياضيين يسلمها السلف للخلف وسيظلان يتبادلانها!.. إذا جعلت آخر دار في حارة الأكراد وراءك، وتابعت تصعيدك في الجبل، قادتك خطاك إلى مزار ناء كأنه قنة عقاب، يظهر منه السفح صغيراً نملياً.. في هذه القنة يستقبلك شاب، في العشرين أو الخامسة والعشرين، فرحاً بك فرح التائه في الصحراء المنقطعة إذا آنس أقدام إنسان قريبة.. ثم إنه يطوف بك أرجاء المكان ويسرد لك ألواناً من الحكايات ترن خلالها أسماء أولياء وصالحين ومجاهدين، أسماء تعرفها وأخرى تسمع بها لأول مرة.. وهنا قتل قابيل أخاه هابيل، وكانت هذه الصخرة شاهدة على الجريمة الأولى فاغرورقت بالدموع. انظروا. إنها لا تزال تبكي منذ ذلك اليوم... صحيح. صخرة معلقة في سقف مغارة تنزّ كل لحيظة دُميعة!

حوالي الساعة الثامنة والنصف أخذت الترام إلى بيت أختي كانوافي الصوفة الكبرى. وأمي هناك.. في الصدر عربة طفل أنيقة. وكان مالك مستلقياً في مقعد مريح، يدخن هادئاً باسم الأسارير.. وأختي جذلى مطمئنة كأنها وضعت، يومها ذاك، مولوداً منها معافى جميلاً.. رحبت بي وقبلتني على عادتها قبلة حارة ذات رنين.. وراحت تحدثني عن طراز غرفة نوم أمل التي ستنتهي خلال الأسبوع القادم.. وأطلعتني على الأشياء التي اشترتها. عربة بنابض، تتدفع الخيل فيتطاير من حوافرها شرر وتضج أجراس وأبواق.. أرواب صغيرة، مناديل.. وعلى المنضدة الصغيرة في وسط الصوفة رأيت كتباً عن تربية الأطفال وتغذيتهم.

وجاء هاشم. إندفع لتوه إلى عربة أمل وأخرجها، وأختي تتوسل إليه أن يدعها، ولكنه لا يسمع شيئاً:

- وحقّك يا كتاب اللّه لن تموت.. شف، شف.. وتضحك سبحان اللّه العظيم أهم، تعالى يا عين خالك، تعالى تسلمي لي. شف، شف.. بدأ خدها يأخذ لون الورد.. واللّه أحسن من أولادي العفاريت، قسماً باللّه أولادي، بسم اللّه الرحمن الرحيم، مثل الجان.. هدي لا تبكي أبداً.. اضحكي حبيبتي لخالك. اضحكي له

وقال له مالك:

- أرأيت! هذا هو البنيان الحقيقي، لا بنيانك أنت. أنت ما تصنع؟ تشتري قضبان حديد وأكياس إسمنت وسيارات بحص تخلطها بعضها في بعض فتصعد لك بناية يسكنها الناس ولكنها تظل حديداً وإسمنتاً وبحصاً.. يعني تظل جماداً.. وأما نحن فنحول الجماد إلى ورد، إلى نظرة ساحرة، إلى إبتسامة..

فاحتج هاشم:

- هذا غير صحيح. هل رأيت في عمرك كله عامل بناء سميناً. إنهم كلهم نحاف رشيقون.. خصور لطيفة.. العمل في البناء يشبه تربية الطفل إلى

حد بعيد.. الأساس طفل يرضع والطابق الأول ولد يذهب إلى المدرسة الإبتدائية..

وقالت أختي ضاحكة:

- والملحق الذي تحرقه الشمس ويخنقه ما تنفثه المداخن، طالب جامعة..

قال هاشم:

- واللّه صحيح. طالب جامعة، هذا هو المثال. تصور آلاف الصفحات في الحقوق أو الكيمياء أو الأدب..

وقالت أختي مفكرة:

- في الأدب.. حسين ألا يوجد أدب للأطفال عندنا؟ في أيامنا لم يكن إلا المنفلوطي، يقرؤه الأطفال والمراهقون والشيوخ.. أنا أفكر في إعداد مكتبة لأمل منذ الأن، ما قولك؟

قال هاشم:

- من الآن؟؟ واللّه يمكن معك حق. أنا لم يتح لي أن أقرأ تغريبة بني هلال وسيف بن ذي يزن وألف ليلة وليلة إلا في سن متأخرة.. مع أن هذه الكتب يجب أن تقرأ باكراً. أثرها يختلف. مالك، قل لي أنت الذي كنت تسخر من البناء أليس عملاً عظيماً أن نهيء لكل أسرة منزلا مستوفياً الشروط الصحية؟

- أنا أعتقد يا سيد هاشم أن أجدادنا كانوا أفهم لطبيعة بلادنا من وجهة النظر المعمارية منكم الأن.. ماذا فعلتم؟ نقلتم الطرز الأجنبية التي هندست لبلاد إقليمها مختلف عن إقليمنا كل الإختلاف.. إن الدك الذي كانوا يبنون به..

- اسكت.. هذه نظرة نخرة أكل الدهر عليها. إذا كانت الأبنية الحالية تثير إنتقاداتك لأنها تجارية، فليس معنى هذا أن طرازها لا يلائم طبيعة بلادنا.. نحن نستطيع أن نستفيد من الطراز الأجنبية ونجنبك أسواءها بقليل

من الإنفاق.. أعود إلى فكرتي: يجب أن تنعم كل أسرة بمنجزات المدينة الحديثة.. وهذا لا يكون إلا بتحديد النسل، النسل، لن نسمح بزيادة فرد واحد قبل أن نؤمن له شروطاً حياتية لائقة إنسانية..

وقال مالك باسماً:

- بدأ صاحبنا يغرب ويشرق.. أقلعَ..

ولكن ملاحظة مالك لم تفت في عضده. كان قد أقلع حقاً..

واستمر يقول:

- مانحن؟ نحن في كون من النجوم يشبه حبة العدس... فيه مئات الملايين من النجوم، قطرة، مئة ألف سنة ضوئية.. هذا كون مجرتنا المرئية.. وأما خارج هذه المجرة فمجرات وأكوان لا تحصى. أقربها إلى مجرتنا يبعد ثمانمئة وخمسين ألف سنة مما تعدون وأبعدها يقع على بعد مئة وأربعين مليون سنة.. العمر لكم ولأمل ولأحبابنا... وهي جميعاً تتباعد بعضها عن بعض بسرعة تبلغ عشرين ألف ميل في الثانية أو أكثر.. واللّه أعلم!

وقالت سميحة:

- بعدت عنا قليلاً؟

- أنتم الذين بعدتم. من قال لكم ألا تلحقوني.. لا، أنا هنا لا أمزح يا أولاد.. معنى هذه الأكوان والمجرات أنه ليس من الممكن أن تتفرد أرضنا بشرف وجود الإنسان. أي أن في هذا الكون المحدود باللانهايات المذهلة من كل جهاته يحتمل أن تكون ملايين الملايين من الأرضين والشموس والأقمار.. ولماذا كل هذا؟ ويقال أن نجوماً أخرى، أكواناً أخرى تلد كل لحظة؟ ما هذه الآزال والآباد؟ وما وما نحن؟. في بعض الليالي يركبني ما يشبه جنون أخي حسين، فأهيم بين البساتين ويكون القمر عالياً في السماء، يخرج من غيمة ويدخل أخرى وينشر ألواناً لا حد لعذوبتها.. ولكني أنا أطأطيء رأسي.. أخاف من لا نهاية الكون فأركض إلى آخر بناية أعمل فيها لأحتمي من خوفي.. ويقال بعد هذا أن على الأرض أناساً يبغضون ويكنزون الذهب ويكذبون.. أكاد أجن!

وقال مالك:

- تكاد!

ثم التَفَت إلى أمي مداعباً:

- أحمد اللّه يا أمي على أن سميحة لم ترث لوثة الأسرة العامة.. لا تؤاخذيني!

فهتف هاشم:

- هراء! أنت نفسك تساءلت مثل هذه التساؤلات.. قد تكون أسكّتها ولكنك تساءلتها، لا تنكر! لو لم تفعل لما أعطيناك سميحة قط...

في هذه اللحظة رن جرس الباب فقامت أُختي.. وارتفع صوتها من هناك وهي تقول:

- تفضل، أدخل.

ودخل الصوفة رجل طويل القامة، عريض المنكبين، أقرب إلى الشقرة، يجر وراءه بنتاً صغيرة تبهرك، من الوهلة الأولى، تقاطيع وجهها المتناسقة على نحو نادر.. وجلس الرجل على استيحاء، وإنصرفت أنا إلى تأمل البنت. أحد عشر عاماً أو أكثر قليلاً.. عينان خضراوان، شعر بجديلتين أسود مع لمعات كستنائية.. كانت بادية الحزن واقفة تلتصق بالرجل.. وكان حذاء الرجل ثقيلاً رثاً، مرقعاً، ولكن صدريته تنم عن أنها كانت غالية، كانت فيها خيوط من قصب...

وسأل مالك:

- من أين الأخ؟

فأجاب الرجل:

- من الجبل.

- ها، من أجل البنت، أي نعم، أهي بنتك؟

- نعم يا سيدي.

- والمبلغ الذي اتفقت عليه أنا وصديقنا الدكتور وحيد يعجبك: ألف وخمسمئة لخمس سنوات؟

- نعم.

- لاحظ. أن العمل بسيط. ستهتم ابنتك.. ما أسمها؟

- فاطمة.

- كل العمل لا يتعدى العناية بإبنتنا الصغيرة هذه (يشير إلى عربة أمل)..

- خير إن شاء اللّه. (وبعد فترة صمت) واللّه يا دكتور نحن ما لنا عادة.. نحن لا نؤجر ولا نبيع. يقولون إننا نبيع بناتنا.. هذا ما هو صحيح.. من يبيع ولد قلبه؟ أنا رجل فلاح، وعندي أرض.. وفاطمة كانت في المدرسة.. وصلت إلى الصف الخامس. اسألها إذا شئت.. ولكن الحال عندنا في المنطقة..

وإنقطع فجأة عن البوح بشكاته، ولزم الصمت من جديد ثم عاد يقول:

- ولولا أني سمعت عنكم كل خير لما.. اللّه يلهمكم أن تعاملوها.. المسألة أني أحبها فاطمة غالية عليّ.. مالك عليّ يمين أغلى من عينيَّ الإثنتين..

صمت مرهق. ويقول مالك أخيراً:

- لا يكن لك فكر يا أخي، اعتبرها دائماً في بيتها.. نحن إثنان.. ونرجو اللّه أن يتيح لنا تعليمها أيضاً.. لا يكن لك فكر. سميحة.. هل تشرب قهوة!

وشرب الرجل القهوة ثم نهض.. كانت عيناه نديتين.. ولم يأل مالك جهداً في طمأنته. ولما خطا خطوة نحو الباب بدرت من فاطمة حركة مفاجئة، تشبثت بفضل سرواله بقوة ثواني معدودات ثم أفلتته من نفسها بمثل الحركة المفاجئة الأولى.. وأما هو فقد توقف حينما أحسَّ بحركتها.. وإذا أفلتته أطرق كلاهما لحظة مديدة...

* * *

١٤

ماذا أريد! لا أدري. أتمنى أن أكون إهرامات رأت منذ البداية، ونرى حتى النهاية. كل هذا؟ أتمنى أن يقرأ لي إنسان رخيم الصوت.

لا، لا أريده رخيماً. قَلْوت الغناء. غناؤها ينتزعني من إنسانيتي البسيطة العادية ويرميني قدام باب معبد، شحاذاً قذراً باسمال وهلاهل، ومزِقَ حتى في روحه. أريده صوتاً فيه شجو، يقرأ لي أشعاراً كلّها إبتهال، أشعاراً تضوع منها المحبة، مثلما يضوع الأريج الوديع من أجراس البنفسج الصغيرة. وقد أستحي أن أقول هذا، أن أكتبه.. أهي حال من الضعف؟ إذن أين هي حال القوة! إذا كنت أحب أن ألثم الأصابع المتناسقة الأنيقة، أن تسمرّني الدهشة أمام ثدي بض، وردي الحلمة يطفح به فم صغير كزهر الرمان، فم حريص مزرور، أن أكون صينية كعك يتصاعد منها البخار، يستقبلني سرب من الأطفال في هزج ثاقب.

البارحة كتبت في دفتر يومياتي هذا الذي لا أجرؤ أن أسميه شعراً. أنه همس:

تنفّس الفجر
وخالج الليل شحوب
في الأفق الشرقي
وجرس صغير
ندي
من البنفسج

مال على جرس
وبائع الكعك اللطيف
قد غادر الفرنا
ترقص فوق رأسه
صينية
توَّجَها
غمامة رقيقة
رائحة الفرن
« كعك سخن»
البيت والأطفال
وولد يزقزق
جوعان
إن الحليب يغلي
لكنه لا يصبر...
وهذه النيران
والأنوار
وأنت
تملأ قلبي
كالأفق المزدهر
بالنور
بالصباح
تحية الصباح
بالحب والإشفاق وإبتهال

ينبع من جوارحي

يفيض حتى آخر النهار...

ولكن، أأنا حقاً أريد! أأحتمل!إذا وجدت ما ظننته متناغماً حتى مع الشوق، مع الحلم... ماهو إلا حجرة تعترض طفلاً راكضاً ما هو إلا نشاز.. أتراني أكون قادراً على أن أستمر، أن « أتراضى»! في هذه الحال العودة من البيدر الذي إفترسه الحريق! إن من إعتاد أن يترصد« صدوقية» الحلم يجن، يتمزق عندما تلطمه لا واقعية الواقع، النماذج، كانت على ضآلتها تكاد لا تصدق: بدأ يصحو، يفيق.. ولكن شطراً كبيراً منه كان في الخَدرَ، في الحلم لا يزال، وإذا هو وقد أبدى له حلمه الوحيد مهرجاناً للضوء والعطر والحركة، يرى أن ضبعاً قد دخلت عليه المسكن، ضبعاً لها شعر يقف مثل رؤوس الأبر... روى له أحد الصيادين مرة كيف يدخلون عليها الوكر. ليست الضبع جسوراً إلا في ليالي الشتاء القاسية الموحلة. طين مظلمة، ريح. وأما فيما عدا ذلك فهي «أم عامر». يزحف إليها الصياد ويمهر: « أم عامر هون وإلا ما هي هون». ويخرجها مكممة وينتظر العيد ليفرج عليها الأولاد. فرنك على الرأس.. وللأخوة سعر مخفض!

الفتى، في الضيعة: كانوا يلعبون المنقلة. هو طوال، عريض المنكبين، لايفكر في أنكر ونكير. لا يفكر حتى في أن الحبة، التي يبذرها في الأرض، جنين يخبيء سراً. إنه يبذر حبة القمح، يثبت البقرة أمام الثور بذراعين من فولاذ، يحمل مُهْر أحد الضيوف إلى السطح: «أي، أنت لا تريد أن تنزل عندي الليلة. تفضل سافر، خذ مهرك، وتيسر. نحن لم نقل لك ثلاثة أيام، عادة العرب. قلنالك نم هذه الليلة!» أجل يبذر، يجود، يمتلك أنثاه، يغتصبها أحياناً. أهذه مشكلات، تحتاج إلى تفكير!

وانتبه أحد اللاعبين فجأة إلى اليد الرحيبة. كان فيها خطوط مثل خطوط الفلاحة بعد الحصاد. راعه المنظر في ضوء فانوس الكاز. الأفكار هنا لا يحتجزها شيء. هذه الضبع كمنت ليالي عديدة.فتكت. قطعت الطريق. كأنها«

إستوطأت حائطنا». ويقولون: عندنا رجال، فتيان يحملون الأمهار إلى السطوح.. إن الضبع هنا، على بعد يسير من الضيعة. لم يبق إلا أن تهجم على البيوت.

- طيب إذا قمت وأحضرتها لك، الآن؟

- رهان.

- قبلت. وأذهب بالقبقاب من شأن خاطرك.

خارج المجلس كانت ريح تسلخ الجلود.

لم يغب طويلاً.

في المجلس ذاته تمددت ضبع مشقوقة الرأس. ولكن، كان. الفانوس مكسوراً ومنطفئاً: لَمَحَتْهُ، فبدأت تطبق خطتها المعروفة أدارت له مؤخرتها وجعلت تجرف الطين وتحصبه به بقائمتيها الخلفيتين، وانهمر الطين مثل زخ المطر مثل زخ الرصاص، وانكسر الفانوس. ظلام. ها هو ذا يقبع مطرحه مظهراً الرعب:« يا أُمي أكلني الضبع!» وتثب الضبع على حنجرته - الجزء النهائي من خطتها القاتلة -، ولكنه يقبض على إحدى القائمتين الخلفيتين. في لمح البصر وقبل أن يتاح لها أن تتقنطر فتنهش يده، كانت تلوح في الفضاء وتُضْرَبُ بها الأرض.

إن بلادنا لا تاريخ لها. وعلى الأخص ليس لها تاريخ فني.

الكتاب، الشعراء، كتاب المسرح -على ندرتهم- أكثرهم، كان يمكن أن يكونوا كل شيء إلا أهل فن. ما من أثر تسمع فيه قرقعة قبقاب جسور. في ليلة من ليالي كانون، والظلمة سور من الصقيع. ما من قصيدة تستحضر فيها نقله القدم في دبكة عرس، في قرية، والأعين إلى الشملات الحريرية والضحكات الناعمة التي تنساب من الطرف الآخر من البيدر. ما من أغنية تشم فيها عبق الخزامي وترى لون الإقحوان. قرأت قصيدة بالفرنسية لا تنسى: أم تراقب طفلها قدام باب البيت. والطفل في السادسة أو السابعة، يشد التيس ليربطه في حلقة تتدلى من جدار... القصيدة ترتفع

إلى ذروة الملاحم عندما يصور الشاعر بضربتي ريشة، الزَّهْوَ الذي يتلامع في عيني الأم حينما يقهر الولدُ التيس. القصيدة خلو من أية كلمة طبلية. ما من تفخيم. إن الشاعر يتحدث عن إبتسامة شعّت في العينين الرؤومين الملتفتتين إلى الفناء، بينما تدخل صاحبتهما إلى داخل البيت... هذا كل شيء!

*   *   *

١٥

كان عبد المجيد أقرب إلى الطول، أجعد الشعر، حيّ العينين، بادي الأناقة، خالياً من الملامح المغرقة في بلديتها. وهذا الخلو وحده أمارة على أنه يقرأ الكتب في بعض الأحيان. والحقيقة أنه يقرأ، ولكن يخطر لي أن قراءته - مثلها مثل كثير من هواياته الأخرى - يصح أن يقال عنها غائية: هذا الكتاب، هل ينفع في إدارة دفة حديث في مجلس مؤنس؟ وقد عرفته منذ أمد بعيد، مذ كنا في المدرسة الإبتدائية، وكنا نسكن زقاقاً واحداً.. ولما وصلنا إلى الثالث الثانوي مات أبوه، الموظف الصغير في وزارة الأشغال، فاضطر عبد المجيد إلى ترك المدرسة. وطرق أبواباً شتى بحثاً عن الرزق، لأن تقاعد الأب لا يجوز أن يسمى دخلاً.. اشتغل في مشغل لدرز الأحذية.، واشتغل في غسيل السجاد وبيع الملابس القديمة.. حتى إذا بلغ الثامنة عشرة تدخل أهل الخير من رفاق أبيه فوجدوا له وظيفة صغيرة في ديوان الأشغال.

كان عمله لا يعدو تسجيل بضع المعاملات الواردة من المنطقة وما أن ينقطع ورودها مع الضحى حتى تدور بين الزملاء أحاديث لا حصر لتنوعها، أحلام، مناقشات سياسية، صبيانية على الأغلب، تثاؤب.. الوزير يسافر آخر الشهر إلى جنيف الآذن اشترى خزانة ثياب بالتقسيط...

ولكن عبد المجيد، حتى في تلك السن. كان له عالمه البعيد من الديوان. لم يكن عالماً غنياً، ولكن كدحه اليومي السابق مدة أربع سنوات جعل الديوان ومشاغله متقلصاً، محصوراً، ضيقاً إذا أنت قارنته بما رأى وسمع في الديوان الأوسع، ديوان الناس.

ولم تنقطع صلات طفولتنا قط. كان يزورني في فترات متباعدة، ولا يكف، ما دامت الجلسة عن الأسئلة. في بعض الأحيان كان يستعير من عندي

كتباً في العلوم والإقتصاد وتلاحقه فكرة لا تنفك تتراءى في أحاديثه: «هل أستطيع أن أحسّن هذا القَدَر الذي أحياه؟» ولعل هذه الفكرة قد أصبحت خلال سنوات طويلة ديدنا. كنت أستشف جهاداً خفياً من عبد المجيد للإنطلاق من ماضيه، لدفنه في حفرة بعيدة القرارة... أناقته كانت تعبيراً عن جهاده ذاك.. وكنت آسف لذلك. أرى أن مروق عامل إلى الطبقة الوسطى، طبقتنا، أمر عادي.. ولكن قطع الصلة مع الطبقة العاملة شيء المؤسف. لأن من يعبر من الكادحين إلى صفوف الأنتلغنزيا يحب عليه ألا يقطع أمراسه الماضية.. وهذ ظاهرة تراها في الأدب. إن أدبنا أدب الطبقة الوسطى في الدرجة الأولى..

وقد تكون قصته مع جارته أقدر على توضيح وجهة نظري هذه، كان يلتقي، في زقاقنا القديم بها «هي».. وهي ضاربة على الآلة الكاتبة في إحدى الشركات. لا بأس بها، ولكنها سمينة، ليس لها عجيزة. وعلى وجهها سمات الفكر المحدود.. ربما يكون راتبها سبيلاً إلى حد من الرفاه يتيح لأولادها أن يتربوا في«الذكاء» الذي لم يتيسر لها. راتبان صغيران يصيران راتباً محترماً. ولتكن محدودة الفكر.. فالمرأة الذكية في بلادنا مثل المجنون الذي يحمل سلاحاً. ذكية معناها أنها قادرة على أن تبرر سقوطها، على أن تتلاعب به وتزينّه.. في السينما قصص عن نساء تمرغن في الوحل لأنهن أردن أن يعرفن.. ضمة، تنهدة، يدان تمتدان إلى الصدر وما قيمة هذا كله؟ عبث مراهقة لا يلوث الروح!.. لا، قد يكون هذا النحو من التفكير مقبولاً في أوروبا. وأما هنا فأين الضمانة مع هذا البحر الطامي، والضياع، والأفلام، وفقدان المثل؟ المرأة عندنا إذا هرّبت قبلة واحدة وراء الباب لاحقها وشم هذه القبلة عُمرهَا، لأن الحب والأمومة والوحدانية قيم، والقيم تحتاج إلى عرش وثير تتربع عليه.. المرأة عندنا يجب أن تُجْتَثَّ من محيطها العفن وتغرس في محيط آخر يصنعه لها رجلها ويمدُّه بالشرائط الأنباتية التي يريدها هو، من هواء وماء وسماد، فلا يترك شيئاً للمصادفة. أعشق ما بدا لك، ولكن إذا عزمت على الزواج فأرسل أُمك إلى الفتاة التي تَوَسّمَتْ فيها هي الحد الأدنى

من أملك، وكلّفها خطبتها لك كما كان أجدادك وأجداد أجدادك يفعلون. لا تحاول أن تظفر بها من طريق تزليق الرسائل في الجيب أو سرقة الأحاديث في المنعطفات. لا تجعل لها سوابق في هذه السراديب المظلمة...

وذهبت أم عبد المجيد تخطب البنت، وإذا هي تعود بالرفض. طبيعي أن أهلها لم يبوحوا للأم بأن عيونهم ترتفع إلى أعلى من ديوان وزارة الأشغال.. إن «العالم أصبح صغيراً» وقد يكون النصيب في الأرض التي باركها اللّه في التنزيل.. إن فتى مثل زر الورد يملك سيارة ومجموعة بدلات أنيقة الخ.. يغازل الآن البنت ويمضي بها في بعض الأمسيات إلى إشبيلية وزحلة فيرقصان ويتبادلان كلمات الغزل والأمل وغيرها.. إن المئة وبعض المئة التي يقبضها عبد المجيد آخر الشهر لايمكن لها أن تلبي حاجات الفتاة «المثقفة» في مثل هذا «الوقت».. لم يقل عبد المجيد لنفسه أن البلادة تنفي المسؤولية.. ولم يقل أهل البنت أن القصة على مثل هذا التعقيد.. ولكن عبد المجيد فهم على نحو غامض. ولم تلبث تحرياته أن جعلت الغامض واضحاً جلياً..

هذا المشروع الفاشل قلب حياة الفتى.. اندفع يغير حياته من جذورها: إنتسب إلى المركز الثقافي البريطاني، وتعلم اللغة ودرس المحاسبة ومبادىء الفرنسية.. بدأت آفاقه تمتد رويداً رويداً ولكن بقوة وأَيَد.. صار يراسل فتيات من هواة التعارف في أمريكا وكندا وألمانيا، ويتحدث في السياسة وحلف الأطلسي حديثاً أرقى من مستوى ديوان الوزارة.. وكتبت إليه فتاة من مونتريال تتصدى إلى موضوع المفاضلة بين الأدب الكلاسيكي والأدب الحديث. وسألته أخرى من ولاية أنديانا في أمريكا رأيه في هويتمان من جهة واليوت من جهة أخرى وسألته أيهما يفضل.. وكانت في إحدى ثنيات الرسالة صورة لها أخذت في الغابة العميقة، وهي تلبس ثوباً للسباحة يشبه رقطة النمر. وكان شعرها الأشقر ينزل على صدرها فيتراءى من خلاله نهدان لا يخبيء شمَمَهما تصالب اليدين وراء القذال.. وأما النظرة الفاترة فلا يضارعها

في فتنتها ودعائها إلا الساقان الملتفتان الغريرتان، وقد إنثنت اليسرى إنثناء خفيفاً جعلها تشرف على اليمنى كأنها محب يتملى من مفاتن صدر حبيبته...

نشاطه الفكري ذاك كانت تسايره نشاطات من نوع آخر.. إنتسب عبد المجيد إلى ناد رياضي يذهب إليه بعد الظهر فيلعب الكرة الطائرة. وقد يتردد إذا كان المساء على فرقة مسرحية شعبية فيعاون في الديكور والتلقين وتهيئة الحفلات والهيمان بالممثلات ولا سيما حينما يبدلن ثيابهن في الغرفة الصغيرة على يسار الدرج...

وأسبغ عليه علمه جرأة فطلب إحالته على الاستيداع، ثم إستقال واستطاع أن يظفر بهذه الوظيفة في مصرفنا، وبات يقبض خمس ملاحف من أمات المئة كما يقول رفاق الديوان القدماء في مواقعهم التي يتحركوا منها قيد شعرة..

في هذه الأثناء كان الفتى، صاحب السيارة ومجموعة البدلات الأنيقة، الفتى الذي رُفِضَ عبد المجيد من أجل سواد عينيه، هذا الفتى كان يتقهقر على نحو مطرد.. يتقهر كل يوم.. دخلت علاقته بالفتاة ذلك الدور الحاسم، حين تبلغ المرأة الغاية من رضاها عن مشوقها فتعيد النظر في كل كلمة خليعة تبدر منها، لأنها بدأت تفكر في تأبيد العلاقة بالزواج.. المرأة في هذا الدور تنحشر في زمرة المرضى، تنحدر إلى درك الخليلة، الخادمة.. تعمى، تتركز حواسُّها كلها في مخالبها فتنشبها بقوة ضارية وتشد حتى تحسَّ الألم يمزق فريستها ويكسر براثنها هي في آن.. وقد تكون على قدر من الرقة فينتحب فيها الإنسان المشفق الرحيم ولكنها لا تملك إلا أن تشد وتمزق وتكسر مثل الإعصار الذاهل المدمر.. وكلما استماتت في الشد إزدادت الفريسة بعداً وتحرراً. ووقعت القطيعة، وإذا الجارة الفتاة ذات الآمال العراض، نصف امرأة مهجورة!..

من أين جاءتني كل هذه الأخبار؟ أعترف أنها لم تصلني على هذا النسق. ومتى كنا قادرين على أن نعكس الأشياء كما تصلنا من غير أن نضع فيها من ذواتنا!.. ولكني واثق من أنها، في خطوطها العامة، واقعية لملمتها

من مصادر شتى، من أحاديث عبد المجيد ذات الصفة العمومية عن المرأة والزوج والعصر، الخ. ثم أن عبد المجيد يتخذ، في هذا الموضوع وحده، تقيَّةً ساذجة معي: يروي لي كثيراً من أخباره وأخبارها زاعماً أنها جرت لأحد أصدقائه.. وأصغي وأنا أبتسم في نفسي، وربما أتساءل لماذا يأخذ نفسه بالتقية في هذا الموضوع بالذات وهو الذي عودني الصراحة كل الصراحة فيما يمس حياتيه العامة والخاصة جميعاً؟ هل تركت ذكرى الرفض جرحاً في قلبه، جرحاً متندياً ولكنه جرح على أية حال، قادر على أن ينتكيء في كل لحظة؟ إن عبد المجيد إنسان تستثيره الخيبة، تحفزه على الهراش فيصبح مثل الديك الغاضب الغيور.. وفي ظني أن هذا الخلق رجولي أصيل.. قد تعوز الرجل المعارك الحقيقية التي تتطلب تلاحماً عارماً، سواء في ميدان الفكر أو ميدان القتال.. فيروح يفتش عن معارك في ميادين صغيرة! والخطبة عند الرجل تشبه الغزوة.. وهو، منذ عنترة، لا ينسى غزوة ارتد منها غير غانم.. والمرأة التي ترفضنا تغرينا بترويضها مثلما نفعل بالمسألة الرياضية. أليس غريباً مثلا أن سهام تشبه على نحو غامض الفتاة التي كنت خطبتها منذ سنوات.

البشرة، العينان، الجسد المنغوم!..

* * *

١٦

لم تتح لي زيارة عبد المجيد إلا بعد أسابيع.

ما يزال في زقاق طفولتنا، قل أزقتها.. هذه الأزقة القديمة قدم الشام، تتلوى، تتسع وتضيق، تقارب شرفاتها وأكشاكها في الأعلى حتى تكاد تتصل.. كل الناس فيها معارف يحيون بأسمائهم المحببة.. وبين كشكين قد تجري حكايات غرامية لا يدري المار عنها شيئاً..

وكان بيته قديماً هو أيضاً، يسمونه عربياً. في الطابق الأرضي غرفتان أختص بهما عبد المجيد، أمامهما فناء مكشوف تزنّره الأحواض من جهاته الأربع. كانت شجرتا لوز مزهرتين وفي كل مكان من الأحواض التفَّ البنفسج، أوراقه الخضراء متراكبة، لم تكن أجراسه اللازوردية تطل من بين الخضرة اللجبة إطلالاتها الرشيقة.. لقد قضت. ولكن كان يفعم الدار عبق الياسمين الرقيق...

منذ متى لم أدخل هذه الدار؟ مضت حقب، والمنزل لم يتغير فيه شيء. الجدار الشمالي يندفع إلى الأمام في قبب يحملك على الظن أنه سيتداعى بعد لحظة، ولكنه لم يتداع.. إنه يقاوم كرَّ الأيام والليالي ويظلُّ مندفعاً. التجدد هنا في الأحياء على أشده، في الأحياء وحدها. في عبد المجيد والأشجار التي تطفر البراعم من كل غصين فيها.

كنا نجلس أمام الحوض الذي يتوسط الفناء ونشرب قهوة الصباح، وأنا لا أحول عيني عن البراعم الصغيرة، آلاف البراعم تشق الأغصان وتعلن عن ولادتها في ضياء وأريج. الحياة في خلق مستمر إذا إعتبرنا أنفسنا جزءاً من كلية الوجود الأزلي.. الخريف يشهد إحتضار الطبيعة ودنوها من ليل الوحشة

البارد.. ويأتي الشتاء فتموت الأشجار والأزهار.. وما هو إلا أن يطل الربيع وإذا الرميم يحيا، وإذا أنت تشهد كل دقيقة مولد كائن جديد.. ولكن، هل نستطيع أن نُسكت كل هذه السمات التي تميزنا واحدنا من الآخر، ونقنع بالذوبان في لا شخصية الكون؟ يروون مثل هذا الذوبان عن المتصوفة.. وأما نحن، نحن الذين لم نطق أو لم نقدر على هذه التجربة، فالمصير الرهيب المظلم سيلاحقنا أبداً، وجهه الزمهريري الصارم لا تختلج فيه خلجة من أمل أو مرحمة وحتى لو قبلنا لأنفسنا مصير الأشجار رالأزاهر.. أليس لها عمر؟ إنها لا تلبث أن تصبح حطباً يابساً يفرقع في مدفأة ثم يخبو فلا حطب ولا دفء.. أيكون ذوبان المتصوفة لعبة من اليأس على المصير المظلم المحتوم!

وقال عبد المجيد مداعباً:

- عد، عد.. هل كانت السفرة بعيدة؟

- أي سفرة؟

- سفرتك أنت.

فضحكت:

- نعم سفرة بعيدة جداً. بدأت من هذه البراعم وانتهت على تخوم المعرفة الإنسانية.. لو أني شاعر يا عبد المجيد لكنت نظمت قصيدة غريبة..

- عم؟

- رتل لا نهاية له من أسرى يخبون في قيود من مختلف الأنماط والأوزان وفي أسمال بالية يقطعون دروباً متلوية ضائعة.. حراس الرتل لا يتميزون في شيء من أسراهم.. القيود ليس لها قرقعة والأسمال لا تخش على الرغم من غلظ النسيج.. الصمت.. وقد يهمس أسير فتى في أذن رفيق له شيخ:« إلام»؟ فلا يرد الشيخ حالا.ثم يقول:« لا تسأل.. حراسنا أنفسهم لا يدرون. أمش أو إذا شئت ألبث مكانك فالحراس لا يعرفون عددنا والليل مظلم، مظلم. ويتوقف الفتى بينما يستمر الرتل لا نهائي الأبعاد.. ولا يتلفت حتى الشيخ إلى صاحبه المتخلف.. وقد تجري للفتى مغامرات وتمر عليه

دهور.. يذوي، يذبل وإذا هو في وحدته أشد ما يكون شوقاً إلى اللحاق بالرتل المقيد الأسير...

قال عبد المجيد:

- وأما أنا فإذا وقع لي أن فتحت عيني ذات صباح ووجدتني شاعراً فلن أنظم إلا قصائد تحكي عن لغز الأعين الحور ولطف العبير وسر الغذاء الجيد. كف عن الأسئلة كما قال شيخك لفتاك فالدنيا لا تسوى أن تسأل فيها عن شي. عشْ، هذا هو رأس الحكمة (وأضاف ضاحكاً) بعد مخافة اللّه طبعاً. ثم يجب عليك أن تعلم يا قطب الغوث، يا صاحب الشطحات والمواجيد، إني لم آت بك إلى هنا لكي تسيِّع قلبي بالهم والغموم. ولما كنت أنا - في حال مسخي شاعراً على حين غرة - لا أستطيع أن أفرق بين الشعر والحياة فقد أعددت لك اليوم غداء جيداً ومفاجأة تسر قلبك وتنسيك أرتال فكرك اللانهائية الأبعاد..

لقد عدت تماماً من رحلتي، عدت إلى عالمنا المختصر وشرد فكري إلى ما قاله الأستاذ حسني عن خطبة عبد المجيد.

قلت:

- تذكرت: الأستاذ حسني جاء مرة، أثناء غيابك عند المدير وهو غاضب منك.

- مني أنا. لماذا؟

- لأنك تطيل على قوله، أمد الخطبة. أية خطبة؟ أنت لم تخبرني.

فتضاحك خلياً وقال:

- قصة قديمة، لا بد أنك تعرفها.

- هل رويتها لي أنت؟

- لا. ولكنها معروفة.. قصتي مع حميدة جارتنا القديمة..

- ولكنها رفضتك على ما أعلم.

- كان هذا في الماضي، قبل أن يقفز دخلي إلى خمس ملاحف من أمات المئة، ولكني خطبتها من جديد. نحن خطيبان منذ مدة طويلة. - إذن فأنت معجب بها دائماً؟

- إعجاب! كل ما في الأمر أني لم أخطبها هذه المرة من طريق أمي، طريق التسلسل كما يقول الموظفين. تصديت لها بنفسي وأخضعتها..

رنت الكلمة في أذني رنيناً غريباً. إذن فالصراع بينهما لما ينته... إنها مقهورة، ولكنها تحمل نشوة الأيام الماضية. تأخذ هذه النشوة بين يديها ولا تنفك تنفض عنها الغبار والعت وإذا هي مجلوة خالصة تعكس أيام كانت مدللة، مشتهاة، تزين مائدة السرور.. وتقفز كالظبي الأرن في خمائل دمر وظلل زحلة، وأما هو فقد دخل عليها بأوشحة المنتصر وزينته وعنعنته.. لقد دفع الثمن كدحاً مضنياً، ومعرفة، وأجواء لا تستطيع إبنة الجيران ذات العجيزة الواطئة أن تسمو حتى إلى أعتابها.. قلت:

- ولماذا تطيل أمد الخطبة؟

- لست أدري!

قالها عبد المجيد وهو يضم شفتيه في حركة نفي تفهق باللامبالاة، وأضاف:

- نحن لا نتفق على شيء ونتفق على كل شيء. اللقاءات الأولى كشفت لي أن الفتاة عاشقة، مستعدة للمجيء إلى بيتنا هذا نفسه، والرضى بالتخت الحديدي الذي أنام عليه. ولكن ما عساي أن أصنع بعشقها؟ أنها تركت المدرسة بعد السرتفيكا مباشرة، وهي حتى الأن لم تتخط السرتفيكا. لم تزد عليها إلا خبرة عملية عجفاء جاءتها، أظن من العمل الذي تقوم به، سبع ساعات في دأب لا جدة فيه ولا ثقافة ولا كلمة عن الدنيا العريضة...

- والآن؟

- نحن نتشاجر ولا ننفصل.

ترى، هل يقرب الشجار اليومي الآماد بينهما إلى حد ما؟ لا بد أن البنت تحس مرة أخرى أنها تحيا ذلك اللصوق الأعمى بالفحل.. المشكلة - إذا

وجدت عندها هي - على وشك أن تحلها لمعة الأمل التي شامتها من مستقبل مريح. مشكلتها في التعجيل بالإرتباط.. وأما مشكلته فلا تزال قائمة.. لم يغير حتى الآن شيئاً في نمط حياته. إنه منتشر أبداً في كل مكان، في النادي والمسرح والقهوة والشارع.. وحديثه الذي لا لون له عن الخطبة حديث إنسان يزداد كل يوم بعداً عن الخطيبة المقهورة المستسلمة.

قلت:

- ألا ترى أنك تظلمها، لماذا تشدها إلى عربتك الهوجاء؟ إنساننا يا عبد المجيد يفتح عينيه على الحرمان ويغرز في طينه حياته كلها.. والويل لمن إنفرجت له كوة على عالم أجمل. هذا هو الذي تقطعه الحسرات لا غناء فيها والأشواق المضيعة المعقدة. تزوجها يا عبد المجيد أرجوك... إنك ترتكب عملا غير أخلاقي.

فانقلب ضاحكاً وقال:

- إرتكب أنت، إذا حلا لك ذلك، عملاً أخلاقياً يكون لك عليه الأجر والثواب عند من لا تضيع عنده الودائع..

- ماذا تعني؟

- تزوجها أنت..

وراح يقهقه من قلب لا ضغينة فيه:

- أي نعم تزوجها.. تزوجها.. أنا مستعد للتنازل لك عنها. كم تدفع لي خلو رجل.. لا بل أنا الذي أدفع. تزوجها وعلي مهرها..

وهدأ ضحكه وهو يقول:

- كلمة سهلة يا سيدي أن تقول لإنسان مسكين أعزل: تزوج هذه أو تلك.. ماذا يهمك أنت إذا ذاب الثلج في غد وظهرت قرينة حياتك ربي كما خلقتني، اشتغل ألف فأر في قرض روحها فلم يبق منها غير كسرات جافة بنى عليها العفن. كيف ترضى - أنت الذي تريد لي أن أقوم بعمل أخلاقي - أن تقوم علاقة بين إنسانين على مجرد حاجة الحيوان إلى طمأنة غرائزه

الدنيا؟ ذلك لأنه حتى بعض الحيوانات تنطوي على ميول فنية جمالية، فتتعلم الرقص وتشترك في أداء مسرحيات.. إن صلة لا يطيل في أمدها إلا الدموع صلة واهية يا حسين، أوهى من خيوط العنكبوت.. لا تحمل سلمك بالعرض يا أخي، دع الحياة تمضي متسكعة، على هواها، ولا تقم بعمل يستهدف أبعادها من سبيلها المرسومة منذ البداية.. عبثا تحاول. لن تحيد...

- يا له من تعليم! إذن فباطل قراعنا الظلم والشر، أحلامنا منذ أن تعلمنا الحلم، عن العالم الأفضل والمدينة الفاضلة. إن ما تقوله هدام يا عبد وما دام الإنسان إنساناً سيظل يحلم بالخير والعدالة.. هنا قانون مطلق إطلاق الأكوان.. ومن حقنا أن نكون في الجوقة التي تعلو ترانيمها حاملة السلوان إلى القلوب المعذبة.. قد تكون للحياة دورة مرسومة السبيل ولكنا أحياء لا نملك إلا أن يكون لنا دور في عملية الخلق لأننا نحس الألوهة فينا..

- دور! دور تافه! أقل من ثانوي.. وحتى إذا قبلنا أن لنا دوراً خلاقاً.. أفلا يكفي في مثال حميدة أن أمتار لها خلال فترة من الزمان، ميرة من أمل؟ وستقطع هذه الميرة ذات يوم يقيناً، لأني لست إلها قادراً على كفالة الحزانى والمهجورين والأيتام طول العمر، ولأني لست مسؤولا عن أن الطبيعة جواد هنا بخيلة هناك... في لوحة« الربيع» لبوتشيللي ينبت الزهر عند مواقع أقدام الجمال.. فلتنبت الأزهار حيثما نضع أقدامنا.. وبعد أن نختفي ليمتد الشتاء والموت...

* * *

١٧

كان الوقت ضحى والشمس قد ملأت الجدار الغربي، شمس صبيّة دافئة لم تزد الجو الصافي إلاّ عذوبة تستشعرها في سويداء قلبك.. وهذه الأنسام البليلة المعطرة تحملك وتنأى بك عن كلّ نقاش.. النقاش يحتاج إلى حشد وما أنت إلاّ حالم هانيء بما تتبدد مع كلّ رعشة نسيم...

ورن جرس الباب رنّة مستطيلة تتبعها بضع رنّات متلاحقة فنهض عبد المجيد.. كنت أجلس، ظهري إلى الدهليز فسمعت الباب يفتح، وساد صمت قصير قطعه همس بلغني على نحو غامض، ثم هرولة أحذية نسائية اندفعت من الباب في صخب وإسراع فعبرت الدهليز وتوجهت نحوي. إلتفت وإذا فتاتان صبيّتان.. لم تفاجئهما رؤيتي بل راحتا تدوران راقصتين حول الحوض الأوسط رقصة تشبه الفالس.. وظهر عبد المجيد يمشي الهوينا، فلما بلغني غمزني قائلاً:

- المفاجأة.. أليست حلوة؟

وأشار بيديه إشارات ماجنة عن إمتشاق القامة وتكور الصدر وإنخطاف الخصر وقبب الكفل..

وإنتهت دورتهما عندي فخلعتا معطفيهما وألقتاهما على درابزين الدرج المفضي إلى الغرف العلوية، ومدّتا إلي يديهما، قالت الأولى:

- علياء.

وقالت الأخرى:

- سلمى.

وقمت أنا على إستيحاء أقول:

- تشرفنا.

وقال عبد المجيد باسماً.

- الأنسة علياء تعشق الموسيقى تجنّ في الموسيقى.. مهسترة في الموسيقى.

سألت:

- الكلاسيكية؟

قال:

- نحن لسنا متأوربين.. نحن لا نحب إلاّ عبد الحليم حافظ، وعلى الأخص أغنية« التوبة»..

وسارقُتها نظرة. كانت صغيرة العينين، خفيفة الرموش ولكنها حلوة، حية لا تهدأ على وقفة. قالت له:

- قم، لا تضيّع الوقت. ضع لنا إسطوانة.

وغمزتني غمزة دلال كأنها تعرفني من زمان بعيد. كانت أنيقة بهذا الثوب المكعب الكحلي يتحدر أقبّ كالكلة، والحذاء الدقيق الصغير.. غير أن زينة الوجه لا تخلو من رخص. الكحل مذنب على نحو أخرق، لعلَّ سببه شعورها بصغر عينيها.

وقالت الأخرى وهي تمط شفتيها محتجة:

- أنا بدي فريد..

تساءلت وأنا أقلب نظري بينها وبين عبد المجيد:

- فريد؟ ففرقعت ضحكة ثاقبة اشترك فيها الثلاثة كأنهم كانوا على ميعاد:

- فريد عصره؟ وقالت التي تريد فريد بعد أن هدأ الضحك:

- فريد الأطرش؟

وتضاحك عبد المجيد:

- الأستاذ حسين قدم لتوّه من... المريخ!

لم تعجبني النكتة ولكنها لاقت نجاحاً طغى على ذلك الذي ظفرت به الأولى.. وعادت صاحبة فريد الأطرش تلحُ على إسطوانة عدت لا أذكرها، وهي تدبك بقدميها على الأرض كما يفعل الأطفال المدللون..

كانت صاحبة عبد الحليم حافظ سمراء نحيفة.. وأما هذه فكستنائية، إذا لم تكن سمينة جداً - الآن، لأنها لم تتجاوز الثانية أو الثالثة والعشرين - فلا بد أن تكونها عندما تدنو من الثلاثين.. كان في وجهها الممتليء مايشبه أن يكون إستسلاماً لتأثير الآخرين وغفلة عن موطيء القدم.

هذا الموطيء قد يسوقها إليه الآخرون يضاف إليهم دافع آخر مصدره جسدها الصبي الجائع.. وكان جسداً مشتهى حقاً. البشرة ريانة كالأرض الشامية ذاتها، تظهر في اليدين البضتين وإنعكاس لون الساقين على الجوربين من النايلون. هذه الجوارب لا تخفي حتى اللون الأزهر المتحيّر في الساقين.

وقالت صاحبة عبد الحليم وهي تربّت على خد صاحبتها كأنها تسترضي طفلاً حروناً:

- يعزف لنا عبد المجيد« التوبة» ثم..

فقاطعتهما الأخرى معاندة:

- بل فريد!

وما كان أشد عجبي حينما التفتت إليَّ الأولى قائلة:

- قل لها أنت يا أستاذ حسين.

أقول لها، أنا بوصفي ماذا؟ وما هي دالتي عليها؟ والأعجب أن صاحبة فريد، لما نظرت إليهما متحيراً، إستكانت ونكسّت بصرها إلى الأرض...

ولم ألبث أن بدأت أحدس، على نحو غامض بادىء الأمر، لماذا طلبت إليَّ السمراء هذا الطلب: نهضت هي وخاصرت عبد المجيد، ودلفا إلى الغرفة الواقعة عن يسار الداخل من الدهليز وقبل أن يصعدا الدرجة الوحيدة إلتقت شفاههما في قبلة استمرت حتى بعد أن دخلا الغرفة..

أيكون في الأمر قسمة مقررة من قبل. تلك لذاك وهذه لهذا!

ما أشد غباءك يا سيد حسين!

ولكن ما عساك أن تقول لصاحبتك؟ ما إسمها؟ لنسمّها مبدئياً الفريدية، فقد اختلط عليَّ الأمر. حقاً... بم أحدثها؟ أنا في حياتي لم أستطع أن أفرق بين مغنٍ من عندنا ومغنٍ آخر.. لا أسمع الغناء أصلا إلاّ حينما أكون في الباص أو عابرٍ سبيل أمام بائعٍ مثلجات يفتح راديوه على آخره نكاية بالخلق! وحتى في هذه الحال أراني أُوفض الخطى فلا يعلق بذهني اسم مغن ولا ملحن. مظهر الفتاة يدل على أنها مترفة.. ومع ذلك، ما أحلى أن أنهال عليها بمشاكلي الفكرية هكذا من البابِ للطاقة؟ خير ما تصنعه يا سيد حسين هو الصمت.. اصغ إلى الأغنية مثلاً.

وإتخذت وضع الذي ينتظر الأغنية، ولكني سمعت عوضاً عنها رنين زجاج.. وأقبلت السمراء تحمل صينية من المعدن المدهون عليها قنينة وسكي وأربعة أقداح وقنينة صودا وزبدية ثلج.. وضعت الكل على حافة الحوض، ومدّت يداً خبيرة ففتحت وصبّت ومزجت وثلّجت...

وظهر عبد المجيد مرَّة أخرى. المشية المتثاقلة ذاتها.. الحركات كلها تذكّر بصاحب كباريه يحضر الأفلام الأمريكية.. وتناول كأساً رفعها إلى شفتيه وهو يقول:

- محبتنا!

وأنا ينط فكري إلى مفهوم المحبة عند المتصوفة المسلمين.. وتماسّت الكؤوس، وعاد ثلاث منها وقد نقص منها النصف إلاّ كأسي فقد عادت فارغة وقال عبد المجيد بالإنكليزية ضاحكاً:

- إذن أخدموا أنفسكم!

فأسرعت أملأ قدحي وأُفرغه ثانية... وغاب الإثنان مرة أخرى في الغرفة هنيهة.. وإرتفع صوت عبد الحليم حافظ بالأغنية التي أرادتها.

كنت هذه المرة مطرقاً، فأحسست أن نظري يلوب قليلاً ثم يصطدم بقدمي الفتاة ثم يروح يتمسح بساقيها.. والأغنية تردد كلمة «التوبة» في دفع

وجذب، في رواح ومجيء، لا أدري لماذا حملاني إلى سرير عريض فيه امرأة عارية.. كدت أجن! أهز رأسي قوة فتتمطى المرأة العارية وترفع إليَّ ذراعاً موهونة بضّة.. ألمح حتى شعر الأبط.. وتأخذ الذراع رأسي... يا رب! لماذا فعلت بي هذه الأغنية كلَّ هذا؟ الرؤية الداعرة من الوضوح من حيث أكاد أشعر بحرارة المرأة وتوهجها.. امرأة ريانة البشرة ممتلئة الجسم، مكتنزة الشفتين.. أكاد أرى الزغب أزهر بين النهدين وأشمُّ رائحة الأنثى من عنقها وإبطيها وشعرها الكستنائي الثائر...

حاولت أن أحيد بعيني عن الساقين، أن أحول عنان مخيلتي إلى فكرة مسكينة زاهدة.. ولكن الأغنية:

توبة، توبة، توبة..

والموسيقى بين كلّ« توبتين» تغنج، تتأوه، تتمطى.. تلويني، وتعيدني قهراً إلى الدفع والجذب، إلى الرواح والمجيء.. فلا أطيق عن الساقين القاهرتين حيدة... أحسست أن عينيَّ جمرتان.. وزادت الرؤية وضوحاً وتعذيباً وإذا أنا... رأيتني واقفاً ويدي تمتد إلى يد الفتاة تجذبهما إلى الأعلى فتنهض ويدي الأخرى تلتف حول الخصر وتهصره.. وأربع شفاه يدنو بعضها من بعض حتى تندغم في قبلة هوجاء ضارية مؤلمة!

وإنفصلنا نلتقط أنفاسنا..

توبة، توبة، توبة.. هذه المرة لم يدن بعض من بعض.. لقد افترس بعض بعضاً، وإمتدت براثن إلى الشعر الكستنائي فأُنشبت فيه.. وبدا العناق جارفاً، موجعاً، وحشي الرغبة!

فجأة خرست الأغنية، الأغنية؟ وإذا نحن ننفصل. هكذا من غير ما سبب. قعدنا. أطرقت أنا لحظة وجيزة ثم رفعت عينيَّ إليها.. لم يكن يبدو عليها أي إنفعال.. غريب. كنت أنتظر أن أقرأ في قسماتها رضى أو غضباً، حياء أو خلع عذار، طمأنينة أو قلقاً..لا شيء من هذا كلّه. لو أنها شربت كأساً من الماء لعكس وجهها معنى ما. وأما هذه الزوبعة التي هبّت في دقيقة قصيرة ففجّرت براكين هدَّارة مولولة فلم تخلّف أي معنى! أتراها إعتادت

الزاوبع؟ هل تنظر إليها نظرتها إلى قدر مقدر تعنو له ولكنها لا تتكسر؟ بعض الناس يجدون المعاني الخفية في نقلة القدم، وإعادة الكأس إلى محلّها في الصينية وقرقرة القنينة و... وبعضهم يخوض حرباً فلا يعود منها بكلمة! .

أغنية أخرى، لا بد أنها لفريد الأطرش هذه المَّرة، لأن وجه فتاتي تنفّس البهجة.. وما هي إلاّ نوطة أو إثنتان حتى هرعت إلى الغرفة هازجة.. غير أنها توقفت بالوصيد قليلاً ونقرت على الباب فجاءها صوت عبد المجيد:

- ادخلي يا سلمى!

هذه الأغنية الجديدة فظيعة. إنها تشبه عواء كلب أبح، كلب مسكين لحقه صاحبه بعصا نالته منها ضربات موجعات.. غير أن ما يفقدك العطف على هذا المغني المضروب هو أنه ملحاح، يدفعك الحافة في التوجع إلى الضيق، الإشمئزاز، الغثيان! وتتمنى لو ناله عدد آخر من الضربات تخرسه نهائياً..

وظهرت سلمى، بعد قليل، في باب الغرفة، وأشارت إليَّ بيدها أن«تعال»..

دخلتُ. أول ما لفت نظري ديوانة عريضة في الصدر يجلس عليها عبد المجيد وفي حضنه السمراء، وقد إنحسر ثوبها حتى كشف عن فخذيها. هاتان لم تكونا نحيفتين أبداً. كانت تلف ذراعيها حول عنقه وتدفع رأسها إلى الوراء فيفرش شعرها الفاحم على الديوانة... ومشت الكستنائية إلى البيكآب لما انتهى النباح فإنطلقت موسيقى راقصة، ما سمعتها السمراء حتى وثبت إليَّ وألقت نفسها بين ذراعي.. ورحنا نرقص.

وعلى الرغم من كأسي الوسكي خالجني شيء من الحرج.. ألم نقتسم: هذه لذاك وتلك لهذا؟ ولكن حرجي لم يدم طويلاً.. كانت الرقصة تانغو هادئاً وفارستي تشدُّ علي فيلتحم جسدانا من الخدين حتى الركبتين. اليدان لا تنثنيان إلى جانب الكتلة، بل تأخذ اليسرى الشعراء القوية اللينة بجماع اليمنى الصغيرة اللينة وتضغطها إلى الصدر.. الأنف مرتعش الفتحتين يتمشى على طول الجيد، يغيب في الشعر، وراء الأذن.. الشفتان الغليظتان تمسّان مسّاً هيناً كلّ مكان في صفحة الخد الأسمر الطري... هذه لا تتوهج.. إنها تغلي! كنت أحسُّ حرارتها في فخذي ويدي وخدَّي.. وقلبي! .

فجأة خلصت ذراعيها، وأخذت رأسي بكلتا يديهاودسّته بقوة بين نهديها!

وصمتت الموسيقى فظللنا لحظة ينشدُّ أحدنا على الأخر، ذراعي تجذب خصرها.. وألقت رأسها إلى الوراء، إلى اليسار وقالت بصوت متهدج آمر:

- سلمى، موسيقى!

كانت تلهث.. وإلتفت أنا إلى حيث وجهت نظرها الغائم. أين سلمى؟ ها هي ذي، في حضن عبد المجيد قد إنحسر ثوبها حتى كشف عن فخذيها...

وأنزلها عبد المجيد وقام يقول:

- هدنة يا أولاد. نحن لم نشرب شيئاً.

وقالت السمراء:

- نظلُّ هنا.

أصابت. الفناء لا يشعرك بالصميمة.. وخرجت سلمى تحضر الوسكي. عدت لا أنظر إليها. أنا لا أحب الشحم واللحم. أنا أحبُّ الغليان. وفتح عبد المجيد خزانة صغيرة تحت مكتبة حاشدة وأخرج آلة التصوير.. وعدنا نشرب.

قال عبد المجيد يخاطب السمراء في معابثة:

- أتعرفين يا علياء؟ لقاءاتنا أصبحت متباعدة.

فردت ضاحكة:

- سفّر أمك كل يوم نشرفك كل يوم.

- الآن أصبح هذا ممكناً. إنها في الشتاء قليلاً ما تخرج.. وحتى لو رأيتكما أظلُّ مشتاقاً...

- يعني؟

- يعني، أريد أن أحتفظ بصور كما..

قالت على الفور:

- صوّر، من يمنعك؟

استمر على لهجته المعابثة الملغومة:

- الوجه عندي. لقد أهديتماني صوراً في لقطات شتى أنا شاكر، شاكر لكما إياهما.

فلم أر إلاَّ وسمرائي ترفع ثوبها حتى يغمر وجهها وهي تهتف:

- إذن فأنت تريد أن تصور هذا؟

لم يكن عبد المجيد ينتظر إلاَّ هذا..

لمع برق خاطف، وعاد شبه الظلمة.. وأرخت ثوبها. وأما صدرها فكان لا يزال على حاله الشعشاء، لما جذبتني إليها، يكشف عن أصول النهدين... وما كان أشبهها بالبوهيمية التي رسمها فرانس هالس منذ أكثر من ثلاثة قرون! وصبّت عدة كؤوس.. ودارت رقصات.. وتطور التصوير حتى أضحى فناً خالصاً يستهدف الغوص على الحقيقة الجمالية وحدها... من ذا الذي يجرؤ على أن يحصر موضوع الفن في نقطة محدودة من الكون، أو نقاط محدودة من الجسد الإنساني؟ إن آلة التصوير الآن قادرة على أن تقدّم دراسات رائعة عن هذا الأخير تنافس ما كان يقوم به روبنس وهنير وغوغان.. من حيث اللقطات في الأقل!

في لحظة خاطفة خطر لي أن أطرح على علياء وسلمى مشكلة العدالة. ما عساهما أن تفكرا في هذه القضية، وأضحكتني الخاطرة، وأنا أرى إلى استغراقهما.. لعلهما تتصوران أن العدالة في تأميم فريد الأطرش وعبد الحليم حافظ وإصدار أمر بأن تظل أمهات الشبان العزَّاب عند بناتهن المتزوجات طوال العمر حتى يخلو البيت من العاذل والرقيب... وعلى الرغم من اختلاط الاحساسات في نفسي، وفوران دمي، كنت لا أفتأ أسائلني: « أين كانت كل هذه الحياة السردابية الرهيبة مخبأة عن عيني السادرتين؟» لو أني صادفت علياء وسلمى هاتين في شارع ٩٢ أيار، أو عند الجامعة، أما كنت أظنهما مع هذه الأناقة المونعة، طالبتين في الحقوق أو الفلسفة تسهران الليالي وحواليهما مجموعات دالوز أو القاموس الفلسفي؟

* * *

١٨

تكررت لقيا حديقة المزرعة. كان الوقت عصراً وأنا أجلس على مقعد على حافة القسم المخصص لألعاب الأطفال. إن هذا الملعب يثير الإشفاق. الزحليقة صاحبها مشقق لا يؤمن معه على بناطيل الأولاد.. الأرجوحات واقفة على خيط، صدئة، كلابة أحدهما مثبتة على نحو قلق تمسك معه قلبك إذا إزدادت حماسة الطفل المتأرجح بعض الشيء ولكن أغرب ما في الملعب إنه محاط بالأسلاك الشائكة!

وكنت ألاحق بنية في حوالي العاشرة، شعرها سبط، عيناها وديعتان ذكيتان، نحيفة ولكن جسمها متناسق تناسقاً رائعاً، إنها لا تهدأ، توزع نشاطها على الأراجيح كلها. تهزُّ، تحمّل، و« أنت خلص دورك، تعال أنت إركب». وقد تطمئن إلى أن الأرجوحات كلها مقلعة ناشطة فتثب إلى درج الزحليقة ومعها طفل صغير، فـــإذا بلغت الذروة قعدت ووضعته في حضنها وهوت به وهو ضاحك مشرق.

جاءت بنتان إلى أقرب الأراجيح مني، إحداهما سمينة، كبيرة الفم شهلاء، واسعة العينين، في حوالي الثامنة، والثانية سمراء، هزيلة، كامدة موشومة الخدين، أصغر سناً. وتناوبنا المقعد والأرجَحَة.

في لحظة من اللحظات، وكانت السمراء في الأرجوحة، أوقفتها وهمست شيئاً في أذن السمينة الشهلاء وهي تنظر نحوي. وإذا السمينة تدنو مني:

- عمو غيّر محلك.

- أنا؟

- أي نعم، أنت.

- رح أقعد هناك.

- أين؟

- على مقعد بعيد.

- ليش؟

- قالت رفيقتي إنها تريد أن توقف.

- قولي لها أن توقف.

- ولكن، أنت هنا!

تذكرت بحيرة في السويد تقصدها فتيات المدارس الثانوية مع مدربيهن الرياضيين فتيات في السادسة، أو السابعة عشرة، لا مثل هاتين هناك، مثلما تكشف الطبيعة عن حسنها كله، تتعرى الفتيات من غير حرج، والناس في رواح ومجيء، قد يتأملون الحسن المذهل، ولكن كما يتأملون دفقة رائعة في غصن إضاءت فيه وردة حمراء محيرة.

وسمعت الصوت الذي لا تخطئه الأذن:

- مرحباً أستاذ.

- سهام.

كانت تلبس تنورة عادية فوقها بلوزة تشبه أن تكون قميصاً رجالياً عادياً، مفتوح القبة قليلاً، نصف كم، لون سكري إنسدل فوق التنورة، ولكنه إنشمر في إحدى حواشيه عند الوركين. قلت:

- ألا تقعدين؟

- استجابت.

رويت لها ما قالته لي البنت وسألتها:

- ما معنى هذا؟

- أنا التي تريد أن تسألك.

- الأنها قبيحة. أنظريها سرنوكة حقيقية، فلعوصة.

- يظهر أن السرنوكات هن وحدهن صاحبات الحظ.

- أم تظنين أنها الزواجر والنواهي الي تضع أفئدة الناس، حتى وهم في المهود، في قوالب من حديد مثل أقدام الصينيات؟

- حلوة!

- ما هي؟

- الصورة.

- أنا جادّ. منذ أن يفتح الطفل عينيه تطوقه النواهي: عيب، حرام، أوع، تفوه عليك، ألا تستحي..

- إذن رأيك أن يترك الطفل على هواه، على الطريقة الصينية كما وصفتها بيرل باك في أحد كتبها.

- أي نعم. كنت تتحدثين عن حظ السرنوكات. هل كان فكرك في نعيمة مضربي.

ضحكت:

- وغيرها.

- هذه نعيمة سبحان الخلاق العظيم أحس لها لزوجة، دبقا.

- ولكنها تتقن الإنكليزية!

- من قال لكِ؟

- هي.

- كذابة. ولكن، قولي لي هذا درويش مطروق، زوجها المصون، أما له عينان يرى بهما؟

- ألم أقل لك إنه الحظ!

- أنا أفكر أنها التربية الصينية.

رفعت حاجبيها متسائلة:

- يعني؟

- أهل القبيحات لا يخافون عليهن فيتركن لهن الحرية. هذا يؤدي إلى نشأة قوية تعلمهن من أين يؤكل العريس!

- وهذا نسميه الحظ. ربما!

- على ذكر الحظ أمي تروي لي قصة ظريفة. هل تريدين سماعها؟

- أريد.

- امرأة باهرة الحسن «فم ما خلق، أنف ما خلق، سبحان الذي تجلّى وصورها» ولكن زوجها يصبر على رؤية عزرائيل ولا يصبر على رؤيتها. وهو يضربها كلما «دق الكوز بالجرة». هذه المرأة لها جارة «أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم. شفة غطا وشفة وطا وشفة تنقي الرمل من الحصى»، قرعاء، سليطة اللسان، قصيرة، مصعلكة، أو كما تقول أُمي «معلوكة، مبزوقة»... يعني قولي نسخة لا مزيدة ولا منقحة عن نعيمة مضربي. هذه العجيبة، على عكس جارتها، يهيم زوجها بها. دلال، أطلب تعط، سفرات لأوروبا...

- أتعلم أن درويش سيأخذ نعيمة إلى إيطاليا هذا الصيف؟

- ألم أقل لك؟

- أكمل الحكاية.

- إي ستي، ذات يوم كانت الجارتان على درج البابين المتجاورين وإذا امرأة من معارفهما تمر بهما وهي على عجل، وسألتاها: إلى أَين؟ فأجابت أنها ذاهبة إلى «جب الحظ» تسأل عن حظها. جب الحظ هذا تجتمع فيه حظوظ الناس جميعاً، نساء ورجالاً. وكلفتها الجارتان اللتان إهتمتا للأمر أن تبحث لهما عن حظهما... إي ستي في جب الحظوظ صاحت الصديقة المكلفة مهمة البحث عن حظ الجارتين: «فلانة، بنت فلان (الجميلة) أين حظها؟ «وإذا شيخ قبيح، رث، أحدب، قميء، يعمل في القمين كما يدل الدخان الذي يعميه ويُسيل دموعه. قال: «من يندهني؟» قالت: «أنت حظ فلانة؟» قال:

«نعم». قالت: «هذه زوجها يضربها، يكرهها، يرى الشيطان ولا يراها».. فسعل حظ المرأة الحسناء سعالا مديداً وقال للمرأة الموفدة: «لأنه يراني أنا. ينظر إليها ولكنه يراني أنا...» .

ونادت حظ نعيمة المضربي وإذا راقص باليه، حلو، ظريف، مثل زر الورد، في يده مرآة السعد، إلى آخره..

كانت عينا سهام الواسعتان الحوراوان محملقتين في دهشة وابتسام واندماج طفلي تراه حتى في تغيّر جلستها، إذ أن الحكاية لما انتهت كانت الصبية قد استدارت نحوي بصدرها الأشم كله...

وبينا أنا لحكايتي وتمّلي عينيَّ رأيت البنية الشهلاء السمينة تدنو مني مرة أَخرى وتقول لي:

- عمّو قال قم من هنا!

* * *

١٩

أقبل محمد سعيد، نادل قهوة الحجاز، ويده في جيب مريلته الواسع، وتوقف أمام منضدتنا، فقال له الأستاذ حسني: - أركيله ثانية يا سعيد.

فصاح سعيد من موقفه عندنا:

- تعال خد تنباك.

وعاد الأستاذ حسني يقول للنادل:

- ظنّي أن بالك مشغول ياسعيد. فيه شيء؟ ليش ما سلمت على حسين؟ أنت ما شفته من زمان طويل..

فتنهد سعيد ونظر إليّ نظرة وادعة، وانحنى يقعد على حافة الكرسي. كانت مريلته بيضاء متسخة، ويداه سمراوين تنشب فيهما عروق زرقاء وتخددهما غضون تبدي جلدهما متعباً يكاد يكون متهرئاً.

قال:

- خيراً لا تعمل شراً تلقى..

فأبعد الأستاذ حسني فم الخرطوم عن فمه وسأل:

- شو القضية؟

- واللّه القصة يا محفوظ السلامة أنه لنا أخت متزوجة، وزوجها له أخ وابن أخت.. فتمتم الأستاذ حسني معابثاً:

- معقدة، معقدة يا سعيد.. أخت متزوجة وزوجها له أخ وابن أخت؟

ومضى سعيد يقول:

- الأخ تخانق هو وابن أخته، ووصلت بينهما إلى الشيطان الرجيم.. وكلهم ساكنون في بيت واحد بالشاغور.. بالشاغور وما أدراك! وترجتنا أختنا

أن نصالحهما، وذهبنا، وكانت أم صهرنا قاعدة.. امرأة كبيرة، رمة. قلنا للأخ: قم يا ولد بوّس شوارب ابن أختك وإخز إبليس اللعين، قم، الصلح سيد الأحكام.. فانتفش مثل الديك الهندي وقال: أنا واللّه لو مات لما فرح بكلمة أحكيها معه.

وإلتفتت إليه الأم العجوز وحطت يدها على صدرها وشهقت قائلة: يوه، على عمري إن شاء اللّه! وإنقلبت على قفاها.. وهي كانت لها. إيش عملنا نحنا، دخيلكم؟ جينا نصلح. أي سيدي نهار البارحة طلعنا بالجنازة العمر لكم ولأولادكم ومحبيكم وإذا..

صحنا معاً، حسني وأنا:

- ماتت؟

فأجابنا بحركة تسليم من يديه أن« نعم» ومضى يقول:

- .. وإذا واحد من الأولاد يشهر في وجهنا قطعة سلاح، خنجراً.. ويلي! واللّه خنجر يخوف، يذبح بقرة.. ويهجم علينا.. ليش يا ابن الأصل؟ قال نحن قتلنا له أمه!

فأزاح الأستاذ حسني خرطوم أركيلته تماماً هذه المرة. كان يضحك من أعماق القلب، وسعيد يحدق فيه بعينيه الصغيرتين متعجباً. وقال الأستاذ:

- العمى. قتلتها؟ أنت قتلتها عن سابق تصميم وتصور، لأنها حماة أختك، آه يا ملعون!

وصفق زبون فنهض سعيد وئيداً وابتعد.. بينما كان الأستاذ حسني يتكركر بآخر ضحكته ويقول:

- ماذا قتل فيها؟ اللّه هو الذي قتلها.. ربما كان عمرها ألف سنة.. مثل سيدنا نوح عليه السلام!

كان للأستاذ حسني قهوتان، قهوة الشتاء - المولوية - وقهوة الصيف، هذه.. فهو يستيقظ مع الفجر، يصلي ويفطر - والآن يرضع حفيدته - ثم يأتي فيتخذ مجلسه في القهوة، وترتفع قرقرة الأركيلة.. وكنت أنا أحب هذه

الجلسات الصباحية فأهرع إليه كلما أفقت باكراً فيطلب لي أركيلة ونجلس ساعة أو بعض الساعة نتأمل ونتفلسف ونلاحق المارين بنظراتنا وتعليقاتنا إذا كانت القهوة قهوة الطقس الجميل، ولا يكلفنا الذهاب إلى العمل، بعد انفضاض المجلس، إلا ثواني معدودات لأن مدرسته ومصرفي قريبان.

ذلك اليوم كنا وراء منضدتنا على حافة الشارع تماماً، قريباً من منعطف شارع خالد بن الوليد. لذعة برد. بياع الكعك وتماري يصيح بصوت رفيع راعش قليلاً، حزين بعض الحزن خيل إلي أن فيه لهوجة وتوسلاً.

- تازه سخن يا كعك.

يلفظها «كعيك». كان كهلا في حوالي الخمسين، رث الثياب، متغضن الوجه، قليل شعر الرأس، ولا سيما في مؤخرة الجمجمة، وخطه الشيب، يلف جبينه بعصابة قذرة عفراء. في ذراعه اليمنى ساعة يد لم أتبين جدتها أو قدمها. لم أكن أرى بنطاله من مجلسي، ولكن قميصه قصير الكمين معفر أيضاً مثل العصابة.

- تازة سخن ياكعك.

كان يرددها كل عشر ثوان تقريباً. وأشعل سيكارة وأدخلها في فمه. الصندوق أمامه متوازي المستطيلات من الزجاج، والخشب مدهون، فقد لونه منذ القدم. الزجاج أغبش، عليه آثار الأصابع في بعض النواحي النظيفة نسبياً. وفي بعضها الآخر انطمس الزجاج نهائياً، حتى صار كأنه من النوع الشاف الذي يستخدم لمنع الرؤية...

- تازة سخن يا كعك..

وأهمس أنا لنفسي: «يا رب إجعله يبيع».. أنا أراقبه من الساعة السادسة والدقيقة العاشرة.. وها قد مضت عشر دقائق ولم يبع شيئاً.

- تازة سخن يا كعك!

وأنا:« يا رب زبون»!

فجأة صأى صوت طفل عن يساري، صوت فيه مزاح وخلو بال، فيه نوع من التقليد الواعي:

- الكعك الطيب عندي. إلتفت. بائع جديد. بائع صغير في العاشرة أو الحادية عشرة من عمره. أنا أرى قميصه. قميص مكعب ولكنه نظيف، وأرى ربع خده الأيمن.. وجه وسيم، أميل إلى الشهلة، أهدابه فيها وطف.

ولم أكد أركز عيني عليه حتى توقف عنده يافع في حوالي الخامسة عشرة، عجلان، أسمر نحيف، وضع في كفه ربع ليرة فلما أعاد إليه الباقي عده وهو منطلق في إتجاه خالد بن الوليد. باع الصبي هذه البيعة وراح يتأرجح على نحو ما. أخاله كان يقبض على طرفي فرشه بكلتا يديه ويدفع مؤخرته إلى الوراء إلى حائط القهوة، وينهز نفسه أو ينهز قدميه، اللتين لا أراهما، عن الأرض. وقطع عليه هذه المتعة هجوم سرب من الذباب المتملعن الملحّ.. كان الهجوم صاعقاً، ومن جهات عدة، جعل الصبي ينهال عليه كشا بيديه الإثنتين. بعض الذبابات تطايرت فوقعت على وجهه فراح يحرك يديه ورأسه ورجله جميعاً..

كنت أراقب حركات الصبي وفي قلبي شيء يشدني نحو البائع الكهل (ما أشد الفرق بين هذين وبين بياع الحليب على بعد عشر خطوات. كان عنده محشر حقيقي!) الذي كان لا يزال واقفاً، لا يبيع.

- تازة سخن يا كعك.

وحكه أنفه من الداخل فأطلق، ثانية واحدة، عينيه في كل اتجاه (ما عدا اتجاهنا نحن خلفه) وأدخل إصبعه إلى منخره بحركة سريعة متوّجسة، ثم سحبها وعاد يصيح صيحته الحزينة الرفيعة.

وأخيراً توقف عامل مدهون البنطال بالزيت.. ودفع وحمل كعكته ومضى. حركة البائع الكهل - وهو يرش السُّكر الناعم من علبة المعدن الأبيض التي يغطيها غربال - كان فيها شكران عميق ومحاولة بينة لإرضاء الزبون وإرضاء واهب الزبون... وأما أنا فكنت أهتف في نفسي: «مرحى، شكراً، حلو، زبون آخر».. وكأن العامل كان فاتحة طيبة، إستفتاحة مباركة،

إذ ما لبث أن لحقه آخرون، عمال أيضاً.. ثم تغير نوع الزبائن، وقف شرطي وأخذ كعكة، آذن دائرة حسن البدلة، إنسان ببنطال، تلميذ مدرسة فقير الهندام، إلخ.

والصبي البائع كان يبيع هو أيضاً. وأنا مطمئن النفس أفكر في زوج البائع الكهل لماذا لم تنظف له صندوقه الزجاجي جيداً.. ولكني قرير العين حقاً..

وقال الأستاذ قاطعاً الصمت:

- كيف جرى أنك نهضت باكراً هذا اليوم يا كسلان!

قلت:

- منذ أسابيع ونحن نغوص في العمل حتى الآذان، منذ زيارتك لي آخر مرة ونحن نشتغل قبل الظهر وبعد الظهر، ولذلك نضطر إلى النوم مبكرين مثل الدجاج.

- يظهر أن مصرفكم قد خرج من بحرانه.. يجب أن ننام باكراً دائماً. الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يقدرها إلاّ..

- المرضى.

- مرحى، هذا ما نردده كل يوم مئة مرة على الأولاد..

قلت متهكما:

- وهل الأركيلة من ضمن قواعد حفظ الصحة؟

- لا، اللّه يلعن الشيطان الرجيم، هذه علّة، ولكنها علة حلوة يا حسين، ألست معي؟ إنها تعلم الصمت والتفكير.. صوتها يشبه هرير قطة أليفة مستدفئة، النار المتوهجة في رأسها، الفقاعات التي تتصاعد مستجيبة لأنفاس شاردات تسحبها أنت.. يخطر لي أحياناً أن الأركيلة هي الحياة. النار والماء والخدود.. فقاعات!

- معلوم موفقة. من تظن معلمك القديم؟ أنا في المعارف وحدها معلم على أبواب التقاعد.. لأن زامر الحي لا يطرب.. واللّه لولا تورطي بتسفير

الولد إلى فرنسا لكنت طلبت أنا نفسي إحالتي على التقاعد.. لا ، لا تصدقني! أنا لا أحب التقاعد.. تعودت الأعين الصغيرة ترتفع إليّ نقية، ساذجة كالأرض إلى السحابة الكريمة.. أحس وأنا أعلم الأطفال، أن لدي بعدُ ماأمنحه للناس، أن الدنيا في خير ما دمنا قادرين على العطاء.

كان وجهه المتغضن الأسمر هادىء الأسارير تشعشع فيه غبطة لا تسمى.

قلت:

- ما أخبار صبحي؟

فأجاب ضاحكاً:

- لست أدري، فرنسا هذه أظن أن فيها سحراً. أشعر أن الولد يتغير. رسائله تنبيء عن ذلك. كيف؟ أنا نفسي لا أستطيع أن أحدد...

وركز نربيش الأركيلة على جنبه، ومد يده إلى جيبه الداخلي وأخرج كدسة من الظروف الجوية ومضى يقول جذلان مضيء العينين، معابثاً:

- خذ، شف. هاك، هذه الرسالة يصف فيها حديقة في باريس يقول إنها مشهورة. انظر إلى طوابعهم البريدية، جميلة أليس كذلك؟ خذ. هذه صورتنا في الحديقة.. لسنا وحدنا آه يا عكروت! انظر لك نظرة واحدة إلى هذه العروس التي تخاصره (مخاطباً الصورة) ولك صبحي، أوع تقول لها أني معلم إبتدائي عجوز.. اكذب عليها يا عين أبيك.. اكذب. قل لها أنك أمير شرقي، مهراجا.. الكذب على النسوان حلال يا بني، على النساء فقط.. قل لها أني صاحب مصنع (هامساً) مصنع إيش من فضلك! (ضاحكاً) مصنع أولاد...

وصمت قليلاً ثم إستأنف:

- حسين.

- ماذا؟

- قل لي؟ أليست جميلة هذه البنية. غزال عطشان حقيقي. صدقني.. ولكن إبني أحلى منها. خذ انظر إلى هذا الخشم، هاتين

الشفتين.. سبحان الخلاق العظيم خرطوم أبيه لا راح ولا جاء.. والأنف أيضاً مبجبج.. أنف أبيه..

- فما ظلم!

- مرحى. لا تزال تحفظ درسك.. الذي لا أفهمه يا حسين كيف أعمى اللّه قلب هذه الملكة وعشقته؟ ماذا وجدت فيه؟ يظهر أن اللّه تعالى أراد أن يكافئه بما إبتلى أبوه من «جمالات» أمه طوال ثلاثين سنة.. هنا الآباء يأكلون الحصرم والأولاد يترشفون العسل بشهده! حسين، هل تظن أن بنتاً مثل هذه تعشقني إذا أنا سافرت إلى فرنسا؟ سيدي ليس ضرورياً أن تكون مثل هذه.. ما أنا صعب. مثل أمها على عيني ورأسي.. إذاربحت في اليانصيب سأذهب، ربي يشهد علي، إلى فرنسا وأتزوج فوق أم عدنان.. الحكومة ذاتها ستحيلني على التقاعد بعد بضع سنوات؟ فلماذا لا تحيلني أم عدنان هي أيضاً! إيش يعني. هل اشترتني؟

قلت:

- هذا ممنوع. هذا تعدد زوجات. وهو عندهم جرم يعاقب عليه بالحبس..

فقال متوجعاً شاكياً:

- أي ليش؟ اللّه خلق الخلق! اللّه ذاته أباح لنا الزواج من أربع.. الإنسان، ألا يحق له قبل موته أن يعيش له يومين نظيفين؟ واللّه أم عدنان، أستغفر اللّه العظيم، أعمت لي قلبي يا حسين.

وصمت الأستاذ. أكب على أركيلته يقرقر بها وينظر إلى حركة الشارع التي كانت تزداد كثافة مع ارتفاع النهار.. اجتمع في موقف الباص، أمامنا، خلق كثير: امرأة ترفع منديلها، تنظر إلى اللوحة الأمامية العليا التي تعلن عن وجهة الباص، فلا تستطيع تمييزها، فتتدحرج بخطى قصيرات إلى مؤخرته سائلة ركابه: «أخي هذا على باب توما؟» فيصيح بها الجابي من داخل السيارة: «على ساحة العباسيين يا حرمة!»... وتهبط من باص آخر صبية

صارخة الأناقة تتأبط محفظة وتقفل متخذة سبيلها إلى الجامعة تلاحقها النظرات، تمطرها من القهوة، من الباصات المتوقفة، من الآكلين عند بياع الكعك، من الواقفين المتبطلين... وقدام بائع الجرائد الذي احتل إفريزاً صغيراً من القهوة، عند الباب، تقف جمهرة صغيرة متنافرة الأزياء: القروي الذي يضع حطة من الكتان الأصفر، إلى جانب الرقيب في الجيش، يقفون على نحو يكون معه طوال القامة في المؤخرة والقصار أمامهم.. وكلهم منهمكون في قراءة عناوين الصحف، وما سمح لهم طيّ الجريدة من مساحات.. وقد يستغرق الخبر أحدهم فينحني على ثنية الصحيفة المخبأة ويمط رقبته وعينيه ويتابع القراءة! وبائع الجرائد فتى وسيم، باسم أبداً، إذا طلب إليه عابر سبيل جريدة طواها طياً حفياً وسلمها وهو يقول: اللّه يعوض عليك.

فجأة هتف الأستاذ حسني هتفة منتصرة:

- اكتشفت طريقة.

- لماذا؟

- لك.. للزواج من امرأة فرنسية!

نسيت تماماً. ظننت أن المسألة إنتهت عند هذه الشكوى العزلاء من النظام العام في فرنسا.

- هات طريقتك!

- لا أكتب في جواز السفر أني متزوج. كيف رأيتها؟

- هذا عمل لا أخلاقي.

- حسين، أنت ظالم يا حسين. أنت، حتى يوم كنت تلميذاً صغيراً، شكس عنيد.. أهو عمل أخلاقي إذن أن يموت معلمك المحبوب كمداً قرب هذه المخلوقة، حرمه؟ إي سيدي، من بعد أمرك البارحة ركّبت سيادتها بدلة أسنان، وأمست بفضل اللّه تلفظ السين شيناً.

وعندما تتكلم تظلُّ البدلة تطرطق حتى بعد أن تنتهي الكلمة وتغلق هي فمها... وأنا؟ انظر لك نظرة إليّ.. فوق الخمسين، وقم إمش أنت وأنا إلى

كفرسوسة ونرجع.. إذا لهثت أو سعلت أو تشكيت من وجع فملعون من يطالب بزوجة جديدة، منك أو من غيرك.. يا إبني النسوان تهرم بسرعة، أول بطن والثاني، وإذا المرأة صرة تنبق من هنا(يشير إلى بطنه) وكيس يتدلى من هنا (يشير إلى ما تحت عينيه)... والزلال، والدوالي، وما لست أدري....

* * *

٢٠

فجأة خفق قلبي خفقات متلاحقة، مثل دردبة طبل منذر، أحسستها في حنجرتي تكاد تخنقني.. لقد أشار الشرطي الواقف في مفرق شارعي النصر وابن الوليد إشارة أوقفت رتل السيارات المنساب في شارع النصر. نحو الحميدية.. ورأيت، أمامنا تماماً، سيارة خاصة، فخمة، وثيرة فيها سهام... كانت تجلس قرب السائق، تلزّ عليه حتى أكاد لا أراها تماماً من مرقبي المرتفع في القهوة... لو لم تكن سهام لما انتبهت إليها...

قمت أقول للأستاذ حسني:

- لحظة سأشتري جريدة.

وهبطت درجات القهوة كأني أتدحرج منها مدفوعاً من الخلف بيد شرسة. ونظرت داخل العربة من الخلف.. كان السائق محامياً ناجحاً أعرفه.. أناقة.. صدريات من عند الهندي، بدلات في بيروت.. والسيارة عريضة فلماذا تلتصق به على هذا النحو في شارع مزدحم! بعض البنات يزعمن أنهن يتعلمن القيادة. كانت تلبس ثوباً أسود مغلق الصدر ومن نحرها، يتدلى طوق من العاج الصنعي تخاله عقداً من الفلّ.. وفمها في نصف إنفراجته الواهية.. كل ما يحتاجه القلب المعنّى لكي يغوص في لجة سوداء من الكمد.

وتحرك رتل من السيارات فقفلت راجعاً إلى القهوة. لم أجلس. صافحت الأستاذ حسني، ومضيت إلى المصرف... أتراه انتبه إلى أني عدت إليه دونما جريدة.

لو أن شارلوت الحبيبة كذبت عليّ، لو قالت أنها كانت متزوجة ومات زوجها.. لكان لي الآن منها خمسة أطفال أنا بهم وبأمهم الرائعة أسعد

السعداء... في الأساطير الشعبية أن مغربياً طويل القامة، مرسل اللحية، لم تبق عليه الحكمة إلا جلداً فوق عظم. يفد إلى قرية فيسأل وجيهاً أن يشترك وإياه في فتح« قبة دانيال».. أن يدفع الوجيه نفقات البخور لا غير، ويقوم المغربي الحكيم بالعمل كله.. وقبة دانيال هذه كنـــز ينفتح مرة واحدة كل عام، فإذا نجحت في الاهتداء إليه ظفرت ببيادر من الياقوت، وتلال من الزمرد، وآكام من اللؤلؤ... ما عليك إلا أن تغترف حتى تفهق عنابرك ومخازنك.. خذ ما تشاء مدة نهار وليلة. ولكن حذار أن يعميك الطمع فتطيل المكث أكثر من نهار وليلة لأن الكنز يوصد ويعود الرصد إليه فتبقى أنت سجين طمعك حولا كاملاً لا تجد ما تقتات به إلا الياقوت والزمرد والطوباز... وأما أنا فقد انفتح لي الكنز، وأبصرت عيناي ما لم تبصرا من الحلي والآمال.. ولكنني ضيعته... إلى الأبد!

أترى هاتين القدمين الصغيرتين والوجه البريء الذي براه اللّه لكي يُونقَ في أساريره رضى الأم التي ترضع طفلاً مكتنـــز الساقين والذراعين.. يهدل مثل فرخ الحمام.. أترى هذا كلّه قادراً على أن ينسرق إلى مواعيد تشبه موعدنا عند عبد المجيد؟ أسلّم كل هذه الأناقة في الإيماءة، والدعج في العينين، والشمم في الأنف، والعمق في القلب إلى ذراعين عابثتين وأصابع داعرة تجوس ولكنها تحتقر، تنتشي ولكنها تشمئز؟..

أكاد أجن!

ذات ليلة كنّا نشعل مصباح المنضدة وحده.. الأباجور برتقالي اللون، ينثر على الجدران ظلالاً شاحبة.. خيّل إلينا أن يداً صغيرة تنقر على زجاج النافذة. وكانت شارلوت في غلالة من الموسلين البنفسجي، وشعرها منتثر على كتفيها، ورذاذ من الضوء الوديع يلوّنها.. وأنا أتأملها في سجوّها البديع.

قالت: «أتدري! أن العصافير في الشتاء تنقر على زجاج النوافذ، سائلة الدفء وبعض القوت» .

لم أجبها.

قالت:« أتخيل أني أنا أيضاً نقّرت على زجاج نافذتك لا ئذة بك من القّر والوحشة ففتحت لي المصراعين. وإذا دفء الروح وقوت القلب.. أنا يا طفلي الصغير مسافر ليس له متاع، لأن رحلتي معك فريدة، لا تتسع إلاّ لك ولي!»

وبدرت مني حركة فصدم مرفقي المصباح.. اضطربت.. احتارت.. أنشأت ترسم تهاويل كأنها الأشباح التي تنشقّ عنها الأرض في دروب المسافرين المتشابكة المظلمة.. ورأيتني في إحدى هذه الدروب. العاصفة تولول، الأشجار تعنو تارة وتتقصّف أخرى في صيحات أنين ثاقبة.. والبرق تنقضّ سكاكينه على حصباء الطريق المسننة.. والأشباح تقهقه.وأنا وحيد، وحيد، وحيد!

قلت: «قد تكون رحلتك الأخرى أمتع!» فاختلج صوتها، إرتعش، واندفعت كلمة فيها شواظ، ورنّة تكّسر قيد.. ولكنها سحقتها بشفتيها وقالت لي بصوت وان متعب:

« يا حبيبي الصغير المسكين. لماذا تعذّبنا ونحن إنما خلقنا للفرح العميق؟». سألتها متعجباً:« أنا»؟

قالت:« أجل. لماذا تنقّر في تخبطك القديم عن المعنى؟ لماذا يظل الطفل الذي فيك عف المناغاة، وتتوهم أنه فيّ لم يبق طفلاً؟ لم يسبق لك يا حبيبي أن أشعرتني أن على أرضنا مسارب للنساء وأخرى للرجال.. لقد حدثتني مرة أن القرون المظلمة هي التي حاولت مثل هذه المحاولة.. ولكن الإنسان الثائر لم ينشد إلا القلب الإنساني، وهو عند كليهما واحد. أنت علمتني أنه واحد، إن أغنياته تعرف الشذا من ينبوع لم ينشطر قط.»

ولكن ما عسى أن ينفع الدواء، آنذاك، في مريض أشفى؟ وكان مريضاً يافعاً لما يُدْمِنْ على خمرة الحياة الطليعة، فتوهم أنه واجدها حتى في ظلمة القبر! المريض المسن أشد قلقاً، وأكثر تشبثاً، بما انتشى من كؤوس الخمر التي ليس كمثلها شيء، خمرة هذه الأرض!

هذا الوجه أين كان مختبئاً، عندما كنا في حديقة المزرعة ننعم بالشمس الدافئة والنسيم الأهيف والحديث العف، ونبحث عن اللّه!؟ في باريس شهدت

رغبات تتفجر وشهوات تقصف أقوى من تلك التي هالتني في بيت عبد المجيد... صبايا يتحدثن بآخر أنباء النظائر المشعة ويعشن يوم مجون.. ولكني أظن أن المحتويين مختلفان.. المجون هنالك جزء من الإعصار الذي فجرته الحربان العالميتان الأخيرتان وإطلالة العصر الذري.. وأما هنا فتتفجر قنابل أخرى بما ضَغَطَ طراز الحياة الهجين على كثير من الزناد، فهدرت الحرائق.. لقد أخذنا عن الغرب السينما ولم نأخذ بساطة العلاقة بين الرجل والمرأة... الضياع في أوروبا لياذ طبيعي من إنفراط التوازن بين الإنسان وما أطلقته يداه من طاقات هائلة.. لياذ موقت تُحِس أن المجتمع لن يلبث - ما دام يعي نفسه - أن يلجمه ويستعيد إتساقه مثلما يفعل جسم المرأة الصبية الصحيح بزرقة الفوليكولين التي تؤخذ للإجهاض.. يطرح الزائد من المادة ويستعيد توازنه.. ويظل، حتى مع ظواهر الضياع العابرة، مجتمعاً دائب المسيرة بحثاً عن الحقيقة!.. وقد يندفع إنسان في زحمة المختبر، وإستغراق الباحثين، يشق الكتل المرتصة فوق الحقيقة ليطرح هذا السؤال القديم:

« لماذا؟»

فلا يرد عليه أحد.. ويروح يرفع عقيرته صائحاً:« فضيحة. ههنا باحثون نطرح عليهم سؤالا فلا يجيبون!» فيعترضه شيخ لم تبق في رأسه شعرة سوداء: «وماذا في هذا! إذا كان الطريق الذي بلا نهاية أفيح جميل العدوتين ألا تكفي متعة السير فيه؟..» ولكن الآخر لا يقنع، يظل يصرخ مشاغباً.. ويمضي الشيخ في سبيلـــه وهو يقول في نفسه،« هذه المشاغبة هي أيضاً من جمالات الطريق!»..

كل هذا هناك، وأما هنا فإنفراط التوازن أشد هولاً لأنه غث، عقيم، حرقة لا تعي نفسها، حال مستقرة وجِنّة لا يصنع صاحبها إلاّ إياها.. هنا ضياع ولا نزوع، زنزانة يحسب رَهِينُها أنها الدنيا كلها!

وبعد، فأنت، على الرغم من أن نظرتك إلى الإنسان قد بلغت مدى أرحب! وهل صحيح أن القلب الإنساني واحد، إنه منشد سماوي، مهما غرّز في الدروب الموحلة يظل مضمخاً بالنور الأبدي النقاء؟

لا، لم تؤمن! لو أنك آمنت لانمحى من مرمى عينيك الشر والقبح والفراغ. وامتلأت الدنيا بالمناغاة والأناشيد الهنية، وضحكات مثل تهانف الدنان إذ تهب الخمر للظماء..

أنت من الأرض، معجون من طينها المتحجر، وأوراق وردها الناعمة، وشوكها الماضي، وتذبذب أسرارها بين الانفتاح والإيصاد.. فلتحمل صليبك، ولتنزل على قلبك السكينة مهما تصكك العاصفة وتجرّحك الطريق، ويبكك الشوك!

*   *   *

٢١

وصلت إلى المكتب خامداً، يتمشى في أطرافي ما يشبه الخَدَر المقعد. كنت أشعر، بعد هذه الإنفلاتة الخاطفة من الحبس الذي أردته لنفسي، أني أعود إليه، مثلما تفعل السلحفاة مدّت رأسها من قفصها وإذا هي تستشعر الخطر فيما حولها، فتسحب رأسها وترجع كتلة عظمية!... يظهر أن الحياة، كما يقول عبد المجيد، مركبة على هذا الشكل.. ليس لنا يد في إعادة صبها وقولبتها، ولا نملك أن نكفكف من تخبطها الأهوج.. أنا لم أخلق لمثل هذا التيار العكر الأسود.. مهما تكن الكتب ممحلة فهي خير إتساقاً وأيسر هَوَجا...

أنا لا أطوي صدري على ضغن. لا أملك الوقت ولا الإستعداد لذلك. الضغن صنعة من لا صنعة لهم.. أولئك الذين لا يطيقون حديثاً مستفيضاً مع أنفسهم.. مزنة عابرة تغسل سمائي وتعيد إليّ رائحة أرضي الطيبة.. ولكن عليّ ألا أزج نفسي في مثل هذه اللجج بعد اليوم!

ودخل عبد المجيد من بعد، فألقى محفظته وحياني وإندفع من فوره يقول:

- كيف أنت؟ يظهر أن علياء قد غرقت فيك تماماً.. تلفنت هذا الصباح أيضاً. هي تريدك، وترى أن الأسبوع الذي إنقضى على لقائكما دهر مرير.. ثم أنها أعلنت أنها عادت لا تحبني فصرخت وقلبي على يدي: «ياللخيانة! إذا قرأت غداً أو بعد غد أو بعد سنة خبر انتحاري شنقاً بحبل الغسيل فلا تلومي إلا نفسك. فضحكت وقالت: «قبل أن تموت هيء لقيا مع حسين!».. تصور! أين كنت مختبئاً أنت؟ حدّ علمي أنك عاشق أفكار.. علّمناك الشحادة، سبقتنا على الأبواب. أراهن أنك ستسبقنا يا إبن البارحة. سهام أيضاً سألتني عنك

أمس وأفلتت منها بضع كلمات تدل على الإعجاب.. وهكذا فأنت تعجب الأصناف كافة!

- أية أصناف؟

فأجاب بلهجة ذات مغزى:

صنف علياء الذي يحب التصوير الفني لتحقيق غايات جمالية صرفة... وأضاف جاداً:

- وصنف سهام النــزيه الشريف.

قلت:

- قد لا أرى الفرق...

صدمتني رنة صوتي. كان فيها ضغينة. الصوت نفسه كان ناشفاً أجش متحشرجاً. ألم أكن أوكد منذ قليل أن الضغينة ليست ديدني، إنها تلوث الأرواح المحلّقة غناءً؟.. ماذا أصابني؟ ها هو ذا عبد المجيد يعكس وجهه الدهشة أيضاً.. قال فيما يشبه الأسرار:

- ما بك؟

- لا شيء

- بل أنت تخفي.. أنت مضطرب.

- نعم مضطرب، ولكن دعني من أسئلتك.

- مستحيل يجب أن أعرف...

- إذن أعلم أني رأيتها الآن وحسب في سيارة لا تنقصها الأبهة، ولا ينقص جلستها هي الفقر والشحادة...

- لم أفهم، أين رأيتها؟

- هنا عند محطة الحجاز..

- مع من؟

- مع محام شاب أنت تعرفه...

صمت لحظة وقد تغضن جبينه، وإرتفعت يده إلى ذقنه تمسكها.. ثم لم يلبث أن سمى لي المحامي، فقلت له:

- حزرت. إنه هو.. يعني أنها بضاعة... أكاد أقول أن علياءك تلك خير منها. علياء لا تضع برقعاً مستعاراً من طفلة بريئة. إنها تثب على اللذات وثباً بكل مـــــا في جسمها الحار من براكين.. وأما سهامك.. أتركني أقول لك! كم كنت غبياً! قال:

- وما تزال.

- أنا لا أطلب شهادتك.

- هل إنتهيت؟

لم أجبه، فراح يقول باسماً:

- إسمع يا حضرة الشرطي التحري، آخر زمان: المحامي الذي كان يوصل سهام بسيارته ابن خالة وأخ بالرضاع. هل تفهم؟ أخ بالرضاع لسهام، يعني أنه رضع من أم سهام هو وسهام.. وأنا لا آخذ عليك ظلمك إنسانةً ممتازة حقاً، ولكن، لأنك على الرغم من تطوافك بين الناس، في بلاد اللّه البعيدة، ماتزال ابن هذا المجتمع الصارم المتهافت في آن.. أساساً أنا لا ألومك.. أنا نفسي مثلك، وعبد الرحمن جارنا في الغرفة مثلنا أيضاً وكل من في المصرف. أنت معجب بسهام إذا لم أستعمل كلمة أقوى من الإعجاب.. ودخولها علينا أول مرة فجر أشواقاً في قلبك تكدست واحداً فوق واحد كلّ مرة صادفتها فيها منصرفة أو آتية.. ولكنك حينما بدأت تفكر في الأمر جدية إرتعبت، خشيت أن يقال في غد: «انظر، هذا الطول والعرض، وامرأته..» وأنا أيضاً أخاف، أخشى أن يقال في غد: «أي أعمى قلب! لو أن لها عِوَض الماضي الحافل عجيزة حافلة...» ثم أننا، أنت وأنا، لسنا شرَّ الدواب في هذه الدنيا.. أعرف رجالاً، من هذه الطبقة الوسطى التي نتشرف بالانتماء إليها، يعرفون ومع ذلك يتزوجون. يعرفون ويخنسون! لأن المظاهر لم يصبها أذى يذكر.. وقد تسألني أي مظاهر فأقول لك، في بساطة أن يعلم، الزوج آخر من

يعلم كما يقولون! بل أعرف زوجاً علم.. انتشرت قصته في الصحف وجاءه ناصع أمين يهمس في أذنه: «هذه القصة قصتك!» فأخذ الصحيفة بيدين مرتعدتين وهو يقول ملتاعاً: «وما عساي أن أصنع؟ هل ألمُّ أعدادها من السوق؟» أليس غيوراً دموياً هذا الزوج!

هدأت قليلاً.. ولكني أدركت أن سهام لم تعد لي. ذكرى شارلوت ستبقى قبضتها تشد على قلبي.. إذا تسربت الغيرة إلى القلب لم تتركه إلا هشيماً.

وجاءنا الآذن بأوراق إنصببنا عليها ساعة أو ساعتين. وارتفعت تكتكة آلة عبد المجيد الحاسبة.. ورن جرس المدير يستدعي عبد المجيد مرة فغاب ومعه مصنف مكتظ.. ودخل زائر على المدير.. ورفعنا سماعة الهاتف مرات.. وأخيراً خفت حدة العمل فإستدعينا الآذن وأوصيناه على فنجانين من القهوة.

قلت:

- عبد المجيد ألست غاضباً عليّ؟

قال باسماً:

- لا، أنا لست غاضباً. ما أنت إلا طفل. في شبابي، حينما كنت أقبل على غرفتك الحاشدة في البيت، كنت تعلمني الجد.. وأنا الآن أردّ المعروف فأعلمك النقيض.. أنت في حاجة إلى أن تخفف من غلوائك.. وما دمت لا تستطيع أن تعثر لي على مبرر لهذه الرحلة التي فرضت علينا فتشبثنا بكل جمالاتها الخلابة الزائلة المذهلة فدعني أضحك، وأشرب وأنا« أصور» وأتصنع الغضب.. تذكر أني كنت أهتف هذا الصباح:« يا للخيانة؟» لو رأيتني لآمنت أني خلفت حتى يوسف وهبي ورائي مئة مرحلة؟

قلت:

- وأما أنا فلا أطيق أن أنظر إلى المرأة الرفيقة إلا نظرتي إلى معبود قد تعجبني نانا زولا ولكني أفضل ناتاشا تولوستوي.. الأمومة عندي، بكل ما تشمل من خلق ونقاء وهبات، تجمع الفضائل كلها..

والمرأة أم ثم أشياء أخرى صغيرة! أنت تعرف أمي، تعرف وداعتها، رقتها، صفاء ينابيعها.. أكانت تكون إياها لو لم تلد؟ أقطع أن هذا الفرض مستحيل. لا بد أن صيحة الطفل الوليد هي التي فتحت لها أبواب السماء، فدخلتها ونهلت من لالأئها...

- ولكن، هل تخال الأمومة قادرة على صوغ المرأة صوغاً جديداً، على خلقها لبنة لبنة كرة أخرى؟؟ ألم تقع على نسوان يلدن مثلما يقصصن أظافرهن؟

ألا أنه لسؤال محرج؟

لو أن علياء مثلاً سمعت صيحة طفل وليد خرج لتوّه منها.. أتراها تنفتح لها أبواب السماء؟ علياء، ربما! ولكن سلمى؟ أغلب الظن إنها ما رفعت بصرها إلى السماء إلا عندما يقلبها عاشق فتى على عشب مرج.. وحتى في هذه الحال تنظر ولا ترى المصابيح التي جعلها اللّه رجوماً للشياطين وأدوات للتفكر في خلقه...

وأضاف عبد المجيد:

- في المدرسة الإبتدائية كان الأستاذ حسني - أنت تذكر ذلك - يعلمنا أن وجدان الظلم هو الذي فجر الثورة الفرنسية وكل ثورة أصلاً.. وأنا أعلمك أن وجدان الأمومة هو الذي يحلّق بالأم حتى تقرع أبواب السماء.. في بعض الأمسيات أذهب إلى بيت أختي. عندها خمس بنات وثلاثة صبيان. الصبيان ملاعين، يفكرون طوال النهار بتصليح السيارات والبيع والشراء.. وقد يضربون أخواتهم، حتى اللواتي يكبرنهم سناً.. وأما البنات، يا حبيباتي الصغيرات، سأريك إياهن يا حسين ذات يوم.. أؤكد لك أني لا أمل من تأملهن.. ربما حولت نظري إلى الأبوين مُسراً هذا السؤال: «أيدرك هذان ماذا أبدعا؟».. تصور أن الصغيرات عقدن، في إحدى الأمسيات جلسة فوق العادة لبحث مسألة أسنان أمي (وكانت أسنانها خربة تحتاج إلى قلع وتركيب بدلة أسنان ولكنها تخاف كلابة الطبيب خوفاً ظل مدار نكاتنا زمناً طويلاً).. وكنت أصغي إلى ما يدور في الجلسة وأتصنع القراءة... وإقترحت سها (ست

سنين) أن يذهبن إلى الجدة ويقنعنها ألا تخاف من قلع أسنان: «أنا، خالو عبد المجيد قلع لي سني بالخيط». وهذا صحيح.. قلعت لها سنها بالخيط. ولم تشعر بها إلا متأرجحة في الهواء.. وأضافت سها متسائلة: لماذا تخشى جدتها قلع أسنانها، ما دامت الأسنان ستنبت من جديد؟.. وأما مها وعمرها تسع سنوات، فأعجب.. هذه ستكون، قولاً واحداً فنّانة. طريقتها في الرواية عجيبة تشبه ما رأيناه من أمك أنت: التفاصيل التي تفلفل بها حكاياتها وتبهِّرها تنقلك إلى الجو فتعيشه. أنا أعرف مثلا أن إحدى رفيقاتها قد أقامت مأدبة للصفّ عن روح أمها المتوفاه، أعرف أثاث البيت، لون بشرة البنت اليتيمة شعرها، إلخ..

مها هذه كانت قبيل عيد الأم الماضي منهمكة في الكتابة، تمطّ لسانها، وتضغط على القلم. ظننتها تكتب وظيفتها.. وسألتها فأخبرتني بأمر عجب. كتبت تمثيلية صغيرة وافقت عليها «الآنسة» وقررت إخراجها على مسرح المدرسة. وكانت مها إذ ذاك مكبة على تبييضها. التمثيلية عندي. أحتفظ بنسخة عنها نقلتها أنا. شيء بديع ياحسين سأقرئك إياها.. فيها بعض هنات. هكذا تكتبها هكذا، اشتريت ترسمها، وأظن هذا يجوز.. ولكن، أي حوار طلي يا حسين. الكلمات القليلة التي تعرفها تفتن في تنضيدها، ضمها، بنيانها وبعثرتها.. تماماً كما يصنع طفل صناع بمكعبات الورق.. كل هذا يدور والأب يغوص حتى أذنيه في لجج تجارته.. والأم أختي، قد يسرها فلم سخيف لعبد الحليم حافظ أكثر مما تسرّها تمثيلية مها الحبيبة الفاتنة!

اسمع هذه أيضاً: قبيل عيد الأضحى الماضي اشترى لهم صهري خروفاً صغيراً كان قبل ذبحه يلحق بأختي ويصيح: ماع، ماع.

جاءت سها تقول لأخواتها: «يا حبيبي هذا الخروف.. يلحق أمي وينده لها: ماما، ماما».. وأما مها فلم تذقه. بكت لما ذبحوه بدموع حارة. إبنة الجيران عفاف حضرت ذبحه وأقبلت تروي لبنات أختي ما شاهدته وإنهالت عليها الأسئلة: «بكى؟ - نزل له دم كثير؟»

قلت:

- أتدري يا عبد المجيد إنك توجه أنظاري إلى عالم جديد. أنا ألاحظ مثل هذه الملاحظات في أولاد أخي، في أحفاد خالتي.. ولكن صورك أنت..

- يجب أن تلاحظ. درّب عينيك على رصد الجزئيات. الغرق فيها سلوى ومؤانسة. إنه يشبه عودة متناوبة إلى الطفولة التي تموت فينا، إلى البراءة؟

كل يوم أكتشف في عبد المجيد أفقاً لم أكن أعرفه عن سمائه؟ أين هذا المتحدث الشفاف من عبد المجيد نهارنا الماجن في الإسبوع الماضي؟ كم ظلمته إذ توهمت أن قراءاته نوع من الفخاخ ينصبها للنفّاجات العابثات من فتياة الجيل؟ اللهم إنه يتمثل ما يقرأ ويحيا على الأخص.. والحياة، الواقع، أبهى وأعمق من كل كتب الدنيا.. وقد علمته الحياة فأحسنت تعليمه، ألا تكون نظرته إلى سهام وأسرتها قائمة على حدس صادق يسبر الغيب فلا يخطيء.. ولكن شبح شارلوت هنا، منتصب فوق رأسي كالمارد، باسط ذراعيه يريد أن يطبق بهما علي...

وسألت عبد المجيد بعد فترة صمت:

- عبد، أتذكر أنك قلت لي أن لها أختاً أصغر منها..

- من هي، مها؟

- لا، سهام.

- نعم، لها أخت أصغر منها.

- حسناء؟

- واللّه أنا أراها حسناء.

- تشبه أختها؟ - تشبهها؟ إنهما أختان. الحقيقة أنا لا أدري، أتخيل أن في سهام إيماءات نبالة لا أجدها في أختها.. لعل هذا وهم. لعل مرده إلى أن سهام تعمل عملاً عقلياً لحد ما، وتعاشر أناساً على درجة من الثقافة.. بينا الأخرى تزاول عملا يدوياً، قد يكون سبباً في الحد من آفاقها فينعكس ذلك على إيماءاتها.. هأنذا تعلمت الفلسفة منك، أعتذر؟ -

أهي مهذبة؟

- وديعة لطيفة، حياء أختها نفسه. ولكن كأني أرى إهتمامك قد إنتقل إلى الأخت؟

كيف أشرح له؟ أنا أعترف خجلاً بأننا متناقضون وعلى قدر كبير من التشويه وأن المخافة معششة في قلوبنا..

قلت:

- ماذا أقول لك؟ أنت تعرفني أنا إنسان ليس عندي ما يبهج المرأة إلا الفكر.. فإذا كانت رفيقتي المقبلة.. قد لا تهمُّ الثقافة.. التفاهم قد يدفع المرأة المحبة إلى التعلم.. مايعنيني هو الحرب على جبهة واحدة كما يقول العسكريون، أنا أحارب في جبهة الفكر، أن أقهر الجهل.. لا أن أرتمي - مع حربي على هذه الجبهة - في حرب مع الجنوح، مع العشاق إذا أردت الوقاحة في التعبير، أو حتى مع أشباحهم المتوهمة إذا كنت مخطئاً؟.

- عجيب!

- يعني، أقصد، لو إستطعت أن تتدبّر لي زيارة للأسرة. دعنا نزورهم معاً..

كان ينبت في قلبي مأمل: سهام هي المرأة التي أستطيع أن أحبّها، أقصد التي يمكن أن أمنحها حبي كلّه، أن أسكب عليه الأشواق التي كنت أطرحها هنا وههنا ولكنّها لا تنفك ترتدُّ إلي أبداً ظمأى، لم تبلَّ لها لهاة. ومع ذلك.. إذا كانت أختها تشبهها؟.. وبعد! فماذا يربطني بسهام؟ أأنا عاشق؟ ولكن أليس في هذه النـــزوة معنى إستعراض بضائع في مخزن؟ أين الأخلاق هنا؟

ولكن، أنا أخاف« الثقافة» عند الفتيات. في قلبي منها جرح قديم.. الخيّاطة التي تغرق، حتى أذني رغباتها في ثنيات ثوب، في درزة زنّار، لا تجد وقتاً تضيِّعه في فلسفة القبلات المسروقة والأغنيات الداعرة... وأنا المسؤول من بعد عن المستقبل!

وقال عبد المجيد وهو يعود إلى آلته الحاسبة:

- متى شئت. سأردّ عليك الخبر هذين اليومين.

- عفواً يا عبد، قبل أن تتصرف إلى حساباتك. قد لا تعجبني البنت.. فأرجوك أن تجعلها زيارة ولا زيادة، يعني ألاَّ تشير لا من قريب ولا من بعيد إلى نيتي.. البنات لا يغتفرن لمن« يقلبّهن» ويختفي فلا يعود إلى الظهور بعد ذلك أبداً. فهمت؟ أنا أكره حتى الموت هذا الفصل من الخـطبة. يخـيّل إلـيّ أنـي فـي سـوق الغنم...

- فهمت، لا يكن لك فكر.

إندفع إلى فمي أكثر من مرة توسل: «لا أرجوك. أضرب صفحاً عن هذه الحكاية كلها. دعني أجفّ قطرة قطرة حتى قبر منسي. أنا إنسان بائر لا خير فيّ. إنتهت حياتي وقضي الأمر». ولكنني لم أقل شيئاً. كبخي ذلك الأمل البعيد الذي كثيراً ما عاودني: «لعلٍ صدفة تلوَّن حياتي» مثل مشتري أوراق اليانصيب المزمنين شراء وخسارة. أمل بعيد ولكن.. من يدري ومع ذلك فلم ينقض النهار حتى كنت أفهمت عبد المجيد ألاّ يستعجل!

* * *

٢٢

أيّ تغيّر قلب سميحة، إنسانة تكاد تكون جديدة تماماً. صحيح أن أموتها الظمأى كانت تجد متنفساً لها في الأعلاق الصغيرة، والعناية بمالك، ومع أولاد هاشم الكثر.. ولكنك كنت تحس أن شيئاً ينقصها، يمنعها من أن تبلّغ عواطفها إمداءها ونهايتها، مثل القدم الصينية المحبوسة في الحديد.

وهكذا فلم تكن أمل وحدها هي التي إنسكبت عليها أمومة سميحة الثرثرة الفياضة بل فاطمة أيضاً. كنت أزور أختي كل يوم وأجلس طويلاً على الشرفة أو في الصالة الواسعة أتأمل هذه العملية الضخمة من النموّ الذي تشمل أهل البيت جميعاً. أمل صارت بنتاً موفورة الصحة تستجيب للمناغات وتهدل:« كغ، كوغ» وتبتسم لكل إنسان. هل يرتسم مستقبل الإنسان في لوح محفوظ في مكان ما منذ هذه السن! إذا كنا نولد جاهزين أو نكاد، فأمل هذه ستكون امرأة وديعة جميلة تنشر البهجة أينما حلّت. إنها لا تبكي وليست شرهة.. وأختي أيضاً تنمو، تكتشف كلَّ يوم أسلوباً جديداً لرعاية إبنتها.. ومالك كذلك. صار يتحدث عن «مسؤولياتنا أمام أولادنا. في البيت يتقرر مصير المجتمع الأكبر..» وأما فاطمة التي بدت في الأيام الأولى مضيّعة، تائهة، تموج في عينيها الساحرتين كآبة لا حدّ لها.. أضحت الآن أميل إلى المراح. إنه مراح مشعوب، كسير، مثل الابتسامة بين الدموع ولكنه لا يحيّرك ويربكك مثل الكآبة القديمة، كآبة طفلة، تصوَّر!

ومنذ الأيام الأولى أخذت سميحة تحاول أن تشعرها أنها في بيتها. فهي لا تقول لها «افعلي» بل: «ألا نفعل؟».. ووعدتها أن تتيح لها أوقاتاً من الفراغ تتصرفان أثناءها إلى متابعة الدروس التي اضطرت فاطمة إلى

تركها.. وبرَّت سميحة بوعدها فلم تمض بضعة أيام حتى رأيت كتب الجغرافيا، والتاريخ والقراءة بين يدي فاطمة وكانت البنيّة تقول لي: خالو حسين، ولمالك، عمو مالك. وتسألني أحياناً عن طريقة حلِّ هذه المسألة الحسابية أو فهم هذا الدرس من التاريخ. وفي بعض الأحيان أدخل على أختي البيت فأراها مكبّة وفاطمة على المنضدة..

عدنا سميحة وأنا، لا يتسنى لنا، أن نجلس جلساتنا المديدة التي نتسّارّ خلالها. كثير من الأفكار الغامضة في ذهني كانت تتوضح بعد جلسة مع سميحة. كان لها طريقة في الأصغاء لم أر أبرع منها إلاَّ شارلوت.. تفتح عينها وتتجذب إليَّ كلها كأنها مسحورة. أحياناً تطرح أسئلة ذكيّة. أحياناً أخرى لا تقول شيئاً ولكن وجهها يقول لي: «ما أجمل ما تقول!».. وأما الآن فعدنا لا نتحدث إلاَّ أحاديث خاطفة. ولكننا نتفاهم دائماً.

ولكنني كنت في حاجة إلى سميحة في تلك الأيام.. ولعل ذهابي إليها كل يوم كان وراءه أملٌ أن تتاح لي جلسة أسرار. ما كان عساي أن أقول لها؟ قد يكون في نيتي أن أبوح لها بكل شيء، أسألها حلاً للمأزق الذي أراني قد أنقدت إليه.. أن أوضح، في الأقل، بعض الأفكار الغامضة.. ومن جهة أخرى، فأنا إنما عرفت كثيراً من خلائق بناتنا عن طريق سميحة. أنا لا أقول أنها مولعة بالثرثرة ونقل الفضائح. اللهم كلاّ، وأشهد أن في سميحة ما فينا كلنا من غفلة وبراءة. ولكن سميحة تمتاز بقدرتها على نقل الجو نقلاً أميناً،ولك أنت من بعد أن تستنتج ما تشاء.. مثلاً عنيت وقتاً طويلاً بدراسة أثر السينما في بناتنا.. فزودتني سميحة بأمثلة وظواهر بديعة: امرأة صبية من صويحباتها أولعت في المدة الأخيرة بالتذمّر من حياتها مع زوجها. الزوج لا يعرف الرقص، ولا يذهب بها إلى حفلات انتخاب ملكات الجمال، ولا يفتح عليها هاتفاً من متجره في سوق الحميدية كلّ خمس دقائق «سوسو، حبيبتّي، البسي لي روب الكوكتيل وتعالي إلى الهاتف.. بوسة لحبيبك فوفو!» وبناء عليه فقد دخل في روعها أن حياتها مضيّعة مع هذا الهمجي وأنها تعيسة وكلما دق الكوز بالجرة تصيح في وجه المسكين: «أنا تعيسة، طلقني، طلقني» تعيدها ثلاث مَّرات، لا بد. وللرجل منها ولدان فوق هذا كلّه!

ذلك اليوم ذهبت إلى سميحة. كانت فاطمة كلها لدفتر رسمها وأمل تناغي وحدها وسميحة مقطبة. وعلى الرغم من بشاشتها في استقبالي لم تستطع محو شاغل شغل بالها. كان الصيف قد بدأ يطغى على الربيع، وباب الشرفة مفتوح، وأضواء النهار الذاهب تنعكس من جدران الغرفة ووجه سميحة فتضفي عليه إثارة من شحوب.

قلت:

- ما بك؟

- لا شيء؟

- فحدقت فيها باسماً وقلت:

- أنت لا تحسنين الإنكار.

فغمزتني أن أسكت وقالت لفاطمة.

- حبيبتي، عمو حسين يحبّ قهوتك.

فنهضت البنية لتوها وخفضت بصرها لحظة خفضة التحية، وذهبت إلى المطبخ:

قلت:

- والآن؟

قالت:

- كيف أروي لك. لم أقلها حتى لمالك.

- إذن فالمسألة خطيرة؟

- لا أعرف.

- احكيها.

وحكتها. منذ أيام نوّهت فاطمة بلطف أنها اشتاقت إلى أهلها وإخوتها فوعدتها سميحة أن ترسلها قبيل العيد ووعدتها أن تشتري لها هدايا لكل فرد من الأسرة. ومنذ بضعة أيام كانت فاطمة تنزه أمل في الشارع وأختي تلمّ

الغسيل فمدت يدها إلى خزانة فاطمة وإذا فيها أصناف من اللعب التي لم تشترها أختي قط.. وذهبت تبحث في حقيبتها فخيّل إليها أن يداً عبثت بما فيها.. ولم تقل لفاطمة شيئاً ذلك اليوم ولكنها أحصت دراهمها فوجدتها في اليوم التالي ناقصة. مالك ليس من عادته أن يمد يده إلى الحقيبة. وإذا إضطر لقطع النقود الصغيرة استأذنها قبل أن يفتح الحقيبة... إذن لم يبق إلاّ فاطمة.. ولا سيما مع هذه اللعب. سيارة صغيرة، جمل من الخشب، إلى آخره. وأحرجت سميحة كثيراً. خفق قلبها. أصابتها رعشة. قد يغضب مالك ويطرد البنت. يعني أننا نتركها لبداوتها، مع أن علينا أن نقوّمها. ما العمل؟ وأخيراً قالت لها في لطف شديد أنها تعتبر نفسها أمها، وحقيبة الأم تحت تصرف البنت ولكن كان عليها، على فاطمة، أن تستأذن قبل أن تمدّ يدها.. وانخرطت البنية في بكاء مرير.. لقد قال لها أبوها أنه كتم عن إخوتها عملها في دمشق وأخبرهم أنها في مدرسة داخلية... والهدايا تصديق لكلامه..

- «ولكني وعدتك أن أحمّلك هدية لكل فرد..»

« - نعم، أخطأت..».

وقالت سميحة والدموع في حلقها:

- ماذا أفعل؟ هل أخطأت في شيء مع هذه البنية؟

قلت:

- ولماذا أنت حزينة؟

- لا أدري، ولكني أشعر أني أهنت.

- لماذا؟

- لو كنت قاسية، لو كنت أقفل الخزائن، لو..

- إسمعي يا حبيبتي، قلت لي أنها بكت..

- كثيراً.

- واعتذرت.

- اعتذرت.

إذن لماذا لا تفهمين القصة على النحو التالي: بنيّة صغيرة تحبّ أسرتها وتريد أن تكون سبباً في إدخال السرور على قلوب أهلها، ولكنها أخطأت في إنتقاء الطريق؟

- صحيح ولكنها سرقة.

- لماذا لا تسمينها« أخذاً»؟ أنا لا أنكر أنك برَّة بها ولكن من ذا الذي يعوضها ضمة الأم وهتفة:« يا أختي»؟ إنها هنا غريبة. وإذا كانت تحيا هنا فجذورها التي تنقل لها الحياة الحقيقية تظلُّ هناك، في الجبل، بين الأخوة والأخوات والأب والأم. وماذا نفعل نحن إذ نقتلع هذه البنيات من أرضهن؟ إننا نفسدهن ولو وهبناهن كلَّ رعاية الدنيا.. إنهن هنا غريبات فإذا أنفقن خمساً أو ست سنوات في المدينة غدون غريبات هناك أيضاً. أنا لا ألومك، ولا ألومُ مالك ولكنّي أودّ أن أفهمك أن القضية لا تستحق حزنك أبداً. وأنصحك ألاّ تبدّلي من معاملتك وأن تحمليها على اليقين، بالتصرف، إنك نسيت القصة وفي الوقت نفسه، إن الطريق إلى مرضاة أهلها إنما يكون في التعليم مثلاً.. أقول لك هذا مع علمي أني أقدم حلولاً لمشكلة إفرادية وهذا بديهي...

وحاولت أن أقفز بالحديث إلى موضوع آخر وإذا الباب يفتح و مالك وهاشم يدخلان هاشم معه صندوق فتحه في شبه تظاهرة وأعلن أنه خال كريم وها هو ذا يحمل لعبة - عربة لإبنة أخته ومالك يقول له:

- نحن لا نرتشي. لا نزال نذكر أحاديثك العدوانية ضدنا. خذ هديتك وإنصرف.

وهاشم يرد عليه مستنكراً متبرئاً:

- أنا؟ وحقك يا كتاب اللّه من يوم مارأيتها أول مرة قلت أنها« ست الحسن» وأنها ستعيش. هذا أنت يا دكتور آخر زمان الذي كنت تهز رأسك يميناً وشمالاً:«الأمل ضعيف... بصلاة محمد يا سميحة قولي الحقيقة، أنت كنت شاهدة. يا أولاد(الخطاب لمالك ولي) ما قولكم في تحديد النسل؟

* * *

٢٣

كان البيت بسيطاً. الأم هي التي فتحت لنا الباب، وقادتنا إلى الصوفة، وهي تقول:

- سلامات، سلامات. تفضلوا. أنا آتية.، دقيقة واحدة، رح يا عبد المجيد سل الأستاذ حتى آتي. كل يوم تعال إلينا. أنا أحب حكاياتك الحلوة هيء هيء..

وغابت بقية الضحكة.. وقال عبد المجيد:

- أين الصبايا؟

- الآن نأتي كلنا. ادخل، ادخل. الصبر أحسن دوا!

كانت الصوفة واسعة فيها ديوانتان ومنضدة صغيرة في الوسط، عليها مزهرية من البلور المحجّر. قرب الباب، ماكنة خياطة مجللة بقماش أبيض نظيف، ومكتبة واسعة لمحت فيها كتاب الأغاني، عدة أجزاء. هذه الصوفة الواسعة تتصل بغرفة تكاد تكون إمتداداً لها لولا الباب الزجاجي المفتوح.. إلى هذه الغرفة عبرنا الصوفة ونحن ندعس على سجادة حلبية.

هنا، في هذه الغرفة، الأثاث أكثر أناقة. من السقف تتدلى ثرياً والأرض مفروشة بسجادة عجمية صغيرة تمسُّ أقدام المقاعد التي تحف الغرفة من أطرافها الثلاثة. على الجدار صورة طبيعية صامتة، شغل إبرة، في إطار من الخشب المدهون. منضدة الوسط عليها تمثال من الخزف الملون. طفل يحاول أن يقبل خد طفلة وهي تجمح إلى الخلف في ممانعة غنجة...

كنا نتحدث بصوت خافت.. قال عبد المجيد وهو يغمز ناحية الدهليز:

- تعبانة شوية.. كلما قلبت النظر بين سهام وأمها لا أملك دفع سؤال: «معقول؟ هذه من هذه؟» حكاية الوردة من الشوك.. ومع ذلك فهي امرأة طيبة، مسكينة، ربّت هاتين البنتين بالدموع.

قلت:

- أفكر أن العظماء الذين ملؤوا الدنيا وشغلوا الناس، لماذا لا نسمع عن أُمهاتهم شيئاً مذكوراً؟ ماتعلم مثلاً عن أم ليوناردو فانتشي، عن أم تشايكوفسكي؟ لا شيء. أحياناً ربما لعبت الأم دور الجندي المجهول في حياة هؤلاء وأحياناً لا تلعب شيئاً إطلاقاً.

- قد يكون دور أم سهام مقتصراً على تعليم إبنتها بنيان حياة خصبة مغلقة. الأم هرَّبت البنت إلى عالم آخر. إنهما منفصلتان بخط عازل، وقد لا يجمع بينهما غير قصعة الطعام.

ودخلت الأم، كانت تلبس معطفاً من الجوخ الرمادي وتضع على رأسها منديلاً في لون جلد الفأر. صوتها أجش. قالت لي:

- سلامات يا إبني.

فقال عبد المجيد يقدّمني:

- رئيسنا الأستاذ حسين.

كانت تحدق فيَّ من رأسي إلى قدمي وتتلمظ كأنها تزيل بقايا حلوى من فمها: «تشأ». قالت:

- تشرفنا. أبو سهام كان رئيس الشرطة كلّها في اللاذقية يقضي ويمضي على عشرة آلاف شرطي، يمكن أكثر، إستغفر اللّه العظيم.. وأينما راح ضرب السلامات شغّال: طق - طق .. كيف يا عبد المجيد هيء هيء هيء إ إ إ...

لا، هذه الضحكة لم أسمع مثلها في عمري.. عبد المجيد لم يستطع تقليدها لمّا أضحَك سهام: ضحكة كثيفة تنصب عليك من كل جانب، تلاحقك مثل إنهمار مطرة فاجأتك وأنت في برية مترامية، ثم إنقطعت مرة واحدة كما فاجأتك..

وأضافت:

- هذا هو الرئيس من حق وحقيق.

وقال عبد المجيد:

- كيف رضاك على سهام؟

قالت:

- اللّه يرضى عليها وعلى أختها رضى الوالدين يا إبني أصل كل شيء. نبينا أوصى بالوالدين. من زمان كان لنا جارة تبوس الأرض وتغضب على أولادها. أي مالك عليَّ يمين كانوا إذا أمسكوا حفنة الذهب تصير في أيديهم حفنة تراب.. بعيد الشر عنّك وعن أولادي وأولاد أمة محمد.

وقال عبد المجيد باسماً:

- ألا يحدث أن تعاندك سهام؟

- يحدث. المصارين في البطن تتقاتل.. سهام، في أوقات عنيدة. أقول لها أنا: «هودي، هودي، الأرض الواطية تشرب ماءها وماء غيرها يا بنتي.» ولكن الشباب، يا عبد، الشباب دمه يغلي كأنه على جمر.. دمنا نحن بارد مثل السمك.. أنا بس أخاف أنها لا تنخطب.. لان واحدة من جاراتنا في اللاذقية...

وقاطعها عبد المجيد:

- يجب أن تؤدبيها. أنصحك بأن تضربيها. عليك بالفلق من شر ما خلق!

- يوه، على قامتي إن شاء اللّه. بنت صبية مثل الحورة، وموظفة اضرب واطرح، وأرقعها فلقة! يوه يا أستاذ عبد المجيد هيء هيء إ إ.. أنت لا تتغّير!

ودخلت سهام.. كانت في الروب الأسود المغلق عند الجيد، ولكنها استبدلت بعقد العاج الصنعي عقداً من الياسمين تدانت أزهاره دنواً كبيراً. وقال عبد المجيد مستأنفاً وهو يتوجه إلى الأم دائماً:

- أي نعم ياست راسي، يجب أن تشغَلي العصا. انظري ما أجملها. قسماً باللّه ملكة، لا ينقصها لا التاج ولا العرش ولا الرعية.. هذا الجمال يا خالتي أم سهام يُرْبِكُ الناس، يصرفهم عن أعمالهم. اللّه لا يعطيك العافية يا غالب يا جحش، الخلاصة.. مثل هذا الجمال يحتاج إلى تأديب!

وضحكت الأم، هذه المرة كانت ضحكتها مختصرة مثل صيحة الديك الهندي. وتساءلت سهام في شبه ملامة:

- عم يتحدث؟

قال:

- عنك. كنت أنصح أمك وهي تَتَمنّع. لما كنا صغاراً كان الفقراء منا وأنا منهم - نذهب إلى المدرسة بالقبقاب والجلباب.. فإذا غضب اللّه على ولد ولبس البنطال وجاء إلى الصف نظيفاً وسيماً استطاع أن يطمئن إلى أنه سيأكل منا قتلة ممتازة عند الإنصراف!

قالت سهام:

- قسوة. الأطفال أحياناً قساة حقيقيون!

قال:

- لماذا يا آنستي؟ هذا طبيعي.. نوع من إنتقام الغثاثة لنفسها.. في المجتمعات أنت ترينه على نطاق أوسع فقط.. أي نعم، اضحكي اللّه يسّرك. ولكن لو آل الأمر إليَّ لضربتك أنا.. أي، أي نعم، أضربك أنا نفسي.. أين هند؟

فتبغددت الأم قائلة:

- تصلي العشاء، اللّه يرضى عليها...

ونظرت إليَّ منتصرة..

هذه النظرة لم تعجبني. حولت بصري نحو عبد المجيد أسأله بعيني فأشاح عني وعلى وجهه أمارات المذنب الذي لا يزعجه ذنبه! ترى هل قال لهم؟ إذا كان فعلها ففي أي مأزق يكون قد رماني!

وقالت الأم متابعة وهي تنظر إليَّ دائماً:

- لا نقطع وقت صلاة، اسم اللّه عليها. سهام لا تصلي، وأما هند...

وقطع كلامها دخول هند.. كانت شقراء، أميل إلى النحافة، بادية الأناقة. إن جبينها ضيق، وجاء كي الشعر فأضفى عليها معنى تراه بالحري في صانعات الخياطات، لا في الخياطات اللواتي يعلمن التفصيل في مدرسة الطليان..

في البداية خيل إلي أن حركاتها طبيعية: خفض البصر، إمالة الخد، الوناء المتدلع في حركة الذراعين. ولكني لم ألبث أن فهمت أن ما وقر في قلبي من نظرة الأم صحيح.. وعدت أنظر إلى عبد المجيد شزراً، فغمزني غمزة أخرى كأنها تريد أن تقول: «يا اللّه، وماذا في هذا؟ أي نعم.. قلت لهم.. إفعل ما تريد!» الخبيث! أوصيته مع ذلك ألا يقول لهم.. ما أشد جرحي!

وسألت الأم هندَها:

- صليت يا عين أمك؟

فأطرقت الفتاة وصأت مثل الفرخ:

- نعم، ماما.

فالتفتت إلى الأم:

- تصلي أنت يا أستاذ حسين؟

فأجبت في خَرَق، وبلهجة باترة:

- لا.

- ليش يا إبني؟

- أنا لا أؤمن.

كيف قلتها؟

كانت قاسية حقاً، ولكنها أفلتت مني على غير عمد فزادني إنفلاتها عصبية. وقالت الأم:

- أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم. أستغفر اللّه يا إبني، حرام عليك. سم باسم اللّه يهرب اللعين أل حكاها عنك. هدي الكلمة ما هي منك.. نحن لما كنا في بيروت...

وراحت تحكي قصة طويلة خلاصتها أن جاراً لهم إسمه عبد اللّه كان ضليلاً سكيراً، مقامراً، لا يحلل ولا يحرم.. لا يؤمن لا بسيدنا محمد ولا بعيسى ولا بموسى. في يوم من الأيام عض على لسانه ومات، بعيد من هنا سبع طرق، العمر لكم ولأولادي.. بعد جمعة جمعتين، شهر شهرين، تذكر أهل الميت أن في بدلته التي دفنوه بها أوراقاً مهمة، فطلعوا على القبر ونبشوه.. أين الميت؟ ما فيه ميت. كان في القبر محل الميت، حافر كديش أين الميت؟ يعلم اللّه أن الشياطين هي التي إختطفته.. الأفاعي عندما تبلغ من العمر ألف سنة ترفعها الملائكة بالكلاليب إلى النار.. لأن الشياطين..

قلت معانداً:

- ما فيه شياطين!

- أعوذ باللّه، أنت تمزح يمكن؟

- لا، جد، ما فيه شياطين.. الشياطين خرافة.

وتدخلت هند موجهة الخطاب إلى أمها على إستحياء:

- أسكتي يا أمي، جيلنا غير جيلكم، جيلنا يتعلم..

فقاطعتها الأم مستنكرة:

- يعني!

- يعني أننا نفهم هذه الأمور على شكل آخر.. الأستاذ حسين (وهنا رق صوتها جداً) متعلم..

وتدخلت سهام. قالت في عذوبة:

- يفهمون ماذا يا أختي؟ الدين نعمة كبرى. أنا لا أصلي. ولا أؤمن بأن الشيـــــاطين تخطف الجثث ولكني أؤمن باللّه. ألتجيء إليه كلما ضاقت عليَّ الدنيا وغلبني الحزن..

فغمغمت هند بكلمات غير واضحة فلم يهتم بها أحد، وسألت أنا سهام قائلاً:

- كيف تلوذين به ما دمت لا تصلين.

فقالت كأنها تصل ما انقطع من حديثها:

- لما مات أبي سمعتني أبتهل إلى اللّه، أهتف لنفسي بإسمه. كنت في الإبتدائية، ولا أذكر ماذا قلت له يومئذ بلغتي الطفلية، ولكنه شيء معناه:

« إلهي، ألهمني أن أصبر وأنزل على قلبي السكينة»..

وقد إستجاب اللّه دعائي، فأحسست على صغري بأن يداً بيضاء مثل النور تمسح على صدري...

وقال عبد المجيد شيئاً عن العلم والدين لم أنتبه إليه جيداً وتكلمت هند.. ولكني، كنت بعيداً.. أنا أيضاً مسح هذا الصوت المترقرق، كإنسياب الماء تحت ضوء القمر، على قلبي فأجتثَّ سخائمه وَهَضَبَه برّقة أوراق الياسمين تحت لؤلؤ الندى الصباحي.. وبعد أن كنت أنزلق على حافة المقعد متحفزاً مثل ديك مهارش انسحبت حتى استراح ظهري على مسند المقعد. وأطلقت عيني تطوفان على الجلاس. كان عبد المجيد وديع الأسارير خلا وجهه من بريق المعابثة.. وطفا في عيني الأم نوع من الرأم الرفيع، رأم لم تبق رموشها المتخللة معه إلا وطفاً ساجياً..

وكانت تجلس على المقعد قربي والأم على الديوانة في الصدر وعبد المجيد وهند قدامنا.. قلت كأني أكلم نفسي:

- وبعد، أكملي أرجوك..

وإشتبك حوار حيّ بين الثلاثة.

وسألت سهام شروداً:

- ماذا؟

- تجربة الإيمان، كيف تتصورين اللّه؟ قولي ما شئت ولكن لا تسكتي.

لم أكن أثبت نظري فيها ولكني أحسست أنها حدقت فيّ ملياً. وبعد أن كان صوتها طليقاً حراً، لاحظت أنه بدأ يتعثر في لحظات خاطفة بعض التعثر ثم يعود إلى إنسيابه الطليق..

قالت باسمة:

- ماذا أقول؟ أنا أعرف، من غير تواضع مصطنع، أني بنت بسيطة. وأظن أن نظرتي إلى الدنيا بسيطة أيضاً. ولكني أهنيء نفسي على أن وجداني في جمال الأشياء يدخل على قلبي عزاء لا يسمى.

- ألا ترين أننا بهذه البعثرة الشاسعة على مئات الاهتمامات الغثة نفسد الشعر المنبث في هذا الكون الجميل؟

- أعتقد أن هذا لن يدوم. اغفر لي إذا أنا ذكرتك بحلم زردشت.أ.. أنت تعرفه حتماً. إله النور سيتغلب آخر الأمر على إله الظلام ويحبسه.. حينئذ تستحيل الأرض إلى فردوس ما فيه شر ولا قبح. ما فيه إلا الخير والجمال والحق.. صحيح. الخير سينتصر على الشر ذات يوم، وسنفطن لكل ما في الوجود من سحر وجمال.. سنفطن إلى أن دغل الشوك فيه شعر مثل شجرة الورد التي تضج أغصانها بمئات الوردات.

- وكيف تتصورين اللّه؟

- أ أنا أدري.. أنا أتصور اللّه هو هذا الكون البديع، البنفسجة التي يحيرنا أريجها الأنيس. أنا حقاً أحتار حينم أشم زهرة بنفسج أو ياسمين.. اللّه هو النجوم التي تتغامز في صمت إذا رق الليل الصيفي... والعبادة صلة بيننا وبين اللّه، صلة محبة وتعجب.

أواه يا بنيتي الباهرة ما أروع ما تقولين. كأني بك تريدين تعليمنا أن علينا أن نبقي على صلتنا بالمطلق، باللّه. وهذه الصلة يجب أن تكون العبادة.. العبادة عندك تأمل لا نهائية الجمال في الكون السرمدي، ورفع الصوت بترانيم الوجد لكل كائن بما أفاء علينا من أعطيات تطفح بها أكفنا الصغيرة الغريرة منذ صيحتنا الأولى التي نستقبل بها الوجود. الموت ذاته في

أنشودة الفرح التي هي أنت، فرحة ما دام وجهاً من وجوه المطلق وأمارة على التجدد الأبدي.

فلنحب.. لنحب كونك وياسمينك وبنفسجتك ذات الأرج المحيّر.. ولنحب النجوم التي تتغامز في موهن من الليل عميق ولنحب الخفقة الخفرة في قلب العذراء الحالمة. ولنحبك أنت أيتها الإنسانة التي مرت بروضها المونق يد اللّه...

*   *   *

تلك الأيام

قصص

حلاق الحارة

-١-

كان في حارتنا حلاق. دكانه نظيفة، رشيقة مبتكرة ولا سيما بابها المصنوع من حبال من قطع القصب الصغيرة التي تفصل بين كل اثنتين منها خرزة ملونة جعلت منظر تلك الستارة بهيجاً يثير فضول الأولاد المارين وخيالهم حتى أنهم كثيرًا ما كانوا يتوقفون ليتفرجوا على ذلك الباب العجيب. أحيانا كانوا يمرون بأصابعهم على الحبال القصبية فتقرقع فيهربون وهم يطلقون قهقهات سعيدة.. بعض آخر كان يستغفل الحلاق فيطعج أنفه على الزجاج ويكتفي بهذه اللعبة المسلية.

لم يكن عبد الحميد حلاقًا خاملاً. إنه مفتوح القلب على العالم. ويحب عشرة الطبقة المثقفة. ذلك اليوم كان يضع المريلة البيضاء على صدر الأستاذ مصطفى حمدي، المعلم الابتدائي. ويربط بزيمها عند القذال وهو يتحدث إلى الأستاذ:

- همج يا أستاذ مصطفى أهل هذا البلد، همج لا شفاء لهم يا حبيبي.

وصاح بالولد الذي كان واقفًا يصغي باهتمام كبير وان لم يكن يبدو عليه أنه يفهم:

- ماء ساخن يا ولد. تحرك . وقف أقول لك...

قال الولد مستفهماً:

- نعم معلمي؟

كان هذا في حوالي العاشرة، خجولاً ولكنه متوقد العينين.

كان ظاهرًا أنه مبهور بمعلمه، بزبائن معلمه، بهذه الأدوات المحيِّرة التي تسل الشعرة من ... اللحية.

قال عبد الحميد:

- تعال. خذ انفض هذه المنشفة. ألا ترى أنها كلها شعر. كان عليك أن تنفضها من غير أن أقول لك يا فلهوي، فهمت؟

- حاضر معلمي.

ويهم الولد بنفض المنشفة فيصيح به عبد الحميد:

- ليس هنا يا فهيم، روح انفضها برة.

وذهب الولد إلى خارج الدكان ينفض المنشفة. ويعود عبد الحميد إلى تكليم الأستاذ: - همج، همج عضال يا حبيبي يا أبو صطيف. شف لي هذا الممصوع الرقبة الذي يريد أن يصير حلاقاً.. إذا صار هذا الكرسي، هذا المقص، هذه المكنة حلاقين يصير هو حلاقاً. رأس يابس، والعياذ باللّـــه، لا تكسره الشواقيف. حطب في قطرميز، البعيد من هنا سبعٍ طرق (ضاحكاً) ماء ساخن! أهؤلاء يفهمون ما معنى أن يكون الماء ساخناً؟ أهؤلاء يفهمون ما معنى أن يكون الإنسان حلاقًا؟!

أبعد مصطفى يد عبد الحميد بلطافة وقال في أثارة من سخرية:

- وما معنى أن يكون الإنسان حلاقًا من فضلك؟

قال عبد الحميد مستفظعًا اعتراض الأستاذ:

- له يا أستاذ، بسلامة معرفتك! أنت الأستاذ مصطفى حمدي، أستاذ الابتدائي على سن ورمح، مربي الأجيال الصاعدة، تسألني ما معنى أن ... (ضحكة مشفقة) سامحك اللّه!

- ولك أخي، فوق كل ذي علم عليم. أنا مقصدي أن أتنور. نورني.

- ولو يا أستاذ مصطفى، العين لا تعلو على الحاجب!

- هل يعقل أن أتطاول عليك في ميدانك، في صنعتك؟ أنا مثلاً المفتش شهد لي...

- يرحم والديك. قولتك (يضحك) كل ديك على مزبلته صيَّاح. أنا مثلاً لا أستطيع أن أقول لك ثلثا الثلاثة كم إذاً قعدت تحكي لي نصف نهار في وسائل الإيضاح أنتم تسمونها وسائل الإيضاح إذًا كنت ما أزال أذكر، ألستم تسمُّونها كذلك؟

- بلى.

- أي نعم، أنا لا أستطيع أن أتطاول عليك في وسائل الإيضاح، في دروس التهجِّي، في النحو، في.... كلامي غلط دخيلك؟

- لا، كلامك جوهر، ولكني كنت أقول لك أن المفتش لما..

- أي بارك اللّه في من عرف حده...

- فوقف عنده، لأنه...

- عليك نور. إذن كنت تقول لي إنك تريد أن تتنور.

أي سيدي خلني أخدمك: الحلاقة يا مرحوم البي معناها أناقة، معناها جمال، معناها نحت، نسب، بركار ومسطرة...

قال مصطفى مدهوشا وهو يصدر ضحكة خفيفة:

- نحت! نسب!

- طبعا. ألا تعلم أن أكبر عار على الحلاق أن يطلعك من تحت يديه وأنت سالف مستقيم، وآخر أعوج، واحد لفوق، وواحد لتحت، كرسي خد منتوف بالخيط، وآخر مجروش بالمكنة الخشنة... النحات، أبوس يديك، ماذا يفعل أكثر من هذا؟ ولكننا نحن الحلاقين مالنا حظ: النحات يحفر في صخر ونحن نحفر في وجه أو رأسٍ يطول شعره من الصباح حتى المساء!.. أكثر من هذا أود أن أسألك سؤالاً، وأرجوك أن تجيبني عنه في منتهى الحرية والصراحة...

- أخ!

- خير ان شاء اللّه!

- ماكنتك هذه تنتر الشعر نتراً ضارياً. إنها مطعمة على ملقط شعر!

قال عبد الحميد في ملامة:

- اللّه يسامحك!

- طيب لا تزعل على مكنة جز الخرفان.

يضحكان ويقول عبد الحميد:

- أي أستاذ مصطفى، أنت تزيدها شوية ألا تزيدها؟ أنت اللّه خالق شعرك من النوع الذي ينتتر منه لنفسه خلقة!

- منه لنفسه؟! هذه قوية، هذه لم يسبقك اليها أحد!.

ويُضحك عبد الحميد،

- أنا أمازحك. معك حق. هذه الماكنة تحتاج إلى سن. وقف سأغيرها لك. يا ولد..

- نعم معلمي.

- هات تلك الماكنة هناك على الرف الثاني. ولك لَه يا فهيم هذه ليست ماكنة. هذه فرشاة أواعي.

ويمد الولد يده إلى أداة أخرى فيزعق عبد الحميد:

- ولك له، ولك هذه فرشاة بودرة.. هات تلك التي على يمينها مباشرة يا منظوم... قال يريد أن يصير حلاقاً، قال! أي هدي، هدي، هاتها. الحمد للّه الذي نتجك من هذا الامتحان العسير.. أي سيدي أستاذ مصطفى، كنت أقول لك ما من مهنة قادرة على تغيير الوجود مثل الحلاقة...

قال مصطفى وهو يزداد تعجباً واستسلاماً في آن معاً:

- تغيير الوجود؟! كلام كبير أيضاً! إذن ما عساي أن أقول أنا؟..

وتدخل الولد قائلاً:

- معلمي...

قال عبد الحميد منتهراً إياه:

- أنت ما دخلت. رح اغسل طاسة الصابون هناك.

- حاضر معلمي، ولكن..

- أنا هنا ما عندي لا «ولكن» ولا «إنما»... كلمة ثانية وألبسك الباب، وأعيدك إلى أهلك بريحة طيبة، ولا أبوك ولا أبو الشيطان. قال «ولكن» قال.. قال يريد أن يصير حلاقاً! الحلاقة بدها هز أكتاف، فهمت أو أفهمك؟!.

- فهمت معلمي...

- أي هه. قال يريد أن يصير حلاقاً! أي سيدي أستاذ مصطفى، كنت أقول لحضرتك أن مهنة الحلاقة هي أمل الإنسانية...

قال مصطفى وقد شال حاجباه من إعجاب تمثيلي:

- هذه أحلى. الآن ارتفعنا مرتبة: الحلاقة أمل الإنسانية إذن؟

- أي، أي. وقف لا تستعجل علي أستاذ مصطفى. الحديث مقاسمة: خذ مني وأعطني...

قال مصطفى متهكما:

- أنا لا أعطي شيئا. أنا آخذ على طول!

قال عبد الحميد ضاحكًا:

- هذا شأنك.. تُعطي عندما يأتي دورك. وأما الآن فأرجوك أن لا تقاطعني.

- واللّه أنا لا أقاطعك. تفضل.

- كنت أقول لك ان الأمل فينا نحن الحلاقين، وعلينا المعتمد في تحويل مجتمعكم المتخلف هذا إلى مجتمع عصري متطور. اسألني ليش؟ قال مصطفى مستسلما: - ليش؟

- ليش؟ لأنك يجيئك هذا الزبون شروى احسانك قبل قليل. -عدم المؤاخذة أرجوك - شعره منفوش مثل شعر الغيلان، فضايل الألف بسم اللّه الرحمن الرحيم، خصلاته ملزقة بعضها ببعض كأنما بالغراء... كأنما بلَّ أخونا شعره بصمغ عربي أصلي قبل أن يتسرح...

- آخ!

- خير ان شاء اللّه؟ ولكننا بدلنا الماكنة!

- المقص هذه المرة.

- المقص؟

- أي المقص ينتر لي شعري وليس أنت.

ونظر عبد الحميد إلى المقص وحك به رأسه ثم قال:

- معك حق. لا تؤاخذني.. المقص يعلك قليلاً في بعض الأحيان. يا ولد هات لي مقصًا آخر من الخزانة.

قال الولد: - حاضر معلمي.

قال عبد الحميد وهو يراقب الولد مروعا:

- انظر لك نظرة. انه يفتش في الرف التحتاني. ولك هناك، فوق، على يدك اليسرى أنت في وكدك أن تصبح حلاقاً، أن تفتح دكانا، أن تصير معلماً واضرب واطرح، أليس كذلك؟ هه! أي سيدي كنت أقول لك...

وفك عبد الحميد المريول الأبيض وأعطاه الولد:

- خذ انفض هذه وهات المنشفة.

- حاضر معلمي.

- وهات ماء ساخنًا.

- حاضر معلمي.

- أي سيدي كنت أقول لك. يجيئك هذا الزبون وهو معتر، مفشكل، فايت بعضه في بعض، حرير على شوك اللهم عافنا... وما ان يجلس ربع ساعة، وان عظمت نصف ساعة، حتى يخرج من تحت يدك -التي اللّه يسلمها - سبحان من تجلى وصور، للنظر ما هو للأكل، مضيء مثل النقطة في المصحف، أستغفر اللّه العظيم...

قال مصطفى يمازحه:

- ولكن، قل لي يا عبد الحميد، من أين جاءت الحلاقين هذه السمعة أن لسانهم لا يدخل حلقهم؟!

قال عبد الحميد محروراً:

- هراء، تهجم سمج ليس له طعم، همج، بلد همج قلت لك! أي سيدي أنا مالي حظ. لو كان لي حظ لولدتني أمي في الشام.. لا بد أن الذي نشر هذه السيرة عن الحلاقين حسود تأكل قلبه الغيرة...

- عبد الحميد أنت تفرك لي ماذا؟

- أفرك لك ذقنك حتى تطرى.

- ولكنك تفرك لي صدغي!

ويضحكان وسرعان ما يقول عبد الحميد:

- لابأس، لابأس فرك الصدغين ينفع لوجع الرأس.

- ولكن، أنا رأسي لا يوجعني.

- يوجعك ذات مرة، لا بد. أي سيدي أستاذ مصطفى كنت أقول لك: حتى ولو سلمنا جدلا أن الحلاقين يحبون الكلام الجيد، الملافظ الحلوة.. ألا يخطر لك أن تتساءل عن السبب؟

- ما هو في رأيك أنت؟

- ما هو؟ ها، ها، ها.. الأستاذ مصطفى حمدي النبيه، الفطين، الذكي، الذي قال له المفتش أنك مدرسة تربوية وحدك، العلي الأعلى بين معلمي المدرسة الإبتدائية في البلد، يسألني هذا السؤال؟

- طيب يا سيدي، هات نورني.

- سأنورك، سأنورك. أساساً يجب عليك أن تكتفي من الآن فصاعدًا بالسماع، لأني صرت في لحيتك.

- يا ساتر!

- واللحى ما فيها لعبة!

- طيب قل لي يا عبد..

- هس، ولا كلمة. سأقول لك أولاً، وسأفعل ثانيًا.

- كيف؟

- لا تستعجل. العجلة من الشيطان. أنت معلم مدرسة، ألست معلم مدرسة؟

- ما دمت تعلم!

- تسلم لي هذه الملافظ الحلوة. إذن يا مرحوم البي ما دمت معلم مدرسة واضرب واطرح إذن أنت تفهم أني إذا أردت مثلاً أن أضع ابني المقبل عندك في المدرسة، وكنت متسلما الصف الأول فبماذا تبدئـــه؟

- بالتهجي.

- أنت عمري، عريس!

- أي.

- يعني أنك لا تعطيه في السنة الأولى دروساً في الجغرافيا أو الجبر أو الهندسة.

- طبيعي لا.

- إذن أنت تُدرجه.

- أي هذه فهمناها. نطّ لي إلى غيرها كدت تطلع روحي!

- الآن، ما دامت لحيتك في يدي، أرجوك أن تتبع في الاصغاء الخطة ذاتها، أعني أريدك أن تفهمني بالتدريج.

قال مصطفى مصابرا:

- طيب، كمل.

- إذن نبدأ بأن نشرح لسيادتك لماذا كان الحلاقون هواة الكلمة، يتبعون الخطة ذاتها.

- أية خطة أبوس يديك؟

- ما بنا؟ التدريج. نسيت؟

- يعني على طريقة سقراط!

- لا.

- لا؟

- أي نعم لا.

- لماذا؟

- لأسباب.

قال مصطفى وفي نيته أن يلحق فكر عبد الحميد حتى غايته:

- ما هي؟

- أولاً، هل كان سقراطك هذا حلاقا؟

وضحك مصطفى:

- لا.

- اقتصد في الضحك أستاذ. أخاف أن أجرحك إذا استمر فتح فمك على هذا النحو الاحتفالي. قلت لي لا إذن؟

- لا.

- إذن لا، لسبب واحد وحيد، لا لأسباب عدة.

- وما هو هذا السبب الوحيد؟

- هو أن سك...

لا بد أن عبد الحميد نسي اسم سقراط فاستمر يتأتيء:

- سورات لم يكن حلاقاً.

وأبعد مصطفى يد عبد الحميد منه مرة أخرى وانفجر في ضحك مدوّ اختلط معه الكلام الذي كان يصدر عنه مقطَّعا غير مفهوم:

- ولك سقـــ... وليس سوراً...

قال عبد الحميد مهدئا:

- لا تضحك كثيرًا أستاذ مصطفى. دعني أفرك لك ذقنك جيداً. الذقن يجب أن تطرى ولا سيما ذقنك: شعر كثيف في جلدة ناعمة. ألا ترى أن شعرك غارز في اللحم من حلاقة الشفرة؟ نزعت لحيتك وانتهى الأمر. مئة مرة قلت لك: احلق عندي مشاهرة، اشتراكا. ولكنك ترفض دائماً... من الحلاقة إلى الحلاقة قشة ذقن. وهل يصلح الحلاق ما أفسده خراب البصرة، أعني اللحية!

- بدأ يغرب ويشرق، أخي خلِّك في الموضوع، أرجوك.

- الآن ستعلم أن التغريب والتشريق يجب أن يحترما هما أيضًا ممن يحسنهما!

- أنا أسمع.

- والآن يا مرحوم البي، هل تستطيع أن تجود علي باجابة عن هذا السؤال؟

- ما هو؟

- ما هو الكلام؟

ويضحكان. ويضيف عبد الحميد:

- إذن أنت لم تسمع المثل القائل: «العين مغرفة الكلام!»

- أنا سمعت بمثل آخر.

- ما هو؟

- إذا كان الكلام من فضة...

ويكمل عبد الحميد:

- فالسكوت من ذهب. لا، لا هذا المثل اخترعه صايغ والأخرى أن الذي اخترعه هو حتمًا معلم مدرسة...

- كيف؟

- اخترعه حتى لا يقروش عليه الأولاد...

يضحكان. ويستمر عبد الحميد:

- الكلام يا سيدي الأستاذ هو كل شيء في الدنيا. لولا الكلام لما كنا ناسا. ألستم أنتم الذين تعلمون الأولاد في المدرسة أن الإنسان حيوان ناطق؟

- بلى.

واستمر عبد الحميد:

- ألم تقل لي أنت ذاتك مرة إنهم يقولون في التوراة: «أول شي كانت الكلمة».

- بلى، شيئاً من هذا القبيل.

- إذن؟

- غلبتني.

قال عبد الحميد في شيطنة طيبة وهو يتضاحك:

- ولكني ألمح في رنة صوتك أني لما أثبِّتك بعد على حد تعبير المصارعين. غلبتك هذا واضح وأما أنا فأريد أن أثبت كتفيك.

- ما قولك في أن تثبتني باكمال قش ذقني؟...

وضحك عبد الحميد ضحكاً عريضاً.

- دمك خفيف، خفيف، هذه من اللّه، ليس لك فيها يد دمه خفيف سبحان اللّه.

قال الولد:

- معلمي أنا أمي...

قال عبد الحميد مهددًا:

- أنت اسكت. أقولها لك بالثلث والرقعي والنسخي والفارسي والكوفي من أجل خاطرك. رحمة اللّه عليك يا أستاذنا في الخط يا شيخ بركات. أتعلم يا أستاذ مصطفى؟

- ماذا؟

- الآن إذا قلت لك شغلة لا تصدقني.

- قل.

- المرحوم الشيخ بركات الذي كان أستاذنا في الخط، رحمة اللّــه عليه كان ظالما ولكنه علمنا.

- الطرائق الحديثة في التربية كانت...

- حلمك، حلمك علي. مالك علي يمين أستاذ مصطفى: العصا خلقت من الجنة..

وعلى الرغم من أن لحية مصطفى كانت بين يدي عبد الحميد فقد همهم همهمة استنكار ولكن عبد الحميد لم يتركه يكمل إذ استمر يقول:

- سبني أستاذ مصطفى، انبش قرعة أجدادي. ارفعني فلقة في أرض البازار قدام أمة محمد كلها.. ولكنك لن تقنعني بأن: «يا عيني ويا روحي» يمكن أن تعلم حسن الخط ولداً عقله في الدّحل والبلبل والدواخة والقلابة وتخريب أعشاش العصافير في جوزة الجبانة الشرقية.. هل تصدقني إذا أنا بحت لك بسر؟

- ما هو؟

- لا تحكي لأحد؟

- لا أحكي.

- أي سيدي هذه اللافته (يقرأ) «صالون الوحدة العربية للحلاقة الحديثة للسيدات والسادة لصاحبه عبد الحميد محمد كعبرة» احزر خط من؟

تساءل مصطفى ضاحكًا:

- ولك يا عبد الحميد من أيمتى وأنا أحلق عندك؟

- من وقت تخرجتُ من عند الحاج رجب. لماذا؟

- حتى الآن لم أقرأ هذه الــ «للسيدات»! كم سيدة عملت شعرها عندك منذ أن فتحت هذه الدكان؟

- أي أستاذ لا تزدها!

- طيب قصرناها.

- ما قلت لي من في اعتقادك الخطاط الذي نقش لي هذه اللافتة.

- يوسف المجني؟

- يرحم ترابه، ولكنك لم تحزر.

- المولوي في حلب.

- ما حزرت.

- إذن؟

- هذا خط محسوبك عبد الحميد محمد كعبرة.

- بصلاة محمد؟

- وصلاة محمد الذي صلاته تحيي القتيل.

- والله خط حلو، حلو تماما، أي رح الآن انظر لك نظرة على خطوط أولاد المدارس هذه الأيام. زفت، زفت. خربشة دجاج خالصة. أي الإنسان يجب أن يكون مثل زبدية الصيني من أي طرف نقرته يرن... كيف؟

* * *

-٢-

كل هذا وعبد الحميد لما ينته من رأس مصطفى ولحيته «ذات الشعر الحاد مثل الإبر وجلدة الوجه الناعمة»، على حد تعبير عبد الحميد. كان هذا يعمل على طريقة «كل طلقة براحة»، كما تقول الدايات. إن عبد الحميد في العادة يكلفه زبون آخر وقتا أقل من هذا الذي يستغرقه مصطفى تحت يديه، لأن عبد الحميد يحب أهل العلم، ويلتذ الحديث معهم، يساعد في ذلك أن مصطفى عذب، صبور، ويحب عبد الحميد، يأخذه على علاته عالماً في حد ذاته فيه العوسج وفيه الخوخ والدراق اللذان تعصرهما فينعصران طراوة ولذاذة! أن مصطفى متواضع. تصور: واحد من المثقفين في البلد لا يكاد

يفارق محل عبد الحميد الذي لم يأخذ الابتدائية. قد يكون السر في أن عبد الحميد يحب الاطلاع ولا يكف عن طرح الأسئـــلة على أهل العلم الذين يحلقون عنده.

وبينا هما على الكنبة، كما اعتادا أن يفعلا بعد الحلاقة دخل الأستاذ عمر، وهو رجل أقرب إلى النحافة، يعيش طوال يومه في خدر خفيف إذ يبدأ سكرته مع الصباح الباكر، يستمر فيها حتى يهده السكر في هزيع متأخر من الليل. قال:

- السلام عليكم. نعيما... مقدما.
- قال عبد الحميد حفيًّا: - أهلا، أهلا، بـــأستاذي الكبير.

ووقف منشدًا ذلك النشيد الذي كان أولاد المدرسة يغنونه لكل ضيف كبير يمر بالبلدة:

- جئتم أهلاً   جئتم سهلاً

تشريفكم لنا   قد زادنا هنا

واستمر يقول مشقرقًا:

- من علمني حرفاً كنت له عبداً. أهلاً بسيدي ومولاي. العبد وما ملكت يداه لمولاه. لو تعلم الدار من ضمت لكان لها، إلى آخره. أهلاً أستاذ عمر.

قال الأستاذ عمر وفي صوته أثارة من سكر خفيف:

- بالمؤهل، بالمؤهل، نعيماً أيها الشباب الناهض.

قال عبد الحميد ممازحًا:

- أنت مبكر على الشرب اليوم أستاذ عمر...

قال عمر ضاحكًا:

- لا، هذا «تفتير عينيك دليل علي أنك تشكو سهر البارحة». انتبه يا عبد الحميد: أبداً يظل مقصرًا من لا يبكِّر على المبرات. هذا يا حبيبي اسمه

في لغتنا العربية الشريفة: الصبوح، الصبوح كما جاء في لسان العرب للأ... للأشموني كم الساعة الآن يا عبد؟

- العاشرة وثلاث دقائق من صباح الجمعة الواقع...

- يكفي!

ولكن عبد الحميد لا يفلت شصاً عض عليه فأكمل:

- عام ألف وتسعمئة وستة وأربعين على صاحبها أفضل الصلاة وأنتم...

* * *

- من الذي شرب الصبوح منا نحن الاثنين - هأنتذا تخربط بين الميلادي والهجري، حصَّنتك بآيات اللّه البينات.

- أنا لا أخربط أبدًا.

- طيب ما اختلفنا. هل أنت جاهز؟

- جاهز مئة بالمئة. أنا كلي للأستاذ عمر. ولكن ما أشد ما أنا مؤجر الطابق الفوقاني. أنا لم أقدم لك، يا أستاذ مصطفى، أستاذي الجديد. شيخ أهل الفن في هذا البلد، الأستاذ عمر رشيد.

قال مصطفى حفيًا:

- تشرفنا. أنا سمعت بالأستاذ عمر، عوّاد بلدنا الأول غير منازع.

هتف عبد الحميد جذلاً:

- هذه هي الكلمة أستاذ مصطفى، وان كنت أفضل أن تقول فنان بلدنا الأول. ساحر. هذا هو الذي ينطق الجماد استغفر اللّه العظيم. أستاذ مصطفى أنا سعيد، سعيد جدًا. في هذه اللحظة التاريخية الحاسمة، اجتمعت في محلي المتواضع عبقريتان باهرتان، عبقرية التعليم الإبتدائي غير منازعة، وعبقرية الطرب. فإذا أضفنا...

- عبقريتك أنت.

- لا تكملا. أخجلتما تواضعي. أنا يا سادتي تلميذ، أخرق. على قد بساطي أمد غروري. لا تكملا أبدًا. أنا أعرف حدودي. ولكني -من غير

تواضع مصطنع - متطور، وأحب العلم. أموت عشقاً في العلم... إذا أنا عضضت على لساني ذات يوم ونفختها بعد عمر طويل، فاكتبوا على قبري بعد الفاتحة و«يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية..» اكتبوا: «هنا يرقد من كان هواه، طول عمره، للعلم...» أستاذ مصطفى كنت أقول لك منذ قليل شيئاً. ألا تتذكر؟

قال مصطفى في سخرية خفيفة:

- أنت قلت لي أشياء كثيرة، فــأيها تريدني أن أتذكر؟

- كنت أقول لك إني سأبرهن لك على أن ما يشاع عن الحلاقين من طول لسان إنما هو حسد وغيرة. وأظنني برهنت على ذلك بالأقوال. صَــفِــيَ أن أبرهن بالأفعال. ها هو ذا الأستاذ عمر يحمل عوده مثل أي وسام رفيع من معركة مظفرة وقد جاء إلى هذه الدكان، أكاد أقول إلى مطبخ النبوغ هذا، ليعلم محسوبك النوطة...

قال مصطفى متعالما:

- السولفيج؟

قال عبد الحميد:

- إذا شئت، فأنا ما أزال ضعيفاً في الفرنساوي ولكن أظن أن هذه هي الكلمة.

قال عمر:

- لا، السولفيج شيء آخر.

قال عبد الحميد:

- أرأيت أستاذ مصطفى؟ يجب أن لا تستعجل دائمًا. معنى هذا أننا نحن الحلاقين لا نقنع بواقعنا ولكننا نحب أن نغيِّره. هل رأيت في حياتك حلاقاً خاملاً، حلاقاً يقتصر على الحلاقة؟ أما رأيت حلاقين يبيعون أوراق اليانصيب، وآخرين معجون أسنان؟ أدركني أستاذ مصطفى بذلك البيت من الشعر الذي يحكي عن هذا الأمر...

- أي بيت؟

- الذي يمجد التغيير...

- عدت لا أذكر.

- أستاذ مصطفى، أستاذ مصطفى، هذا البيت الذي فيه بقي وما بقي... أنت أسمعتني إياه مرة.

- ها، تذكرت (ينشد): «تموت مع المرء حاجاته وتبقى له حاجة ما بقي»...

- بديع. شيء يجنن. واللّـــه العظيم أحس أني أنا قائل هذه الحكمة المالية. أحس أن لي حاجة، حاجة إلى العلم، ظمأ إلى النعيم. نعيماً أستاذ مصطفى.

- شكرًا. ولكني انتهيت من الحلاقة منذ حصة.

وقال عمر من غير أن ينتبه إلى ملاحظة الأستاذ مصطفى: - نعيماً أستاذ.

ومثلما جرى في دراسة بافلوف للمنعكس الشرطي عند الكلاب، منذ أن سمع يوسف، الأجير، كلمة «نعيماً» أسرع إلى فرشاة الأواعي، وامتشقها وضرب عدة ضربات لا معنى لها في ظهر مصطفى وهو يردد:

- نعيمًا أستاذ.

فصرخ عبد الحميد:

- قلت لك اسكت يا ولد أنت. أأنا فاضي لك!

ولكن مصطفى قال لعبد الحميد:

- اتركه. خذ يا ابني. هذا لك.

ودفع له شيئًا. قال الولد:

- شكراً أستاذ مصطفى. اللّه يعوض عليك.

قال عبد الحميد متأففاً:

- اللّه يلهمنا طول البال.

قال الولد:

- أنا ما قلت شيئاً معلمي.

وكان من عادة مصطفى أنه متى ما ينته من الحلاقة يـــأخذ عبد الحميد من يده ويجلسا على الكنبة الجلدية شغل أبي علي السراج ذاته، ويتابعا حديثهما الذي له بداية وليس له نهاية. وكانا جالسين من مدة، غير أن دخول الأستاذ عمر خربط المواقيت كلها فاختلط الأمر عليهما وعلى يوسف جميعاً. وهذا ما يفسر ضربات فرشاة يوسف المتأخرة، وهذه «النعيمات» التي فات أوانها.

وقال الأستاذ عمر!

- ما قولكم؟

قال عبد الحميد!

- في ايش أستاذ؟

- أأنا أدري!

- ظني أنك تقصد درس النوطة. أنا حاضر.

- أي وبعد؟

وعاد يردد:

- أي وبعد.

قال عبد الحميد:

- طيب، هل نبدأ أستاذ عمر؟ ألا تحضر درسنا الثاني أنت أستاذ مصطفى؟

- أي درس؟

- درس النوطة.

- ولكني لم أحضر الأول.

قال عمر:

- نلخصه لك.

- طيب احضر. هذا ينفعنا في المدرسة. أصلاً أنا لست بمستعجل...

قال عمر:

- يسعدني.

قال عبد الحميد:

- اغسل الطاسة يا ولد.

- حاضر معلمي.

- يا ولد.

- نعم معلمي.

- بدي هدوء هاه، هدوء خالص.

- حاضر معلمي.

- أنا الآن كففت عن أن أكون حلاقًا، فهمت؟

- فهمت معلمي.

- أنا الآن في محراب العلم والفن، أنا الآن ملك مليكين قاهرين، ملك وسائل الإيضاح، وملك... ماذا قلت لي تلك المرة أستاذ عمر؟ هذا الشيء الذي له مفتاح؟..

- مفتاح الصول.

- يرحم والديك: هذه هي الكلمة: مفتاح الصول. عليّ الطلاق من كل امرأة سأتزوجها في المستقبل أنك لما شرحت لي البارحة قصة هذا المفتاح ظننت نفسي ملكت الدنيا وما فيها، ظننت أني فتحت به باب الجنة ودخلت.

قال مصطفى:

- إذن ما عساك أن تفعل لو شرحت لك الطريقة الاستنتاجية والطريقة الاستقرائية في التدريس!

- بصلاة محمد؟ ماذا قلت لي؟ لا، وقِّف أستاذ مصطفى أنت تحلق عندي منذ خمس سنوات، وما فتحت لي سيرة هذه الطريقة...

- أستطيع أن ألخصها لك...

قال عبد الحميد يقاطعه:

- وقف. تشرح لي هذه الطريقة فيما بعد. أنا الآن، مثلما تقول، مزاجي موسيقي.. أود أن نصطاد درر الأستاذ عمر الآن. أستاذ عمر.

- أمر؟

- هل تسمح لي أن أثقل عليك بطلب؟

- تفضل.

- أنت تكرمت عليّ فشرحت لي أوليات علوم النوطة.

- صحيح.

- والحقيقة أني انتشيت. أحسست كأني شربت لي دمعة على حرف ماء وقدامي شكل حسن. فهمت عليك تماماً. أنت حقًا معلم.

- شكرًا لك.

- ولكن مثلما تقول. في الإعادة افادة. ما قولك في أن تعيد لي الدرس الأول كـــأنك تعطيني إياه للمرة الأولى؟

قال مصطفى:

- وأنا أيضًا أضم صوتي إلى صوت عبد.

قال عمر:

- أنا حاضر.

- تفضل.

قال الأستاذ عمر وهو يخرج من جيبه دفترًا مدرسيًا:

- أي سيدي، أول شيء يجب أن يتعلمه الإنسان إذا أراد أن يحترف الموسيقى، هو الوحدات الزمنية...

تساءل مصطفى:

- الوحدات الزمنية؟

- أي نعم، الآن تفهمان ما هي الوحدات الزمنية. الوحدات الزمنية يا سادة تتقسم إلى سبع: المستديرة، البيضاء السوداء، ذات السن، ذات السنين، ذات ثلاث الأسنان، ذات أربع الأسنان، وهذه هي طريقة كتابتها...

وشرع عمر يكتب الوحدات الزمنية ببطء شديد. قال عبد الحميد:

- فهمت جدًا.

قال مصطفى متبرماً:

- أنا ما فهمت ولا حرفاً واحدًا، ماذا تعني الوحدات الزمنية؟

قال عمر:

- ما وصلنا بعد. أنت الآن يكفيك أن تأخذ فكرة. أردت أن أقول: ساعدني قليلاً أستاذ مصطفى ما دمت حضرتك فهمان في النفسانيات بوصفك معلما...

- فهمت عليك. أنت تريد أن تحط في دماغي الخط الأول ثم تعمقه فيما بعد...

وتدخل الولد:

- معلمي هل تسمح لي أنا أيضاً أن أتعمق في...

صاح عبد الحميد وهو يكاد يجن:

- ولك، ولك دخيل المصطفى عليه الصلاة والسلام، شوفوا لي هالشوفة. قال يريد أن يتعمق (للولد) ولك ياحمصة الكيّ من كلفك؟ من دعاك؟ كيف تسمح لنفسك أن..

قاطعه الأستاذ عمر:

- أي صلّ على محمد أخي عبد!

قال الولد في انكسار:

- معلمي أنا، ما أنا.. ولكن، يعني...

- هس هاه!

ومع ذلك استطاع الولد أن يكمل بين لحمه وثيابه:

- أختي أنا تدق على العود...

- انقلع من وجهي أقول لك.

وابتعد الولد مثل مهر قد جفل. وعاد عبد الحميد يقول:

- قال أخته تدق على العود قال. أي سيدي اسألني أنا عن دق البنات على العود. القصة معروفة، كل بنت بايرة، ملبوخة في لحية أهلها، كل واحدة كاسدة قاعدة على قلب الــ بذروها.. يقومون يجلبون لها خدوج الصبح فتعلمها دقة دقتين...

وتضاحك الأستاذ عمر وقال: -تعلمها ما تحسنه: دقة الهوانم، وسماعي البيات... وضحك عبد الحميد هو أيضًا:

- وكان اللّه يحب المحسنين... حالة! يظنون أن طم طمَّين على العود تشيل الهم عن قلب صاحبه.

* * *

-٣-

ظل الحديث في دكان عبد الحميد على هذا النحو يطرق كل باب وبين حين وآخر يمس الموسيقى مساً خفيفاً حتى حان موعد الغداء فتفرق الأصحاب الثلاثة.

وذهب عبد الحميد إلى البيت فرأى أمه كامدة وفي عينها أثر دموع فهرع إليها:

- خير إن شاء اللّه يا أم عبد ماذا حدث؟

قالت الأم في صوت باك:

- ما بي شيء.

- وحياة القرآن إذا لم تقولي لي رميت نفسي من هذا الشباك إلى الزقاق...

قالت الأم وهي تكفكف دموعها:

- خلص، خلص.. سأقول لك.

- قولي.

- المسألة يا عين أمك أني أنا على حافة قبري.

- بعد الشر. أعوذ باللّه من شر الشيطان الرجيم. لا تقوليها بعد الآن أبدًا هاه. ان شاء اللّه تدفنيني بيديك...

صاحت مستفظعة:

- يوه اللّه لا يقدر. هس، هس، ولا كلمة! ان شاء اللّه لا أطلع إلا في عزك ياعين أمك...

- طيب كملي.

- المسألة وما فيها يا عين أمك أني أريد أن أفرح بك. وكدي أن أزوجك على حياة عيني.

- ولكن يا أم عبد الحميد أنت تعرفين بنات اليوم. كلهن ماذا أقول؟ ... أين تستطيعين أن تعثري على تلك البنت المستورة، بنت الحلال خص نص، التي لا تزعجك في كبرتك؟ أنا عندي ظفرك يسوي الدنيا وما فيها.

- بنات الحلال ياحبيب أمك ما خلت منهن الدنيا.

- طيب أنت فصّلي وأنا ألبس. لن أتزوج إلا على يدك. حتى إذا صار ما صار تكونين أنت المسؤولة.

- رح اللّه يرضى عليك. الأرض تنبع لك رضا والسما تمطر لك سعادة. اللّه يجبر خاطرك.

وصمتت لحظة ثم قالت:

- ما قولك في فطوم بنت جيراننا؟

- فطوم!

- أي نعم فطوم.

- فطوم بنت أبو محمد؟

- هي ذاتها.

- واللّه يا أمي أنا نسيت صورة وجهها...

وفكر قليلاً ثم سأل:

- فطوم، فطوم، أليست هذه التي خباها أبوها منذ أن كان عمرها سبع سنين؟

- تسلم لي هذه الملافظ الحلوة. ناس مستورون في حالهم، في ذاتهم. هؤلاء يا حبيبي من جنسنا. نستطيع أن نضع جبنتنا على خبزتهم ونعيش العمر عمرين، ما قولك؟

واستمر عبد الحميد يفكر بصوت مسموع:

- وهي التي أخرجها أبوها من المدرسة أيضاً، من الصف الأول؟

- يرحم أبوك.

- وقال إنه لا يريد أن تختم ابنته المدرسة حتى لا تتعلم القراءة والكتابة...

قالت الأم مسرورة:

- يسلم فمك.

- قال: حتى لا تكتب مكاتيب لعشاقها.

- أليس معه حق؟

صمت. ثم قالت الأم مستأنفة:

- برضاي عليك يا ابني تأخذ فطوم.

- يا أمي!

- قلت لك برضاي عليك. أنت تعلم أن الشيخ يقول إن الجنة تحت أقدام الأمهات...

قال عبد الحميد بعد لحظة صمت:

- على رأسي ثم على عيني.

- رح اللّه يرضى عليك أينما مشيت يمش رضاي قدامك وإن وقفت يقف فوق رأسك.

- ولكن لي شرط.

- قول وطول.

- لا أخطبها قبل أن أراها.

- أعوذ باللّه... أنت جننت! ترى فطوم بنت أبو محمد؟

- طبيعي أراها. أم تريدينني أن أشتري سمكاً في الماء!

- ولك يا عين أمك هل رآني أبوك قبل زواجنا؟

- شي للّه يا أبي! الزمان تغير أم عبد الحميد. تغيَّر. أنا من جهتي لم أكن أريد أن أتزوج. ما عندي وقت. أنا طموح. أنا أفكاري تطير بعيداً جداً. ولكني قبلت من أجل خاطرك...

- اللّه يعز خاطرك.

- ولكن ضعي هذا الذي أقوله لك خرسا في أذنيك: لن أتزوج فطوم إلا إذا رأيتها، لا فطوم ولا غيرها...

قالت أم عبد الحميد في حيرة شديدة:

- يعني واللّه يا أمي مثلما تقول... في حياتنا ما سمعنا مثل هذه السمعة...

وأضافت بعد صمت:

- على كل حال سأحاول أن أتدبر الأمر...

* * *

-٤-

في اليوم التالي عاد الأصدقاء الثلاثة إلى الاجتماع في دكان عبد الحميد. ولم يكد الأستاذ عمر يهم بالبدء في دروس السولفيج حتى اغتنم عبد الحميد أول فرصة سنحت له وأنشأ يروى لهم ما جرى بينه وبين أمه. أفاض في الحديث عن الزواج. سخر من الخطبة التي لا فيصل فيها إلا الأم. جاء بنظرية جديدة خلاصتها أننا كلنا متخلفون ولكن النسوان أشد تخلفاً، لأن الرجال «يشمون رائحة ربهم»، يرون الناس، يستفيد بعضهم من خبرات بعض... وأما النساء فيشبهن الغرقى. يشد بعضهن بعضاً إلى القعر، قعر الجهل والبدائية.

وتتحنح مصطفى وقام نصف قومة، ثم قومة كاملة وتوجه إلى الباب، قال عبد الحميد في عجلة:

- إلى أين؟ ما بك مثل الملسوع؟

قال مصطفى:

- أنا رايح؟

- إلى أين؟

- إلى البيت.

- ودروس النوطة؟

- لا أظن أنك قادر على أن تترك للأستاذ عمر فرصة خمس دقائق يعلمنا فيها كلمتين...

قال عبد الحميد متبرئا:

- أنا؟ اللّه يسامحك! أنا ما حكيت كلمة اللّه الوكيل.

أنا أصلا أمي تقول لي دائما: «ولك عين أمك يا عبد، احك لك معي كلمة!» أنا؟ اللّه يسامحك يا أستاذ. أنا لي فم يأكل ومالي فم يحكي (ضحك) أي اقعد خلّ الأستاذ يعلمنا. هل عندك شغل؟

- لا.

- اذن اقعد.

- أنا عندي تلميذ من بيت الخياط أسأل ٣×٧ فيروح يحكي لي عما جرى أول أمس في حارتهم بين أم علي وأم عبد الرحمن، وكيف شدّت كل منهما شعر الأخرى.

- أي أستاذ أنت زودتها هاه. كيف أستاذ عمر، أما زادها؟ قال عمر في رخاوة:

- معنا وقت من أجل النوطة. كمل لنا يا أبو حميد قصة أمك.

- قصة أمي؟ - أي، القصة التي كنت تحكيها لنا عن والدتك.

- عن أمي؟ (ضاحكا) لا أستاذ عمر، أنت أستاذ موسيقى على رأسي، ولكن لا تحك في العرض... قال مصطفى ضاحكا:

- ولكنها خلصت. وعدت أمه أن تتدبر الأمر.

قال عبد الحميد:

- أي نعم لما تركت البيت اليوم الظهر كانت تستعد للذهاب إلى بيت أبو محمد. تصوروا لبست ملحفة عرسها وثوبا مطرزًا من أيام المرحوم. أنا متأكد أنهم منذ أن تدعس برطاش البيت سيشمون الرائحة...

قال مصطفى ضاحكا:

- رائحة ماذا؟

- رائحة الخطبة.

- ما الذي يحملك على هذا الظن؟

- أنا أقول لك. أنت سيد العارفين أستاذ مصطفى. ما هذه الحاسة التي حكيت لي عنها مرة وأنت تقص شعرك؟

- أية حاسَّة؟ - حاسة، لا هي الشم ولا اللمس إلى آخره. حاسة يفهم بها الإنسان من بعيد لبعيد...

- فهمت عليك: الحاسة السادسة.

- تسلم لي هذه الملافظ الحلوة. أي سيدي المرأة عندها حاسة سادسة. وأستطيع أن أؤكد لكم في غير مبالغة أن عند النسوان حاسة سابعة وثامنة وتاسعة وحادية عشرة في كل ما يتصل بالرجل. انهن يشممن رائحة الزوج من سفر القطب الغربي.

- القطب الغربي!

- أستاذ مصطفى لا تجادلني أقول لك. لا تسأل غيري عن النسوان. شي وشي. هذا جنس اللهم عافنا، جنس... أمي يوم أي يوم لا عندهم. لماذا اليوم بالذات أتية عندهم بملحفة العرس والثوب المطرز؟

* * *

-٥-

لم تكذب أم عبد الحميد خبراً. ذهبت، وهي في أتم زينة، إلى بيت جيرانها أبو محمد. ومثلما توقع عبد الحميد، منذ أن رأتها أم البنت في المدخل ورأت ملحفتها الجديدة أفهمتها «حاستها» أن هذه الزيارة ليست للّه باللّه. إنها في العادة تنخطف إلى عندهم بثياب عادية. أحيانـــــا تضع الملحفة كيفيما اتفق، وتجتاز المسافة القصيرة التي تفصل البيتين.

وبعد أن أدخلت أم محمد أم عبد الحميد إلى ما يمكن أن يسمى غرفة الضيوف (يعني تلك الغرفة التي فيها كنبايات غاصة بالاراكيل والكاسات وتؤطِّر جهاتها الثلاث قواطع من الحجر وجدرانها كتبيات) ركضت إلى المطبخ تخبر ابنتها:

- روحي حطي ميل كحل وخيطين حمرة والبسي قمبازك المعرّق.

- فيه شي يا أم؟

- ولك اعملي مثلما أقول لك. جارتنا أم عبد الحميد هنا. إنها في الملحفة الحرير كأنها ذاهبة إلى عرس. عجلي. هذه ليست زيارة عادية.

- فهمت عليك يا اللّه أنا رايحة. - وحطي كل البرتقال واليوسف أفندي الـــ جلبه أبوك اليوم في صينية النحاس وهاتيها وقت تدخلين.

- حاضر، حاضر.

وعادت أم محمد إلى غرفة الضيوف، متهللة الوجة تؤهل وتسهل، ثم تعيد التأهيل والتسهيل:

- أي ربي شهيد عليّ أنك بنت حلال من ظهر حلال يا أم عبد الحميد. وحياة عينيك كنا أنا وفطوم في ذكرك الآن. كنت أقول لها: نعم الجيران جيراننا، اللّه يكثر من أمثالهم. أي شوها الأم عبد الحميد هدي. أي قسما باللّه تشرب مع الماء العكر. والسيد عبد الحميد! حصنته بآيات اللّه الباهرة، زينة الحارة. ما شاء اللّه كان تمشي وراه وقدامه وتحميه من شر حاسد إذا حسد..

قالت أم عبد الحميد وهي تفتح فمها عن ابتسامة عريضة:

- بالمؤهلة. أنتم نعم الجيران. أنت تقولين إنكم كنتم في سيرتنا أي ستي القلوب شواهد وأنا أيضًا وعبد الحميد كنا في سيرتكم مالك عليّ يمين...

- اللّه يطوّل لنا عمرك ويخلي لك هالشمعة.

- أي ستي قبل أن أنسى. مخدومك عبد الحميد أوصى على قشطة عرب طازجة، واليوم اشترى رطلين عسل يُجنِّن من المعارة، فما قولك أنك تأتين غدًا صباحاً أنت وعروسنا الست فطوم فتفطران عندنا؟ واللّه تتغصت لك.

- تشتهيك العافية، نتشرف.

- أنا روح قلبي، أكسر الصفرا في أرض الديار.

- واللّه أرض دياركم تشرح القلب. ياعيني على الياسمينة وزهر العسل والكبادة...

- إذن أين الست فطوم حصنتها باللّه؟

- في المطبخ تعمل لنا قهوة أهلاً وسهلاً.

- اللّه يسلم يديها.

- والقايلة.

*   *   *

-٦-

في اليوم التالي كانت أم محمد وابنتها في أحسن زينة تطرقان باب أم عبد الحميد كعبرة. وصاحت أم عبد الحميد:

- أي جيت، جيت، من قالت أم فطوم من وراء الباب:

- أنا يا أم العبد، افتحي.

قالت أم عبد الحميد لابنها هامسة:

- تخبا. أتوا...

- أين أتخبأ؟

- في غرفة الضيوف.

ولكن انتبه هاه: لا سعلة، لا كحة، لا حركة، لا قرقعة كراسي. ماذا أوصيك؟

- وهم أين يقعدون؟ - في أرض الديار. شق البرداية قليلاً تقبرني واقعد تفرج على كيفك...

وذهبت تفتح الباب.

- يا مية أهلاً، مية سهلاً. شرفت فطوم معك أيضاً (قبلات) أهلين عين خالتك، يسلم لي، يسلم لي. ما هذا الجمال؟ عروس للجلي ما شاء اللّه كان. ربي ومنتهاي يحقق الـــ في فكري يارب. يا اللّه أم محمد تعالي أنت اقعدي هنا تحت الياسمينة، وخلي العروس تعاونني في وضع السفرة.

قالت أم محمد:

- ألا نأكل في الغرفة؟ أشعر بقرصة برد.

- بلا برد بلا بطيخ. الآن عندما تأكلين من عسلنا تصيرين كأنك في حمام السوق والقيمة، أم اسماعيل، ترشق عليك من الحنكة الأم...

وتضحكان. وتأتي فطوم بالقشطة. كانت فطوم «سمن وحسن» كما يقولون في البلد، ولكنها سمن وحسن جداً لأنها سمينة زيادة على اللازم، رفيعة الساقين لها كرش وليس لها عجيزة. سمراء، واسعة العينين، طويلة الشعر، تحب الضحك.

ولا تكاد فطوم تأتي بالقشطة حتى تغتنم أم عبد الحميد الفرصة:

- تقبريني عين الخالة نسيت الخبز.

فتصفق فطوم على رأسها:

- ويلي على قامتي.

وتعود إلى المطبخ.

كانت أم عبد الحميد لا تدع فرصة إلا غنمتها لإرسال فطوم إلى المطبخ. السبب معلوم تريد أن يتملى عبد الحميد من «فتلتها»...

ولما لم يبق لفطوم إلا أن تجلس إلى الفطور، أخذت تشطر من الرغيف التنوري الشهي قطعة لا تزيد على حجم إبهام طفل رضيع وتغطها في القشطة المعسلة غطا خفيفا، هيناً، متحرجاً كأنها عصفور مريض!. لقد سبق لأم عبد الحميد أن أكلت أم محمد وفطوم مرات عدة، ولكن.. هذه المرة!

كانت أم العبد في النُّجوم. نسيت كل لقاء أسبق وعادت لا تذكر إلا هذا العصفور الرخص الذي «ينقر» القشطة على استحياء!

لما صارت أم محمد وفطوم في الزقاق كانت الأم تبتهل إلى اللّه في سرها قائلة: «رب يسر ولا تعسر، رب تمم بالخيرات. اللّه يجبر عني ويكتب نصيبك يافطوم وأنا مستجيرة بالحبيب محمد»...

وأما أم عبد الحميد، فبعد أن أغلقت الباب وراء الضيفتين أطلقت ضحكة رغيدة، منتصرة، وصفقت بيديها وصاحت جذلي:

- المتخبي يطلع.

وطلع عبد الحميد، فركضت نحوه تقبله:

- شفتها عين أمك؟

- شفتها.

قالت ضاحكة:

- كيف؟

- تخافين على ابنك الفهيم! أنا ما تركت حركة من حركاتها ربي عليَّ شهيد...

- وكيف رأيتها؟

- تخوّف.

- ماذا؟!

- قلت لك: تخوّف!

- أي عبد لا تزدها.

- واللّه يا أمي تخوف. ما هذا الطعم المعلم على مجرفة وهذا الأنف الذي يصلح أن يكبس مخلل باذنجان؟ وهاتان الأذنان؟ لا تقولين إلا شبرك وسنبوسك!

- يا اللّه ما أكثر ما تبالغ! ولكنك لم تسمع دقة عودها.

- يعني تريدينني أن أتزوج عوداً... وأي عود!

ولكن أم عبد الحميد كانت تزداد تشبثاً بفطوم. أمسكت المسألة كأنها مسبحة. صارت إذا قال لها عبد الحميد: اطبخي لنا اليوم محشي الكوسا في عبه فاصوليا»... تقول له: «ربي ومنتهاي يريني اليوم الذي تأكل فيه الكوسا في عبه فاصوليا من يدي فطوم»... وان قال لها: «يا للّه اليوم نقضيها بـــأكلة كواج» قالت له: «لا تأكل الكواج إلا من يد فطوم».

ذات مرة زهقت روحه فقال لها:

- طيب يا أم عبد الحميد ألا تقولين أن الجنة تحت أقدام الأمهات؟

- بلى.

- ماذا تريدين حتى أؤمن الجنة؟

- تتزوج فطوم.

- طيب من عيني هذه قبل هذه. روحي اخطبي لي إياها.

- بصلاة محمد تحكي جدًا!؟

- وصلاة محمد قومي الآن.

وشعطت أم عبد الحميد زلغوطة ملأت الحارة ونهضت لتوها إلى ملحفتها.

* * *

-٧-

لما علمت أم محمد بما أقدم أم عبد الحميد انقلبت فجأة تتصرف تصرف من كانت ابنتها يتقاتل على بابها الخطابون منذ أن تكوّر صدرها.

فطوم لم تستطع كتمان فرحتها لما شمت رائحة الخطبة (من الملحفة الجديدة والبابوج المقصب)، فاندفعت منذ أن كانت أم عبد الحميد في البوابة تهتف بحرارة:

- أهلين خالتي أم العبد.

- بالمؤهلة يسلم لي هذا الوجه، تقبريني...

ولكن أمها قالت لها في غير قليل من حزم:

- روحي يابنتي يافطوم اعملي لنا فنجانين قهوة...

- على عيني يا أمي.

قالت أم عبد الحميد.

- سكر قليل تقبري قلبي.

- حاضر خالتي أم العبد.

ولما صارت الأمَّان وحدهما في غرفة الضيوف قالت أم عبد الحميد ضاحكة:

- مثلما تقولين أنا جيتكم خاطبة راغبة في بنتكم الست فطوم لا تردوني خايبة.

فتضاحكت أم محمد في اقتصاد:

- جارية في مطبخكم، ولكن...

- ولكن.

- ولكن أنت تعلمين يا أم العبد يا حبيبتي: بنت مثل زر الورد، دقاقة عود، ما باس فمها غير أمها... هذه مثلما تقولين تحتاج إلى...

- إلى؟!

- إلى مهر يتناسب مع أمثالها...

- يعني؟

- يعني أنت ست العارفات. نحن لا نريد أن نطلب نصف الألف. المسألة وما فيها أننا نريد أن نضمن مستقبل البنت. أنت تعلمين بنت مثل الفلة، ودقاقة عود... المسألة وما فيها أن الدنيا فيها حياة وموت...

- أي؟

- ثلاثمئة عثمانية ذهب.

- غيره؟

- والحاجات السبع...

- غيره؟

- وعرس شاهرلي.

- كيف؟

- يعني تحضر خدوج الصبخ وتختها و...

- وأيضا؟ - أمثلي يا أم عبد الحميد يعلم مثلك الأصول تسلمي لي: خروف له رشمة ذهب، ولأنكم أولاد عيلة نستطيع أن نتساهل فنقبلها رشمة فضة... الخروف مزين بريبان وطبل لا نرضى إلا أن يكون طبل حمود المطربي... يعني مثلما تقولين نحن ليس لنا مطلب إلا في عرس مطنطن شاهر لي تفقع منه مرارة السبع...

- واللّه...

- وقفي ست راسي لا تستعجلي. الأولون ما تركوا شيئا إلا قالوه. قالوا: العجلة من الشيطان. وأنا لما حكيت لك عن الخروف المزين ما عنيت أن هذا وحده يكفي. أنت تفهمين. أنا بنتي ما هي بقرة تدفعين وتتسلمينها. هذا البيت الذي تسكنونه ملككم طبعا...

- الملك للّه...

- صحيح، ولكنه ملككم.

- الحمد للّه.

- أي ست راسي إذا كنت تريدين أن يتم النصيب لازم إنكم تكتبون البيت باسم فطوم. أنت ست العارفات بنت متعلمة اضرب واطرح، دقاقة عود بأمان اللّه، ألف من يبوس يديها ورجليها...

* * *

-٨-

كان عبد الحميد ينقل لصديقيه عمر ومصطفى أخبار خطبته أولاً فأولا فلما روى لهما آخر مسعى لأمه هتف مصطفى وهو بين الذهول والضحك:

- أي وبعد؟

وقال عمر ضاحكا:

- اللّه يسامحك يا عبد الحميد ما أخف دمك.

وأضاف وهو يطلق ضحكة مدوية أخرى:

- ما بقيت لي خواصر من الضحك. دخيلك يا عبد كفاية.

قال مصطفى:

- لا، كرمى للّه دعه يكمل لنا.

قال عمر:

- أنا موافق، كمل لنا يا عبد أرجوك.

وتدخل يوسف، الأجير الصغير:

- معلمي، أنا أمي لما تزوجت أبي...

صاح عبد الحميد:

- اسكت يا قرد. أنا ما قلت لك: عندما يحكي معلمك يجب عليك أن تلزم الصمت أنت...

- حاضر معلمي.

- ولك شوفوا هالشوفة أبوس أيديكم. ولد ما فقست عنه البيضة، يريد أن...

قال مصطفى:

- أبو حميد أنت تحتاج أن تعمل عندي دورة تدريبية...

- في ايش من فضلك؟

- في التربية.

- ليش؟

- الأصول التربوية أن تترك للولد الحرية. الكبت يمسخ شخصيته ويجعله شلواً، شيئًا مجوفاً...

- أستاذ مصطفى، أستاذ مصطفى، أنت معلم مدرسة قد الدنيا، وآراؤك كلها على رأسي ثم عيني، ولكني أخالفك في هذه المسألة...

- أية مسألة؟

- مسألة ترك حبل الأولاد على غاربهم كما تقول أنت. الأولاد يا بعد عيني لا ينفع معهم غير الشدة. المرحوم أستاذنا الشيخ بكري كان لا يمل من ترديد هذه الحكمة التي أضعها مثل الخرس في أذني: العصا...

قال مصطفى ضاحكا:

- لمن عصا... ولكن هذه نظرية قديمة في التربية يا عبد.

- لا تضيعني. عليّ الحرام هذا الخد الذي تراه الآن شبع صفعات من معلمي الحاج رجب. أنت تعرفه: ضربته قبل كلمته. عليّ الجيرة طول اجارتي عنده كان الكف في رقبتي رطلاً. ولولا هذا لما كنت الآن قادرًا على إخراجك من تحت يدي مثل الشمامة كما أفعل دائمًا...

وتدخل عمر قائلاً:

- الآن دعونا من هذه السيرة من فضلكم... ارجع بنا يا عبد الحميد إذا شئت إلى فطوم وأمها...

ما عسى أن يحكي عبد الحميد. كان قد ازداد اصراراً، بعد أن روت له أمه كيف تمردت أم محمد على أمه بعد أن كانت مثل الغنمة، على أن «يضفر الشيب» كما يقولون في البلدة ولا يتزوج فطوم. صار يسميها خرطوم. قال:

- أي أتعلمون الآن ماذا نويت أن أفعل أمام إصرار أمي؟

- ماذا؟

- معلومكم أن أمي متحمسة وصارت خطبة خرطوم رسميا في فمها مثل المسبحة... فما قولك يا أستاذ عمر في أن نقوم بعمل مسرحي نخوّفها به.

- لم أفهم.

- أنا أشرح لك: يوم الأحد الآتي بعد الظهر، تحمل عودك وأحمل دربكة ونهرب من البلد الأحد والاثنين ولا نعود إلا بعد ظهر الثلاثاء.

- وإلى أين نذهب؟

- عند أبو علي الحسن في معر تمصرين. وعلى دق، وغناء، ومزح، وتقطيع وقت، ويمكن يكون قد اشترى واحدة جديدة نسهر عليها.

- ما عندي مانع.

- وأنت أستاذ مصطفى، أتذهب معنا؟ هذا أبو علي شرواك رجل معدل ويد سخية اللّــه يكثر من أمثاله.

- أنا لا أذهب.

- إذن اللّه سبحانه وتعالى حارمك الطيبات.

*　　*　　*

-٩-

يوم الثلاثاء صباحا عادت أم عبد الحميد إلى دكان أبو عبد القادر السمان للمرة لا أدري كم. لم تنقطع لها عبرة طوال الأيام الثلاثة الماضية. ذهبت عدة مرات إلى بيت أبو محمد وشكت حزنها وقلقها. أم محمد أيضاً قلقت بعد أن كان إصرار أم عبد الحميد يغازل آمالها. بدا هروب عبد الحميد ضربة قاسية ولا سيما بعد أن عرفت حقيقة الخلاف بين عبد الحميد وأمــه.

وقالت أم عبد الحميد باكية:

- واللّه يا أبو عبد القادر رايحة أجن. واللّه ما أحد زعله. أين صفيت أراضيك يا عين أمك؟ قلبي يغلي مثل النار عليه. ثلاثة أيام، تصور يا أبو عبد القادر ثلاثة أيام وأنا بلا عبد الحميد!

قال أبو عبد القادر مواسيا:

- لا يكن لك فكر أختي أم عبد الحميد. أين عساه أن يروح؟ أنت تعلمين، هذا ولد يحب البسط والانشراح. ولا بد أن في المسألة تعليلة في ضيعة من الضيع. ويمكن أن الشغلة صارت على غفلة قام فركها من غير أن يقول لك...

وهدأت المرأة بعض الشيء وقالت:

- اللّه يسامحه. طمنت قلبي شوية اللّه يطمن قلبك. المسألة أن الولد فكره طايش. عقله ما هو في صنعته. الآن يحط وكده في دق العود، تصور.

- ألم أقل لك؟ أنا أراه من هنا. طول النهار عمر الرشيد العواد عنده.

وأضاف ممازحاً:

- لا يكن لك فكر مآل الكلب إلى دكان القصاب!

- يوه يا أبو عبد القادر أهكذا تقول عن عبد؟

- هذا مثلما تقولين مثَل. الأولون ما تركوا شيئًا إلا قالوه. أنا مخدومك عبد القادر مطيع، خدوم القط يأكل عشاه. إذا قلت له اللبن أسود يقول لي أسود. وأما المقطَّع الموصَّل فهو ابني عبد السميع. هذا، اللّه يصلحه، لا حق لي الحمام (يقلده) أنا أشتري الأبلق بحلسة ال عند العن بدكان أبي كلها!... شوفي المنفاخ كأنه هو الذي شقي حتى كوّن الدكان. أتعلمين يا أم عبد الحميد؟

قالت أم عبد الحميد شاردة الذهن:

- نعم.

- هذا الظهر يا ما حمل نفشات قطن. أيامنا لا كان فيه محالج مثل الخلق والعالم ولا كان فيه مصانع على الكهربائي. كنا نحمل جوز القطن على ظهورنا ونوزعه على النسوان المستورات، تحت الليل، لينفشنه لنا...

قالت أم عبد الحميد وقد أخذت تتسلى قليلاً عن همها:

- يرحم والديك. أنا ذاتي أكلَت النفشات من يديّ سلخات. أنت تعرف.

قال أبو عبد الرحمن ضاحكا:

- كيف لا أعرف. كنت أعرف النظيفة من المرتبة من نفشة كل واحدة منهما. نفشة النظيفة ترينها مثل الثلج، ما فيها اللَّو. وأما الوسخة فالنفشة تخرج من تحت يديها مثل الممسحة أجلك اللّه...

وأغربا في الضحك واستذكرا أيام أول، وقد تسلت أم عبد الحميد بعض الشيء عن غياب ابنها وإذا هما بصوت يرنّ فوقهما:

- مرحبا عمي أبو عبد القادر.

وأضاف ضاحكاً:

- مرحبا أم العبد.

كان عبد الحميد. وقال أبو عبد القادر وهو في قمة السعادة:

- شفت ستي؟ أما قلت لك يرجع!

ونهضت الأم وهي تبكي من الفرح وتقول بين الدموع:

- أهكذا تفعل يا عين أمك؟ أين كنت؟ تعال أعطني بوسة تسلم لقلبي. أين كنت؟

- كنت هاربا.

- ممن؟

- من دقاقات العود!

- أية دقاقات عود تقبرني؟

- من آنسة خرطوم. هذه التي صورتها لي قمرا مصورا... والآن اسمعي لي كلمتين ورد غطاهما: كلما فتحت لي سيرة خطبة، أو دق عود أهرب ثلاثة أيام بلياليها. فهمت ما أقول؟

- فهمت، فهمت. أنا أيضًا الشرنَّة أمها ضربت على عصبي بمنفختها وغرورها ببنتها كأنها تريد أن تزوجنا فطوم المغربية... لا فطوم خرطوم...

وضحك أبو عبد القادر:

- واللّه يا ستي الناس كفرت. أنا لما أخذت أم عبد القادر لا سألت عن عود ولا عن طنبور، قلت لأمي: شوفي، أنا بدي امرأة بنت حلال من ظهر حلال، عندها ذوق واذعان، بيت زوجها قبرها، طباخة، نظيفة... قال عود! ما أحلاها تغديني دق عود وتعشيني دوزنة!

* * *

-١٠-

وعادت الحياة إلى محل عبد الحميد أيضا. روى لصديقيه مغامرته. هو يسميها اختفاء ويشبهها باختفاء موسى قبل أن يدخل فلسطين.. مع فارق أن هذا لا يعود وهو قد عاد. وأوجز قصته قائلاً:

- هذا يا سيدي ما جرى لنا بالتمام والكمال. خرطوم قطعت شهيتي للزواج كأنما بيطقان... ربما إلى أبد الابدين.

قال مصطفى:

- ولكنها لم تقطع شهيتك للعود.

قال عبد الحميد:

- أتظن يا أستاذ مصطفى أن خدوج الصنج عوادة بلدنا غير منازعة تفهم كلمتين في الموسيقى حتى تستطيع تعليمها؟ قل لي هل عندنا في البلد (يفخم الكلام) أستاذة موسيقى غير خدوج؟ الأستاذ عمر أعلم الناس بمعارف خدوج الموسيقية: رقصة الهوانم - ومفشكلة أيضا، وهزّي هزّي محرمتك، وتقاسيم اللّـــه لا يريك مكروهاً... أنت تسألني لماذا هربت من الزواج ولم أهرب من الموسيقى. أي سيدي خلني أخدمك: أنا لم أهرب من الموسيقى لأن اللّه سبحانه وتعالى منّ عليّ بمعرفة هذا الطيب ابن الطيبين، أعني الأستاذ عمر...

قال عمر متواضعاً:

- هذا من طيبتك يا عبد. أنا محسوب الرايقين أمثالك. واللّـــه يا سيدي نحن الفنانين مصيبتنا الاحساس. رح قل للناس إن الموسيقى لا تصير من غير نوطة وسولفيج... قل لهم أن الموسيقى علم قائـــم بذاته، علم صح... يقومون يسألونك هل تعرف تدق بشرف طاتيوس! علم يا مولانا علم...

قال مصطفى:

- إذا لم نغلّب الفكر العلمي على الارتجالي، الانفعالي... ماذا أقول لكم...قال عبد الحميد:

- أستاذ مصطفى عفواً، ألا نعود إلى دروس النوطة؟

قال مصطفى:

- نعود كما تريد، ولكني أردت أن أقول...

قال عبد الحميد:

- أعتذر مرة أخرى، ولكن وقت الأستاذ عمر ضيق، أنت تعلم: أستاذ كبير مثله... أنا أقترح أن نعود إلى الدرس.

قال عمر:

- أنا موافق. هل أعيد عليكما دروس الوحدات الزمنية؟

قال عبد الحميد:

- هذه أستاذ أنا حفظتها.

قال مصطفى ضاحكا:

- وأما أنا فلم يعلق في ذهني منها شيء. ليش أنت يا أبو حميد تركت لنا فرصة نفهم فيها كلمة؟

قال عبد الحميد مزهواً:

- أنا أعيدها لك.

قال عمر:

- هذا أحسن. أعدها له أنت.

قال عبد:

- يا سيد راسي، الوحدات الزمنية سبع: المدورة...

قال عمر رحيما:

- المستديرة.

تابع عبد واثقا من نفسه:

- ذات السن.

قال عمر:

- لا هذه يأتي ترتيبها رابعا، بعد المستديرة تأتي البيضاء.

قال مصطفى:

- واللّه العظيم هذا الكلام داخل عليّ باليباني!

قال عبد الحميد:

- أنت ما شفت شيئا بعد. كيف لو حكى لك عن مفتاح الصول!

قال مصطفى:

- مفتاح الصون؟

قال عبد الحميد مصححا في ملامة:

- الصول يا سيدي الصول. أستاذ عمر.

- نعم.

- هل عندك طريقة، هكذا، مثلما تقول، لا تواخذوني بهذا الكلام، أعني طريقة يتعلم بها الإنسان العزف على العود، هكذا، من غير وجع الرأس هذا الذي تعلِّمُنا إياه، من غير مؤاخذة؟!...

قال عمر في جذل:

- أي، فيه.

قال عبد الحميد:

- كيف؟

- أن يتعلم على السماع...

وأضاف ضاحكا في وناء:

- مثلما تفعل خدوج مع تلميذاتها المستزوجات...

- لم أفهم.

فتناول عمر العود عن الكنبة الجلدية وقال:

- مثلاً اسمع هذا الدور الذي تغنيه ماري جبران.

ودق نوطة أو نوطتين وفتح فمه بالمقطع الأول من دور «أصل الغرام نظرة» كان غناء عمر عذبا ، صحيحاً مثل الليرة الرشادية -على حد قول

عبد الحميد. كان صوته يضوع كأنه شوق يهف على استحياء مثل أحلام العذارى.. صوتاً لا ريب في ترنّحه ولكنه ترنح القبلة العذرية الأولى.

وطرب مصطفى وعبد الحميد طرباً عفوياً أنساهما أنهما تلميذان.. صارا سميعين. مندمجين. لهذا المعلم -الزهرة الجميلة الغنية ألوانها في أرض قفراء.

وصاح عبد الحميد شبه سكران:

- اللّه أكبر!

وقال مصطفى في شجن عميق:

- واللّه شيء ظريف، شيء ظريف حقاً يا أستاذ عمر، يا كنزنا...

قال عمر متأثراً:

- شكرًا، شكرًا. لا تخجلوني...

واستمر يغني. العذوبة. السكر الخفيف. تقطّعُ الحبال مما هو لوبان يومي على العابر، على ما يقيم الأود. كان في صوت عمر وأدائه وبلوغه التمام شيء يتصل بالمطلق مع تغامز النجوم في الفضاء الذي نشق له بصمت. أنت مع حزن العجز عن الوصول.

ومثل كل صاحب فن كريم النسب أنهى عمر الدور بابتسامة خجلى مثل الاعتذار...

مصطفى ظل بعض الوقت منجذباً مع نشوة الدور. وأما عبد الحميد فسرعان ما بدا يصحو. قال:

- أستاذ عمر.

- أمر؟

- أنت مرة قلت لي ان لكل أغنية نغمة. هذا الدور من أي نغمة؟

- هذا رست.

- رست!

- أي نعم.

- واللّه أحسُّ أن رأسي قد فلع. هذا الرست أنا ما سمعت به طول عمري.

قال عمر باسما، رحيماً:

- هذا ليس رستاً مئة بالمئة. إنه نواه من البيات.

- بسم اللّه الرحمن الرحيم. أستاذ عمر أنت في نيتك تطقق لي عقلي اليوم!

- المسألة بسيطة: الأنغام العربية، الآباء، يعني الأساسية سبعة جمعت في كلمتي «صنع بسحر» فالصاد هو الصبا، هاك مثلا شائعاً عن نغمته (يغني):

سكابا يا دموع العين سكابا

الثاني هو «النهاوند» (يغني):

تحت القناطر

حبيبي ناطر

الثالث هو العجم. (يدندن):

هم، هم، هم (ثم يغني):

طلعت يا ما أحلى نورها

شمس الشموسة...

وهكذا فالبيات، فالسيكاه، فالحجاز، فالرصد...

قال عبد الحميد وهو يكاد يجن فرحًا وعجبًا:

- يا سلام، يا سلام يا أستاذ عمر.. وحق القرآن دوختني. الأستاذ مصطفى حدثني مرة عن المحيط ماذا يسمونه أستاذ مصطفى باللغة الافرنجية؟

أجاب مصطفى:

- الأوقيانوس.

- طيّب اللّه هذه الملافظ الحلوة. الأوقيانوس. ربي شهيد عليّ أنت يا أستاذ عمر أوقيانوس حقيقي...

قال عمر متواضعاً، خجولاً:

- أستغفر اللّه. كفاية يا شيخ!

- وأنا الذي كنت أتفاخر بصنعة الحلاقة. أبكي عليّ وعلى الحلاقة. وحياة محمد صرت أخجل.

قال مصطفى متعالما:

- المجتمع لايبنى على سواعد الموسيقيين وحدهم. المجتمع وحدة عضوية...

قاطعه عبد الحميد:

- وقف أستاذ مصطفى، لا تؤاخذني أستاذ عمر، عدت لا أستطيع متابعة الإنتباه إليك. ما هذا؟ ضيعتنا. أنا صرت مثل من يمشي في نومه. ألا تسمح أن نؤجل الدرس إلى غد...

- كما تريد. ولكن يشهد اللّه أنها فرصة سعيدة. تشرفنا أستاذ مصطفى. نراكم بخير.

ونهض مصطفى وعبد الحميد يودعانه ومصطفى يقول:

- وأنت في ألف خير أستاذنا.

وقال عبد الحميد:

- نحن الذين تشرفنا وسعدنا أستاذ عمر.

* * *

-١١-

وتمر أيام. انقطع خلالها عبد الحميد إلى «الفن» في حماسة لا تفتر. أهمل الحلاقة إلا قليلاً. صارت الموسيقى هي النسب، النحت، التمام، أمل الإنسانية. ولكن أية موسيقى؟ لقد لاحظ الفتى منذ الدروس الأولى أن هذه الموسيقى، موسيقى الأستاذ عمر، بحر ماله قرار: الوحدات الزمنية، ذوات الأسنان الأنغام الآباء وأبناؤهما وأحفادهما... شيء له أول ماله آخر. أوقيانوس أكبر من هذا الذي في جغرافية الأستاذ

مصطفى حمدي... ولذلك فقد خطر له أن طريقة خدوج الصنج أيسر. فخدوج تعلم المخطوبات رقصة الهوانـــم وقطعتين ثلاثا من السماعي وكان اللّـــه يحب المؤمنين، إذ تترك المخطوبة لشطارتها: فإذا كان عندها «سوسة» الموسيقى واظبت على «الدق» حتى تتوصل إلى «مطالعة» دقات صعبة مثل «خايف أقول اللي بقلبي» و«ملّا الكاسات»... لنفسها، على السماع، ومنذ أن تسمعها مرة أو مرتين من السماعة (صندوق السماع)... وأما إذا لم يكن عندها خلق فانها تكتفي بهذه «الدوطة» الموسيقية تقدمها للعريس ولا تزيد!

عبد الحميد أحب الموسيقى ولكن حوصلته، كما يقولون في البلد، ضاقت بأوقيانوس السولفيج والأنغام، فصرف الأستاذ عمر بعد أن أخذ منه، على السماع بضعة بشارف وتقاسيم جعلته، في أعماق ذاته، يؤمن مخلصًا أنه «ختم الكار»، أنه مثلما تقول صار معلما فيه، من هو ذلك الأستاذ الذي كان يقص شعره عنده ذات مرة فاشتبك هو وأستاذ آخر في نقاش عن نفع القراءة أو عدم نفعها؟ يومئذ حطّ الأستاذ الأول من قيمة القراءة وحكى حكاية عن فيلسوف يوناني كان يعتقد أن الإنسان يعرف كل شيء وهو في القماط إذا أراد هو نفسه أن يعرف... شيء من هذا القبيل، قد لا يكون هو ذاته كما يستذكره الآن ولكن معناه اجمالاً أن هؤلاء الذين هم بحار في الموسيقى ليسوا خيرًا منا... إننا، إذا أردنا، نستطيع أن نصنع أحسن مما صنعوا هكذا، نطة واحدة! ألم يكن بين رفاقنا في المدرسة أولاد يتعلمون الدرس من غير أن يدرسوا في البيت، بل يسمّعونه أكمل مما يفعل المعلم بينما «يبصمه» آخرون مثلما نزل في الكتاب حتى إذا قوّمهم المعلم للتسميع وجدهم وهم صم بكم!

هذه المسألة كانت مدار حديث بينه وبين مصطفى حمدي الذي أيد وجهة نظره وشرح له قضية معرفة الإنسان وهو في القماط كلّ شيء شرحا طويلاً. المهم أن عبد الحميد ازداد بالموسيقى علوقا حتى انه صار يلحن. أي نعم هكذا نط نطة واحدة من قرزمة البشارف والتقاسيم إلى التلحين!

حدث هذا التطور -الذي هو في طبائع الأشياء أصلا- حينما جاء الأستاذ مصطفى ذات يوم دكان عبد الحميد. ومكث لا يقول شيئًا حتى انصرف الزبائن. كان طوال جلسته كأنه إنما يخفي أمراً مهما ولكنه، مع ذلك، يود أن يستريح بالافضاء به. قال أخيراً:

- عبد.

- نعم أبو صطيف؟

- هل عندك للسر مطرح؟

- ولو يا صفو جُبّ غمان وحَبل عتان.

- نظمت قصيدة!

- باللّه عليك!

ما إن حصل عبد الحميد على يتيمة مصطفى حتى انصرف إلى تلحينها. ويظهر أن حرارته وحماسته هما اللتان جعلتاه ينجزها في اليوم التالي ذاته. وهكذا كان يلهوج الزبون لهوجة، لا يصدق متى يتخلص منه، لكي يعود إلى مؤلفه الأول في عالم التلحين فيرفع صوته بكلمات الأغنية مرافقا إياها على العود.

قد يسألنا سائل عن قيمة تلحين عبد الحميد قصيدة مصطفى. الأستاذ عمر يرى الفن ضرورة، ويجد أن افتتاحية موسيقية لقصيدة ما لا يمكن أن تكون غير افتتاحية واحدة ليس لها ثانية بل ثالثة أو رابعة أو خامسة، وهذا ما لا يتوفر في تلحيننا العربي المعاصر الذي تجد موسيقاه في واد وكلماته في بلاد الواق الواق!

وأما عبد الحميد فكان يجهل نظرية الأستاذ عمر فلحن قصيدة مصطفى حمدي، ماذا أقول، تلحيناً... يحمل سماته المميزة. وهكذا جلس ذلك اليوم ينقر على عوده ويغني قصيدة الأستاذ الوجدانية:

حبيبـــــــي حبيــــــب   حبيبـــــــي طبيــــــب

حبيبـــــــي إذا مـــــــا   رمـــــــاك يـــــــصيب

حبيبـــــــــــــي دواء	حبيبـــــــي يطيــــــب
أيخطـــــــيء حبـــــي	وهـــــو المـــــصيب
تبـــــــارك ربـــــــي	الـــــسميع المجيـــــب
حبيبـــــــي بعيـــــــد	حبيبـــــــي قريــــــب

وصفق المستمع الوحيد، وقتئذ، أي الولد يوسف:

- مرحى معلمي.

قال عبد الحميد وهو في السماء السابعة:

- كيف شفت ولك يا ولد يا يوسف، بصلاة محمد؟

- واللّه تحفة. يعني أحسن من الأستاذ عمر نفسه.

- طبيعي. الأستاذ عمر ما هو شاطر إلا في السولفيج الغنائي والمدورة وأم سن، والتي من دون أسنان (يضحك) يعني مثل سنك... وأما معلمك فهو ملحن. أتدري يا فصعون ما معنى أن يكون الإنسان ملحناً؟

- أعرف معلمي.

- اسكت، أنت لا تعرف شيئاً. الملحن يعني مؤلفاً جديداً مثل الشاعر الذي ينظم الكلمات...

ويدخل مصطفى فيهتف به عبد الحميد.

- ابن حلال. تعال اسمع كلماتك يا أستاذ مصطفى. تعال اسمع السحر الحلال.

وقبل أن يتم جملته يعيد الأغنية ويصيح مرة أخرى: كيف شفتني؟

- واللّـــه بديع.

- أليس معي حق في أن أحلق للأستاذ عمر؟

- ذقنه؟!

ويضحكان. فيتابع عبد الحميد:

- ولكن أستاذ مصطفى قل لي من فضلك. ما معنى «حبيبي بعيد حبيبي قريب»؟

قال مصطفى غامر السرور:

- هذه يا محفوظ السلامة معناها مرتبط بالبيت الذي قبلها.

- أي بيت؟

- تبارك ربي السميع المجيب.

- كيف؟

- سأنثر لك البيتين أي أنقلهما من الشعر إلى النثر حتى أقرب لك المعنى.

- ما معنى هذا أن ينقل شيء من الشعر إلى النثر. مع ذلك تفضل.

- المعنى يا مرحوم البيّ هو التالي: سألت ربي السميع المجيب أن يصبح حبيبي البعيد قريبا.

وفكر عبد الحميد لحظة وإذا هو يكاد يخرج من جلده إعجابا بهذا المعنى. وصاح:

- كرمى لمحمد، كرمى للأنبياء. ولك اللّه يطول عمرك. وحياة القرآن ما دارت لي في الأول. يا أللّـــه كم أنت عميق يا أستاذ مصطفى. أستاذ.

- نعم؟

قال عبد الحميد متواطئاً وهو يغمز بعينيه:

- سألتك باللّه، ومن سئل باللّه ولم يجب فقد كفر. أليست هذه الأبيات لنبيهة بنت جيراننا؟

قال مصطفى خجولاً ومزهوا في آن معا:

- يا عبد الحميد، يا عبد الحميد. أنت دائماً هكذا، لا تستطيع أن تبطل دواوينك.

- أي بشرفي أنا حزرت من الدقيقة الأولى.

وتدخل الولد:

- معلمي!

- نعم ماذا تريد؟

- الآن قبل ما تجيء سأل عنك أبو محمد السمان.

- أبو محمد السمان؟

- أي معلمي.

- ماذا يريد؟

- أنا لا أعرف. وسألني أيضاً هل يتعوق معلمك؟ قمت قلت له: لا أعرف. وقلت له أيضاً...

قال عبد الحميد مفكراً:

- ما عسى أن يريد؟ هذا لا يحلق عندي. هذا يحلق عند الحاج عبد اللطيف. أي، هل قال لك شيئـــاً؟

- أنا قلت له...

قال عبد الحميد ضيق الذرع:

- أنا أسألك ماذا قال لك هو؟

واستمر الولد يقول:

- قلت له إنك بطلت كار الحلاقة... خلص.

- لك، لك ولك شوفوا لي ها الفهلوي. يخرب بيتك. يخرب بيتك. ولك أستاذ مصطفى من أين بعث اللّه لي بهذه المصيبة؟ ولك الأنكى أنه صار الآن يحب الطرب ويعارضني في السماعي والبشرف والبيات والسيكاه... يخرب بيتك...

قال الولد:

- لا تستعجل معلمي.. قام قال لي...

- ويقول لي لا تستعجل أيضاً. واللّه...

وقال مصطفى:

- احلم عليه لحظة. خلِّنا نسمع ماذا قال له أبو محمد؟

يا ابني يا يوسف قل لي يا ابني قل.

قال الولد:

- قال أنا أصلاً ما جئت للحلاقة. هو، يعني أنت، يعرف أني أحلق عند الحاج عبد اللطيف ولكني جئت من أجل تعليلة وسأعود.

قال عبد مذهولاً جداً:

- من أجل تعليلة؟ ما فهمت. يعني جاء يدعوني إلى عرس؟ ليش نحن بيننا دعوات من هذا النوع؟

* * *

-١٢-

صحيح. جاء أبو محمد بعد قليل إنه يريد أن يحيي له عبد الحميد ليالي التعيلة، وهي الليالي التي تسبق العرس وتتقضي في دق ورقص ولعب حَكم وشرب حتى الصباح. وأوجز أبو محمد الموقف بعد أن عرض رغبته قال:

- أي واللّه. هذا الذي جرى. نحن لسنا من جماعة من يدق لهم أبو زعرور وهلُّو وخدوج الصنج... والأستاذ عمر طلب خمس عشرة ليرة على الليلة...

قال عبد الحميد جذلان، متواضعا، متخابثًا في آن معا:

- الأستاذ عمر أستاذنا. وهو، يعلم اللّه، يستحق.

قال أبو أحمد:

- أي سيدي ما اختلفنا، ولكن أنت لا تحتاج إلى من يقرأ على أذنك أي دروس: عرس والغانم الذي يقول لك «هات» والولد و حيد، وفي ودنا أن لا ننقصها أي شيء حتى لا ينكسر خاطره أو يشمت فينا الناس. والإنسان له صديق واحد ومئة عدو. قمنا قلنا في عقلنا: «مالنا غير الأستاذ عبد الحميد»!

«الأستاذ عبد الحميد»! هذه أول مرة ترن في أذنه هذه الكلمة الحلوة. الأستاذ؟ ديني عليّ حرام هذه تنزل في الأذن مثل السكَّر نبات. مئة دربكة أخذت تدردب فرحًا في قلب عبد الحميد على الرغم من أنه جاهد جهادًا شديدًا ليخفي ما به. كانت قسمات وجهه كلها تزغرد:

- أي سيدي الأستاذ عبد الحميد خادم.

- أستغفر اللّه يا أستاذ، ولكن...

- ما تريد، ما تريد. أنا من أجل خاطرك أشتغل في عرس المحروس مجاناً.

- أفضلت، ولكن أنا لا أقبل.

- يا سيدي أنت الكريم ونحن أهل الاستحقاق.

- يكفي خمس ليرات أستاذ عبد؟

- ولا بارة الفرد زيادة عم أبو محمد.

- توكلنا على اللّه؟

- تكرم هالدقن (ممازحا) وان كنت تقشها عند الحاج.

قال أبو محمد مدارياً:

- حقك عليَّ، حقك علي. من الآن وصاعداً وحياة عينيك، من الآن وصاعداً. صحيح أن الحاج طَهَّر الأولاد... طيب أنت فهمت عليّ. أي سيدي نحن في نيتنا أن نبدأ الليلة ما قولك؟

- أنا حاضر.

- أي إذن السلام عليكم. خاطركم أستاذ مصطفى.

ودع عبد الحميد أبو محمد إلى ما قدام الستارة القصبية وهو يردد:

- مع ألف سلامة شرفت عم أبو محمد. حلت البركات.

وعاد وهو يضحك ضحكاً عريضاً. كان كله يضحك. وقال بين الضحكات:

- شو قلت لي أستاذ مصطفى؟! قال حلاقة، قال حلاقة أستاذ مصطفى، إياك ثم إياك أن تعلم أولادك شيئًا غير الطرب. إذا رأيت هذه الدنيا ما تزال

على رجليها فلا تصدق أنها واقفة على قرن ثور، وأن سبب الزلزال أن الثور يتعب فينقل الأرض من قرن إلى قرن!... هذا هراء. الدنيا واقفة على رجليها بالطرب...

قال مصطفى جذلاً، في تهكم خفيف:

- أنا أتذكر الآن أنك كنت تقول لي إن الدنيا دنيا لأن الإنسان اكتشف فن الحلاقة...

- كنت أخربط.. غلط. الحلاقة؟ ما الحلاقة؟ أنت تتسلم رأس هذا الزبون مثل كشة الخيطان، تقوم تطلع روحك من صدرك فيه، نصف ساعة، ساعة... أي؟ والأجرة ربع ورقة، والكريم يعطيك ثلاثين قرشًا مبخوشًا وقرشين للولد... وحق كتاب اللّه يوسف على حق لما قال لأبو محمد إني بطلت صنعة الحلاقة. يا سيدي بطلت، بطلت...

- بطلت؟ كلام يصل؟

- أردت أن أقول أستاذ مصطفى أن الحلاقة من الآن وصاعدًا ستكون عندي طقطقة. سآخذها من قفا الكيل. سأكون منذ هذه الدقيقة قلبًا وقالبًا، كما تقولون أنتم معلمي المدارس، للفن... تصور: خمس ليرات في الليلة! أي داعيك يحتاج إلى عشرين رأسا حتى يحصل عليها... خمس ورقات، خمس ورقات أستاذ مصطفى. أنت لا تتصور؟ يعني معاشك... معاشك أنت كم؟

- ثلاثون ليرة في الشهر.

- يرحم والديك. يعني معاشك أنت الذي روّحت ضوء عينيك في الكتب حتى اضطررت إلى وضع نظارتين... معاشك كله أنا أحصله في ستة أيام...

قال مصطفى حزينا:

- هذا صحيح.

- وتقول لي بعد ذلك أن في الدنيا شغلة تعلو على الفن.

* * *

-١٣-

ذلك الصباح بينما كان عبد الحميد ينقر على عوده، ومصطفى يقرأ في مجلة، تناهت ضجة غير مألوفة من الزقاق: صناديق تسحب، صيحات: «ولك وقف هالحمار يا محمد»، «ولك نزل هالصندوق يا عبد اللطيف»... وتوقفت يد عبد الحميد عن العمل لحظة وتساءل:

- ما الحكاية؟

والتفت إلى الولد:

- ولك يوسف، رح اسأل لي ماذا يجري في الزقاق. ظني أن أحدًا آت ليسكن بيت السمان. هذا بيت فاضي منذ أن تركه كاتب التحقق...

كان يوسف وقتئذ يشق ستارة القصب وينظر إلى الزقاق فلم يسمع ما قاله معلمه، وصرخ هذا:

- ولك يا يوسف، ولك أصابك الطرش الأكبر.

- أمر معلمي.

- أستاذ مصطفى أبوس يدك اسمع لي ماذا يقول. يقول: «أمر معلمي» مع أن أمري واضح. في الزقاق يا فهيم خربطة وحركة كأنها حركة نقل أغراض، وأنا أريد أن أفهم. أنا أموت في الفهم... رح اللّه يوفقك أفهم لي ما الحكاية.

- أمرك معلمي.

كان واقفا على شعره. فانطلق عدوا. وقال عبد الحميد:

- أستاذ مصطفى.

- نعم؟

- اللّه ينعم عليك. هل تريد الحقيقة؟

- هات.

- أنا أحسّ أني مظلوم، أن اللّه سبحانه وتعالى لو أنه خلقني في بلاد الافرنج، في فرنسا، في المانيا... أنا خلقت -وحياة هاتين النظارتين

الحلوتين - للابداع، للعلم. وتعال عش في هذا البلد حيث تحتاج إلى عشرين خطابًا حتى يفهم منك أجيرك، أجير قلبك، كلمتين!

وأضاف بعد لحظة:

- تصور! واحد مثلي. في فهمي، في انفتاحي على الدنيا... حلاق!

قال مصطفى جذلا:

- حلاق! ألم تكن صنعة الحلاقة ذات يوم أمل الإنسانية عندك؟

قال عبد الحميد وهو يشير إلى عوده ويربِّت في حنان:

- أمل الإنسانية في هذا، خلاص الإنسانية في هذا العود. هذه الجبال قدامك تزول والطرب لا يزول...

- الآن صرنا في الطرب! ولك أخي القناعة كنز لا يفنى. من رضي بقدره عاش يا عبد الحميد.

- أستاذ مصطفى، أستاذ مصطفى.. أأنت الذي تقول هذا الكلام؟ أمن الأستاذ مصطفى حمدي، زينة المعلمين الإبتدائيين في البلد أسمع هذا الكلام التواكلي؟ واللّـــه لو لم تكن أمامي أسمعك وتسمعني لكنت ظننت أن واحدًا غيرك هو الذي يتكلم!...

سأل مصطفى في اثارة خفيفة من سخرية:

- لأنك أنت أول من علمنا أن من يرضى بواقعه ولا يطمح للأحسن حمار، عفواً، أنا أرجو أن لا تؤاخذني، ولكن هذه هي الكلمة...

وعاد يوسف:

- السلام عليكم.

فخرج عبد الحميد عن طوره:

- لك، لك، لك... ويقول لي: السلام عليكم! أي أنت جئت من أفغانستان؟ من الصين؟ من الهو نولولو؟ قل كلمة ورد كلمة ورد غطاها: ما الحكاية في الزقاق؟ قال السلام عليكم قال، تضرب شو بارد!

قال الولد هادئاً:

- صار لنا في الزقاق جار جديد يا معلمي.

- ماذا تقول؟

- أي نعم. جار جديد.

- وما جنسه؟

- حكيم أسنان.

- حكيم أسنان؟

- أي معلمي، حكيم أسنان.

- من قال لك هذا؟

- قاسم راضي أجيره.

وأخذ عبد الحميد يحك رأسه مستذكراً:

- قاسم راضي، قاسم راضي... ولك هذا أما هو جاركم أنتم في الحارة يا يوسف؟

- أي معلمي.

- رح انده لي إياه رح.. آه يا ضرسان يا قاسم، صرت الآن دكتور أسنان؟

قال مصطفى:

- يوسف قال لك ان قاسم أجيره.

- ما اختلفنا، ولكنه عند حكيم أسنان... رح انده لي إياه قلت لك.

- أمرك معلمي. أنا رايح معلمي.

وخرج الولد فعاد عبد الحميد يشكو:

- هذا الولد سيسبب لي جلطة في المعدة. إنه لا يعجبه أن يقول «أمرك معلمي» ويسكت، ولكنه يتفاصح ويضيف: «أنا رايح معلمي!».

- أنت يا عبد الحميد، اسمح لي أن أقولها لك صراحة، أنت ضعيف تربوياً.

فاتسعت عينا عبد الحميد:

- أنا أستاذ مصطفى أحترمك قد الدنيا، ولكني لا أتساهل عندما يقال لي إني ضعيف تربوياً... كيف تبرر اتهامك هذا؟

* * *

-١٤-

تستطيع أن تعتبر يوم سكنى طبيب الأسنان في زقاق عبد الحميد منعطفًا على قدر كبير من الأهمية في تاريخ هذا الأخير. منذ الساعات الأولى زج نفسه، بكل قواه، في النقلة: أشرف على تركيب الأدوات، والكرسي الذي يرتفع ويهبط، وترتيب الكلابات وأكياس الجبصين وبوتقة الصهر، إلى آخره...

واستأنس قاسم راضي بعبد الحميد وأحب صحبته وبدأ يلزم دكانه خلال ساعات العيادة الميتة.

كان قاسم عتيقًا في المهنة وعمل عند الدكتور سركيس، هذا الذي انتقل إلى الحارة أخيرًا، منذ أن كان في زقاق «المنشر» في الحارة الشمالية.

منذ الأيام الأولى لصحبتهما بدأ قاسم يبوح لعبد الحميد مفتوح القلب، بـــأسرار المهنة. أصلاً قاسم ليس عنده أسرار.أن قلبه على لسانه، وهو اليُسر مجسدًا، يتكلم على أعقد المسائل مثلما يعمل في أدق شؤون صناعة الأسنان، مثلما يتنفس ويأكل ويشرب الشاي بصحبة عبد الحميد. ولكنّ استقبال عبد الحميد لدقائق أسرار طبابة الأسنان لم يكن كذلك. كان يصغي إلى قاسم بكل روحه، ولا يقضي العجب. وازداد عجبه، حتى كاد ينقلب إلى ذهول، لما قال له قاسم ذلك اليوم ان مهنة طب الأسنان خير من ضيعة بيت المدرس في قسطون. صاح عبد الحميد متسع الحدقتين:

- بصلاة محمد؟!

- وصلاة محمد الذي صلاته تحيي القتيل.

- اذن هذه طبخة كيميا يا قاسم.

- أهمّ يا عبد. تصور: يأتيك هذا المريض أو المريضة. هذا وجع الضرس ما معه لعبة، يصيح منه الإنسان ولا يستريح. ألا يقول الناس: أصعب من وجع الضرس؟... أقول لك يأتيك هذا المريض وكأن أسياخ نار تنشب حتى مخـــه.. يقوم الدكتور يقول له: بسيطة. هذا ضرسك يحتاج إلى قلع...

ويستزيده عبد الحميد مفتوح الفم على مصراعيه.

- أي قاسم؟

ويتدخل الولد كأن عليه واجباً ضرورياً:

- معلمي، أنا بدلت أسنا...

فيصرخ عبد الحميد مروّعاً:

- ولك يا مقصوف الرقبة، قلت لك ألف مرة لا تتدخل فيما لا يعنيك. عندما يتكلم الكبار...

ويقول قاسم ضاحكاً:

- يا داخل بين البصلة وقشرتها...

ويقول عبد وهو لا يريد لقاسم أن يسكت:

- يرحم والديك. أي سيدي إذن يقول له أن ضرسه يحتاج إلى قلع.

- أي واللّه. كأنك كنت حاضرًا...

- وايش يقول له المريض؟

- المريض، بعيد من هنا، وجهه متلعبج من الوجع، مخبَّص، يقوم يقول للدكتور: «مثلما تريد يا دكتور، اقلع!» فيأخذ الدكتور أبرة مثل رأس الدبوس ويحقنه بها في حنكه وينتظر أربع خمس دقائق ثم يأخذ الكلابة ويقلع له ضرسه، وكان اللّه يحب...

فيتمم عبد الحميد وهو في منتهى الدهشة:

- المحسنين... أي؟

ويستمر قاسم:

- أي، يقوم المريض يقول للدكتور: «واللّه يا دكتور حنكي مخضرّ شوية» يقوم الدكتور يقول للمريض: «لا تخف، المسألة بسيطة. رح تمخض بشوية ماء بالملح في البيت، وبكرة تفيق أن شاء اللّه مثل السبعٍ»، يقوم يقول المريض: «قديش تأمر يا دكتور؟» فيقوم يقول الدكور متمنناً: «من أجل خاطرك أربع ليرات. نحن لا نأخذ على قلع الضرس ولكن حق البنج...».

ويفز عبد الحميد كالملسوع ويهتف بقاسم:

- وقف أبو محمد، وقف اللّه يوفقك... أنت تفلجني... قديش قلت لي؟

- أربع ليرات...

- والمسألة كلها تستغرق كم من الوقت؟

- ربع ساعة زمان.

- بصلاة محمد؟

- وصلاة محمد.

- العمى! واللّه العظيم، الباري المقيم، الذي لا إله إلا هو أنك خربطت لي حياتي!

ويقول قاسم في براءة:

- أنا؟

- أي أنت.

- ليش؟

- وقف حتى أقرب إلى ذهنك: أنا حلاق مشهور، وشاطر يأتيني الرجل رأسه كشش كشش، خيطان خيطان، أقوم أقعد عليه...

- تقعد عليه!

- يعني أحط وكدي فيه وأقص وأحلق وأنتف وأبودر وأعطر وأضع الكريم وأغسل وما تشاء... أكثر من نصف ساعة، ساعة.. يقوم ينقفني إذا تزفَّر بنصف ليرة... ودكتورك هذا يسلخ أربع ليرات كل ربع ساعة...

يقول قاسم حكيماً:

- ورفعنا بعضكم...

- وقف أكمل لك... قمت قلت في نفسي: لماذا لا تصير يا ولد مطربا؟ الطرب في هذه الأيام له سوق رائجة أكثر من طحين الزيرو... قمنا دعونا الأستاذ عمر رشيد، ما غيره أنت تعرفه، رجل أماثل، يفهم في النوطة الافرنجية أحسن مما أفهم أنا في الحلاقة أستغفر اللّـــه العظيم! قام بدأ يعلمني البي بيمول والصول والفامي ري... حتى ضاق خلقي... قمت قلت له: أستاذ عمر فيه طريقة ان الانسان يدق بها على العود، هكذا مثلما تقول، من غير هذه النوطة الافرنجية الغليظة؟ قال: فيه... من غير طول سيرة، تعلمنا...

- النوطة؟

- لا؟

- إذن؟

- بشرفين، ثلاثة، شوية تقاسيم على العود...

- أي نعمة كريم.

- أنا لا قول لا. وأخذونا إلى تعليلة تعليلتين. الجماعة دفعوا لنا، الشهادة للّـــه، مبلغًا طيبا... ولكن، يا ليتك كنت معي...

- لماذا؟

- ولك أخي، التعليلة ما التعليلة؟ طابق فرح وسكر وعربدة.. أن تكون منسجمًا، ونغمة السيكاه مسلطنة معك، ينط واحد حنكه ملووق من آخر صحن الدار فيصيح بك: «يا معلم غن لنا: خايف أقول!».. ولك يا منظوم: «خايف أقول، نغمها كرد وأنا مسلطن معي السيكاه.. وتعال قمطها!

- لا، لا، لا، طب الأسنان شغلة ثانية. أمس جاء عند معلمي الدكتور واحد يريد أن يركب بدلة أسنان. أي سيدي مثلما تقول بدلة الأسنان أنا أصنعها كلها. الدكتور لا يفعل أكثر من أخذ قياس فم المريض.. والأجرة.. والأجرة؟ احزر كم؟

ويقول عبد الحميد مهتماً:

- كم؟

- بين السبعين والمئة ليرة!

فيصرخ عبد الحميد مصعوقاً:

- لا، أنت تسخر مني يا أبو محمد. ماذا تقول؟ بين السبعين والثمانين؟

- والمئة قلت لك.

- يا محمد بن عبد اللّه! يا ربي! واللّه العظيم لو لم أكن أعرفك، لو لم أكن أعرف صدقك لقلت إنك تمزح معي.

- لا عليّ الجيرة!

ويقول عبد الحميد بعد فترة:

- ولك قاسم.

- ماذا؟

- ما عساي أن أقول لك..

ويعود يفكر لحظة مديدة قبل أن يضيف:

- ما دامت المسألة على هذه السهولة. لماذا لا أعمل أنا... مثلما تقول... دكتور أسنان؟

ويفكر قاسم طويلاً. لم يستهجن. لم يفاجأ. ان قاسم لا يفاجئه شيء في الدنيا... ويقول بعد لحظة:

- واللّــــه يا عبد المسألة هينة.

- وقف أنا فكرت في طريقة.

- طريقة؟

- أي... أدعي في البداية أني أريد الكشف على أسناني، أضربها صحبة مليحة مع الدكتور...

ويقاطعه قاسم:

- لا، الدكتور طيب جدًا. أدعه ذات يوم إلى غداء، إلى عشاء، إلى سهرة... على فكرة، الدكتور يحب الطرب...

ويفكر لحظة ويضيف:

- وإذا أنت ابن العيادة، تستطيع أن تدخل متى شئت، وأن تتفرج على ما تشاء...

- قول شرف؟

- قول شرف.

ويستمر عبد الحميد حالما:

- الدكتور عبد الحميد، الدكتور عبد الحميد...

ثم فجأة صارخا:

- ولك قاسم أنا أكاد أجن! قال حلاق قال... قال طرب قال. العمى، واللّـــه ما فية بعد كلمة دكتور إلا كلمة دكتور...

وفي هذا الجو، الذي تتداخل فيه أشعة الحاضر مع المستقبل مثل العاكسات الضوئية الباهرة تتقاطع في السماء الليلية وتخمد وتسطع، في هذا الجو السديمي يقرب فيه البعيد، ويسلس قياد المستحيل، ويفتر ثغر الحاضر المختلط عن لؤلؤ سابي اللمعان، واضح حتى الاتحاد... يأخذ عبد الحميد العود وينقر بضع نبرات موسيقية راقصة وإذا الستارة القصبية تشق نصف شقة وتطل رؤوس صغيرة لأولاد عابري سبيل يظهر أنهم التقطوا رأس الخيط، خيط النغم فمضوا يهزجون:

- حليلة مليلة

هب الهوا رماها

في الحارة الشرقية

يا حارة يا منظومة

دق السكة ع التومة

خلال لحظة غير يسيرة يبهت عبد الحميد فلا هو يبدي ولا يعيد. لم يستنكر الهجمة كثيرًا. كان ثمة شيء من الرضا: نغمة الاهزوجة منسجمة مع

النبرات الموسيقية التي نقرها عبدالحميد على العود... مع ذلك صرخ من قبل فض العتب، وبعض المواضعات التربوية التي تعلمها من الأستاذ مصطفى في ذكاء:

- رح ولك أنت وهو. تضربوا في هالكسم. لا يا نسانيس لا! العمى...

ويهرب الأولاد، يسمع وقع أقدامهم الصغيرة على بلاط الزقاق خائفة مرحة، معابثة لاهثة...

ويعلق عبد الحميد في غضب تمثيلي:

- لا بد من أن أترك هذه الصنعة ذات يوم ولو مت...

* * *

-١٥-

عبد الحميد «ضرب صحبة» مع الدكتور سركيس كما قال حقا ومثلما استمال قاسم راضي لَصّ قلب معلمه. وصار منظرًا مألوفًا أن يحل عبد الحميد محل قاسم عندما يكون هذا في اجازته الأسبوعية، أو متغيباً في بعض شأنه.

ذلك اليوم كان تعاون الرجلين وانسجامهما في ابانه... ويقول الدكتور مخاطبا عبد الحميد في حياء، وهو يلفظ على طريقته الأرمنية:

- أبو حميد اعمل معروفا، اعطني هذا الملقط من فضلك. ويناوله أبو حميد، ما يطلب.

- تفضل دكتور.

- أنا ألبكك يا أبو حميد.

- أعوذ باللّه يا دكتور، أرجوك.

- المسألة أن قاسم مريض (الدكتور سركيس يلفظها مريد لأنه من غير الناطقين بالضاد!) قلت في نفسي: أمون على جارنا أبو حميد...

- ولو يا حكيم! أنت تأمر. أصلاً اليوم يوم الاثنين لا شغلة ولا عملة...

كل هذا يجري والزبون متربع على الكرسي الذي يعلو ويهبط. ويقول الطبيب للزبون:

- سكر فمك من فضلك. (الفظها من فدلك، من فضلك) فيقول أبو حميد الذي يتحفز لأية اشارة تبدر من الطبيب.

- نعم دكتور.

- لا غنى عنك أنا أكلم الزبون.

ويقول الزبون في تسليم مطلق:

- هكذا دكتور.

- أي نعم، عال (الفظها آل، من فدلك!).

ويسأل الزبون المأخوذ بأسرار الطب:

- أفتحه يا دكتور؟

فيضحك الدكتور ضحكًا عريضًا:

- ما دمت فتحته!

ويتدخل عبد الحميد الذي يتابع هديرًا ما ينفك عارماً، هديراً يخصه هو نفسه لا علاقة له بما يجري حواليه في العالم الخارجي:

- قلت في نفسي: ما دام اليوم يوم اثنين، رح شف جارنا الحكيم لعله يحتاج إليك...

- متشكر. ولكن... كيف أمور الترب (الطرب) في هذه الأيام؟

نسيت أن أقول لك ان «ضرب الصحبة» الذي نفذه عبد الحميد قد أثمـــر. ذلك أن الدكتور سركيس انسان «لا ولد -كما يقولون في البلد - ولا تلد، ما عنده إلا هذه الزوجة التي لا تنجب. الدكتور سركيس ليس حزيناً لذلك. إنه ليس حزيناً لشيء. الحياة عند الدكتور قدر يحتمل، بل يحب، ولكن هو ناما. وعبد الحميد عند الدكتور، مثل قاسم، مثل آلة حفر الأسنان، مثل التقاسيم العربية ومسألة ما بينها وبين الأنغام الأرمنية من قربى... كل أولئك

مواضيع تستحق أن يحياها الدكتور، أن يتلبث عندها، أن يحبها، أن يتقبلها قدراً مقدراً يستسلم له، ويمكن أن يحب...

ويجيب عبد الحميد عن سؤال الدكتور المتعلق بالطرب:

- عدم. أساساً أنا زهقت روحي من العود والدربكة والتعليلات والأعراس... يضرب أهل هذا البلد... نوَر... نور حقيقيون!

ويصرخ الزبون:

- آي.

- فيسأل الطبيب:

- يوجعك؟

- لا يا دكتور.

- دقيقة واحدة وأنتهي.

ويعود إلى عبد الحميد:

- لكن أنا لما عرفتك كان الطرب عندك أعظم عمل في الدنيا...

فيقول عبد الحميد متفلسفًا:

- قد يكون كذلك يا حكيم، ولكن... ولكن هذا بلد يسمع من بطنه...

فيقول الدكتور ضاحكاً:

- هذه قوية يا عبد! كيف يسمع الزلمة من بطنه؟

- أي سيدي أنت سيد العارفين...

ويقطع كلام عبد الحميد أن بعض الزبائن يطلون من الباب الموارب (النظام عند الدكتور سركيس ليس شدّ يدك كثيراً!) وإذا عبد الحميد يخرج عن طوره كأن العيادة عيادته ويصيح بقوة:

- بالدور يا أخ، بالدور. انتظر في غرفة الانتظار. سبحان اللّه في طبع هؤلاء الناس! إذن لماذا اخترعت غرفة الانتظار؟ ألا ترون أن الحكيم يشتغل في غيركم؟ اغلقوا الباب، اعملوا معروفا.

ويغلق الزبائن المستعجلون الباب ولكن عبد الحميد يستمر:

- كأن الاخوان داخلون على قهوة. لا نقر على باب ولا دستور من خاطركم ولا ما يحزنون...

ويعود الدكتور إلى ما انقطع من كلام، ولم يعكره تدخل الزبائن في شيء:

- لم تقل لي كيف يسمع أهل هذا البلد من بطونهم؟!

- كيف أقول لك يا حكيم. أنت سيد العارفين، المسألة بسيطة: مجلس طرب! (يلبِّع لنفسه) يسمعون! تكون أنت في تقاسيم تسكب فيها روحك... وإذا أنت يا مولاي... هنا فصفصة بزر، وهنا كسر جوز، عن يمينك صوت قرقرة أركيلة، عن يسارك اثنان يتخانقان... وآخران يضحكان كأنك تكركرهما... والآخرون يحكي بعضهم سيرًا لبعض... هذا إذا لم يحدث سحب سكاكين... وإذا أنت تجد نفسك كمن يغني في طاحون.

وضحك الدكتور سركيس، وقال للزبون:

- خلص يا أخي تفضل...

قال الزبون في شكران:

- اللّه يعطيك العافية.

- نحن وضعنا لك حشوة، عد غدا.

- متى دكتور؟

- متى شئت.

- السلام عليكم.

لما خرج الزبون أقبل الدكتور على عبد الحميد كأنه تخلص من حمل ثقيل:

- أوخ فضيت الآن لك.

كان في حركاته وناء ولكنه كثير الحفاوة بعبد الحميد. يشبه مريضاً يضع رأسه على صدر أمه، وأضاف في فتور:

- أنا واللّه تعبان يا عبد. صحتي هذه الأيام على قدها. في غرفة الانتظار باقي زبون، نصرفه، قل نلوشه في دقيقة دقيقتين ونقعد نتسامر. ما قولك؟

- أنا موافق... ولكن هذا ظاهر عليه أنه زبون ذكر.. خلَّصنا منه وبعدها نروق أنا وأنت.

- طيب اندهه من فضلك.

-حاضر يا دكتور.

وفتح الباب وصاح:

- يا أخ، يا أخ، أنت في غرفة الانتظار.

قال الزبون:

- أني.

قال عبد الحميد مغيظًا:

- ليش فيه غير جنابك في الغرفة بلا قافية؟

- لا باللّه، ما فيه؟

والتفت عبد الحميد إلى الدكتور يشهده في شبه همس:

- شفت لي الفهلوية؟

وصاح بصوت عال:

- إذن ادخل ماذا تنتظر؟

ودخل الزبون. كان بدوياً فتى في وجهه جذل وغفلة. قال بصوت عال كأنه في برية:

- قواكم اللّـــه

قال الطبيب:

- تفضل واقعد.

- السلام عليكم.

وقال عبد الحميد في شبه همس كأنما لنفسه:

- اللهم الهمنا الصبر!

وهمس الطبيب:

- طول بالك عبد.

وقال للمريض:

- ايش تبغي يا أخ؟

قال الزبون موضحاً:

- واللّه يا دكتور، الشكوى للّه معي هنا بعيد منك دملّة.

- أين؟ في أي فك؟

لم يشر البدوي إلى أي فك، وإنما انحنى على رجله اليمنى وأخذ يفك أربطة كانت تلفُّها وقال:

- هنا في رجلي، الشكوى للّه.

وعاد عبد الحميد ضيق العطن، لا يطيق صبراً ولكنه مع ذلك يحاول أن يكظم غيظه:

- أنت غلطان في النمرة ياعم.

قال الزبون متعجبًا:

- لويش يا مرحوم البي؟

قال عبد الحميد مصابراً:

- الحكيم هنا حكيم أسنان، وأما البيطار فهناك، غير بعيد، في رأس الحارة! وضحك الدكتور حتى كاد يقع ولكنه قال، بين الضحكات في شبه تأنيب:

- يا عبد، يا عبد!

وقال الزيون من غير أن يعير عبد الحميد أي التفات، قال كأنما يحدث نفسه:

- لويش اذن قالوا لي انه هنا حكيم يعطي (الزبون يلفظها «ينطي» بالنون) دوا؟

ويحاول الطبيب أن يتمالك نفسه بينما عبد الحميد يبربر:

- تعال قمطها!

ويقول الطبيب وهو يكاد ينفجر:

- يا أخ نحن هنا لا نحكم غير الأسنان.

قال الزبون وهو ما يزال شديد الاعجاب:

- عجيبة! والأسنان لويش تتحكم؟! ما كله مرض! حكيم يعني يدخل الآدمي المريض عنده، يقوم يطلع مثل فضة الروباص. هذا هو الحكيم!

وقال الطبيب مستسلما، باسما بسمة موهونة:

- واللّه يا عم أنا لا أفهم في الدمامل!

قال الزبون غاضبًا:

- أي قلها من الأول يرحم والديك.

ونهض بقوة:

- يا اللّه أنا مروح. ولكن... وين قلت لي طبيب دمامل الرجلين؟

قال عبد ساخرًا:

- رح تيسر. رح اسأل في السوق.

واتجه الزبون إلى الباب فأتبَعَ عبد الحميد في اللهجة ذاتها:

- سكِّر الباب وراءك يا أخ من فضلك!

لما أغلق الباب الخارجي للعيادة انفجر عبد الحميد ضاحكاً:

- شفت سيدي؟! خذ هذا الزبون وسكَّر.

قال الطبيب جذلا:

- لا، هذه ما سبقه إليها أحد. وأنت أيضًا من أين جاءتك فكرة نصحه بالبيطار.

ويضحكان.

ويعود عبد الحميد ويستأنف ما انقطع من حديثه:

- أي سيدي، كنت أحكي عن الطرب، هذا البلد - إذا شئت الصراحة - لا يستحق من الآلات الموسيقية غير الدربكة...

فجأة أمسك الدكتور صدره بيده وأطلق آهة. كان يبعثر وجهه ألم ثاقب:

- آه.

هتف عبد الحميد مروعًا وبصدق لاشية فيه:

- سلامتك يا دكتور.

قال الدكتور منهوكًا:

- بسيطة، مافيه شي. صدري ضيق قليلاً. هل تتفضل فتفتح لي هذه النافذة؟

- حاضر.

ويفتح النافذة. ويتنفس الطبيب في عمق:

- شكرًا، أكمل.

- لا واللّه أنا قلق عليك يا دكتور.

- لا، حركة بسيطة. أنا الآن أحسن.

- اذن أحكي لأسليك. أي سيدي أمس كنت في المحل أدق بعض التقاسيم، قام اندهق عليّ الباب وانمطّ حوالي خمسين، ربما ستين رأس ولد صغير وهات يا شدّيات: «حليلة مليلة. هب الهوا رماها، في حارة الشرقية»...

الطبيب يضحك من أعماق قلبه.

عبد يستمر:

- أي مالك عليّ يمين كاد دماغي ينخلع من جرنه.. قمت نزلت فيهم مسبات: «يلعن، يحرق»... واللّه قاموا هربوا. آخر ولد منهم، فصعون صغير ابن خمس ست سنين، ما فيه أكثر، صاح بي: «نوباتي! دقاق العود، تفو عليك!».

الطبيب يضحك في ضعف. عبد الحميد يتابع:

- تعال بعد هذا اشتغل في اطراب هؤلاء القرود.

ويصمت عبد الحميد لحظة ثم:

- كيف أنت الآن يا حكيم؟

- أحسن، أحسن. شكراً لك يا عبد.

- دكتور.

- نعم؟

- لا يكن كلامي عليك ثقيلاً. كم ولدًا عندك؟ أنا لا أرى عندك أولاداً! هل هم في حلب؟

- لا يا عبد. أنا ما عندي أولاد.

- عجيبة.

- عجيبة؟ لماذا؟

- أنت متزوج. ألست متزوجا؟

- بلى، ولكن ما عندي أولاد.

يقول عبد الحميد مواسيا:

- لا تهتم. قرود. همهم أكبر منهم. لا تزعل (فترة) أنا رأيي أن تذهب فتنام. أنت تعبت قليلاً.

- هذا ما كنت أفكر فيه.

- هل أوصلك إلى غرفتك؟

- لا، أنا أذهب وحدي. شكراً لك.

- دكتور.

- نعم؟

- أنا رايح أستدعي الدكتور محمد. خلنا نطمئن. ماذا نخسر؟

- عرضية يا عبد. أظنها عرضية.

- على كل لا يسوى أن أتركك وحدك. أنا رايح عن اذنك أنخطف إلى البيت وأحضر بطانية وأنام هنا في غرفة الانتظار. قد تحتاج إلى شيء. إذا لزمك شيء صح لي، أمانة.

وظل عبد الحميد شطراً طويلاً من الليل، قبل أن ينام، يقلب أدوات الدكتور. حرك حفارة الأسنان التي تعمل على الرجل. أمسك فكا من الجبس ونظر فيه طويلاً. كان يشبه فك جمجمة ولكنه أبيض... تفرج كذلك على الصور المعلقة في عدة أماكن من الجدران. تعجب لاحداها: السن طبقات طبقات. وله أعصاب. هذه السن التي ليست في عين أحد دولة طويلة عريضة، واللّه العظيم شغلة تزحّل العقل.

أخيرًا لما استلقى على كنبة غرفة الانتظار وهوّم ثم غط في النوم ظلت الأسنان والقوالب وآلة الحفر والجماجم والدمامل تروح وتجيء في ذهنه وتتناسخ وتمحي طوال الليل.

وتمتد الصلة الحميمة، الحلوة، الخالصة بين الدكتور وعبد الحميد. كلّ اثنين يحل عبد الحميد محل قاسم.

- كيف أنت الآن يا حكيم؟

- اليوم أحسن؟

- أي الحمد للّه. ما هي أخبار قاسم؟

- أرسل اليّ اليوم من يقول أنه اليوم مريض. تصور: الصانع ومعلمه.

ويضحك عبد الحميد:

- دكتور.

- نعم.

- أنا أسناني كما ترى مثل الحليب. أستطيع أن أكسر عليها اللوزة اليابسة، مع ذلك أحسها أحيانا تتخلع. ألا تفحصني؟

ويوضح الدكتور:

- السن يا عبد مِفصل، مفصل حقيقي مثل الركبة والرسغ والمرفق...

ويقول عبد الحميد مذهولاً:

- لا، هذه فوق فهمي. أعد لي إياها من فضلك. أرني كتابا. ابخش رأسي بمثقب نجار، ولكن أدخلها فيه. سقت عليك جاه اللّه لا تتركني في طغيانهم يعمهون!

ويقول الطبيب مصابراً، رحيماً:

- شف يا عبد الحميد. هذه السن إلى أين تستند؟ إنها تستند إلى الفك أليس كذلك؟

- بلى!

- أما شفت مفصلة باب؟

- شفت كثيرًا.

- مفصلة الباب تصل مصراعي الباب وتجملهما متمفصلين واحدهما مع الآخر.

- صحيح.

- السن والفك هكذا...

*　　*　　*

-١٦-

نحن الآن في دكان عبد الحميد. الأستاذ مصطفى هنالك يطفح بشراً، ولكنه بِشر متحفظ. ويسأل عبد الحميد:

- ما هي الأخبار أستاذ مصطفى؟

- أية أخبار؟

فيقول عبد الحميد بمغزى:

- أخبار القلب.

يتدلل مصطفى:

- ما في شيء جديد.

يتأفف عبد الحميد:

- أستاذ مصطفى، قل لي أحسن لك. أنت لا يليق لك أن تكتم عني شيئاً.

فيقول مصطفى باسرار:

- استطعت أن أوصل إليها رسالة.

فيقول عبد الحميد مدهوشاً:

- سألتك باللّه؟ كيف؟

- أي واللّه. لمحتها تسير في زقاق الأعوج. أنت تعلم: هذا زقاق قفر أكثر الأحيان. قمت عرفتها رأسا على الرغم من الملاية والمنديل. فجأة - شفت سرعة البديهة! - عجلت حتى سبقتها. وكانت الرسالة حاضرة في جيبي، مضى على كتابتها أكثر من شهر... قمت أدخلت يدي في جيبي، وتظاهرت أني أريد أن أخرج منديلاً، فـــأخرجت منديلاً و... الرسالة!

- فظيعة.

- صدقني يا عبد الحميد أن يديّ كانتا ترتجفان كأن بي حمَّى!

- أنا أفهم عليك. مسألة تخوّف. ابن القرشان قتلوه بأقل من هذا. أنت تذكر الحادثة... وحوش أهل البلد يا أستاذ، وحوش. الحكاية وما فيها أن الولد قال لابنتهم: «صباح الخير»... يخرب بيت أهل هذا البلد. أنا، وحق كتاب اللّـــه، خبؤوا مني بنت خالتي ذاتها وهي في سن العاشرة. يجب أن تنتبه إلى هذه المسألة أستاذ مصطفى بكل قواك.

- طبيعي. واللّه يا عبد كلما تذكرت الحادثة، وكيف أقدمت أنا ذلك الاقدام، تصطك ركبتاي من الخوف!

ويقول عبد الحميد بعد فترة:

- وهل أخذت منها جوابا؟

- لا واللّه يا عبد.

- طيب. ماذا قلت لها في رسالتك؟

مصطفى مزهوًا:

- واللّه كتبت لها كلاماً يسحر.. أنت تعلم: شاعر ناثر مثلي ومحب. كيف يكتب!

قال عبد الحميد متواطئاً:

- سمَّعني، أليس معك نسخة؟

ويظل مصطفى على زهوه:

- معي المسودة. شيء لا يفرط فيه.

- هات.

ويخرج مصطفى ورقة حسنة الطيّ يقرأ:

- «حبيبة القلب ومنية الروح وريحانة الفؤاد وأسرة الجوارح، الآنسة نبيهة حفظها اللّـــه على مر الدهور وكر العصور... وبعد...

ويصرخ عبد الحميد كأنما أخذه الحال:

- اللّه!

مصطفى في النجوم حبورًا ويـــأخذ صوته بالخفوت:

- «أواه يا حبيبتي لو دريت بالليالي التي أقضيها، ليالي الأرق والسهاد... ويأتي زبون، أبو فواز الحلواني، فيشتجر حوار يروي فيه عبد الحميد تجاربه عند حكيم الأسنان.

ويقول آخر الأمر وهو يتنهد:

- اللّه يسامح أهلي. آه لو أني طبيب. ولك واللّـــه العظيم يا أبو الفوز ما جلست أنا وهذا الرجل، الطبيب حكيم الأسنان جاري الا بضع جلسات... مع ذلك يقول لي دائمًا: أنت يا عبد الحميد صرت نصف دكتور أسنان مالك عليّ يمين...

ويدخل أبو محمد السمان:

- السلام عليكم... نعيماً.

ويقول عبد الحميد في لطافة وإن كانت تعوزه حفاوته القديمة:

- وعليكم السلام أبو محمد، اللّه ينعم عليك. تفضل أبو محمد تفضل!

- زاد فضلك.

وبعد تردد يقول:

- أنا آتيك الآن يا أبو حميد من أجل تعليله ثانية.

يضحك ويتابع:

- أنت انبسطت تلك المرة ألم تنبسط؟

ويضيف متمثلاً:

- من أعجبه الكراء بكر، آ،

فيجيب عبد الحميد باتراً:

- لا يا سيدي، أنا بطلت الصنعة.

- له، ليش؟

- هكذا، للّه باللّه.

- غيّر، بدِّل!

- لا واللّه عمي أبو محمد أنا جرى مني يمين.

- صحيح؟

- أي واللّه.

- طيب على خاطرك. إذن نقول لشاكر سعدي.

- اللّه يرزقه ويرزقنا.

- طيب السلام عليكم.

- مع السلامة عم أبو محمد، عدم المؤاخذة.

ويسأل أبو فواز متعجباً:

- ليش رفضت عبد؟

- رح عني، العمى، واللّه بعد ما تعرفت بالدكتور جاري، صار العود في عيني مثل الغول الذي يريد أن يأكلني، غمامة سودا مالك عليّ يمين تحلِّفني...

في هذه اللحظة انزاحت الستارة القصبية بقوة حتى كادت خيطانها تتقطع وهجم قاسم راضي داخلاً، محملق العينين تتداخل كلماته بعضها في بعض ويتراكب بعضها على بعض. كان مروعاً حقّاً هو الهادئ الأبدي:

- الحق يا عبد الحميد، الحق.

- خير ان شاء اللّه يا قاسم.

- الدكتور، الدكتور يموت.

- العمى في قلبك. العمى. أنت تكذب. هذا غير صحيح، لا، لا، قم معي، قم، تضرب. غراب...

بلى. مات الدكتور سركيس، ذلك الإنسان العذب، الشفاف، الجواد. كان قاسم يحكي له عن تاريخ البلدة: كيف تكون بلدة مثل هذه، فيها أربعة عشر حماما وعدة مصابن، وكثير من معاصر الزيت وخانات أحدها مخصص فقط للشحاذين... كيف تكون من غير تاريخ؟! ويقول الدكتور سركيس وهو يتضاحك متعجباً:

- باللّه عليك؟ خان للشحاذين؟

ومال رأسه على صدره ونفخها على حد تعبير قاسم. مات مبتسماً، وديعاً، خفيف الظل، مثل الشعاع، مثل النسمة الربيعية. لماذا تموت الأشعة؟ لماذا تنطفئ الأنسام الربيعية؟ لماذا كان الزنبق، وخد الطفل الرضيع، والقبلة، وجدائـــل بنية في السادسة ذاهبة إلى المدرسة في الصباح الباكر، كأن غدوتها هي القدر الحلو. حلو حتى انه لا يدرك متى شسوع حلاوته!.

مامعنى كل هذا الهراء؟ لعله تفجع العاجز على موت الدكتور سركيس. المهم، المستغرب، اللامألوف، اللامألوف؟ يحرق! إن الدكتور سركيس قد مات. مات حقا مات!

كانت ضربة قاصمة أصيب بها عبد الحميد بخاصة، أكثر من السيدة زوجة الدكتور، ربما! ولكن عبد الحميد من ذلك النوع الذي ما أن يهز رأسه، ينفضه، حتى يعود خلقاً آخر.. حتى يعود واقفاً على قدميه كأنه لم يقع قط... ولذلك ما ان انقضت فترة على وفاة الدكتورحتى انصرفت همة عبد الحميد إلى شراء العيادة بأكملها، ما عدا السيدة زوجة الدكتور، وقاسم راضي طبعاً.

وأهمته الفكرة حتى امتلكته. بدأت شريطاً ضبابياً غائماً.. شيئاً يشبه أن يكون إنساناً يشبه عبد الحميد واقفا على رأس إنسان آخر جالس ولكنه فاتح فمه... ولم تلبث هذه الصورة أن أخذت تتخلق وتتضح. فجأة انطلقت من فمه صيحة أدهشته في البداية: «الدكتور عبد الحميد كعبرة!»... ثم فرح لها بعد قليل: «ولماذا لا؟ أين الصعوبة فيها؟ المسألة وما فيها أنك تنقر على السن التي توجع فتفهم من الصوت الذي يعطيك إياه النقر هل هو عاطل أو سليم. وهذا كله تعلمناه، علمنا إياه المرحوم... ولكن المرحوم قد مات و... خير ما نفعله هو أن نتابع حمل الراية، راية تخفيف العذاب عن الناس. والدكتور عبد الحميد كعبرة لا يتأخر عن مهمة كهذه مهما تبلغ التضحيات!».. وكلم عبد الحميد نفسه كلاماً طويلاً غير هذا ثم سرعان ما انتقل إلى الفعل!

وكانت اجراءات اقناع السيدة سركيس ببيع العيادة. لم تكن اجراءات معقدة قط. فالسيدة التي لا ولد لها ولا تلد كانت تود الرحيل إلى حلب، حيث أهلها، بعيدًا من البلد الذي شهد تأييمها...

* * *

-١٧-

نحن الآن في عيادة «الدكتور عبد الحميد كعبرة». الوقت عصرًا. العيادة كما عرفناها في الماضي، غير أنها كان ينقصها شيء. كانت فيها غربة. شيء شردت منه روح رضية، أنيسة، ظلها على الأرض أخف من النسيم، وحلت محلها روح أخرى كثيرة التلفت، مشغولة بألف شاغل، دائبة الحركة عينها دائمًا إلى الفضاء مثل كشاشي الحمام!

ذلك اليوم كان عبد الحميد وراء مكتبه الصغير حينما سمع وقع بابوج في غرفة الانتظار. وفتح الباب وإذا عجوز تلبس ملحفة زم:

- السلام عليكم.

فوثب عبد الحميد من مجلسه، ولكنه ما لبث أن عاد يجلس لأنه تذكر أنه صار دكتوراً. ومع ذلك قال حفياً:

- وعليكم السلام ورحمة اللّه. أهلاً وسهلاً تفضلي يا أمي تفضلي.

وجلست المرأة على الكرسي أمام المكتب. ونده عبد الحميد:

- يا يوسف.

فدخل يوسف بطيء الحركات. واضح أنه مستوحش ما يزال:

- نعم.

- رح عند أبو صبحي القهواتي وأوص لنا على اثنين قهوة.

فتحرك يوسف في بطء ولكن عبد الحميد قال له:

- وقف.

وسأل العجوز:

- كيف تحبينها يا أمي؟

- أحب ماذا؟

- القهوة.

- أنا؟

-أي نعم حضرتك.

- قهوة لي أنا؟

- أي نعم لك أنت. أهلاً وسهلاً بك.

- يوه يا عين خالتك، واللّـــه ثقلة.

- ثقلتك راحة. قولي كيف تحبينها؟

- واللّه يا عين خالتك ما دمت أمرت فأنا أحبها سكر زيادة.

- قل له: سكر زيادة ولكن توص.

- معلمي...

قال عبد الحميد منتهراً:

- قل «دكتور» يا فهيم، دكتور عبد الحميد.

قال الولد وقد دب فيه نشاط مفاجئ. لعله تذكر أن الحال من بعضه.. وأنه ما يزال تابعا لهذا المعلم:

- دكتور خلني أقول لأمي تعمل لك القهوة، لأن أبو صبحي قهوته نصفها شعير والنصف الثاني هندبا...

صرخ عبد الحميد:

- العمى، ولك أنا كلمتي لا تصير ثنتين. قلت لك رح عند أبو صبحي القهواتي يعني رح عند أبو صبحي كلمة ورد غطاها، فهمت؟

- حاضر معلمي.

- رح يخرب بيتك.

وخرج يوسف وعاد عبد الحميد في طرفة عين حفياً لطيفاً:

- تفضلي يا ستي. حلت البركات.

- هنا محل الدكتور عبد الحميد؟

قال عبد الحميد في منتهى الحفاوة:

- نعم يا ستي. هنا عيادة الدكتور عبد الحميد. أنا الدكتور عبد الحميد. أمر؟

- واللّه يا ابني، الشكوى للّه، البارحة ما نمت الليل. ضرسي هنا يوجعني. تقول أسياخ نار تكويني، اللّه لا يريك ما تكره ولا يري أمة محمد. واللّه إذا السمك في الماء هجع أكون أنا غمض لي جفن...

- تفضلي. بسيطة ان شاء اللّه. تفضلي اقعدي هنا.

- واللّه يا عين خالتك دلوني على دكتور في الحارة الغربية. قالوا واللّه شاطر. ولكني قلت في نفسي: «لا يا مرة، روحي عند عبد الحميد بن طيوب. هذا ابن حارتنا وفي يده للّه»...

- تكرمي يا أمي تكرمي. تفضلي اقعدي هنا...

- وقالوا أيضاً انه يأخذ، والعياذ باللّـــه، أربع ورقات حق قلع الضرس.. ولي على قامتي! أربع ليرات؟ ليش هو راح يقلع أرض زيتون

معجِّزة؟!.. قمت قلت في نفسي: مالك غير عبد الحميد. هذا ابن حارتنا وما هو ممكن...

- اطمئني، اطمئني. كل شيء لخاطرك.

- يظهر أنك ما عرفتني.

- لا واللّه بلا صغرة.

- يوه!

- لا تؤاخذيني.

- يوه أنا أم حميدة القباني. نحن ساكنون هناك تحت السيباط...

- تشرفنا.

- اللّه يعلي مقدارك.

- والآن افتحي لي فمك يا أمي. وتفتح المرأة فمها على خوف. وينقره عبد الحميد بمسماره على الأصول:

- يا أمي ضرسك هذا عاطل، ما منه خواص. هذا يحتاج إلى قلع (ينقر أيضاً) يا بيي، كل أسنانك عاطلة. أنت تحتاجين إلى بدلة أسنان يا أمي.

- أي واللّه يا عين الخالة أنا كنت أقول في نفسي أن أسناني كلها بقيت خربانة. دائماً وجع. هذا كله يا ابني من الرضاع أنا ربيت عشرة. قالوا إن الرضاع يتلف الأسنان. أم سعيد السقا، قالتها لي. والمرحوم - لا تجوز عليه الآن إلا الرحمة - كان يريد كل سنة سنتين ولد ولدين (تتنهد) ايه.. اللّه يسامحه (بعد فترة) ولك عين خالتك ألا تستطيع، مثلما تقول هكذا، أن ترمم، أن ترقع؟

- واللّه يا أمي صعب. ومع ذلك سأحاول، سأحاول..

- أي روح اللّه يطول عمرك ويرضى عليك...

- على كل هذه الضرس هذي ما فيها فائدة. اغسلي يدك منها.

- قالت العجوز مستسلمة:

- أي العوض بسلامتك يا عين خالتك. اقلع يا ابني، اقلع. ثم فجأة:

- ولكن...

- ولكن ماذا؟

- قديش القلعة؟

قال عبد الحميد متراحماً:

- نحن يا أمي لا نقول أربع ورقات ولا نقول خمس ورقات نحن قلع الضرس عندنا. مع الكشفية والبنج والحكمة على الأربعة والعشرين بورقتين اللّه الوكيل!.

- ولك يا عين خالتك، ليش شو صاير في الدنيا؟ ليش ورقتين؟ كله ضرس معدوم العافية. مخلخع، واقف على شعرة. واللّه انتره بأصبعك ينتتر منه لنفسه...

وصار عبد الحميد نزقاً:

- اللّه يطول بالنا. واللّه يا أمي فيها بنج بنصف ليرة، قولي أكثر.

- أي طيب، اعملها ورقة.

- واللّه لا توفي.

- طيب ورقة وربع.

- يا أمي، يا أمي بدنا نشتغل.

- طيب لا تزعل. ورقة ونصف (تمون عليه) نحن جيران على علمي. شف واللّه ولا قرش زيادة.

وقال عبد الحميد مستسلماً:

- طيب، أمري إلى اللّه.

وجهز الابرة وقال وهو يغرزها:

- بسم اللّه الرحمن الرحيم.

فصاحت العجوز بقدر ما يسمح لها فمها المفتوح:

- آخ!

- أي صلي على النبي. المسألة كلها إبرة في اللثة.

قالت العجوز مجاملة:

- أحمدك يا ربي وأشكرك على أنك بعثت لنا دكتور من حارتنا ابن حلال من ظهر حلال. مالك عليّ يمين هؤلاء الدكاترة الأولاد لا نحن نفهم عليهم ولا هم يفهمون علينا.

بعد فترة خلخع عبد الحميد سن العجوز:

- هل تحسين بشيء.

- قليل.

- على مهل دقيقة ثانية.

واستمرت العجوز:

- قال أولاد مكتب قال! العمى مثل المنشار، على الطالعة والنازلة يقبضون عملة... قال أربع ورقات قال...

قال عبد الحميد بعد أن جس الفك:

- الآن افتحي فمك قليلاً.

- أي عين خالتك أي هه فتحته.

وتضيف وفمها مفتوح:

- واللّه أنا خايفة.

- لا تخافي يا أمي لا تخافي.

- كيف لا أخاف؟ واللّه العظيم منظر الكلابة وحده يخوفني أكثر من عزرائيل استغفر اللّه العظيم.

- افتحي فمك. خلص. استوت الطبخة.

- هــه، هــه أنا فتحته تقبرني.

وشد عبد الحميد على فكيه:

- يا من سترت لا تفضح.

- آخ!

- ولا كلمة هه بدنا نعرف نشتغل.

وتسكت العجوز ولكنها تئن.

ويشد عبد الحميد أكثر وإذا... هو يكلم نفسه: «ما هذا العمى! انقلع معنا ثلاث عوضا عن الواحدة يا اللّه، لابأس».

وسرعان ما خرج من بلباله وصاح منتصراً:

- هاتي بشارة.

قالت العجوز بلسان ثقيل جداً:

- آخ.

- هاتي بشارة أقول لك: انقلع معي ثلاث.

قالت العجوز في عسر:

- اللّه يسامحك!

- نعمة، أحمدي ربك. كله خربان. كله فارط. أنت قولاً واحداً تحتاجين إلى بدلة... يا ولد...

- أمر معلمي؟

- لك... عاد يقول لي معلمي!...

- أمر دكتور؟

- رح شف لي اللافتة عند الخطاط قل له: الدكتور عبد الحميد يسلم عليك ويقول لك: الدكتور عبد الحميد مستعجل على اللافتة، لأن الدكتور عبد الحميد يقول لك ان اللافتة طولت عندك..

- معلمي الدكتور.

- نعم؟

- ايش يعني لافتة؟

- لك لك لك لك! ولك أنت يا أمي أبوس يديك قولي لي. وتكتفي العجوز بأن تقول له:

- آخ.

- قولي كلمة. هل رأيت أذكى من أجيري هذا؟

وتقول المرأة وهي تئن دائمًا:

- اللّه يسامحك يا عبد الحميد!

- ما بك يا أمي، خير ان شاء اللّـــه.

انها تتسل من بين الأضراس الثلاث واحدة:

- شف لي هذه، واللّه مثلما تقول: ما فيها شي. ضرس مثل الحليب. ليش قلعتها اللّه يسامحك!

عبد الحميد يبدأ يغضب:

- الآن أنت تريدين أن تعلميني صنعتي؟ أنا الدكتور عبد الحميد كعبرة نصف البلد، وكل الناس تحلف برأسي! قال مثل الحليب قال! رح أنت يا ولد. انظروا إلى هذا الفلهوي أيضاً الذي لا يزال متعومدًا في خلقتي مثل الصنم.

ويخرج الولد وتعود المرأة إلى النواح على ضرسها التي مثل الحليب:

- واللّه حرام عليك، ضرس مثل الحليب!

- أنت تريدين أن تعوفيني سماي بحليبك وحرامك؟ واللّه أنتم أهل هذا البلد لا تستحقون إلا هؤلاء الأطباء أولاد المكاتب الذين ينتفون ريشكم ويسلخون جلودكم ويتركونكم يد من أمام ويد من وراء. العمى!

وتظل العجوز تئن. ولكنها تقول، حازمة في هذه المرة:

- آخ، وليش العياط دخلك؟ تلملم وانضب. أما أخلاق! يخلع لي ثلاث أضراس مثل زر الورد ويطلع عليّ بالعالي بعد ذلك. خذ، هذه ورقتك ونصفك عمرها ما كانت!

- ورقة ونصف؟!

- أي ورقة ونصف. قديش يعني بدك؟ لأنك قلعت لي ثلاث أضراس وأنا لا يوجعني غير واحد؟

- ولك يا ستي عقلاً ذهناً.. أنت فصلي وأنا ألبس: ثلاث أضراس بورقة ونصف؟

- أنا شارطتك على... آخ.. آخ.. واحدة!

- لا حول ولا قوة إلا باللّـــه العلي العظيم.

- آخ، أنت تتقاوى على أرملة عجوز.. آخ بدي اشتكي عليك والعظيم...يزداد غضبه!

- وقفي، أنا خلقي ضيق. أخاف أن تفقع معي. ناوليني الورقة والنصف وقومي افرقيني. أما علقة، العمى! تقلع لهم ثلاث أضراس يقومون يحاسبونك بواحدة. أي الطب فيه أيضاً بيع بالجملة والمفرق.. قومي، قومي...

- أي أنا رايحة يا بي، ليس التدفيش؟ ولكن، حطها في أذنك مثل الخرس: خراب بيتك لا يكون إلا على يدي...

- أي روحي ويدك وما تطول، تضربي في هذا الشكل المخربط الذي يذكرني بشم قرين الساحرة!

- أي يسلم لي شكلك المطعم علي المدلَّل في الخيمة. يضرب الـــ سمَّـــاك دكتور. أنا أعرفك. طول عمرك حلاق! شن شنانا من أين الحسن جانا!

قالت نصف هذا الكلام وهي في الباب ولما صارت في غرفة الانتظار لم تكف عن الردح.

- يخرب بيته! من أين جاءته الدكترة؟ أي أساسا عمره ما ثور قعد عند الحلاق وفلح!

عبد الحميد أيضاً لم يكف عن السب:

- العمى! واللّه وقفت الحلاقة أحسن. على الأقل لا أحد يبهدلك! والحلاقة أربح: يخرب بيتها ثلاث أضراس بليرة ونصف. يعني وقفت الضرس بنصف ليرة!

* * *

-١٨-

ويجيء الأستاذ مصطفى فيجد عبد الحميد يغلي:

- عليَّ الجيرة إذا تاجرت بالأكفان يبطل الناس الموت!

وبعد أن يروق قليلاً يروي له واقعة العجوز ويحاول مصطفى أن يهون عليه الأمر:

- إن كل مهنة مثل كل شجرة زيتون لا تطعم إلا إذا أنت خدمتها ورعيتها وصبرت عليها وصابرت.

ولكن عبد الحميد ما يزال مقروحاً:

- صل على النبي أستاذ مصطفى أنا زهقت روحي من صنعة طب الأسنان هذه!

- ولك يا عبد الحميد، يا عبد الحميد.

وعلى الرغم من أن مصطفى طول عمره ينادي عبد الحميد عبد الحميد، غير أن عبد الحميد يجد لها هذه المرة مذاقًا يشبه نَبزَ العجوز له بأنه حلاق! ومع ذلك يستمر في شكاته:

- العمى، دفعنا دم قلبنا. دفعنا ما فوقنا وتحتنا حتى اشترينا هذه العيادة، الخردة، بلا قافية. ولو لم تكن صاحبتها أرملة، مقطوعة من شجرة، غشيمة لما قبلت بضعفي ما دفعناه... ومع ذلك عدت لا أطيق، لا أطيق. هذه العجوز التي خرجت الآن من هنا، أي سيدي ثلاثة أربعة زبائن مثلها يجعلوني أهدّ الخيمة وأطفيء السراج وأعدّي عن الصنعة من أساسها.

لم يكن مصطفى يصغي أو يتعاطف إلا بنصف أذن أو ربع قلب. كان يبدو حالماً. قال نغشاً، وفي صوت مغن:

- هذا لأنك لا تحب. لو أنك أحببت...

وقطع كلامه دخول يوسف يحمل صينية قهوة عليها فنجانان:

- أبشر معلمي جبت لك القهوة. هذا أجير أبو صبحي قال لي... فانفجر عبد الحميد:

- انقلع من وجهي. العمى، ولك من ايمتى بعثتك لتحضر فنجاني القهوة؟ ولك أنا أرسلتك إلى القمر، إلى المريخ...

- أي كان في زحمة معلمي...

- رح كب قهوتك في البالوعة. في المغسلة، البسها في رأسك...

وتدخل مصطفى:

- وقف أبو حميد، روّق. تعالى يا يوسف، هات ها القهوة إلى هنا يا ابني هات.

- معلمي وأنا تعوقت أيضاً لأني مررت بالخطاط..

قال عبد الحميد مهتما:

- أي، وايش قال لك؟

- قال انه في خدمة الدكتور عبد الحميد وهو يشتغل فيها. قال ستكون الـــ... اللفتة...

قال عبد الحميد يقاطعه وهو رائق تماماً:

- اللافتة يا ابني اللافتة. اللافتة اللّه يرضى عليك.

- أي نعم معلمي اللفتة ستكون بكرة مركبة على الأربعة والعشرين...

- أي رح أنت إلى غرفة الانتظار الآن.

وعاد الأستاذ مصطفى، بعد أن خرج الولد، إلى حديثه الأثيري الحالم:

- أحبّ، أعشق يا رجل. أحب تنفتح لك أبواب السماوات. أحب لا يعكر طمأنينة روحك شيء أبداً، لا الزبائن الشائكة لحاهم، ولا أصحاب التعليلات الغليظون، ولا العجائز الشحيحات البخيلات... أحبّ أحبّ...

وأضاف في اثارة خفيفة من تهكم:

-... يا دكتور عبد الحميد!

- هل من جديد مع الحبيبة؟

- دائماً في الحب جديد، وعد أو وعيد، طمأنينة أو تسهيد دائماً... دائماً.

ويقطع اندفاع مصطفى دخول رجل كهل، أميل إلى السمنة، مكتنز الوجه، لحيته لم تحلق منذ أيام، لكنه بسام الوجه، قريب من القلب. وحتى قبل أن يستقر به المجلس على الكرسي الذي يطلع وينزل بدأ قصته:

- أنا يا عين العم، هذه البدلة عملتها في حلب عند واحد شرواك لا شهادة ولا ما يحزنون. رجل كل أطباء الأسنان يصنعون بدلاتهم عنده. رجل فيه، في قلبه تقوى، ولكني زدتها، اللّه يصلحني: كنت آكل عليها كل شيء. وكان معي واحد أيضاً هو مركب بدلة يأكل عليها كل شيء: القضامة ذاتها كان يأكلها ولكن حبة حبة. قمت خطر لي أن أمازحه فصرت أرمّ القضامة مثل ابن العشرين... قمنا كسرنا البدلة اللّه يخزي إبليس اللعين...

وفحص عبد الحميد البدلة المكسورة وأصدر حكمه:

- هذه ما بقيت تنفع يا عم. أنت تحتاج إلى واحدة جديدة.

- كلها؟

- لا الفك التحتاني فقط.

- على بركات اللّه. أنت رجل طيب. أنت فصّل ونحن نلبس. ولكن كم تكلفنا؟

- بسيطة خلنا الآن نأخذ خريطة فمك.

«خريطة الفم» هذه من مبتكرات الدكتور عبد الحميد في عالم طب الأسنان التي لم يسبقه اليها أحد...

*   *   *

-١٩-

وتمضي الأيام. عبد الحميد يزداد تمرسا في المهنة لكثرة ما يتعلم في لحى، عفواً، في أسنان الناس. أصلاً طب الأسنان في بلدتنا العزيزة طول عمره شغلة مقتصرة على الحلاقين، هو والدمامل والجروح. ولما كان الختان جراحة إلى حدّ ما، فالحلاق مطهر في الوقت نفسه. وحتى بعد أن جاء عزمي

أفندي وابن عمه عزمت أفندي من مدرسة الطب في اسطنبول في بداية هذا القرن وفتحا عيادتين في الحارة القبلية ظل الناس يقصدون الحلاقين: ما عسى أن يفهم عزمي أفندي وعزمت أفندي في أجسامنا التي اعتادت أن توضع على دمامِلها اللزقات على طقطقة المقص، ونفض المناشف، ووسوسة الستارات القصبية! عزمي أفندي وعزمت أفندي قرآ في اسطنبول. اذن هما ينفعان هنالك، يفهمان أهل هنالك... وأما نحن فأباً عن جد عن جد الجد هؤلاء هم أطباؤنا غير منازعين مثلما العطارون صيادلتنا... وأما إذا احتاج الأمر إلى معرفة باطنية أي بغير الجليد والأسنان والدوخة ووجع الرأس والجروح الصغيرة.. فالحلاق والعطار يعقدان معاً نوعاً من كونسلتو طبي يدعوان إليه اللحام. أي نعم اللحام أنا لا أمزح واللّه. ذلك أن الأمر في غاية البساطة: اللحام يذبح الخرفان في المسلخ، شرق البلد، يسلخها، يفتح زورها، يعرف كل قطعة من جسدها. بكلمة يشرحها... وما الفرق، آخر لأمر، بين الخروف والإنسان؟ كله خلقة اللّه!

وهكذا فإن عبد الحميد لم يكن دخيلاً على الصناعة أو معمش العينين في دروبها الشائكة. كانت الطريق أمامه معبدة فهو أولاً حلاق، ثانيًا فهلوي، ثالثًا ابن الحارة. ثم ان المشكلة، في قضايا بدلات الأسنان، لم تبق معقدة جدًا بعد الاتفاق الذي تم بين عبد الحميد وأبي صالح الحفار. هذا حارس الجبانة الشرقية وحفار القبور. والحي معلومك أفضل من الميت. وكثير من الأموات يموتون وفي أفواههم بدلات أسنان شغل حلب...

هل فهمتم؟

ومع ذلك، ذات يوم، دخل الولد يوسف على عبد الحميد غرفة العيادة مذعوراً.

- معلمي، معلمي.

قال عبد الحميد مقطِّباً:

- كم مرة قلت لك: لا تقل لي...

فقاطعه الولد بقوة:

- فيه دركي في غرفة الانتظار يريدك.

- دركي!

- دركي.

- ماذا يريد؟ (مفكرًا) هل يضع يده على خده؟

قال الولد في ملعنة:

- لا، يضع يده على أوراق معه.

- مصنف؟

- أأنا أدري؟

- قل له يدخل.

ودخل دركي فتى واضح أنه طازج في المهنة، قال:

- عبد الحميد عبد الكريم كعبرة؟

- نعم؟

وقلب الدركي عينيه بين عبد الحميد ويوسف وسأل:

- من هو؟

قال عبد الحميد:

- أنا، الداعي.

- أنت مطلوب عند رئيس المخفر.

- خير إن شاء اللّه تفضل استرح. فيه شيء؟ نحن ناس في حالنا في ذاتنا، عمرنا لا دخلنا مخافر ولا محاكم.

قال الدركي محتارًا:

- واللّه يا أخ علمي علمك. أنا معي أمر أنك توقع لي هنا، أنك تبلغت لزوم حضورك في الساعة الحادية عشرة.. الآن قديش الساعة؟

- يعني بعد ساعة؟ تفضل وقع لي هنا.

- حاضر . هه. وقعت لك. و.. لكن!

- السلام عليكم.

ويتحرك الدركي نحو الباب فيتشبث به عبد الحميد:

- لا واللّه، لاتذهب قبل أن تشرب فنجان قهوة. ياولد.

- نعم معلمي؟

وقال الدركي:

- قهوتك مشروبة، ولكني مشغول. عندي تبليغات. في وقت آخر أن شاء اللّه.

- ألا تستطيع أن تقول لي ما الحكاية؟

- واللّه أنا مثلما قلت لك عبد مأمور.

- يعني هيك، هيك... لا بد أنك شممت رائحة...

- واللّه، يعني، كأني سمعت طاريش كلمة «ممارسة»، «مهارسة» «طب»، «مب».. ولكني (يضحك)، الكلام بيننا ما فهمت ولا كلمة. السلام عليكم.

ورد عبد الحميد شارداً:

- وعليكم السلام.

ويقول عبد الحميد في نفسه مشتت الفكر: ممارسة طب غير قانونية! فهمت. هذه عين أصابتني لما رأوني حالي ماشي في أمان اللّه، أم ماذا؟ لا، ما فيه غير هذه الحيزبون بنت الكلب، أم الأسنان العاطلة. العمى، هذه مسؤولية... من أين جاءتنا هذه المصيبة يا ربي! ولك النكتة أننا لم نقبض منها لا أبيض ولا أحمر!»...

ويذهب عبد الحميد إلى المخفر ويقف أمام رئيسه في تهذيب:

- تحياتي سيدي.

- نعم؟

- أنا عبد الحميد كعبرة.

- عبد الحميد كعبرة.

- نعم سيدي عبد الحميد كعبرة، الحلاق.

- ماذا تريد؟

- جاء الآن إلى محلي دركي من عند حضرتك، وقال لي إني مطلوب.

ويقلب رئيس المخفر أوراقاً كانت بين يديه ثم يرفع عينيه إلى عبد الحميد:

- عبد الحميد. عبد الحميد. إذن هذا أنت؟ ماذا تفعل أنت يا ابني؟ أنت خربت الدنيا وما عندك خبر!

- أنا سيدي!

- أنت. ألست أنت الحلاق عبد الحميد؟

- بلى سيدي.

- اذن كيف تتعاطى مهنة طب الأسنان؟ يعني إذا كنت في عمرك قلعت ضرساً ضرسين من غير بنج فيجب عليك أن تسمي نفسك دكتوراً، وتعلِّق آرمة قد هذا الحائط على باب دكانك...

ويقول عبد الحميد في انكسار:

- عيادتي سيدي!

فيغضب رئيس المخفر:

- وترد في فمي أيضاً! شف يا ابني هذه مسألة ما فيها خواطر. هذه فيها حبس. أنا معي أمر بأخذ إفادتك وسوقك مخفوراً والجامعة في يديك إلى النائب العام. ولكن الأستاذ مصطفى حمدي، صاحبك ترجاني أن أفرط القصة. قمت وعدته.

- اللّه يطول لنا...

- لا يطول ولا يقصر. أنا أحضرتك إلى هنا لأنذرك.

هذه هي المرة الأولى والأخيرة. مرة ثانية اذا سمعت أو رأيت، إذا تجرأت أن تعلق آرمة، أو تكشف عن سن أو ضرس أو تركب بدلة.. فلا تلومن إلا نفسك.. سأسوقك إلى النائب العام ولو تشفع فيك لا الأستاذ مصطفى وحده، ولكن لو تدخل عليّ أهل البلد كلهم. فهمت أو لا؟

- فهمت سيدي!

- رح الآن، بعد نصف ساعة سأرسل بواحد من الأنفار يكشف على المحل... اللّه يكون في عونك إذاً ظللت تتعاطى الطب بصورة غير قانونية!

المسألة واضحة: عين! أهل البلد من كبيرهم إلى صغيرهم داسوا ناراً على حفا من الدكـــ... من الدكتور...، اللّه يخزيك يا إبليس يا لعين! وتعال بعد هذا يكن لك نفس تخدم أهل هذا البلد الغجر. يضربوا في سحناتهم الصفراء المبطبطة مثل الدمامل. ولك أنا لا يقهرني إلا هذا العبوس الذي تراه على كل خلقة. أشتهي مرة أن أرى وجهاً بساماً. يضحك للرغيف السخن. قال سيرسلني إلى النائب العام والجامعة في يدي! كأني ضربت، قتلت، دينت بالفايدة المركبة! كأني ارتكبت مالا يريده اللّه!

* * *

- ٢٠ -

ويصفّي عبد الحميد العيادة، ويقلع اللافتة «الدكتور عبد الحميد كعبرة جراح وطبيب أسنان للسيدات والسادة» ويعود إلى الدكان ذات الستارة القصبية والمروحة من القماش المكشكش التي يحركها الولد يوسف، إلى الكنبة والأستاذ مصطفى الذي لم يلبث أن عاد إلى مجلسه على الكنبة أقرب إلى الباب منه إلى صدر الدكان. جاء يوم تصفية العيادة.

قال محزوناً:

- مرحباً يا عبد. فأجابه عبد في صوت أشد حزناً:

- أهلين أستاذ مصطفى. تفضل.

- أقعد يا عبد الحميد، اقعد.

- من أجل واجبك أستاذ.

وجلسا صامتين كأنهما في تعزية. ولم يلبث مصطفى أن قال ليوسف: - رح يا ابني يا يوسف أنت. اطلع العب في الزقاق.

لما خرج الولد وسكنت حبال الستارة القصبية إلا من نوسان لا يكاد يدرك قال مصطفى:

- هكذا إذن: صفيت العيادة! أي سيدي أحمد ربك. أنت بعت الأدوات بيعة رحمانية ما دخلها شيطان. والدار استأجرها جار طيب. هذا الدكتور وأنيس رجل ممتاز. أنا أعرفه. كان يسكن في الحارة القبلية. دكتور ماهر تماما. ومولد أيضاً. ما فيه داية في البلد تقع في ورطة إلا ويستدعونه. وهو يروح دائماً، حتى ولو كان الوقت نصف الليل.

- دكتور! سقيا للّه! لا تعد إلى ذكر هذه الكلمة أمامي، أرجوك يا أستاذ مصطفى... ولكن، ولكن أنت أراك كأنك لست على بعضك.

قال مصطفى متنهدًا:

- خلِّها للّه يا أبو حميد. أنا لا أريد أن أزيد همومك.

ما فيك يكفيك على قولة المثل.

قال عبد الحميد مهتماً:

- بصلاة محمد احك لي.

وأضاف في صوت خفيض:

- مشاكل مع نبيهة؟!

وعاد مصطفى يسحب الآهات من دفات صدره:

- آه يا عبد آه. أكاد أفقع. اتركني. قلت لك أنا لا أريد أن أزيد في همومك.

- علمي أن الأمور ماشية مثل الساعة.. والرسالة (في لهجة ذات مغزى) التي سلتت منا دون علمنا وصلت إلى بيت أمها وأبيها. أنت تبتسم آ؟ آه منك آه! هذه الرسالة تلقينا جوابها كلمتين: «ابعث أمك» كله تمام. والبنت خارطة مشطك... فلماذا الحزن؟

- البنت انخطبت.

- العمى! لمن؟

- للحاج علي الحاج علي، لأجل خاطرك!

هذه الجملة الأخيرة من مصطفى أجهزت مرة واحدة على عبد الحميد المحرون، الأسوان، المكتئب، المرزأ بدكتوراه وأعادت الينا عبد الحميدنا القديم صاحب الهتفات الطفولية المتحمسة، الحلو، الفائر، الذي يغرق في اللحظة حتى شحمتي أذنيه:

- أنت تمزح أستاذ مصطفى. العمى! هذا ما هو معقول مطلقاً. العمى في قلب الأم والأب والعيلة كلها على لمّ الفراش! يخرب بيتهم، هذه ما سبقهم إليها أحد: بنت ما أكملت الخامسة عشرة...

- الرابعة عشرة وأنت الصادق...

ولا يأبه عبد الحميد لمقاطعة مصطفى:

- ... يزوجونها لابن سبعين. استغفر اللّه العظيم ربما أكثر...

بعد فترة صمت قال مصطفى:

- مات قلبي يا عبد وانتهى أمري. أنا منذ اليوم إنسان لا عزاء له. لا عزاء، لا عزاء، لا عزاء...

- طول بالك أستاذ، طول بالك.

واستمر مصطفى حالما:

- كنت أظن أني كففت عن أن أكون مصطفى حمدي، المعلم في بلدة صغيرة ضائعة في شمال القطر... صرت أراني شخصاً مهما في رواية. كنت أمشي في الزقاق وأحسبني محمولاً على أجنحة، متبختراً على غمامة

ملونة... غريب، أنا غريب يا عبد! كل ما في بلدنا مضبوط إلا الإنسان. بلد خلقه اللّــــه أمينا، طيبا. أرأيت أطيب من تيننا الخضراوي في الدنيا كلها؟ أرأيت في غير بلدنا تينا يشر منه العسل؟ وعنبنا؟ وعرائس زيتوننا؟ وشروقاتنا؟ غروباتنا؟ معاصر زيتنا؟ أزهارنا البرية ذاتها ما في الدنيا مثلها...

عبد الحميد يكاد يبكي:

- أستاذ مصطفى كفى، أرجوك (يبكي) قل إنك تريد أن تقتل أخاك عبد الحميد وتنهي أمره، أستاذ مصطفى، نحن قلبان...

ولكن مصطفى يستمر:

- تربتنا الحمراء كالأقحوان، كدم ابن أربعة عشر، كجرح حبة كرز، كشفة مكتنزة، مثل الخوخة، تشهي البوسة! هات لي في الدنيا كلها تربة حمراء، مبرأة، مثل تربة بلدنا..

- أستاذ مصطفى:

مصطفى مستمر دائماً:

- ولكن، وا أسفاه! واحر قلباه! لماذا خلا هذا البلد الطيب الأمين من المحبة؟ المحبة التي ما دارت الأفلاك ولا كانت الأكوان إلا بها!؟ (بعد فترة) أكاد أجن! لماذا كانت المحبة محرمة؟ لماذا يغني عبد الوهاب وأم كلثوم والأستاذ عمر أغاني المحبة وترفعها إلى أعلى عليين.. والمحبة في الواقع جريمة.. والمحبة يستحق صاحبها القتل؟!

لم تنقطع عبرات مصطفى في تلك الأثناء عن السح مثل ديمة سكوب، فلما بلغ الأستاذ هذه الذروة من تفتيق الجروح أخذ عبد الحميد ينشج بصوت مسموع: - أستاذ مصطفى، أستاذ مصطفى.. أنا استويت. أنت تريد أن تقضي عليّ. هأنت ذا تبلغ مرامك. أنا انتهيت، خلصت!

ولكن عبد الحميد أصبى، أمكن، أمتن من أن «يخلص»، ذلك أن الأستاذ مصطفى لما جاءه بعد يومين ثلاثة، وسلم على يوسف بصوت، أصبح بعد خطبة نبيهة للحاج علي الحاج علي كأنما عششت فيه الأحزان:

- مرحبا يا يوسف.

وأجاب يوسف بصوت خفيض كأنه متواطيء:

- أهلين أستاذ.

- أين معلمك؟

فازداد الولد همسا:

- هنا جوّة.

وانتقلت إلى مصطفى عدوى الهمس:

- أين؟

- جوّة وراء هذه الستارة.

- لماذا؟

- أستاذ مصطفى، أنت، أنا.. يعني مثلما تقول.. المعلم يخانقني إذا حكيت.

صاح مصطفى:

- أبو حميد.وصاح عبد الحميد من الداخل:

- نعم أستاذ مصطفى.

وخرج. كان مشمراً عن ساعديه. همس مصطفى:

- ما الحكاية؟ فيه أنس؟

ضحك عبد الحميد من جوّة قلبه، ولكنه أجاب بمثل همس المعلم:

- لا واللّه.

- إذن؟ ماذا كنت تفعل جوّة؟ من عندك؟ صرت تخبي عني الآن يا منظوم؟!

- لا واللّه. ولو! أخبي عنك أنت يا أستاذ مصطفى؟ أي هذا معقول؟

- إذن؟ من؟

قال عبد الحميد وهو ينكس بصره مثل تلميذ مدرسة:

- فيه زبون قلعنا له ضرسه!

قال مصطفى لائماً:

- يا عبد الحميد ، ياعبد الحميد ! رجعنا ؟ أنت لاشفاء منك ياعبد . ياخجلتنا من رئيس المخفر اذا دري.

قال عبد الحليم في تسليم:

- واللّه يا أستاذ مصطفى المسألة خرجت من يدي. أنا ما قتلني غير كلمة «دكتور» اللّه يلعن الشيطان تعودتها، أي واللّه تعودت. صارت لي مثل السوسة...

وأما في الظاهر، في مقدمة الدكان، فقد عاد عبد الحميد إلى كاره القديم:

- نعيماً عم أبو وجيه.

- اللّه ينعم عليك يا أبو حميد . أبو حميد.

- أمر عم أبو وجيه.

- حلاقة ما عليها كلام ، ولكن ...

- ولكن؟ خير ان شاء اللّه.

- هذا السالف هنا.. كأني أراه مائلا أكثر من الآخر.

- على رأسي ثم عيني عم أبو وجيه.

ويعمل مقصه.

- هه، الآن انظر لك نظرة . كيف ؟

- إي هاه الآن مضبوط.

- سبحان الكامل.

ويتضاحكان ويضيف الزبون :

- إي هاه، أنا أعرفك إنسانا معدلا..

- إن شاء اللّه دائما عند حسن ظنك عم أبو وجيه...

ويأخذ الولد فرشاة الأواعي ويعملها اينما اتفق في ظهر الزبون، في خاصرته، في صدره بخاصة حتى يراه، في كتفيه وهو يقول:

- نعيماً سيدي.

ويدفع الزبون فيسحب عبد يده:

- اي خلها علينا عم أبو وجيه.

- أنت متفضل يا أبو حميد.

ويقول الولد الذي قبض هو أيضاً من صغار القطع النقدية:

- شكراً عم أبو وجيه.

- العفو السلام عليكم.

* * *

- ٢١ -

مثلما تحاب عبد الحميد وقاسم راضي تحاب ونجيب الدك ممرض الدكتور وأنيس. ولكن إذا كان قاسم.. يقضي أكثر يومه عند عبد الحميد فنجيب لا يكاد يفضى لأكثر من إلقاء تحية الصباح أو تزليق كلمتين إذا كان في مهمة كلفه إياها الحكيم . الى أن كان يوم طال فيه شعر نجيب فدخل على عبد الحميد الدكان.

- مرحبا أبو حميد.

فهتف عبد مرحبا:

- لك ، أخي نجيب ! ولك أهلا، ولك سهلا. أي ماذا جرى؟ أي ماذا جرى؟ أي كيف صار؟ أي حلت البركات ... أهكذا يا منظوم تجاورنا أنت وطبيبك منذ دهر ولا تمر تقول لي: «اعمل لي يا أبو حميد كاسة شاي اكرك عجم »؟ اللّه يسامحك!

- ولك واللّه يا أبو حميد ما أفضى أحك راسي. (بعد فترة) واللّه هذا الدكتور وانيس راح يجنني...

قال عبد الحميد مهتماً:

- ليش، خير إن شاء اللّه أبو النجب؟

- المسألة وما فيها أن الدكتور، اللّه لا يجعلنا من الحاسدين، مرزوق. وقف. تعال، قبل أن ...

- لا، احك لي كلمتين. نور ني. قل لي ما الحكاية.

- لا، لا، قبل كل شيء حطني على المخرطة (يضحك) أقصد على الكرسي. ألا ترى أن شعري مفتول؟ ألا تراني قنفذا حقيقيا؟ وبعد أن تدبرني على كيفك، وتطلعني من تحت يدك مثل النقطة في المصحف .. أو حتى أثناء ذلك، أحكي لك.

- فهمت عليك. تعال يا ولد.

- أمر معلمي.

- هات فوطة نظيفة.

- حاضر معلمي ، ولكن ..

- ولكن، ولكن ايش ، هذا الولد يا أبو النجب فالح تماما فقط حط للحاء نقطة من تحت. ولك هات فوطة نظيفة من الفوط التي غسلتها أم عبد الحميد البارحة، البارحة .. ويجب أن تفهم. يخرب بيتك واللّه لو كنت عند نوري لكنت تعلمت شد الغرابيل ودق الطبول من مليون سنة...

تدخل نجيب:

- اي صل على النبي أبو حميد.

وقال الولد وهو يقدم لعبد فوطة:

- تفضل معلمي فهمت عليك. المهم لا تحرّ حالك.

- قل لي من الآن وصاعدا: «تفضل معلمي» ولا تزد. تعال أخي أبو النجب تعال، اجلس.

وبعد أن «رستقه» إذ وضع له الفوطة وأخذ أهبته لقص شعره قال:

- أي سيدي كنت تقول لي؟

- إي ماذا أقول لك! اي سيدي من غير مؤاخذة، البارحة جاء جماعة طرقوا علينا الباب... لماذا توقفت؟

- ما فيه شي أخي أبو النجب. أنا أستمع .

قال نجيب ممازحاً:

- ولكنك لا تقصّ.

فأجاب عبد الحميد بدعابة مثلها:

- قص أنت أقص أنا.

ضحك. قال نجيب :

- هذه قديمة.

ولكن عبد الحميد سرعان ما انتقل إلى الجد. أمضه الفضول حقاً:

- أي سيدي قلت لي البارحة.

- أي نعم.. طرق علينا الباب جماعة حوالي الساعة.. أأنا أدري ؟! كان الشيخ عبد اللّه في التذكير الأخير على مئذنة الجامع الكبير.

كان عبد الحميد مهتماً جداً:

أي ؟!

قال نجيب مقلداً:

- دكتور وانيس، دكتور وانيس يدنا في زنارك.. المرأة تموت (يعود إلى صوته العادي) من غير طول سيرة، رحنا لم تكن الحالة خطيرة مثلما ظنوا. المسألة وما فيها أن داية جحشة من اللواتي لا يفهمن الخمسة من الطمسة ، أجلك اللّه، وجدت نفسها في مأزق. آخ ...

- خير إن شاء اللّه ؟!

- أصابني مقصك. كدت تقص لي جلدة رأسي يا منظوم شو بنا؟

- بسيطة أبو النجب. أنا كنت شارداً قليلاً. أي ؟

- أي سيدي كانت الولادة طبيعية ، عادية مثل شربة الماء. ولكن الأم كانت بكراً. أنت تعلم ماذا يعني أن تكون الأم بكراً. لا بد من بعض الصعوبات في الطلق... أي سيدي حركة نصف ساعة واذا نحن نلد احزر ماذا؟

عبد الحميد في منتهى الاهتمام:

- ماذا دخلك؟

- صبي مثل البدر إذا أبدر ، وحياة كتاب اللّه .

عبد الحميد يزداد اهتماما:

- أي ، وبعد؟

- وبعد؟! أنت سيد العارفين: ملعون الكاذب ما رضي الدكتور وانيس ليلتها بأقل من مئة وخمسين... أنا وحدي نقفوني يا بعد عيني بورقة من امات الخمس والعشرين، جديدة، مثل جنح الدبور! أنت تفهم عيلة كبيرة. ابن العمة والعم وابن الخال والخال وشراشيب البساط... كله نقطنا أنا والدكتور.

كف المقص عن الحركة . عبد الحميد لا من فمه ولا من كمه كأنه يسير في نومه وفمه مفتوح على مصراعيه:

- وقف يا نجيب، وقف لك شوية ! أنت حتما تسخر من صديقك عبد الحميد كعبرة. أنا عليّ الطلاق من كل امرأة سأتزوجها عدت لا أفهم طه من انطاكية.. قلت لي مئة وخمسين ليد معلمك وحده؟

- ربما أكثر! لأنه ما فيه واحد من القبيلة إلا مد يده إلى كيسه ودفع. ناس كبار واللّه منعم عليهم اللّه يرزقنا واياهم .

واستمر عبد الحميد يتساءل:

- وخمس وعشرون لك وحدك، هكذا قطع بت؟!

- أي بأولادي!

- وأنت ايش عملت حتى تنقف أم الخمس والعشرين ؟

قال نجيب ضاحكاً:

- حملت محفظة الدكتور ووقفت في الصوفة أنتظره وقلت للأب: «مبارك ما إجاك» قال إيش عملت قال!

- يلعن عمري.. يلعن حظي.. أهذه آخرتك ياعبد الحميد كعبرة؟ اللّه يسامح أهلي. لماذا لم يدرسوني طب النسوان؟ ولك يا نجيب أنا خايف أن تكون انما تمزح مع أخيك عبد الحميد. العمى، وحياة محمد عدت لا أستطيع أن تمسك يدي المقص.. (حالما) الدكتور عبد الحميد، تصور الدكتور عبد الحميد كعبرة اختصاصي في التوليد وأمراض النساء والعقم ... أكاد أجن!

* * *

خـاتمة

الصفحات السابقة هي كل ما وجدته في أوراق صديقي ن...، بعد وفاته، عن عبد الحميد كعبرة. و ن.. أصله من البلد الذي جرت فيه حوادث القصة. وكان متزوجا من امرأة أجنبية أنجبت له ثلاث بنات شاءت أمهن أن تربيهن في مدارس أجنبية فقضى صديقي، عمره كله، يحيا حياة مزدوجة: امرأته وبناته اللواتي يعايشنه بقين جاهلات كل شيء عن اهتماماته الأدبية، وهو لم ينقطع عن هذه الاهتمامات منذ يفاعه. وقد وقع لي، بعد وفاته، أن رأيت مصادفة صفحات من مخطوطاته في برميل الزبالة، فهالني ما رأيت، وفاتحت السيدة زوجه بالأمر فاعتذرت بجهلها العربية هي وبناتها، وفوضتني أن أبحث في أوراقه وتركت لي حرية نبش دروجه ومكتبته.

ويظهر أن هذا الوضع الخاص الذي عاشه صديقي أثر في أعماله الأدبية. فقد عثرت على كثير من مشاريع القصص والروايات التي لم تتم. وأظن أن الفصول الاثنين والعشرين هذه السابقة من ضمن هذه المشاريع التي لم تنجز قط. ولكن لفت نظري، طوال قراءتها، أسلوبها الواقعي فوقع في نفسي أنها قصة معاشة، حملها من بلده في الشمال. ولعلي أن أكون إنما انتقلت اليّ عدوى الفضول من عبد الحميد كعبرة حتى أرقني أن أعلم ماذا حدث لأبطال القصة بعد أن حل الدكتور وانيس، الطبيب المولد، محل الدكتور سركيس، طبيب الأسنان، في الدار المجاورة لدكان عبد الحميد.

في البداية كان فضولي غير ممض، ولكني لما أعدت قراءة الفصول السابقة صار فضولي يسد عليّ الدروب حتى إني عزمت على السفر إلى بلد صديقي واستطلاع مدى ما في فصوله من صدق. وهذا ما فعلته حالما سنحت لي الفرصة.

في بلد صديقي مقصف، فندق وقهوة، بنته البلدية يقع في الحارة القبلية ولزَّمته لرجل أرمني يعمل فيه هو وأسرته. نزلت فيه. لم ألبث أن تعرفت بشلة قوامها طبيب وموظفون كبار، كانوا يجيئون إلى المقصف كل ليلة يلعبون الورق ويسمرون. في المدن الصغيرة يعرف الناس بعضهم بعضا ومن الليلة الأولى يكتشفون الغريب ويحفُّون به حتى ينسوه غربته.

صرنا أصحاباً. الطبيب، واسمه محمد... كان يكتب هو أيضاً. قرأ لي خلال ليلة كاملة صفحات جميلة من مذكراته. أسلوبه يشبه إلى حد بعيد أسلوب ن... الجاحظ كان يقول انه تأثير الهواء والماء!

لما قويت الصحبة بحت للطبيب بمشكلتي وقرأت له فصولاً مما خلَّــفه ن... منذ الصفحات الأولى طفق يضحك من قلب مفتوح جذل. قال لي:

- ليس في هذه الصفحات كلمة واحدة غير صحيحة.

- باللّه عليك؟

- واللّه. وغدًا سأعرفك بعمر ومصطفى.

- عبد الحميد؟

- عبد الحميد لوحق مدة طويلة وهجر البلدة إلى لبنان. وما تزال بحقه مذكرة توقيف، إنه يعمل الآن في التجارة. صار فوق الريح. على فكرة الأسماء كلها واقعية ما عدا اسم عبد الحميد...

- لماذا لوحق؟

- ستعلم كل شيء في حينه.

- أصارحك يا دكتور محمد أني في البداية ظننت أن هذه القصة متخيلة. وخطر لي لو أنها جعلت مسرحية (أنت ترى أن الحوار فيها هو الغالب) فما عسى أن تكون خاتمتها.

قال الدكتور محمد مفكراً:

- من تجربتي الخاصة طبيباً قضى في المهنة حوالي عشرين سنة، وهنا في هذه البلدة المنسية عدت أومن بشيء سبق لي أن قرأته، خلاصته أن

الواقع أغرب من أي خيال. وأما تساؤلك عن قفلة القصة فيما لو أتيح لكاتب مسرحي أن يكتبها فأنا أرى أن تكتب خاتمتها كما جرت في الواقع.

- دكتور محمد أنت تكاد تجنني، على حد قول عبد الحميد كعبرة. متى تتيح لي الاطلاع على خاتمة القصة؟ قال ضاحكًا:

- لا تستعجل. هل أضجرتك بلدتنا بهذه السرعة؟

- أعوذ باللّه، واللّه عالم قائم بذاته.

- أنت لم تر شيئًا بعد. غدًا أجمعك ببعض أبطال قصة ابن بلدنا المرحوم ن... وفي الأيام المقبلة سأطوف بك في المنطقة. أغرب منطقة في القطر. بلدتنا هذه بلدة حديثة لم يرد لها ذكر في معجم ياقوت وان كان ورد اسمها محرفـــا عن الاسم الحالي في كتابات بيزنطية. يظهر أنها كانت مركزًا أسقفية ويقال لها «دلبين»، أما المنطقة فتغص بالآثار. أما سمعت بالمدن المئـــة الميتة؟

- سمعت. هذه مدن ما تزال قائمة لا ينقصها غير السقوف.

- أي هذه تقع في منطقتنا. قلعة جبل سمعان والكاتدرائية التي يعود تاريخها إلى القرن الخامس فيما أظن، ولا أحسب أن لها مثيلاً، من وجهة نظر الهندسة المعمارية، في العالم المسيحي كله: أنها أجمل من كنيسة نوتردام في باريس نفسها... الأتارب، معرتمصرين، البارة... البارة تصور خرائبها تمتد على خمسة عشر كيلو متراً. أوسع رقعة خرائب في القطر كله...

في اليوم التالي، لما أفقت، وجدت في درج الفندق كلمة من الدكتور محمد:

«لا تتغد في الفندق. أنت مدعو عندي على الغداء. عزمت لك الأستاذ عمر سمعان ومصطفى حمدي. أمل أن آخذك بعد الغداء في رحلة إلى سهل الروج... أيها الكسول، الساعة الآن الثامنة. ألم نسهر معا. أنا لم أنم أكثر من ساعة.آه منكم يا أولاد المدن!»...

كان عمر وحمدي قريبي الشبه جداً بالمثال الذي نحته لهما صديقي المرحوم ن... في فصوله الاثنين والعشرين. عمر نحيل، جاحظ العينين، دائم

السكر، تشلَّعت جذوره من كل ما يقتتل عليه الناس في لو بانهم اليومي النملي، وبقيت متشبثة، شديدة التشبث بحلم لا يتحقق، بعالم صنع من المستحيل، والخيبة، والفقر الذي يولده الادمان، واليقظات التي لا تعيش طويلاً... وأما مصطفى فذو حضور في كل تفصيل حواليه، وان كان حضوره مجانياً، عبثيا هو أيضاً.

لما قرآه. عقدنا جلسة لمحاكمته في منزل الدكتور محمد.

قال عمر:

- المرحوم ن... أخطأ فيما كتب نحو مئة خطيئة.

قال مصطفى:

- وقف أستاذ عمر، وقف.

- لن أوقف.

- انصافا للرجل يجب أن نعترف أنه نقل البيئة نقلاً أميناً. ما رأيك يا دكتور محمد؟

قال الدكتور محمد:

- في حدود الأشخاص الذين رسمهم. وأما البلد الذي كان في تلك الأيام يحيا مخاضاً مهماً، يمر بمنعطف جوهري من حيث تحوله من بلدة زراعية إلى شبه محافظة... من حيث العلاقات الاجتماعية وأثر التقاليد القديمة.

قال عمر في تهكم خفيف:

- تحول؟ أنا الآن عمري أكثر من خمسين ولم أر بلدنا يتحول إلى أي شيء في أي قطاع.

قال الدكتور محمد:

- طيب أنا أسألك. نحن كلنا من جيل واحد. أما شهدنا أواخر العصر الذهبي للحرفية؟ أما كان في بلدنا سوق للنجارين وآخر للحدادين، للنحاسين، للصاغة، للجليلاتية، للصرماياتية، وحتى للجزماتية الذين كانوا يصنعون لأهلٍ الضيع تلك الجزمات الصفراء ذات الحدوة الحديدية يلبسونها أيام المطر، إذًا الأزقة وحل سميك مثل الكسيب؟

قال مصطفى:

- بدأنا نبتعد من ن... ومن الأستاذ (يعني اياي) أنا من جهتي لا أنكر أن في الصفحات التي قرأناها تصويرًا للبيئة قبل ثلاثين سنة.

قال عمر:

- أنا لا أنكر. ولكن يجب أن ألفت النظر إلى...

قلت ضاحكا:

- أولاً؟

- أولاً أخطأ في دوافع عبد الحميد لتعاطي الطب.

- كيف؟

- الحلاقون في بلدنا هم في الأصل يتعاطون الطب.

قلت:

- هذه ذكرها ن...

- ولكنه لم يوضح هذا الأمر. كان الطبيب في بلدة صغيرة مثل بلدتنا غريبا عنا، من طبقة أخرى، وأما الحلاق فقريب منا وفينا. الدمامل، قلع الأضراس، الختان، الجروح وما يحتاج اليه من ذرور وضماد... كل هذا يستفتى فيه الحلاق.

- أي.

- عد لي الآن على أصابعك.

- تقصد ثانيا.

- عريس! ثانيا المؤلف قصر في تصويري أنا.

قال مصطفى ضاحكا:

- نتف ريشك رحمه اللّـــه يا أستاذ عمر.

- حلمك عليّ

- حلمت.

- لم يبرز جيدًا كيف استرخص الناس، بعد أن رفض عبد الحميد أن يتقن النوطة والسولفيج، وتركوني أنا الأستاذ في الموسيقى لأنني أطلب أجرًا أغلى منه.

قال مصطفى:

- هذه أنا أعتبرها جنحة.

- جنحة، جناية... أنا أتكلم رياضيات. أنا عقل. الموسيقى ذاتها رياضيات. كل ما هو رياضيات أنا أرفضه. عبد الحميد استسهل الموسيقى مثلما استسهل الطب، مثلما استسهل ن... المشاكل التي طرحها، مثلما استسهل أخونا مصطفى الحب والزواج...

- يا عمر، يا عمر...

قال عمر ماكراً:

- يا مصطفى، يا مصطفى... يظهر أن الأستاذ هنا (يشير نحوي) فنان. وهؤلاء الفنانون يجب أن نكون معهم صريحين. إنهم مثل الأطباء. لقد أقسموا يمينا في سرائرهم.

وضحك. قال مصطفى:

- ولكن ما حاجة الأستاذ إلى هذه التفصيلات. خلِّنا في الموضوع.

قال عمر يخاطبني:

- طيب... أنت تتحرق فضولاً لمعرفة النهاية. أليس كذلك؟

- بلى، من فضلك.

قال الدكتور محمد:

- كل البلد يعرفها. ويظهر أنها أرعبت المؤلف فلم يجرؤ على كتابتها.

قال عمر:

- أنا أؤيد هذا الرأي، ولاسيما أن المؤلف لم يخلق، حسبما يتجلى من أسلوبه، لكتابة التراجيديا.

قلت في رجاء:

- أرجوك أن تروي لي كل شيء.

قال عمر حالماً:

- اي نعم. احمرت عين عبد الحميد على الطب النسائي مثلما احمرت من قبل على الطرب وطب الأسنان (ضاحكاً) كيف يا حكيم؟

قال الدكتور محمد مؤيداً:

- تماماً.

تابع عمر:

- ... ومات الدكتور وأنيس فجأة مثلما مات سلفه سركيس فاشترى عبد الحميد عيادته وصار طبيباً مولداً مثلما حلم دائماً. عاد يحمل لقب دكتور هذه المرة، لقباً منحه نفسه في بساطة. دكتور من حق وحقيق.

قلت معترضاً:

- والمخفر؟

أجاب عمر ضاحكاً:

- المخافر لم تكن صعبة.. في تلك الأيام!

وعاد يتابع القصة:

- دكتور من حق وحقيق. وليس دكتور أسنان تساومه عجوز نحيلة أو يرقع بدلة أسنان شخص يحب أن يحامر رفيقه في أكل القضامة.

أضاف مصطفى:

- واشتهر الدكتور عبد الحميد بأنه أبو الدراويش.

لاحظ الدكتور محمد:

- كان أهم شيء لديه هو الفعل، الدكترة للدكترة.

ضحك. ويستمر عمر:

- وذات ليلة، هرعت اليه أم رقوش الداية لما وجدت نفسها، على الرغم من أنها دفنت أربعة أمواس.. قلت مستفهماً: - أربعة أمواس؟

- اي نعم، العادة عندنا في البلد أن الداية كلمات قطعت ألف حبل سرّي دفنت موساها.

- حلوة!

- حلوة جداً.

- أكمل من فضلك.

- كانت الحال التي واجهت المرأة التي استدعيت لتوليدها حالاً عسيرة: خرج رأس الولد وبقي جسمه في الداخل..

هنا انفجرت ضحكة من الدكتور محمد، قال عمر مستفهماً:

- هل أحكي خطأ؟

- طبيعي تحكي خطأ.

- لماذا؟

- لو كان رأسه هو الذي خرج أولاً لكانت الولادة طبيعية لاغبار عليها ولاداعي لاستدعاء «دكتور» من أجلها..

- اذن؟

- كانت رجلاه هما اللتان خرجتا وبقي رأسه جوّة.

قال عمر في جذل:

- أنت أدرى. المهم: قال عبد الحميد لدايته، وهو منتفش كالديك: «بعدي. المسألة تحتاج إلى عياقة. عندك تبن؟».

قلت:

- تبن؟

- اي لماذا تدورت عيناك؟ تبن، تبن حقيقي شية القمح.

- لماذا التبن؟

- حتى لايزمط الولد من بين يديه.

ضحك.

الخاتمة كانت تراجيدية حقاً. شد عبد الحميد بكل ما أعطاه شبابه و.. حماسته من قوة..

وحملوا المرأة إلى حلب. ماتت عند خان العسل.. امرأة صبية في الريعان لمَّا تكمل العشرين!.

* * *

دعوة إلى الجنون

لم يكن دوامي في الوزارة مثل ديني. هذا قوي مكين، يشهد لي بذلك أمام حارتنا. وأما دوامي فضعيف. أنا أقول في نفسي: «أنت تتعاطى هذه المهنة، الكتابة، ولا تعرف لك مهنة غيرها. إذن أنت تنفع الدولة. وماذا يُضير هذه الأخيرة أنك تغدو إلى العمل في العاشرة أو الحادية عشرة ما دمت تقوم، خير قيام، بواجبك، الأهم قبَلَ الدولة ألا وهو الكتابة! وما دامت الكتابة لما تصبح عندنا مهنة تُطعم صاحبها وتُلبسه وتُذهبه إلى السينما وتشتري له كتباً من عند الوراقين - أو من البسطة في الأقل! - فأنت لا يمكن أن تُعتَبر عالة على الدولة: قد تكون مخطئاً، ولكنه على أية حال اجتهاد، وللمجتهد المخطئ ثواب واحد، وهذا يكفيك وزيادة!».

ولكن الدولة لم تكن من رأيي في هذه الازدواجية التي أعتبرها أنا وحدانية محتومة. المهم عند الدولة أن تأتي أنت الموظف إلى العمل في تمام الثامنة وتخرج في الثانية إلا خمس دقائق، ولتلعب بين هاتين بالورق أو بالطرة الا نقش!... ويجب أن أضيف أني امرؤ لا يواتيني الإلهام إلا بعد منتصف الليل، بعد أن يهجع حيًّنا، أثر يوم وهزيع طويل من الليل في الضجيج! فكيف أفيق في السابعة؟ من هنا كان سوء التفاهم المزمن بين الادارة وبيني، وكانت صفحة العقوبات في سجلي في الذاتية تفوق كل صفحة!

هذه الخليقة، عقوباتها، اشتهرت عني في المكتب. ولا تدري لماذا أحبَّها رفاقي فيه. كانت موضع تندرهم وعطفهم. ألأنها تستجيب لأشواق خفية لديهم أحققها أنا؟ مهما يكن من أمر فقد اعتادوا أن يسجِّلوا، في دقة، ما يأتيني من هواتف، ولا سيما النسوية منها.

ذلك اليوم قالت لي ناهد باسمة:

- هواتف كثيرة يا أنيس، هواتف ملحة منذ الصباح.

- أصوات ناعمة؟

- لا خشنة.

- لا تهمني إذن!

- ولكني تعهدت أن أخبرك..

- من هم؟

- عبد السميع حنون. وموفق متاع. تلفنا عدة مرات وتركا لك خبراً.

هذان من مكتب «الاسعاف الاجتماعي». هذا المكتب وضع في الأصل لخدمة من بهم حاجة اجتماعية، ولكنه انتهى نهاية كل حي! إلى أن يقتصر على هذا الدور الذي لا ينفع ولا يضر: أن يمسي مستودعاً لشكاوي لايُرد عليها، ولكنها مع ذلك لا يَنقُص لها عدد.. شكاوي من كل نوع، شكاوي لا تمت حتى لوزارتنا بسبب!

هرعت إلى مكتبهما فبادرا، كأنما يتسابقان، إلى اطلاعي على عريضة. أردت أن أثرثر معهما قليلاً قبل أن أقرأ هذه، ولكن عبد السميع قال لي ناهياً:

- ولا كلمة قبل أن تقرأها. كانت مقدمة من شخص يدعى ماهر القاضي إلى «وزير العمل والشؤون الاجتماعية الأكرم». فيما يلي سأسوق نصها الحرفي كما نقلته في دفتر يومياتي، لم أغير فيه إلا النقاط والفواصل وما فعلت ذلك إلا لعلة قديمة في مردها إلى حرصي الشديد القديم على التنقيط بوصفة موضحاً للنص، وكاشفاً لغوامضه إلى حد ما:

«أرفع تحياتي القلبية، ويسرني أن أعرض أمام أنظاركم حالة روحية مؤملاً رعايتكم وعونكم واللّه الموفق.

«سيدي: كنت - بتأثير دوافع روحية عليا - قمت بالبحث في الروح وما وراء الطبيعة تجاوباً مع تلك الدوافع بقصد الوصول إلى جوهر الطبيعة. وفي تلك الظروف داهمت نفسي قوى شريرة «روحية» سفلى لتحول دون متابعتي

للبحث، ولكني مضيت يومئذ في البحث إلى أن حصل عندي، بعد عشر سنوات، أربع انطلاقات روحية ذات مغزى اجتماعي جليل، وربما ذات أهمية سياسية بالنسبة للظروف المحيطة بنا الآن. وحيث أن الانطلاق الأول الذي تحررت به روحي من جسدي وارتفعت، في مدينة روما، بروح سماوية عليا يهيب بي السفر إلى روما حيث تتحرر روحي من الأرواح الشريرة، فقد كنت بذلت جهوداً مضنية، طوال ست سنوات مضت، للسفر عبثاً لعدم اتقاني الأعمال المادية، بسبب انصرافي كلياً للروح، وبسبب ضغط الشياطين الرهيب. لذلك جئت طالباً من حكومتنا الناهضة والساهرة على إمكانيات الوطن مساعدتي بتحقيق الانطلاق الأول في الواقع، لعل في ذلك أيضاً ما فيه من فائدة للمجتمع. واسمحوا لي أن أستأذنكم أو من ينوب عنكم لإطلاعكم على فحوى الانطلاقات الروحية. ودمتم بناة للوطن والإنسانية والسلام.

المواطن ماهر القاضي

رفعت عينيّ عن العريضة وجعلت أنقلها بين عبد السميع وموفق بعض الوقت، وإذا هما ينفجران معاً في ضحكة مدوية. قال عبد السميع:

- عرفنا منذ أن تسلمنا العريضة أن هذه المهمة ليس لها إلا أنت.

وأوضح موفق:

- هذا عالم يستهويك دائماً.

وأما أنا فقد دعوتهما بادئ بدء إلى تحليل ما جاء في العريضة: أهي جنون كلها، أم أنها تجانُن، أم أنها جنون ماكر، مطعم على تجارة إذا شئت، انفرد به بلدنا - عقدة المواصلات القديمة هذا - كما سبق لي أن عرفت من أحوال مماثلة؟

قال موفق:

- لذلك دعوناك إلى قراءة العريضة. وأما نحن فليس لنا ولع.

وسألت:

- هل حاورتماه في الأقل؟

قال عبد السميع: - لم يكن لدينا وقت. قمنا تلفنًا لك فلم نجدك فسألناه أن يعود في وقت آخر.

- متى؟

- قد يعود اليوم أو غداً لأن الرجل مستعجل.

وكذلك كان. في اليوم التالي جاءني هاتف من عبد السميع يدعوني إلى غرفته. قدمني إلى صاحب العريضة. وجه ليس غريباً علي. تذكرت. كان زميلاً سابقاً لي في دائرة البريد. الانطباع الذي أخذته عنه يومئذ ورسخ في ذهني هو أنه إنسان لا يميل إلى الاختلاط، مهمل، مهذب، لزج. قد يكون مقامراً يصطنع التهذيب لبلص الناس، والزملاء بخاصة، على طريقة أمين دباس ضارب الآلة الكاتب في قسمنا آنذاك. ولكني أذكر أيضاً أنه راجعني في أمر إعادته إلى العمل بعد أن سرح منه. وفهمت منه أن له مشاكل مع زوجته، فأولت ذلك الصمت والاعتزال أن سببها حياته المضطربة. ولم نتبادل آنذاك أحاديث طويلة، ولكن القدر القليل الذي فاه به جعلني آخذ عنه ذلك الانطباع أنه مهذب، مهذب. ولكن لم يخطر لي قط على بال أنه قد يصل به «التهذيب» إلى تقديم مثل هذه العريضة.

كان قد نسيني فلما قدمني عبد السميع إليه:

- الأستاذ أنيس الخضري. السيد أنيس يا أخ ماهر مندوب سيادة الوزير للاستفهام عما جاء في عريضتك.

هب واقفاً وقد وضع يديه على صدره وكأنه في صلاة:

- تشرفنا سيدي.

قلت:

- استغفر اللّه، تفضل استرح.

- من أجل واجبكم.

طلب لنا عبد السميع قهوة.

اتخذت أنا وضعية مندوب سيادة وزير لاغبار عليه وقلت مفخماً ألفاظي:

- أنا أصغي سيد ماهر.

فبدأ يتكلم بلغة منتقاة، فنية، لا تشبه لغة عريضته، ولهجة ساهمة بعض الشيء مثل موقد فيه خلل تغيب ناره وتحضر. لم يكن ينظر إلينا إلا لمحاً. أحياناً كان يرمي نظره إلى الشارع من النافذة. وأحياناً أخرى كان يحدق في السقف. بدأ يقول:

- يجب أن أعود بالذاكرة إلى عام ١٩٤١. كنت قد تركت معلم النجارة الذي كنت أعمل عنده في عمان. نحن في الأصل من الشام وما يزال أبي يحتفظ بجنسيته السورية. وتزوجت وأخذت رأس مال بسيطاً من أبي ورحت أسكن حيفا حيث فتحت محلاً تجارياً صغيراً. كنت شاباً في حوالي العشرين. ولم ألبث أن جاءني طفل. كنت حسن السيرة مؤمناً.

ذات يوم تعرضت بإنسان مشبوه، فهمت منه أنه يتعامل مع اليهود، ولم أعلم مدى تعاونه معهم إلا أنه نوه لي مرة أنه اشترى لهم ذهباً من إيطاليا. هذا الجانب من نشاطه لم يعنِني، ولكن حديثاً بدر منه في إحدى جلساتنا اجتذب اهتمامي. تحدث عن القوة الخفية التي تهيمن على الوجود، وعن قدرة الإنسان المصفى على الإندماج في الكون اندماج معرفة. إن الإنسان في رأيه يستطيع أن يرى اللّه.

أكرر: لم أكن تاجر صغير مؤمن، رب بيت لاشية في أحب رفيقتي وطفلي، أراسل أبي في عمان وأحيا في دعة ورغد. لهذا السبب انزلق حديث ذلك الإنسان، ولنسمه العميل، عن أذني انزلاق الماء على الشحم فلم يعلق بروحي إلا باهت...

بعد سنة أو سنتين تعرض لي سفرة إلى القدس في أمر يتصل بأعمالي فأصادف أصدقاء لي يدعونني إلى بيتهم وأخبرهم أن في نيتي السفر إلى لبنان خلال الأسبوع فيقول مضيفي:

- لي أخت في لبنان، راهبة في دير القمر. هل أزعجك إذاً أنا حمَّلتك إليها رسالة وهدية صغيرة؟

وسافرت إلى لبنان، وتوجهت إلى دير القمر. سألت في المدخل عن الراهبة فقيل لي أنها تتفسح وزميلات لها راهبات ولن تلبث أن تعود. انتصرت. عادت. قال لي البواب:

- ها هي ذي:

وأقبلت بضع راهبات. صاح البواب:

- أخت هيلين، هنا إنسان يسأل عنك.

قلت:

- أنا أحمل رسالة لك.

فهمست في أذني:

- ما اسمك؟

- ماهر.

- قل إن اسمك جورج وأنك ابن خالتي.

وأقبلت رئيسة الراهبات تستفهم بعينيها: «من يكون هذا الفتى الذي تكلمين؟» فقدمتني الأخت هيلين إلي رئيسة الراهبات:

- جورج ابن خالتي يحمل لي رسالة من أهلي.

قالت الرئيسة باسمة:

- مرحباً أيها الأخ.

وقالت هيلين:

- جورج يا ماسور لا يعرف أحداً في دير القمر وتحمل عناء السفر فهل تسمحين له أن يسهر في الدير.

- لا بأس.

وسهرت مع الراهبات، فلما استأذنت مودعاً همست هيلين في أذني:

- مر بي غداً فأعطيك رسالة وهدية.

وذهبت إلي الفندق. خلعت ثيابي وسحبت الغطاء فوقي وأخذت أتهيأ للنوم. ولعلي أن أكون هومت.. وإذا أنا أسمع حركة في الغرفة، قل أحس.

أجل إنه احساس، ولكنه يقيني، حي: أنا لست وحدي في الغرفة. هذا شيءٌ نحسه. وأنا أحسسته بكل قوى روحي.. فتكومت على نفسي في السرير خائفاً. أي خوف! لو استطعت لجعلت نفسي في حجم الذبابة، البعوضة.. وهربت من النافذة... وعلى الرغم من أني انكمشت حتى عدت لا أشغل من السرير أكثر من مساحة كف طفل صغير فالسؤال قد ظل: كيف أهرب؟! وبينما أنضغط على نفسي وأكش مثل رداء مغسول منشور، إذا أنا بهاتف يهتف بي: «أيها الكاذب، جورج أليس كذلك أيها الكاذب؟!».. وظللت حبيس السرير، أسير رعب لا يوصف حتى طلع النهار، ودخل نور الشمس الغرفة فقمت منهوكاً مرضوضاً، ومررت بالراهبة وأخذت الرسالة والهدية ونزلت إلى بيروت. وبينما كنت أسير في الشارع وأمر بعيني على عناوين الجرائد رأيت فيما يشبه الهلع هذا العنوان بالحروف الكبيرة:

«زلازل في دير القمر».

قبل أن ننتهي من وصف هذه الفترة أود أن استمحيكم رجاء: إن الرعب الذي شلني طوال تلك الليلة لا يمكن أن يوصف. وعلى الرغم من أن العذابات التي أعقبت كانت أشد رهبة ونكالاً من عذابات تلك الليلة إلا أن المذاق واحد. لذع بالكبريت المغلي وشي بنار الجحيم. الزخم مختلف ولكن مادة العذاب واحدة.

عدت إلى فلسطين إنساناً آخر. افرض أني جالس هنا أنظر إلى الشرفة المقابلة هناك ماذا ترى؟

- أين؟

- هناك، فوق. أليست لافتة تحمل الكلمات «فندق بيروت الكبير»؟ ماذا ترى أيضاً؟ أنك ترى إنساناً يتحرك. طيب، وفي الدار البعيدة هنالك شجرة تنفصل عنها ورقة ميتة وتسقط على الأرض. المسألة الآن هي التالية: ما هي العلاقة بين حركة هذا الإنسان وحركة تلك الورقة؟ في الميثولوجيا اليونانية إله للشمس وآخر للريح، إلى آخره. ما معنى أن يكون للريح إله؟ الريح هنا مطلقة. الريح التي تهب في جزر سليمان ريح والريح التي تهب على الاسكيمو ريح. فإذا فرضنا أن للريح إلهاً كان هذا الإله مطلق الألوهية في موضوع الريح.

ههنا كشف نخاله هيناً ميسوراً ولكني أجده أنا يسوى العمر كله. (هنا جعل ماهر يتمايل يمنة ويسرة في إيقاع وحركات تنبيء عن غاية الاندغام. كانت عيناه إلى أعلى وبؤبؤاه يعبران عن الهيمان..): إن الفكر الإنساني أيام اليونان كان أعجز من أن يتصور القوة الخفية في مثل هذا الوضوح الذي أتصوره أنا، الإنسان الذي يحلق حتى يتناغم والقوة الخصبة حتى الاندغام فيها. الفكر اليوناني كان فكراً يحبو فلها لهواً ولعب لعباً بتخيل أساطير عبر فيها على نحو غامض عن إحساسه العميق بالقوة الخفية. ومثله مثلُ كل طفل، لم يستطع التعبير عن إحساسه إلا بالتجسيد الأسطوري. وما يدريني أنا! لعله تمثل إله الريح بشراً سوياً بجناحين، وجلد منسحب بقوة إلى وراء، مثل عيون طياري النفاثات، وعينين مشروطتين مغوليتين... وتمضي الأسطورة (ماهر يبتسم الآن حالماً) في سبيلها فتزعم أن «ريح» الهة محترمة في الألب يعود أصلها إلى أن «هواء»، وهو إله رقيق الحاشية، حلو الهمس، ذو شفوف وأنس فطريين، حضر عرساً أقيم لـــ «بركان» حداد الآلهة على فينوس غانية الأولمب غير منازعة. وقد تقرر أن ترقص في العرس النجمة الإلهية «نار». الذائعة الصيت (مبتسماً) كما تقولون غالينا أولانوفا الأولمب. و«نار». هذه بنت أبولون إله الشمس، بنت غير شرعية، مجهولة الأم، ولكنها أعظم راقصة في الألمب إطلاقاً.. وكان عرساً مذهلاً. الآلهة في ساعة من ساعات التجلي الهائلة، في ليلة من ليالي الأبدية، وباخوس لايمل من فتح ما خبأته أقبيته من دنان معتقة (يبتسم) ليست مثل النبيذ السوري المصبوغ، ولكنها... خمر إلهية، وقام أبولون، مثله مثل أي مذيع في حفلات أضواء المدينة يزف هذه البشرى:

«يا معشر الخالدين، سأقدم لكم أعظم راقصة أخرجت للآلهة. لن أصف لكم رقصها، ولن أسهب في وصف النسب البديعة الغريبة التي أحسنت «نار» دراستها وتنفيذها، ولن أقول لكم شيئاً عن اللوحات التي يرسمها الجسد المشتعل المتوهج المتأجج. سأدع لنار الراقصة الخالدة التي لم تكونوا تعرفون شيئاً عنها قبل يومكم هذا، سأدع لها أن تسحركم أنتم الذين لا تسحرون، وتبكيكم أنتم المنزهين عن البكاء، وتجعلكم تبتهلون إلى زيوس أبينا أن يتيح لكم كل يوم أن تحيوا في غبطة هذه الساعة أبد الدهر.

«أيتها السيدات أيها السادة (دردبة موسيقى) الراقصة الخالدة نار».

وتقوم نار ترقص. شلالات من غيم لحظة الغروب. ولولة ولكنها تثير لذاذة شيطانية لاحد لعذوبتها وخمارها، لوحات يخترق فيها الذهن عالم الآلهة ليغوص في لجج اللاوجود، في الفراغ، في الكهوف التي لا تطؤها حتى الآلهة ذاتها...

ويعشق الإله «هواء» الراقصة الالهة عشقاً يزيده رقة، شففا، يجعله في بعض الأحيان هيماناً عليل الهيمنة. في أحيان أخرى يغدو مزبداً مرعداً، اعصاري الوساوس والتباريح والأشواق. ويسيح «هواء» في كل مكان، ويكون له أولاد في كل مكان فمن أولاده«الصبا» و «النسيم»، إلى آخره.. ومن أولاده الشريرين «الدبور» و «السموم» إلى آخره...

(لحظة صمت غير قصيرة)

إذن نفترض أن للحركة، أية حركة، ناظماً، أن كل حركة، مهما تكن ضئيلة، إنما هي جزء من الحركة الكبرى التي أسميها أنا «القوة الخفية». والفكر الإنساني قد نضج ولذلك فهو، منذ هوميروس عاد لا يؤمن بتعدد الآلهة. هوميروس يسخر من الآلهة ويزوِّجهم بعضهم من بعض، ويغضبهم بعضهم على بعض. وأنا إذا قلت «القوة الخفية» فلأني أردت أن أرقى إلى المحرك، إلى اللّه من أول الدرج. ولم أجرؤ في ذلك العهد أن أزعم لنفسي أني أبحث عن اللّه لأني رأيت جناحي لما يكتسيا بعد بقدر من الريش كاف، فقنعت بتسمية هدفي «القوة الخفية»، مع أني في الصميم كنت أخادع نفسي. جزء مني، الجزء الماكر، كان يعلم يقيناً أني إنما أعني، بهذا الاصطلاح، اللّه.

ولكن، قد لا يكون اللّه والقوة الخفية واحداً. هذا يحتاج على أية حال إلى بحث. قد تكون القوة الخفية، القوة التي تسيطر على كل حركة من سقوط ورقة ميتة إلى حركة المجموعة الشمسية شيئاً من اللّه. هذا الشيء هو الذي ينبغي لي الجِدُّ في طلبه وجلائه.

منذ البداية وضعت المسألة أمامي صارمة كحد السكين. أين أجد «القوة الخفية»؟ أين أجد اللّه؟ ولكن قبل أن أجيب عن هذا السؤال وجدتني أمام

وجوب سؤال آخر: ما الألوهة؟ ما علاقة الألوهة بالإنسان؟ أو إذا شئت طرحت السؤال الذي نظل نطرحه منذ السادسة حتى القبر: هل اللّه موجود؟ ابن الطفيل لا يستطيع أن يتصور الإنسان من غير اللّه، ولو عاش في جزيرة وحده، راضعاً من ثدي غزالة، واينشتاين يعود في النهاية إلى الدين. والفلاسفة الملحدون لا يستطيعون أن يعللوا لنا الكون حتى اسكات أسئلتنا الأبدية، ومن ثم لا يستطيعون أن يقولوا لمن يقول إن اللّه موجود: أنت ضال!

كل هذا لم يكن يهمني في البداية. أنا أفكر كما فكر الفلاسفة ولكني أجبت عن السؤال الأخير بالإيجاب: اللّه موجود. ولما كنا، نحن البشر، ننفرد منذ أقدم العصور بالحنين إلى اللّه، فنحن من ثم جزء منه. قد تسألني: إذن لماذا نموت وهو لا يموت، لماذا نشكو النقصان وهو الكمال المطلق؟ فأجيبك إننا لا نموت وإن الاثنينية التي فينا هي التي تطغى على الجوهر الالهي الذي فينا. وأنا أفترض أن اللّه خلقنا من عنصرين، عنصر لايموت، وعنصر آخر لا يموت كذلك ولكنه يتحول. وسأثبت لكم فيما بعد أن كلامي هذا ليس هراء، ولكنه مستند إلى براهين عيانية يقينية. أنا غالباً ما أنسى، فأرجوكم أن تذكروني بهذه النقطة عندما أصل إلى الحديث عن أزمتي - يا لهشاشة الكلمة! - عند الكلام عن الأرواح الشريرة. أين كنت؟

- كنت قد توصلت إلى البرهان على وجود اللّه.

- أجل تذكرت. إذن نحن توصلنا إلى خطوة أولى: اللّه موجود، وخطوة تالية: اللّه خلق الإنسان على صورته ومثاله.

- هذه من التوراة.

- لا، هذه مني أنا. التوارة شيء آخر وسأبرهن على ذلك بعد. التوراة سرد ساذج على نمط الأسطورة التي اخترعتها لك منذ قليل مقلداً بها الأساطير اليونانية. أبرز الحوادث التي روتها التوراة سبقها إليها السومريون والبابليون. فكرة الاثنينية في التوراة ربما كانت مأخوذة عن الزرادشتية:

أهريمان وأهورمزدا. ينبغي ألا ننظر إلى التراث الإنساني، سواء كان فكرياً أو دينياً أو فنياً، على أنه ظواهر منفصلة. إنها كلها في واحد. وكل

إنسان، حتى الذين ما يزالون يعيشون في الأدغال، في بدائية إنسان ما قبل الحضارات الأولى، يحق لهم أن يفخروا بالمكتشفات الإنسانية.. يخطر لي أحياناً أن دوستوييفسكي روائي عربي كتب صفحات عدة عني أنا.. أن تشيخوف، في قصة «في السهوب» دمشقي عاش في الجزيرة ودير الزور فترة من الزمن... ولكن هذا لا يمنعني من الإيمان بأن الشيطان هو أيضاً موجود، كما سأبين فيما بعد. مهما يكن من أمر فأود أن أؤكد منذ الآن أني أرفض رفضاً باتاً أن أكون متأثراً بالأديان. كل ما أسرده، كل ما توصلت إليه ينبع من معاناتي، من آلامي، من خوفي، من اشتياقي... المسيح وحده له مقام خاص في قلبي. إنه يشبهني أنا شبهاً لا جدال فيه. أين كنت من فضلكم؟

- كنت في البحث عن اللّه بعد عودتك من لبنان. أرجوك أن تظل في التتابع الزمني للحوادث.

هكذا ناشدته أنا. أستطيع أن أقول أنه أطرفني. كنت في بعض اللحظات أستشعر الملال ولكني أدافعه. كنت أود أن ألاحقه في أغوار فكره، قال:

- وهو كذلك. إذن فقد عدت من لبنان إلى حيفا. عدت إنساناً آخر. كانت زوجتي في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة، وأنا تجاوزت العشرين، ولنا ولد ذكر عمره أشهر. ولكن تجارتي لم تبق مثلما كانت. التجارة لها أنف بوليسي وعينان مفتوحتان على مصاريعهما، ونُهزات فرص، وكمين يُنصب ليل نهار.. ولذلك تأثرت تجارتي منذ الشهر الأول. ما التجارة؟ ما الأسرة؟ ما الولد؟ لم تكن زوجتي تعلم في البداية شيئاً. كنت أوثر أن أفكر في مشكلتي على شاطئ البحر، في الجبل، في الشوارع... ذات يوم دخلت خمارة. لم يكن فيها غير بضعة سكيرين. أحدهم أعرفه. كان رساماً هندسياً نابغة وابن عيلة معروفة، ولكن الكأس سكنَتهُ مثلما يسكن الجن بيتاً مهجوراً. هجر كل شيء إليها: الزوجة، الأولاد، البيت. حينما كانت الخمارات تغلق آخر الليل كان ينام على الأبواب في انتظار افتتاح أولاها. كانت الخمارة هادئة والشارع يكاد يستيقظ. لقد أحضر له الساقي كأسه الصباحية وانصرف عنه. أخذ جرعة وسحب سحبة عميقة من سيكارته فهاجمه السعال الحاد. سعال سبق أن

لاحظت حدته: إنه يظل يسعل حتى تجحظ عيناه وتصبحا مثل الفليفلة الحمراء... طال سعاله. فجأة في هزة من هزات السعلة رأيته ينزلق على الكرسي. الكرسي يقلب على قفاه. هو يتشبث بالمنضدة بيده وذقنه - التي ارتطمت بالرخام ارتطاماً شديداً - جميعاً.. ويضابح مضابحة مؤلمة حتى لا يقع على الأرض.. كل هذا وهو يتلفت مروعاً إلى حيث يدير له الساقي ظهره في البوفيه. كان يخاف إذا انتبه إليه الساقي أن يطرده قبل أن يتجرع كأسه كلها. الخمارون في هذه الشؤون لا ينحلبون ولا ينجلبون كما يقال... وفكرت وقلبي واقف على شعره: لو كنت متحكماً في القوة الخفية للحركة لكنت أقلت عثرته، كنت أوقفته قبل أن يمس الأرض وأبقيته هكذا معلقاً حتى يتسنى له النهوض...

في الماضي كان في بيتي كل شيء. ولا أذكر أن امرأتي طلبت مني مالاً قط. أنا الذي كنت أبادر إلى سؤالها عما تحتاج إليه، وأعطيها دائماً أكثر مما تحتاج إليه.

وأما الآن فصرت، بعد تطوا في السادر طوال النهار، أعود إلى البيت جائعاً مفلساً. ولكن الطعام الوافر الجيد لم ينقطع. مرة قالت زوجتي في صوت حزين: - أتعرف من أين جئت بالمال؟

قلت:

- لا.

قالت:

- بعت الاسورة الزرد.

مرة أخرى أخذت المبادرة أنا. بعت سجادة عجمية كانت لها عند زوجتي مقام عزيز لأنها هدية أبيها يوم عرسنا. لم تقل شيئاً ولكنها ظلت مظلمة سحابة النهار. قلت لها وأنا أدافع فوراناً طاغياً أحسسته يرتفع إلى حلقومي:

- ولماذا لا نبيعها؟ أتظنينها بساط الريح؟

دخلت في يوم آخر عليها. كانت عندها إحدى الجارات. لما انصرفت الجارة قالت لي في هدوء:

- جارنا اللّه لا يجعلنا من الحاسدين ربح في الأسبوع الماضي من صفقتين ثلاث، عشرة آلاف.

لست أدري لماذا عجزت عن إمساك لساني. قلت:

- اطمئني. عندما يتحقق لي الاندماج بالقوة الخفية سأوقف حركة ربحه لأنه لص. أنا أعرفه.

خيل إلي أني رأيت إلى حدقتيها تتسعان.

- هل أنت ساخن بعيد الشر؟

وقلق جيراني من أهل السوق. يظهر أن زوجتي حكت لنسائهم. في ليلة من الليالي جاءني أبو عبد الرحمن وهو كهل، وجهه مضيء، ديِّن اشتهرت عنه الأمانة. قالوا إن كثيراً من الأرامل يودعن عنده الودائع. تجيئه احداهن بصرة فيها عثمانيات ذهبية، فيفتح لها صندوقه الحديدي ويقول لها: «ضعي صرتك هنا»، ويكتب على الصرة اسمها. لو غابت عشرين سنة وعادت تسأل عن صرتها لوجدتها في مطرحها قال لائماً:

- ماذا يا ماهر، هل أصبت بخسارة؟

كان ممتلئاً، أزهر الوجه، حسن التغذية، يضع طربوشاً يميل ميلاً خفيفاً إلى اليمين كما كان الزي تلك الأيام. لفتت نظري الشرابة: كانت تنوس كلما حرك رأسه... وعاد يقول:

- أنا أخوك الأكبر يا ماهر. قل لي. لا تكتم عني شيئاً. الناس للناس يا بني. إذا كنت في حاجة إلى رأس مال فما عليك إلا أن تقولها. الدنيا يا بني يسر وعسر. عيِّن المبلغ الذي يقوم تجارتك... أنت إنسان أمين، وخسارة أن تفلس.

ابتسمت وغمغمت بكلام أردت أن أفهمه به أن تجارته، رصيده في المصرف، سوقه، أمانته كلها لا تسوى عندي بصيص ضوء شحيحاً يرشح لي من مملكة المطلق لحيظة واحدة.

المسكين! أين أنا وأين هو؟

بعد أيام رأيت زوجتي تضب أغراضها. طفقت أراقبها في الصمت. لم تكن تلتفت إلي. لم أر الولد أيضاً. لما فرغت وفرغ البيت، واستحال إلى بالتين وبضع حقائب التفتت إلي:

- لا أظنك عاتباً علي.

من أدخل في ذهنها هذا الأمر؟ قالت:

- أنا مسافرة عند أهلي.

تركت البيت واتجهت ماشياً إلى القدس. بعد استراحة قصيرة ذهبت إلى عمان، إلى بيت أبي الضابط المتقاعد في الجيش الأردني كان هذا عام ١٩٤٤ أو ١٩٤٥ عدت لا أذكر جيداً.

استقبلتني أمي استقبالاً مزيجاً من الفرح والدهشة، فقلت في نفسي: «إذا أنا فاتحتها أو هششت لها ركبتني بالأسئلة..» ولذلك تركتها في الصوفة ودخلت غرفتي وأوصدت الباب ورائي..

في المساء حملت لي أختي الطعام. أكلت قليلاً وخرجت إلى الصوفة. لم يزعجني أحد بسؤال. أبي وحده قال لي:

- كيف حال ابنك؟

- لا أدري.

عاد الصمت قال أخيراً:

- هل تريد دخول الجيش الأردني؟

- كما تشاء.

ودخلت الجيش نجاراً. وكلمت نفسي قائلاً: «اسمع يا ماهر، أيها النجار في الجيش. أمامك منذ الآن عمل يدوي يستغرق ست ساعات، سبع ساعات في اليوم. هذا العمل لا يشغل إلا يديك. معنى هذا أنه لا يعيقك عن متابعة مشكلتك».

وسأله موفق في براءة:

- ما هي مشكلتك في ذلك الوقت؟

قال ماهر في دهشة:

- ألم قل؟

- لا ، أنت رويت المقدمات فقط.

- يعني؟

- توصلت إلى الايمان بأن اللّه موجود، ولم تقل لنا كيف، وأننا جزء منه.

- طيب، أنا قلت إن اللّه حينما يخلق الخلق يجعل في الانسان جزءاً يسيراً من روحه والجزء الأكبر من المواد المتحولة.. وأما ذلك الانسان الآخر فيضع فيه جزءاً أكبر من روحه والباقي -الأقل- من المواد المتحولة... فاذا كنت ممن غلب الجزء الإلهي فيه الجزء المتحول، فأنت حامل صليب تنوء بحمله الجبال الراسيات، صليب من الحنين إلى الكل لا يقاوم ولما كنت أنا والمسيح وبوذا.. إنما نتكون، في أكثر يتنا، من الجزء الإلهي فما علينا إلا أن ننفض عنا الجزء المتحول فاذا نحن والكل في واحد... لا تقل لي، أرجوك، هذه صوفية، وكيت وكيت، وابن الفارض سبقني والحلاج لم يسبقني. الغالبية العظمى من المتصوفة كسالى، أو اذا أردت أن أكون أكثر تهذيبا قلت إنهم منفعلون، ذوو شطحات. الدليل على ذلك أن قصاراهم، إذا هم بلغوا مرتبة الرؤية العيانية كما يقولون أن ينبسطوا أن ينجذبو، وتنطلق أساريرهم ويهتفوا وهم في غيبوبة: «نحن سعداء. عاينا اللّه!» أي، وبعد هذه الرؤية؟ ماذا أفاد المصور ديكران الذي ينام تحت الدرج في الرؤية؟ ماذا أفاد المصور ديكران الذي ينام تحت الدرج في البناية التي أسكن أنا جحرها أعني قبوها؟ إن ديكران رأى أمه وأباه وأخوته يذبحون، مثلما تذبح الديوك الهندية في أعياد الميلاد، أمام عينيه. وأما هو فقد أبقى عليه الجزارون لأنهم ملوا فاختبأ واستطاع أن يهرب... وهو الآن يعمل بنصف ليرة أو ليرة، ويعطيه الأجاويد من أهل الحارة ربع ليرة، نصف ليرة. يسكر بها جميعاً طوال النهار وينام تحت ذلك الدرج. أرذل عرق. أرذل حاضر. أرذل ذكريات. أرذل

منام. أرذل مستقبل... ما عسى أن ينفع المتصوفة ديكران؟ ماذا صنعوا له؟!.. وفلسطين التي جاءها أغراب متسلحون بأعتق حقد في التاريخ؛ فأخرجوا أهلها من ديارهم، وذبحوا أطفالها وشيوخها، وادعوا أنهم إنما عادوا إلى بلادهم التي وعدهم بها اللّه؟ والجزائر التي قتل فيها المستعمرون الفرنسيون مليونا ونصف المليون؟ والفييتنام التي أبيدت فيها قرى على بكرة أبيها وأحرقت بالقنابل المحرقة؟.

اللّه ونحن في واحد؟ ولكن بضعة منا تجلد، تشرد، تجزر، ونحن ننظر إلى ذلك نظرة البقرة إلى قطار يمرق، لأننا لا نريد أن نفرط بالنشوة المسرة التي أفاءها علينا الكشف!!

لا يا سيدي، أرجوك. أنا لست فقير انبساط ولا شحاذ تهلل مثل تهلل المجانين. أنا انسان وأحب الناس. غايتي النهائية أن أتحد وباعث القوة الخفية حتى أعيد تنظيم الكون، حتى أجعل الناس كلهم في جذل، في هناءة مقيمة ونضرة ونعيم..

«أنت! (ماهر لا ينظر إلى أحد. إنه يتجه نحو النافذة - ونحن في الطابق الثالث - ولكن صوته يغدو رؤوما) أنت يا عابر السبيل، أيها الحبيب يسير في الشارع ورأسك إلى الأرض. أتخال أني أجهل مابك، أنا سيد القوة الخفية، صانعة الحركة. إن أفكارك هي أيضاً حركة؛ إذن فأعنتها بين يدي! أنت تفكر أن في مفاصلك رثية وفي عينيك ضعفاً. وداعبتك امرأتك أمس فما هششت لها ولا بششت... انك خائف من الموت. أي سيدي لاتخف. أنا أوقفت عزرائيل على بابك ولن تموت قبل أن تشبع من هذه الدنيا. سأوقف زحف العلل على جسدك. سأسمر مسير الأمراض فيك... وهكذا تتبرج الدنيا لك جميلة، طرية مثل بنت أربع عشرة، الناس فيها كلهم راضون، مغتبطون. موسيقى. فن. جمال. عدالة... ماشئت.

كنت أعمل في النجارة بيدي. وما أن تنتهي الساعات السبع حتى أعود إلى غرفتي، وأوصد الباب على نفسي. الطعام تقدمه الي أختي في صمت وتنسحب بعد تقديمه وتتركني لأفكاري.. كنت أشعر أني أقترب من اللّه.

تلك السنة بدأ الفصل بأمطار غزيرة. أنتم تعرفون عمان؟

- لا.

قال عبد السميع:

- أنا أعرفهما.

قال ماهر:

- هذه بلدة متعمشقة على بضع تلال، مثل المهاجرين والشيخ محي الدين والأكراد فإذا هطلت الأمطار انحدرت مسيلات من الأعالي تعيق السير في بعض المواضع فأضطر أن أستبدل بطريقي المعتادة طريقاً أخرى مما يطيل أمد عودتي إلى البيت، أي إلى متابعة رحيلي إلى اللّه.. فلما أنست من نفسي القرب من السيطرة على القوة الخفية همست وأنا أدور حول المسيل: «لا مطر بعد اليوم!»... وإذا الغمر ينقطع كأن حباله قد بترتها مقصات.. أقسم أني لم أشأ إيقاع الضرر بأحد. ولكنَّها تجربة لإمكاناتي، لمدى اتحادي.. وفهمت أني، بعد أن طال بسط ذراعي بالوصيد، دخلت الحرم المقدس. وقائع كثيرة برهنت لي على ذلك. ألطف هذه أني، أثناء إحدى جولاتي في الحقول، سمعت الناس يستغيثون. أينما أمش تطلع علي المناظر المؤسية. الجفاف في كل مكان. كان الزراع يبدون كأنهم يسألونني أن أغيثهم. تمزق قلبي، وهتفت: « فلأتحمل مشقة الدوران حول كل مسيل. المطر مدرار هذه السنة!».. أساساً التجربة نجحت ، فعلام أتابع الجفاف؟

إذن أنا في حرم المطلق أو أكاد. أنا أطرق الباب إذا شئت. كنت قد أخذت. وجدت طريقي ولن أحيد عنه أبداً. استغرقني البحث. هنا تذكرت كلمة زوجتي ذلك اليوم: «هل أنت ساخن؟» ومثلها كثير يهمسها على الطالع والنازل من هم حولي. ففكرت على النحو التالي: «أنت الآن يا ماهر تسير على الصراط (الذي هو أرفع من الشعرة وأحد من السيف) الفاصل بين العقل والجنون، فلتسن لنفسك قواعد تجنبك الانزلاق في الهاوية».. أجل، كنت أشعر - كأنها رؤية واضحة - أني على التخوم الفاصلة بين ما هو واقع وما هو توهم ، بين حدود المعقول واللا معقول...

هذا الكلام يظل مطلقاً، مجرداً إذا أنا لم أقر به بمثال. تصور أبعد مايطيقه الخيال في رحلته نحو المطلق، سواء كان هذا المطلق كونياً أو

انسانياً أو بحثاً في حقيقة شيء بحد ذاته (حقيقة الذرة أو الكهرباء مثلا). فأنت تحس، إذا حاولت أن تطلق خيالك في هذه اللانهايات التي تفوق كل تصور، أن ذهنك في لحظة ما يصطدم بجدار أصم لا يخترق، كتيم ليس له مسام. ويأبى عليه تكبره أن يلقى السلاح. إنه يتابع القرع، ويحاول النفوذ فلا يستطيع، ولكنه يحاول ويحاول، وينتحب انتحابا هادئاً حيناً، مزبداً مرعداً حيناً آخر.. فاذا صادف أن توهم النفوذ إلى ما وراء الأسوار فمعنى هذا أننا فقدناه، أن قدمه انزلقت عن الصراط، وأنه هوى في هوة الضياع والعدم التي يسميها الناس الجنون.

القضية إذن قضية صون العقل أن ينهض بما لا يطيق. أنت.. عقلك لا يطيق أن يذهب إلى أبعد من جسد زوجك الشهية وتمشية الحال في عملك الذي يؤمن لك خبز العيال. واذا كنت ذا خيال شارد يشط مزاره ففي أحسن الحالات يجمع بك خيالك فتتصور نفسك صاحب سيارة وعندك خادم.. هذه هي حدودك. فاذا حاول خيالك المحدود أن يتأمل نظرية الحكم أو قضية العدالة فانه لا يلبث أن يؤدي بك إلى جدار أصم تتخيل نفسك أجزته في حين أنك لم تتخط غير الباب الذي يحجز مملكة التعقل - تعقلك - عن مملكة الجنون ...

صاحبة الحانة في ملحمة غلغامش ظنَّت غلغامش من هذا القماش المتداول لما كان ذاهباً يقصد أتو - نبشتم في طلب سر الخلود، فنصحته أن يكون فرحا في كل يوم من أيام حياته، وأن يرقص ويلعب ليل نهار، وأن يجعل ثيابه نظيفة، ويغسل رأسه ويستحم في الماء ويدلل الصغير الذي يمسك بيده، ويفرح الزوجة التي بين أحضانه... تماما مثلما نصح سليمان في سفر الجامعة (ألفت نظركم إلى ما قلته في البداية عن التوراة!) حينما قال: «... فمدحت الفرح لأنه ليس للانسان خير تحت الشمس إلا أن يأكل ويشرب ويفرح. هذا ما يبقى له في تعبه مدة أيام حياته التي يعطيه اللّه اياها تحت الشمس»!. وتماما مثلما قال سليمان نفسه في السفر نفسه: «... فلتكن ثيابك في كل حين بيضاء ولا يعوز رأسك الدهن. التذ عيشاً مع المرأة التي أحببتها كل أيام حياة باطلك التي أعطاك اللّه اياها تحت الشمس، كل أيام باطلك لأن ذلك نصيبك في الحياة وفي تعبك الذي تتعبه تحت الشمس»!

ههنا تبرز مشكلة العقل وتوجب علينا أن نضعها على المشرحة من غير جمجمة أو نفاق. والمسألة تطرح على هذا الشكل: هل العقل وسيلة المعرفة الوحيدة التي لا وسيلة سواها؟ حذار أن تغرقني في لجج نظريات العقليين والحيويين، أن تستشهد لي بديكارت وكانت وسبنيوزا وليبنتز وبرغسون.. لا تعقد لنا أمورا في قلوبنا من تعقيدها ألف آهة، وفي حلوقنا ألف غصة. حاول -عوضا عن ذلك - أن تعود بنا إلى الصفاء، إلى البساطة، إلى التفكير الحسابي. كيف استطاع بعض الفلاسفة اليونان أن يقرروا كثيراً من الحقائق التي أنفقت الإنسانية جهوداً مضنية، طوال ألفي سنة، حتى توصلت إليها؟ حقائق ما بلغناها إلا بعد مسيرة طويلة بطيئة من تجارب ومكتشفات. لقد كان القمر عند الاغريق، وكل الخلق، أنيس العشاق، سراج الليالي القمراء، إلى آخره... ولكن أناكساغورس عرف، قبل المسيح بخمسمئة سنة أن طبيعة القمر شبيهة بطبيعة الأرض وأن على سطحه سهولاً وأخاديد، وأنه يستمد ضوءه من الشمس. وقد علل أوجهه وخسوفه تعليلاً معقولاً على أساس هذه النظرة النافذة، وعلى وجه لا يختلف اختلافاً كبيراً، من حيث المبدأ، حتى من حيث التفاصيل، عما نأخذ به اليوم.

لا تبن على هذه الحبة، المقدمة - الحبة، قبة من الاستنتاجات. استمع لي إلى حديث هذه الشطحة المعجزة وقرر معي فقط أن للروح - وأنا أعني وسيلة المعرفة في الإنسان، أو إذا شئت مجموعة قواه الداخلية - في بعض الأحيان وعند بعض الأشخاص قدرة على القفز على نحو لا يقدر عليه العقل وحده. إنه في حاجة إلى البصيرة، البصيرة التي أتاحت لأناكساغو راس أن يستشف حقيقة القمر من غير سلاح من عدة أو جهاز رحوي أو مراقب راديوي أو مجهر كهربي أو مطياف مصور، إلى آخره...

هذه هي الركيزة الوحيدة التي أقمت عليها منذ البداية دعائم تفكيري حتى أجنب الانزلاق في هاوية الجنون. اسمحوا لي أن ألخصها: عد إلى البساطة. لا تقطع حبالك مع الواقع بعدئذ انطلق في أفلاكه اللا نهائية.

ولكن، إذا أنا استطعت أن أعبر الآن عن ركائز فكري القبلية بمثل هذا اليسر فلم يكن توصلي إليها هيناً ولا ميسوراً، وحفاظي عليها لم يكن دائماً

خلوا من الشراك والمخاطر والأشواك ذلك أن عظم المهمة التي اضطلعت بها كان كثيراً ما يقطع حبالي مع الواقع وينأى بي عن التفكير الحسابي الذي أخذت نفسي به، وأراني أياما، قل أسابيع وشهورا، معلقا بين السماء والأرض. أية سماء وأية أرض! سماء الخنفساء وأرضها...

أظن أن مأساتي بدأت في احدى فترات « التعلق» هذه. في البدء كنت أضع أهدافا قريبة: مثلا ما هو المطلق؟ أطرح السؤال، الهدف، وأطلق من بعد كلاب فكري عليه... رباه! كان له ألف طريق، مليار طريق، مجرة من طرق، أكثرها من صنع التيه الذي لا يؤدي إلى مخرج أبدا...

أقول: في احدى فترات التعليق هذه بدأت ملحمتي الرهيبة مع الشياطين. «ملحمة»، «رهيبة»... يالقصور الكلمات في بعض الأحيان! قد تضحكون مني. ربما قلتم: « بدأ يتكلم طالعا نازلا»... وأنا أعلم أنكم مثقفون عصريون لا تؤمنون إلا بما ترونه رأي العين، أو في الأقل ماتدركونه. وقد أسارع إلى ارضائكم فأسمي شياطيني «القوى الشريرة»، أو أي اسم «معقول» آخر. ولكنني أستميحكم العذر إذا أنا ألححت على كلمة «شياطين». وستعلمون بعد قليل لماذا.

حدث ذلك بينا أنا متمدد على السرير، ضوء النهار يأتيني عن شمالي، أقرأ في الجزء الأول من كتاب «على هامش السيرة» لطه حسين. أسلوب طه حسين يشبه التأليف الموسيقي. إن فيه مايشبه الجملة الموسيقية في الحركة السيمفونية. كلام ظريف، أسلوب سهل ممتع كما يقولون، أسلمني إلى نوع من الهناءة الكسلانة. فكر خال تماما من المشكلة، ما فيه الا الرغبة في الاستمتاع والانسياب مع الكلمة العذبة... واذا أنا أسمع في وضوح أتم صوتا يشبه نشيش المقلاة. نحيت الكتاب جانبا وجعلت أتلفت. لم أكن واثقا من الجهة التي صدر منها الصوت. ولكن لم يكن ثمة غير الصمت... وقفت أمام السرير، ظهري اليه، وأخذت أقعد عليه في بطء وأنا ما أزال أتلفت حاد الانتباه الى كل نأمة.

لاشيء.

قلت في نفسي: « هذا توهم».. ومددت يدي إلى الكتاب مرة أخرى. لم أكد أعود إلى السطر الذي تركته حتى سمعت قهقهة قريبة قريبة جداً مني، تكاد تكون في جمجمتي... وسرعان ما ارتفعت دردبة طبل وهدير آليات، وقرقعة حشد من الجنود وأوامر يصدرها رقباء... كل ذلك قرارته ظلت تلك القهقهة المخيفة، الرهيبة، اللاانسانية...

قمت كالمجنون أنظر إلى الشارع: لا شيء. بياع البسبوسة يكش الذباب عن صينيته، ولد ينوس على مقعد دراجة وهو يبتعد، غسيل على شرفة تحركه الريح ، بضع غمامات في الأفق كأنها قلعة على رأس الجبل...

إذن لم تكن الركيزة التي أرسيتها لنفسك صلدة، منيعة كما ظنـــنت.. يا لتعسك يا ماهر القاضي.. هأنتذا، على الرغم من كل ما اتخذته من تدابير وقائية تقف على شفا جرف هار من جنون. إن قاعدتك أن تعود إلى البساطة، إلى التفكير الحسابي، إلى أن تتجنب، مهما يشط بك الشطح، قطع حبالك مع الواقع... وها هو ذا الواقع، الواقع الذي تسمعه بأذنيك وروحك جميعا يندفق عليك بقرع طبول وقهقهات شيطانية وهديد آليات...

وأخذت رأسي بين يدي وأكببت على الوسادة وأنا في حال من الوحشة والرعب.. وبينا أنا كذلك أراني، على نحو لا مجال معه إلى ذرة من ريب، متفرجا على مشهد قطع شكي باليقين كان كل شيء باهر الوضوح كأني كنت في أوركستر صالة مسرح.

المكان قاعة شاسعة من قاعات جهنم. الحيطان من لهيب. النوافذ من لهيب. الأرض من غسلين. في الصدر ما يشبه مسرحا تربع فيه ابليس الأكبر، ذلك الذي أبى أن يسجد لآدم يوم خلق اللّه هذا الأخير من طين الأرض. ابليس يجلس على عرش ضفر، مثلما يضفر الخيزران، من الأفاعي الهائلة، من تلك الهولات التي تجاوزت الألف سنة عمراً ولم يقتلها أحد فتدلت من السماء سلاسل حديدية وكلاليب فولاذية ورفعتها إليها لتكون أدوات تعذيب ونكال في جهنم. وأما مساند العرش فمن قرون زعماء قبائل الشياطين العصاة. قد ترى جماجم تطل من هذا الركن من العرش أو ذاك كأنها نحت

نافر. المكان يموج بعزيف مروع يجتمع أحياناً في كورال شيطاني يقبض القلب ويكظ الذهن بزحام من التهاويل المرعبة. عند قدمي العرش وزير الميمنة، وهو شيطان طاعن في السن، أدرد، في حركاته وناء وغفلة يضع نظارتين من ذوات الأهلة للقريب والبعيد. عن يسارالعرش وزير الميسرة، ممثل الجناح المتطرف في المملكة. إنه شاب قوي القرنين، قلق الذنب، عيناه تغزلان في ذكاء. إبليس الأكبر مشغول الفكر يوجه كلامه إلى وزير ميمنته.

- ألم يعد « شيطان» بعد يا وزير الميمنة؟

- لا، بعد يا مولاي.

- ما الذي أخّره؟

- الغائب عذره معه يا سيدي.

أثناء هذا الحوار كان وزير الميسرة الفتي لا يكاد يستقر في مجلسه من تحرق للكلام. أخيراً قال:

- هل يسمح لي مولاي بالكلام؟

- تكلم ..

- أكاد أفقع. ما حجة وزير الميمنة في الصبر على ماهر القاضي كل هذا الوقت، وهو الموكل بالتحقيق في مثل هذه الشؤون؟

- أجبه يا وزير الميمنة.

قال وزير الميمنة الشيخ محتجاً هادئاً:

- علمتني الأيام يا مولاي أن غرور هؤلاء لا يلبث أن يتحطم تحطم المصباح الكهربائي إذا وقع على البلاط.

قال الوزير الفتي محتجاً:

- ولكنك تعلم أن النوم على الآمال أمر خطير، أن تحضر ماء بارداً وتضع فيه يديك ورجليك معتمداً على هلاك الخصم من نفسه لنفسه إنما هو موقف مناقض للتفكير العلمي القائم على النظرة المستقبلية.

قال الوزير الشيخ بين لحمه وثيابه وفي طيف ابتسامة ساخرة:

- ما أشد ولعكم أيها الشبان بالكليشات!

قال ابليس موجها الخطاب إلى الفتى:

- وما الحل في رأيك؟

- الحل الجذري. أرسل شرطة من رجالك الغلاظ الشداد تأتي به والحديد في يديه ورجليه.

قال الشيخ:

- أنا لا أوافق.

- عدت يا مولاي لا أستطيع صبراً. دولة يسيطر عليها التفكير السلفي، عدت لا أصلح لها ولا تصلح لي. عدت لا أستطيع هضم هذا التناقض بين فوقيات المملكة المهترئة وتحتياتها الصاعدة البكر...

وزلق الشيخ:

- كليشات...

فلم يعره الفتى اهتماماً . استمر يقول:

- أنا أومن بموجة الأعماق. أومن بالطوفان يحلق كل قديم نخره السوس حلقاً.

والتفت إلى ابليس الأكبر:

- أجل، يامولاي، عدت لا أستطيع صبراً. أعدني أرجوك إلى عملي السابق عاملا اختصاصيا، بسيطا، منسيا في «مصنع الأوهام»، ذاك الذي سحبت منه، وأعفني من منصب الوزارة...

قال ابليس باسما:

- لا تغضب، لا تغضب. قل لنا ماذا يزعجك ؟ ماذا تقترح؟

- ماذا أقترح! تصور أن ماهر القاضي يكاد يعلو على إنسانيته، ونحن لا نحرك ساكناً. أنا متأكد من أنه سيسبب لنا مشكلات ومتاعب تبدأ ولا

تنتهي.. إن « تحدينا الكبير» البدئي كله على كف... ملاك... إذ ما عسى أن يحدث لو أن عشرة من مثل هذا الإنسان استطاعوا أن يبلغوا الهدف الذي يوشك أن يصل إليه في التحكم بمصائر الكون. أما آن لنا أن نفتح أعيننا؟ أما جاءتنا النذر؟!...

قال إبليس وقرناه يتحركان من تفكير وتثني جبهة:

- وما هو موقف الدوائر الإلهية ذاتها من هذا التحليق؟

- إنها، يقينا، تحبذه. إنسان يتوقَّل دائبًا مراقي التمام. جزء يغذ التحليق نحو الكل أنت تفهم!

- ورأيك؟

- ننتظر عودة شييطان من فرقة المراسلة الإبليسية حاملاً إلينا إيضاحات أنا ألححت في طلبها حول هذه الناحية: هل تسرب ماهر القاضي إلى مملكة المطلق أو أنه ما يزال بالوصيد؟

- أنتم، حتى الآن، لم تتحققوا من هذه المسألة؟

قال الفتى مبتهجا وهو ينظر إلى زميله الشيخ نظرات ذات مغزى:

- هذا لأن الشرطة السرية ناشطة على الداخل فقط، علينا نحن لا على العدو. هذا لأن الشرطة السريَّة ما زالت بين يدي بعض الزملاء الذين لا يفهمون دور مملكتنا الحاسم في دوران هذا الكون. الشرطة السرية يجب أن تكون أشد فعالية. أساساً كيف استطاع ماهر القاضي أن يفلت من بين أيدينا؟ نحن نعلم، ونقبل، أن للّه من الإنسان شطرًا وان لنا نحن شطراً أخر. في أبسط الأحوال يتوازن ما يسمى الهيا وما يسمى شيطانيا في الإنسان، فيكون هذا في هذه الحال حيادياً. هذا إذًا كان سعينا روتينياً ولم يصنع أكثر من الهيمنة على نصيبنا فقط. وأما إذًا بلغ بنا التواكل أن نهمل العناية حتى بشطرنا نحن فأن التحليق لا بد واقع ومعه النفوذ إلى الأسرار وما لست أدري من كوارث.. مع أن المفروض في دولة شيطانية أن لا تقنع بما بين يديها بل تطمح إلى زيادة توسعها وغزو أراض جديدة غير تلك التي حصلت عليها.

نحن إما شياطين أصحاب مهمة تاريخية قديمة أو مخلوقات تشبه أن تكون أرقاما تعيش لأنها لا تعلم ما عساها أن تفعل أكثر من أدنى المعيشة...

خيم صمت ثقيل بعد أن سحب الوزير الفتي سحبته هذه.. ألسنة النار التي تتراقص من الجدران وأعرافها الشاهقة لاذت هي نفسها بالهمس. وتغيرت سحنة إبليس: بدا كأنه كبر مئة ألف سنة أخروية دفعة واحدة. ودام الصمت لحظات قطعه صوت جهوري دوى في المدخل معلناً وصول «شيطان» من فرقة المراسلة الإبليسية. وسرعان ما أدخل على إبليس الذي استجوب على عجل...

كانت مخاوف الوزير الفتى في محلها: ماهر يوشك أن يحيل التحدي الإبليسي القديم إلى أضحوكة.

وأطرق إبليس ساعة ثم رفع قرنيه ثم رأسه، وأصدر الأمر اليومي التالي:

«في انتظار إرساء قواعد خطة باترة تمنع، على المدى البعيد، تكرر مثل هذه الظاهرة يتخذ التدبير الوقائي الفردي الآتي: ضيقوا الخناق على البشري ماهر القاضي. سدوا عليه السبل. تغلغلوا في دمه. العبوا برأسه مثل الطابة. اجعلوا في أذنيه أصواتا مرعبة وأمام عينيه أشباحا تقهقه، تتثنى، تمد يدها ولكنها لا تقبضه إلا على الفراغ. اظهروا له...».

كان الدوام قد انتهى منذ أمد، ودخل الآذن يحمل سلتي المهملات إلى الممر. اقترحت:

- نذهب فنتغدى معا في مكان تختارونه.

قال عبد السميع في سخرية خفيفة:

- تدعونا؟

- أدعوكم.

- هل أنت مكلف أيضًا من سيادة الوزير؟

- المسألة بسيطة. المهم أن لا نقطع على السيد ماهر تسلسل أفكاره.

واقترح موفق: - نذهب إلى قهوة أبي شفيق في الربوة. هذه تزدحم في أيام الجمع والأعياد وحسب.

وافقنا. قال ماهر:

- أنا لا آكل.قلت:

- كما تشاء، ولكنك تذهب، ألا تذهب؟

كدت أقولها متوسلاً.

طوال الطريق لم يفتح ماهر فمه.

في القهوة اهتم موفق وعبد السميع للطعام. أوصينا على لحم مشوي. وعاد ماهر إلى الحديث:

- أين كنا؟

- في اجتماع الشياطين.

- أي نعم. بعد تلك الرؤية الواضحة وضوح وجوهكم أنتم ذاتها الآن، وضوح هذا النهر، تلك البطَّات التي تنزلق على الماء الموحل هناك... بدأت العذابات الواضحة للظهور. لو لم أكن أقسى من الفولاذ وأصلب من الغرانيت لانسحقت ونبتت الحشائش على روحي وجسدي جميعاً من دهر داهر. كنت أمد يدي إلى الطعام الشهي منظراً ومذاقاً صنعته الأم بيديها المحبتين المشفقتين، وأتناول اللقمة وإذا هي تبدو لي في وضوح مروّع، وضوح مجهري، لقمة ممضوغة عليها لعاب ضارب إلى الصفرة مثل سم الأفاعي... وأرفع يدي عن الطعام. وأفتح النوافذ في الشتاء القارس ولكن رائحة عفنة مقززة لا توصف تملأ فتحتي أنفي وتعشعش في دماغي... أي عذاب لم أذقه! مرة كنت أنشر جذعاً وإذا منشاري يشتغل في جمجمة طفل أشقر لا يزال زغب الرحم على جبينه. صحت. لطمت وجهي. نفضت رأسي بقوة وإذا أنا مرة أخرى أمام الجذع الضخم بينا خفق نعال شيطانية كأنها تهرب من المشغل وقهقهة داعرة متشفية تلطمني بيد من فولاذ!

كان الزمان قد تغير طعمه في فمي. رب ثانية أو جزيء من ثانية تعدل ألف سنة مما تعدون. كان واضحا أني في سباق مع الشياطين: إذا استطعت

أن أتَّحد باللّه وأسيطر على السر الخفي للحركة الكونية فقد غدوت في مقام موصد من دون النفوذ الإبليسي. أنا في حاجة إلى بصيرتي كلِّها، إلى قواي الغيبية جميعها. والشياطين تشدني إلى دياجير الجنون. في كثير من الأحيان كنت أقف على حفاف الانهيار، التسليم: «دع كل شيء يا رجل: وخلّ عليك عقلك. عد عاديا. دلل طفلك، وأفرح الزوجة التي بين أحضانك...» ولكن هيهات! كنت أقاتل قتال المستميت، بكل أسلحتي، وأجاهد لأزداد تشبثا بصراطي. كنت أعود إلى قواعدي الأساسية كل آن: أكون في غمرات لعبة، امتحان شيطاني، فأركض إلى كرسي وأتلمسه وأنا أقول في نفسي: «هذا كرسي. انظر. إن له ظهرًا وخيزراناً وبراغي». وهذه، أليست منضدة عليها «اعترافات ليف تولستوي» وأوراق سودتها البارحة بعد منتصف الليل؟ ومن السقف أليست تتدلى تلك الثريا من الكريستال سبق أن أهدتها الهام بنت حميّ هدية لمناسبة ولادة ابني طاهر، أهدتها في حيفا وأرسلتها أنت إلى عمان في سورة زهوك بـــأهل امرأتك؟ وأنت أليس اسمك ماهر واسم أبيك طاهر محمد القاضي، وقد كنت في فلسطين؟!..» وتصبر عليّ الشياطين حتى أركِّز نفسي تماماً ويبدأ نوع من الطمأنينة ينداح في قلبي.. وإذا أنا بالقهقهة الأثمة تندلق علي من كل مكان، مجعجعة، هازئة، متشفية، بغيًّا تصفعني بهذا الأسرار: «هيهات، هيهات! لن تنجو! أنت ماهر القاضي؟ من قال لك؟ لماذا لا تكون امرأة لوط، أو أي إنسان من سدوم وعمورية، ممن حقت عليهم اللعنة... ها، ها؟!... يا لقلة عقلكم، معشر الأنس! إنكم تضربون أيديكم على جيوبكم لتخرجوا هوياتكم كلما دق الكوز بالجرة.. وتعلنون أن أمكم جاءها المخاض يوم كذا ورأيتم النور يوم كذا... ها، ها، ها! مادمتم تعتبرون أنفسكم جزءًا من كل، جزءًا من الإنسان منذ آدم وحتى آخر فرد إنساني يتنفس... فلماذا لا تكون أنت هيرودت أو أنكيدو أو هارون أو ابن نوح السومري؟!»... وإذا هذه السحبة الساخرة نفرض، مرة أخرى، العودة إلى الكرسي، إلى المنضدة، إلى الاسم واليوم والشهر والسنة...

إلى هذه الفترة يعود تدهور صحتي: أمراض رثوية، خفقان في القلب وخلل في ضرباته، عصبية مفرطة...

وكان لا بد لي من الاستقالة من الجيش. تصوروا! أنا الذي يقاس الزمن عندي بجزيئات الثانية أضيع ثلاث سنوات في هذه الحرب الضروس المجانية التي لا فائدة منها، حرب ليست بالعادلة ولا المتكافئة ولا الايجابية!

بلغ الإعياء مني مبلغاً عدت معه لا أطيق كفاحاً، ولا مقدار درهم واحد. وجدتني على أبواب الكفر، أطلق الشتائم وأوجه عتاباً لا هوادة فيه إلى (العناية) التي تخلت عني: كيف تتركني بين يدي أعدائها، أنا الذي ما أردت إلا وجهها الكريم، ما أردت إلا الاتحاد والسمو بخلقه وكماله.. أجل، جدّفت، أطلقت كلمات فظة، وعدة مرات لا تحصى إلى قواعدي الحسابية البسيطة، إلى الكرسي والمنضدة والسجف..

ذات يوم عادني السلام فجأة، كأنما بلمسة ساحرة ، وجدتني مرة أخرى في سبيل الذي أذعرت عنها كل تلك المدة وشعثت.

ذلك اليوم خرجت من غرفتي إلى الصوفة وأنا أحس أن طوداً من الصوان قد تزحزح عن كاهلي، وابتسمت لأمي التي تهللت على نحو خفي حتى لا تشعرني بما في نفسها أو بما سلف من ماضي.. قلت:

- أنا أعلم أنك مسرورة مغتبطة، أظن أن حالي حسنة يا أم.

- حالك حسنة دائماً يا حبيبي.

قبلتني، كان في وجهها معان لا توصف من حنان وفرح، أنت تعلم، وحيدها، وأختي وأبي، ما أكبر قلبهما! انتبهت للمرة الأولى في حياتي إلى أن أبي شيخ كبير، وأن حِدته التي أثرت عنه قد تولت، ولعل حالي الماضي، أنا ابنه الوحيد، قد أوهنت من جلده، فغدا صوته رقيقاً شديد الإيناس، وأما أختي فهي عالم قائم بذاته، أختي لم تتزوج فانصبت محبتها عليّ، أشفقت من محبتها أنا الإنسان لم أحرم من الحب أو الولد كيف استطعت أن لا أكون مصدر سعادة لهؤلاء الأحباء؟

هأنذا مرة أخرى في عالم الأحياء، آت من العالم السفلي، هأنذا أعود إلى الدنيا التي لا يستطيع الأحياء أن يقبلوك فيها إلا إذا كنت من جنسهم لك

مدار مثل مداراتهم التي قُطروا إليها معمشة أعينهم.. كل شيء حسن ما دمت في مدار تدليل الولد وإدخال الفرح على قلب الزوجة وقتل الأربع والعشرين ساعة في اليوم اهتماماً بأشيائك الصغيرة وأشيائهم.. ياللصغر!

منذ اليوم الثاني عادت الحياة إلى البيت وأفواه ساكنيه، نشطت ضروب من الحوار الحار، اقترحت أمي تزويجي، وأخرج أبي طقمه الأسود ولبس قميصاً له قبة منشاة، ووصلت سلسلة الساعة بين جيبي الصدرية على نحو موقر، وانشكل دبوس براق بين ربطة العنق فوق فتحة الصدرية مباشرة، وانتُعل حذاء مما كان يسمى (غلاسية لماع)، آخر زي بكعب عال وصرير عند كل نقلة قدم، وتوجت هذه الأناقة كلها العصا ذات المقبض الفضي على هيئة رأس صقر غضبان... وفهمت أنه أخذ كل هذه الزينة لأنه كان ماضياً لمواجهة أناس كبار (يدهم طائلة) يستطيعون «شكلي» في وظيفة مناسبة، غريب! كان ذلك يجري تحت سمعي وبصري من غير أن أغضب، لو أنهم فعلوا قبل عامين أو عام أو حتى قبل أسبوع لكنت أقمت الدنيا ولم أقعدها: يعرضون على إنسان مثلي ذي قضية كبرى تفاهات مسكينة مثل الزواج والوظيفة؟!

.. وأما الآن فلم أزد على أن أجيب عن اقتراح أمي بابتسامة موقرة هانئة، قلت لها وديعاً:

- ولكني أنا متزوج يا أمي.

-ألم تتركك؟

- ل، ذهبت، فيما أعلم، إلى بيت أهلها موقتا لأني لم أنجح في التجارة.

قال أبي:

- لا تغضب يابني، زوجتك أقامت دعوى تفريق وربحتها.

لم يزعجني النبأ، قلت:

- إذن نعود واحدنا إلى الآخر.

قالت أمي في حدة:

- بعد أن تخلت عنك في أيام نحسك!

انتبهت إلى أن أبي كان يغمزها، قلت:

- ولكن لك منها حفيداً يا أمي.

فصمتت ، لا بد أني مسست وتراً حساساً فيها، قال الأب:

-افعل ما تشاء يابني و أنا شخصياً معك، وأظن أن أمك لا تمانع.

أجل يا سيد ماهر القاضي، يجب أن تعود إلى مسايرة التيار بعد أن أضناك السبح ضده وهزمك، لقد وهبت نفسك لتحقيقه، والناس هكذا خلقوا: يولدون فتولد معهم حاجاتهم، من الرضاع إلى الدواء النقرس، منذ اللحظة التي تشق فيها أولى الأسنان اللبنية اللثة الزهراء الفاتنة حتى اللحظة التي يستوي فيها الوجه والظنبوب في جوف الثرى، أنا أعرف في مصح في لبنان فتى في العشرين مسلولاً في الدور الأخير، أيام كان السل سرطان العصر، كان الفتى على علم بأنه أشفى، أنه هامة اليوم أو غد ، ولكن هذا لم يمنعه أن يدس إلى رفيقاته في جناح النساء رسائل غرامية ملتهبة تحكي عن «العُش»، وتضرب لهن المواعيد إذا أظلم الليل وانقطعت الرجل في غابة المصح ...

وأعرف في المكان نفسه امرأة جاءت تحضر موت أختها التي في الريعان، فلم يشغلها احتضار أختها أو شبح عزرائيل المنذر في الجو: كانت همتها كلها إلى أغراض المحتضرة وصيغتها.

لم يبق إلا القليل حتى تشلحها خاتمها السوليتير قبل أن تلفظ نفسها الأخير.. وأعرف شيخاً كبيراً مات على صدر مومس، وشباناً يسهرون كل يوم في القهوة حتى الثانية أو الثالثة صباحاً لا يصنعون إلا أن يتفرجوا على آخرين يلعبون، وأعرف موظفاً كبيراً جداً يهم بحمل محفظة موظف أعلى منه قليلاً فيمتنع هذا من قبيل الشكل فيطج الأول طلاقاً ثلاثاً ويحمل المحفظة منتصراً، لعله ما وصل إلى رتبته العالية إلا بما حمل من محفظات.. هؤلاء كلهم يستقتلون في سبيل جرك إلى دنياهم ، يحثونك في الصباح والمساء على أن «تدبر راسك»، أن «تضب يدك» حتى يكون لك، أسوة بهم، بيت ملك وأثاث ستيل ووظيفة تصبر فيها وتصابر، تبوس الأيدي وجهاً وقفا حتى تتقدم

في سلمها عشر ليرات كل سنتين.. وأما أن ترى في همومهم الصغيرة التي يقطعون عمرهم في خوض وحلها حتى الركب، همومهم التي تلاحقهم، تحاصرهم حتى في أحلامهم .. إذا غضب الله عليك ورأيت فيها خفضاً للإنسان من مرتبة أحسن التقويم إلى اللوبان النملي، فأنت عدوهم الألد، أعظم اللدد، لَدد يدفعهم أن يتخذوا منك أضحوكة، أن يسموك شاذاً، مجنوناً، ملعوناً.بل لا تستغرب إذا بلغ بهم البغض أن يعلقوك على خشبة لأنك رفضت غثاثتهم وأن يذبحوك، المسيح لم يصلب إلا لأنه قال لهم أنه ابن الله، وعلي بن أبي طالب قتل لتصريحه أن دنياهم هذه لا تسوى عنده عفطة عنز، وقال الحسين بن علي «لا» للظلم فوجد في جسده الشريف مئة طعنة وقطع رأسه وحمل إلى قاتله.. ففيم حملك الصليب ؟ هادن هؤلاء الأقدمون ما تركوا شيئاً إلا قالوه!

وهكذا أذعن صاحب القضية الكبرى السيد ماهر القاضي، سافر إلى دمشق ليسترضي المرأة، كان طبيعياً، يعرف اليوم والشهر والسنة، ويبتسم للنكتة البائخة، ويعقد ربطة عنقه على شكل مثلث متساوي الأضلاع ويصبغ حذاءه في صالون.. ولكن أي قائد مهزوم في ساحة المعركة كان ماهر القاضي ذاك!

كانت زوجتي قد عينت في الهاتف الآلي، ذهبت أقابلها سمنت، وبدت غضون عند عينيها، لم تكن في الماضي تضع أبيض أو أحمر، وأما الآن فقد ذنَّبت الكحل حتى كاد يصل صدغيها، ولم تخف المساحيق غبغباً رخواً يمتد من أسفل ذقنها حتى جوزة حلقها، للمرة الأولى لفت نظري أن فمها يشول في زاويته اليسرى كلما تكلمت كأن به عرة، لا حظت أيضاً أن خضرة عينيها الفاهية قد كمدت، هل صاروا يصبغون بؤبؤ العين؟!

ومع ذلك سألتها أن تعود فلزمت الصمت هنيهة طويلة قبل أن تقول:

- دعني أفكر في الأمر.

كان صوتها أخن بعض الشيء.

شعرت براحة تملأ قلبي، ولكني سمعتني أقول لها في هدوء:

-إذا كنت تترددين لما سبق من حوادث فاعلمي أنها ذهبت ولن تعود.

عادت تخن:

- دعني أفكر في الأمر.

- إذا كان تفكيرك سيطول فاسمحي لي أن أصحب الولد إلى عمان بضعة أيام يزور أهلي ويتعرف ببلد أبيه.

ورأيت الولد، كان داجناً، مطيعاً كالغنمة، أميل إلى الصمت على الرغم من أن سنه كانت سن الحركة - الحركة! - التي لا تهدأ، سن استكشاف الدنيا.

بعد بضعة أيام وافقت أن ترسل الولد معي، وفي هذه الأثناء تفكر في العودة إلي.

عدت إلى عمان بالولد، خلال غيبتي كان أبي قد تدبر أمر عودتي إلى الجيش.

وفكرت على النحوالتالي: (هذه المرة ستجنب نفسك العمل الإنفرادي الذي تكون فيه أنت والخشب والمنشار وحسب، يجب أن تعمل في الجيش العامل، أن تزج نفسك في لجج الناس». وهكذا كان، عينت في فرقة الهندسة نجاراً. ومنذ أيام الأولى أتقنت شغل نفسي: كنت إذا وجدتني بغير عمل في النجارة أحمل الفأس والرفش وأشتغل مع عمال البناء.

البناء عمل طيب، مثمر: تكون البناية فكرة مرسومة على (كالك) فلا تلبث أن تصبح أساساً فعضادات فبنياناً شامخا على شرفاته غسيل منشور، البناية تُبنى طفل في أوج نموه..

أحب الولد البيت وأهله، وحلت عقدة لسانه، مرة كان يمازح عمته:

- أنا أعرف بيتكم ياعمة.

- هذا بيتك ياحبيبي، لا تقل بيتكم، ولكن كيف عرفته وأنت تأتي للمرة الأولى في حياتك؟

- أعرفه.

- كيف؟

- ألست ابن أبي؟

قلت في نفسي وأنا أسمعه: «حلوة تطلع عنده ميول فلسفية مثل أبيه!»

أشد سكان البيت احتفالاً كانت أختي، كانت تتقطر حناناً، حنانها المحبوس كله تفجر واندفق مثل نهر انكسر سدُّه وحينما - بعد بضعة أيام من وصوله - صار يناديها «ماما» كادت تجن، استثمر هوما أثار، فانشط عليها وتدلع ما وسعه الدلع!

بعد حوالي شهرين عاد إلى أمه لأنها طلبته قائلة إن أيام المدرسة قد دنت وهي لا تحب أن تغير له مدرسته.

ومرت ثلاث سنوات ، نحن الآن في أوائل الخمسينات.. كنا، زوجتي وأنا، نتراسل: اقترحت علي آخر الأمر أن آتي إلى دمشق، بلدنا القديم، لعلي أعثر على عمل خير من عملي في الجيش وأكون قريباً من ابني، استقلت مرة أخرى وذهبت إلى دمشق، سكنت في فندق صغير في جوزة الحدبا، واستطاعت زوجتي من طريق معارفها في الهاتف الآلي أن تدبر لي وظيفة موقتة في قسم الدليل، كانت تستقبلني في تحفظ مهذب، ولكنها لا تنتهرني ولا تذكر الماضي، أحياناً كانت تنظر فيّ وتقول متأوهة:

- مافيه شي يدوم.

كنت أشم في كلامها ، لاأدري لماذا؟ ما أسميه طقطقة حنك ليس تحتها إيمان بأن لا شيء يدوم.. حتى هذه البديهة لم تكن تعنيها، أهي بديهة حقاً؟! أنا مثلاً كل شيء عندي دائم.

أنا لا أزال أرى كيف جلست قربي على الاسكي، وكيف ضغطت يدها، أذكر كيف كانت تزحك بأسنانها أثناء النوم، أذكر لما وضعت ابنها في قسم التوليد في المستشفى، كنت أنتظر الخبر في القهوة فتلفنت لي أمها وحملتا لي البشارة. أمها هي التي كلمتني على طريقتها المتفاصحة:

- مبروك يا ماهر.

-بشِّري؟

- ولد مثل البدر إذا أبدر!

من أين عرفت أنه مثل البدر والأولاد المولودون حديثاً كلهم يشبه بعضهم البعض؟

ذهبت إلى المستشفى فرأيتها تئن: وقالت لهاأمها في لهجة انتصار، وملامة ضاحكة: «كذابة الآن ماكان فيك شيء، ألأن ماهر جاء..» والتفتت إلينا - أختي وأنا - وقالت: «دلال ياموا!» .. أذكر أن لها شامة فوق ثديها الأيسر، ناحية الإبط.

أحياناً كانت تتكلم في الفلسفة:« الزجاج إذا انكسر لا ينجبر» ولكني فهمت فيما بعد لماذا كانت تستمهلني في العودة إلي: هذا جُن مرة فمن يضمن لي أن لا يفعلها مرة أخرى.. وإذا فعلها مرة أخرى من يضمن لي أن أجد وظيفة؟

من جهة أخرى كانوا في الهاتف الآلي -في المقاسم بخاصة- لا يستخدمون إلا العزباوات أو المطلقات، وهو تدبير إداري ليس له سند قانوني، حجة الإدارة أن طبيعة العمل في المقاسم لا تسمح بأن يكون للمرأة شاغلان من زواج وتلبية فورية لطلبات الزبائن.

أنا شخصياً لا أومن بأن الإنسان يتغير من أخمص القدمين إلى طرة الرأس هكذا بضربة ساحر مثلما تنسلخ الفراشة من دودة، قد تتغير التفاصيل، تعمق، تتعضى بعض الخطوط الباهتة، ولكن الهيكل العام الذي تخلق في سنوات العمر الأولى يبقى، قد تكون بذور زوجتي، في واقعها الحالي موجودة منذ أن كنا معاً ولكني لم أكن أنتبه إليها.. بيد أن الظواهر تغيرت خلال هذه السنوات العشر التي فرقتنا، في فلسطين كانت بنية دون العشرين، كانت الأمومة جديدة عليها ولذلك لم يكن بيتنا يخلو من إقامة تقيمها أمها أو أمي أو أختي، وأما الآن فهي إمرأة ناضجة حصيفة تعرف مصلحتها وتحسبها، ولكن من أين جاءها هذا الولع بالتزويق المفرط، هذه الكحلة أم الذنب .. القرط الذي ينوس في أذنيها يكاد يمس كتفيها.. القلب الذهبي الكبير الذي في عنقها يرن كأنه جلجل في رقبة غنمة.

الزينة المبالغ فيها عند المرأة تذكرني دائماً بالوحام، المتوحمة تسف التراب أحياناً!

على أية حال أصبحت موظفاً، موظفاً أصولياً له مكتب وكرسي عليه طراحة، يتسلم معاملات بموجب دفتر ذمة، يغدو إلى العمل في الثامنة وخمس دقائق صباحاً ويخرج في الثانية إلا خمسا، يوقع على دفتر شاسع اسمه دفتر الدوام.. ههنا يجب على الداخل أن يهجر كل أمل في آفاق لا تحدها حدود، أن يهجر حتى هناءة التشرد والناس والأفكار.

ما أكبر الفرق بين العمل اليدوي والعمل المكتبي! هنا عالم مرقع تنغل فيه كائنات تعتبر نفسها مفكرة، أدواتها الأقلام والمحابر والأوراق وصناعتها «التفكير»، هذا التفكير ينصب أحياناً على الدوران حول القصد، وعلى النط فوق السطوح، على اتقان معرفة من أين تؤكل الكتف، أحد الأذنين في قسمنا كان يعمل في أوقات فراغه، من قبيل الهواية والصداقة الخالصة كما كنت أظن، خادماً خاصاً عند مدير مكتب مدير العام، مسألة قضاء حاجات من سوق الهال من البزورية، القضية أن سماني الحارات لصوص رسميون.

أكثر من أربعين بالمئة الفرق قولاً واحداً،إيه؟ أي سيدي كان من نتيجة هذا الخلوص في النية عند الآذن أن صدر قرار بتسميته ميكانيكياً، ثم لم يلبث أن انتدب للعمل في الديوان، صار «منشأ» يعني دخل حرم « المثقفين» من الباب العريض، واستبدل أخونا بالبدلة شبه العسكرية التي يلبسها الآذنون ببدلة مدنية، مرة كان يشرب القهوة عند زميلنا الفلسطيني في القسم فسمعه يقول: «نحن أهل الفكر»..

أنا أيضاً أصبحت من أهل الفكر، كان عملي في الحقيقة فكريا جداً: أسماء المشتركين في الهاتف، المكتوبة في سجلات، وإلى جانب كل اسم رقم هاتف صاحبه، أنا أنقلها إلى مدونات (فيش) تمهيداً لإصدار دليل مهني، في بعض الأيام لا أكتب من الثامنة حتى الثانية أكثر من عشرة أسماء، ما أحد هنا مستعجل، لا رقابة، الدليل العتيد لم يحدد لصدوره ميقات معلوم، وهكذا كنت أقتل ما بقي لدي من الوقت (يعني ست ساعات ناقص الزمن اللازم

لملء ست مدونات أو عشر) في تأمل رفاقي في القسم ورئيسنا، أو في التأمل الصرف، أو في قراءة كتاب أخبئه في الدرج وأدعه - أي الدرج - نصف مفتوح وأتشوف إلى الكتاب تشوفاً خوفاً من ألسنة السوء، أن يقال:«هذا الموظف اللكع لا يصنع إلا أن يقرأ».. ذلك أن شرب القهوة ، طق الحنك ، النظر من النوافذ إلى بنات المدارس حوالي الساعة الثانية عشرة، وقت الانصراف في فرصة الغداء، وقبيل الثانية، وقت العودة إلى المدرسة.. كل هذه لا يعترض عليها أحد، هذه ربما كانت أعمالاً فكرية، وأمال القراءة خلال الدوام فتهمة شنيعة قد تؤدي إلى سين وجيم وسمعة سيئة حتى ولد ولدك عند زملائنا أرباب الفكر.

رئيسنا هو أيضاً كان من أهل الفكر، بل هو إذا شئت مفكر كبير.. صحيح أنه غير مشهور ولكن هذا لا يمنع من أن له نظريات لا تستطيع أن تعثر عليها في أي كتاب: مثلاً البصل هذا النبات الذي ننظر إليه في احتقار «الخمسة بورقة يابصل!».. لما له من رائحة واخزة تؤذي العشاق وقت العناق... أي سيد راسي البصل هذا نافع.. إنه أحسن منظف للأسنان، وهو مقبض ومدر لماء الحياة عند الرجل، ياحزرك الأنتيرفيوفروم من إيش يستخرجونه في معامل الأدوية في سويسرا ويبيعونك إياه العلبة بليرتين وربع؟ من البصل أجل خاطرك، أي نعم من «خمسة بليرة ياعيار» هذا نفسه..

ولكن حذار من القشرة الشفافة الرقيقة التي تفصل كل جنحين، هذه مميتة، يروون أنه كان عند الأغوات أجيران أحدهما مات لأنه كان يأكل البصل مع الوريقات الفاصلة بين الأجنحة، وأما الآخر فلم يمت لأنه كان ينزعها.. مثال آخر حبة البركة هذه تشفي من الأمراض ماعدا الموت، المحلب أحسن من الأنتيروسيديف، عرق السوس مدر للبول ونافع في مداواة القرحة، اللبن - شرط أن تروبه على يدك - مطيل للعمر، اليانسون مهدئ.

فتشت مرة في القاموس عن كلمة «لألوء» التي تستعملها العامة بمعنى المذبذب الذي يموش الأرض سعياً وراء أدنى المنفعة لا يضنُ بماء وجهه ولا يقصر في مداهنة، من شخص إلى شخص، مثل أم العروس فاضية مشغولة،

رأسها كشش كشش خيطان خيطان وهي لا تصنع شيئاً.. فوجدت أن أصل الكلمة «لأ لأ الثور بذنبه إذا حركه لكش الذباب»! إي سيدي مديرنا لألوء حقيقي ، إنه يدرس المعاملات في الممر، يقرأ المعاملة ويصافح أحد المارين من غير أن ينظر في وجهه.. يناقش مشكلة خطيرة مع مراجع ويعقد اجتماعات لاحياء حفلات غنائية (هو مولع بسماع الغناء الشرقي القديم من صالح عبد الحي وأنت طالع) ويطوف على غرف المبنى عدة مرات في اليوم، أحياناً يكفيه أن يفتح الباب وينثر التحيات، وأحياناً أخرى يدخل يشرب فنجان قهوة (إن له نظرية متكاملة في الوظيفة الاجتماعية للقهوة!) ويحل مشاكل ويعقد مشاكل أخرى ويخرج من غرفته ليعود إلى الألأة بعد ثوان..

في قسمنا أيضاً موظف فلسطيني كهل، هذا ينطبق عليه التعبير العامي الجميل: «ماتت شعرة قلبه»، أي نعم كان الرجل خامداً ، ملقياً سلاحه من غير قيد أو شرط، كل من في المكتب، حتى الآذن يستوطئون حائطه، عندما لا يكون عنده شغل يطوف بعينيه فينا، عينين مدهوشتين تحس أنهما لا تصدقان ما تريانه، الغربة تكاد تلمسها في كل حركة من حركاته، بلده، حيث يجد نفسه في مكانه، ضاع، وهو غريب، غريب حتى العظم، فيما بعد علمت أن بعض دهشته ضرب من التقنية، سينقضي دهر مديد قبل أن يكون للناس عندنا وجه واحد ولسان واحد عوضاً عن الوجوه الكثيرة التي يُلبس كل منها لحال من الأحوال، والألسنة المتعددة باختلاف المجلس والجليس.. ذلك أن الرجل استوطأ حائطي أنا (غريب، لاوراءه ولا قدامه وراتبه نعمة كريم!) فقد أخذ يغتنم فرصة وجودنا من غير عمل وغياب ابنة أخت المدير التي سأتكلم عليها بعد قليل، فيسحب كرسياً ويجلس قربي، كان حديثه عثمانياً، ما قال لي مرة واحدة «ماهر» أو «السيد ماهر»، أنا عنده ماهر بك وأنتم، دعاني مرة إلى الغداء: «نأكل من الموجود» ، لم يكن هذا صحيحاً، استقبلتني زوجته: امرأة في مثل سنّه، الخمسين، ولكنها شمطاء ثرثارة، ذات حركات، وتتزوق أيضاً، صاحت ونحن ما نزال في الدهليز: «أنعام، أنعام.. تعالي سلمي» وجاءت أنعام تمشي على استحياء لا يلبق لها بأية حال، هذه ابنتها

الوحيدة، تسلم لأمها: ذوق، إذعان، تربية مابقي مثلها في أيامنها هذه يا ابني، مابقي.. ومتعلمة أيضاً، أخذت الشهادة في حيفا، خياطة كذلك، تعلمت الخياطة من البردا.. صححت الأم.

قلت: «البوردا!» قالت: «بردا، بوردا كله أجنبي بعيد عنك.. أنا امرأة أولية، لست مثل بنات اليوم (غمزت نحو ابنتها) اللواتي يفهمن كل شيء، سلمي حبيبتي سلمي أي شوبك (بي أنا) تخجل، اضرب، نحن مافيه عندنا بنات يدخلن ويخرجن ويعاشرن الرجال والله لولا محبتك عند عبد الرحمن..)

كانت أنعام أعجوبة لا ريب فيها، وجهها: شف وجهي أليس ممروطاً كأنه وجه الكديشة؟ أي سيدي يلعن الكاذب وجهها قد وجهي مرتين في الأقل، وأما اللون فهو الزرقة والسواد ملخبطان بعضهما في بعض.

فهمنا آخر ماحرر - على حد تعبير عبد الرحمن - أن عبد الرحمن يرغب في مصاهرتي صهر بيت، وبعد الغداء اختفى الأب والأم وبت تحت رحمة الفتنة العارمة، فتنة أنعام الكديشة.

كان عبد الرحمن مثالاً صافعاً لغلبة الهموم الصغيرة، لم يكن يذكر فلسطين إلا إذا مس ذكريات الصبا والشباب، وأما اللذين أخرجوه من دياره وأحبائه بالمجازر، والتعصب، والنظر العرقي الأسود النخر، والتخطيط.. فلم يكن يذكرهم لا من بعيد ولا من قريب، كانوا عنده جزءا من هذا القدر المقدر الذي يستسلم له في عمله وابنته وزوجته، يجرجر أيامه في نوع من التدفيش الخدر الذي هو الغلاب علينا جميعاً، لست أدري من قال إن القدر يسحق الإنسان ولكنه لا يهزمه، وأما هنا فالإنسان منسحق منه لنفسه، منسحق خلقة!

معنا في القسم أيضاً مليحة ق.. هذه رسحاء مبهبطة، كأنها روب طالع نازل، غليظة الشفتين، دائماً مرعوبة، تخاف من المدير (الذي ليس بفاض لتخويف أحد) تخاف مني، من الآذن، من عبد الرحمن، وبخاصة من فايزة بنت أخت المدير، لقد ورثت مليحة قبل شهرين ثروة طيبة، دارين، وثلاث دكاكين، وحصة في بستان في الغوطة وسرعان ما خطبت، ولكنها ظلت خائفة، قالوا إنها قضت طفولة أصعب من قرط الصوان تحت يد امرأة أب.

الآنسة سليمان هي ثالثة موظفات القسم، هذه أنموذج أتم للامعنى، ما مرة دار حديث في القسم وحكت قصة متميزة تحمل طابعها هي، إنها في حوالي العشرين، تحمل شهادة البكالوريا وتذكِّر دائماً كأنها شهادة دكتوراه، وتنتظر ابن الحلال في ثقة واستسلام، لابد أنه آت ابن حلالها ذاك لأن هذا النوع من المخلوقات التي لا تضر ولا تنفع، لاتعارض ولا تثور، ينفق، ولكن كم أرثي للمسكين! ذلك أن للأنسة سليمان عضلات في ساقيها وصدرها هابط، ومثلها الأعلى زوج أختها الذي يجلي ويعاون في المطبخ، والغسيل أيضاً، ومع ذلك يطعمها على كل ضرس لونا، «هكذا يكون الرجال!».

هذه المخلوقة كانت تنظر إلي في احتقار، لا بد أنها لما بدأت العمل في القسم قد «قلبتني» فرأتني كبيراً عليها وراتبي قرد وفلت فأسقطتني من اعتبارها مرة واحدة واستراحت.

ذات صباح، على غير العادة، أقبلت تصافحنا واحداً واحداً حتى أنها صافحتني أنا، ولكن طريقتها في مد يدها هو الذي أثار انتباهي، كانت تدفع يدها اليمنى أمامهامثنية الرسغ على نحو تظهر معه أصابعها كلها، فلما وصل الدور إلي انجلى كل شيء: كان في بنصرها خاتم الخطبة، تلقيت متجاهلاً اليد التي تقوم بهذه التظاهرة المضحكة فعقدت مابين حاجبيها، مليحة هي التي ضجت متهللة لما أقبلت عليها الآنسة سليمان: «ألف مبروك».

عرفنا الخطيب، موظف في المالية أعرفه أثر عنه البوهيمية ونوع من التصوف في القضايا القومية... وسمعت بعد حين أنه عاد لايتكلم إلا على محاسن الاستقرار : « الإنسان يكنكن، يحط مرته ويقعد ، تلفون، راديو.. »

سيدة القسم غير منازعة كانت الآنسة فايزة.. ابنة أخت المدير. هذه طالبة في السنة الأولى من كلية الحقوق، تأتي إلى المكتب متى شاءت وتنصرف متى شاءت، وجهها نهب حب الشباب، رموشها خفيفة، فكها الأمامي كروي كأنه غطاء سكرية، وأما ساقاها فقد كانتا جميلتين، إنها تعتبرنا خدماً في مطبخ السيد خالها، تشعرنا بالحركة المتعالية أنها تعتبر أن خالها هو الذي يتكرم فيعطينا الرغيف ويلبسنا هذه البدلات الكثيرة جداً علينا.

هذه تتعاطى الأدب.. أرتنا ما سمته قصة منشورة في جريدة لبنانية وتحت العنوان: « بقلم الكاتبة السورية فايزة ...» أي نعم، وينشرون لها هنا أيضاً في دمشق، إنهم ينشرون لكل بنت حتى ولو كان فمها مثل غطاء محارة... من يدري؟ لعل! أخبرتنا مرة أن معلم الأدب في الثانوي صرح على ملأ من البنات أنها ستكون فدوى طوقان سورية، يظهر أنه كان ينظر في ساقيها ساعتئذ، إن تقويم الأدب النسائي عندنا سيقاني النظرة، والبنات ينظمن الشعر ليتزوجن (هن لا يعترفن بهذا، فايزة مثلاً تصرح دائماً أن ليس عندها وقت للزواج وأنواع الولع لأنها فنانة!) فإذا وقع صيد في المقدور طلقن الأدب طلاقاً بائناً بينونة كبرى.

يجب أن أكمل الصورة بالحديث عن المفتش شكري ب... هذا ليس في قسمنا ولكنه مفتش على أية حال ويفترض أننا نعرفه جميعاً، إنه في حوالي الخمسين يأتي في العادة مبكراً (الرابعة صباحاً) فيفرد على مكتبه الواسع (كانت سعة المكتب تتناسب طرداً مع علو المرتبة، وهذا مقرر بموجب أمر إداري!) منديلاً كبيراً مطبعاً مما يسمى «سلُكا»، ويخرج من جيبه أربع بيضات مسلوقات وصرة ملح وفلفل، ويضع فيش السخانة ويرفع عليها إبريق الشاي الشنكو. هذا، طبيعي، أرخص من طلب الشاي من عند القهواتي ويفرق كثيراً... ويختمر الشاي فيأكل المفتش خبزاته وبيضاته ويحط رأسه على صدره و... ينام! يظل نائماً حتى ترد عليه معاملة.. أحياناً ينقضي الدوام كله ودوام غيره من غير أن يفتح أحد عليه الباب... مديرنا، لكونه اجتماعياً ويحب أن يتظارف في المجالس، أخذ له صورة فوتوغرافية وهو نائم، وسحب منها عشرات النسخ ووزعها على كبار موظفي الإدارة، وهات يا ضحك!

على ذكر الشاي. في الديوان كان موظف اسمه على اسمي ماهر. هذا يشرب الشاي كل ثلاثة أيام فقط. تفسير ذلك أن رفاقه في الديوان عندما يشربون الشاي يفضل في السكريات التي تأتي مع كاساتهم غرامان من السكر هنا، ثلاثة غرامات هناك. وكلما جاءت وجبة شاي يقوم ماهر الآخر فيجمع السكر المتبقي.. شعرة وراء شعرة تصنع ذقنا. وهكذا بعد يومين يجتمع عند

ماهر الآخر ما يحلي كاس شاي. عندئذ ينده الآذن ويقول له: «رح أحضر لي كاس ماء ساخن!».. ويجيء صبي القهواتي بالماء الساخن. فينتظره ماهر الاخر حتى يخرج ويمد يده إلى الدرج فيخرج بضع وريقات من الشاي وهكذا...

وتسير الأيام على هذه الوتيرة المسلية، بعضها يشبه بعضاً، يستوي السبت والأحد والثلاثاء والأربعاء: يقظة، دفتر دوام، نقل فيش، أحاديث لا غناء فيها، لا يهتم لها أصحابها أنفسهم. يوم الخميس وحده مدلل، خفيف الظل لأنه بشارة يوم الجمعة...

صرت أميل إلي الظن أن للموظفين، من دون عباد اللّه أجمعين، آلهتهم وشياطينهم - شياطينهم! - الخاصة بهم. وحلا لي أن أتصور أن لهم آدمهم الخاص أيضاً. هذا لم ينهه ربُّه عن الأكل من شجرة المعرفة كما في التوراة. هذا قصته جرت على النحو التالي أسوقها إليكم (يبتسم) كما وردت في سفر تكوين الموظفين:

«في البدء خلق اللّه المكتب (١) وكان المكتب عارياً لا إضبارة فيه (٢) ولا آذن على بابه (٣) ولا خزائن تكاد تنبعج بالمحفوظات (٤) وظلت الحال كذلك حتى لحظ في الميزانية باب خاص بالأثاث (٥) فخلق اللّه الدواة والمنقلة والكورتابل وخزائن المحفوظات وعلب الدبابيس والشكالات والخرازة والبخاشة والورق المصمغ وحنجور الصمغ والبراية - الصالون والبراية العادية (٦) وأوحى إلى آدم ما أوحى «عطفاً على حاشيتكم» (٧) «إشارة إلى كتابكم» (٨) «للاطلاع والإعادة» (٩) «لا جراء المقتضى» (١٠) «شوهد» (١١) «يحفظ» (١٢)... ورأى اللّه أن ما فعله «أصولي» ولكنه قال (١٣) «هذا حسن ولكن الأحسن أن لا يظل آدمنا وحده» (١٤) فأوقع عليه سباتاً مضاعفاً (لأن السبات البسيط كان ملازماً دائماً للوظيفة) (١٥) ونزع إحدى أضلاعه وكساها لحماً (١٦) وجعل منها موظفة على صورته ومثاله (١٧) تقاسمه التثاؤب والنوم (١٨) كان الموظف والموظفة كلاهما في المرتبة العاشرة والدرجة الثالثة وهما لا يخجلان (١٩). كان في الجنة شجرة تسمى

شجرة الترفيع فحذرهما الرب من الدنو منها وتذوق ثمرها (٢٠) «لأنكما موتا تموتان إذا تذوقتماها» (٢١) ولكن الآذن الخِبَّ وهو على نظام المستخدمين لا يطمح إلى أكثر من البخشيشة وهذه تزيد إذا زاد راتب الموظف والموظفة (٢٢) أغراهما (٢٣) قال لهما: «ما منعكما الرب منها إلا ليجعل تقاعدكما تافهاً لا يغني ولا يسمن من جوع!» (٢٤) فأكلا منها (٢٥) ومنذ ذلك اليوم فقد الهدوء والطمأنينة (٢٦) صار آدم الموظفين ينافق في النهار ويبكي في الليل من عشق للمراتب العليا، السادسة في الأقل (٢٧) ما دامت الخامسة من الحلقة الأولى..».

كنا نضحك من أعماق قلوبنا حتى كدنا نغص باللقم. ماهر وحده لم يكن يضحك. وجهه المعذب، الشهيد كان يزيدنا جذلاً. ولم يكن يأكل. بعد إلحاح شديد منا نقر لقمة أو لقمتين كما تنقر العصافير. كان كله لذكرياته الملونة. ونسينا أنه تقدم بعريضة تبعث على الشك. عاد موظفاً مثلنا مفتح العينين على كل الكوميك الذي تنطوي عليه الوظيفة العامة. بدا لنا أنه يحكي عن وزارتنا..

كيف اجتمع الشمس والفيء على السطح الواحد لهذا الانسان ؟ أليس الإنسان أعجب من الكون ذاته؟

بعد فصل مزاح شارك فيه ماهر بمقدار عاد إلى قصته:

- ظلت الحال على ما وصفت إلى أن كان يوم، إذا لم تخطئني الذاكرة، من أوائل سنة ١٩٥٤. كنت أقرأ ولكن عيني كانت منتبهة إلى الباب خوفاً من أن أضبط متلبِّساً با... لقراءة! وإذا الباب يفتح ويطل منه المدير اللألوء. رأسه وحده هو الذي ظهر لنا يتحوك مثل الحردون. مطه وطاف ببصره في الغرفة الواسعة، كأنما يبحث عن أحد ثم عاد فأغلق الباب.

دفعت الدرج الذي يتخبأ فيه الكتاب ووضعت مرفقي على المكتب وأخذت رأسي بين يدي. وجدتني عاجزاً عن مقارمة رغبة قاهرة في دراسة حركته بدقة: فتح الباب. مط رأسه. حرّكه، ثم سحبه وأغلق الباب. لو ظل رأسه علي الوضع الذي بدأ به اطلالته لما استطاع أن يشمل الغرفة كلها

بنظرة واحدة.. ولذلك دفع ذقنه إلى الأمام، ومط رأسه أكثر وفتله في اتجاه اليسار ثم في اتجاه اليمين بينما كانت عيناه تتسعان وتغزلان وجبينه يتطبق في ثنيات مستفهمة. ثم إن الرأس ينسحب، مثل السلحفاة حدست خطراً ماثلاً، ويعود إلى موضعه فوق الرقبة وينفتل نحو الممر ثم ينسحب وينغلق الباب.

لنُحلِّل - قلت في نفسي - هذه الحادثة: نحن أمام مجموعة من الحركات بعضها صغير وبعض كبير، بعضها ذاتي (حركات المدير) وبعض تابع (حركات الباب والأكرة المعدنية)، بقيت غريق التفكير، إلى أن حانت مني التفاتة إلى الشارع فرأيت باصاً يسير وولداً ينط منه: طرح جسمه إلى وراء وأرخى يده اليسرى وظل ينط مع اتجاه الباص لحظة عاد بعدها يمشي مشياً عادياً. غير بعيد فتاة تسير وهي تحرك يديها وردفيها. شرطي السير في مفترق الطرق يرفع يده إلى رأسه فيزحزح العمرة ويحك رأسه ثم يعيدها وينزل يده... حركات، حركات، حركات! ومثل رمية صائبة أصماني تساؤل هلعت له: «ما علاقة هذه الحركات بعضها ببعض. حركات المدير. حركات الباب، حركات الشارع. حركات العمرة... هل لها ناظم واحد يمكن أن تسميه السر الخفي للحركة الكونية، ابتداء من المجموعات الشمسية إلى ... إلى...».

أين سمعت هذا الكلام؟ هل قرأته؟ ما همَّ! قرأته لم إقرأه، سمعته لم أسمعه.. هذا آخر همومي. كنت متطاير النفس، زائغ الفكر، يهدر في قلبي ما يشبه السيل، رعيان يتصايحون، عصافير تزقزق، حمائم تهدل، قطارات تشحط.. بنيات صغيرات ينطلقن من المدرسة هازجات وقد ضفرت شعورهن بشرائط ملونة على شكل فراشات.. ويُكبُّ علماء في مختبر على مجاهر ، ويرتفع إلى عمق ثلاثة عشر كيلو متراً في المحيط الهادي، وتهب عاصفة ثلجية مرعبة على مستكشفين يصعدون نحو قمة هيمالايا، ويولد طفل، ويموت أناس من الجوع، وآخرون بالكوليرا، وتمحي زغادير وسكوبيا وقرى في تركيا وإيران، ويطلع فجر، ويرنِّق فجر، ويتحرك غُصن. يا إلهي رحمتك! ويسقط ليل يلف كل شيء بظلام كتيم...

خيل إلي أن ألف فم انفتح فيّ تصرخ كلها بأصوات ثاقبة، ممزقة:

«ما العلاقة، ما العلاقة، ما العلاقة؟».

ومثلما يحتاج العالِم إلى عدد ضخم من التجارب في موضوع معين حتى يصوغ منها قانوناً واحداً كنت في حاجة إلي الخروج من لا حركة القسم إلى لا نهائية الحركة خارجه حتى ألملم التجارب. ويظهر أني كنت أحدق بادىء الأمر في أهل القسم ولكني لا أراهم لأني لما انتبهت رأيت زميلي عبد الرحمن ملتما على نفسه كأنه يتجمع للدفاع عنها من ضربة أو شك أن أنزل بها على وجهه. لم يكن ينقصه، وهو ينظر إلي وأنا أقف أهم بالخروج من وراء المكتب، إلا أن يرفع يديه ليحمي بهما قرعة دماغه. وأطلقت بنت أخت المدير ضحكة صاخبة وقالت كأنها تحكي مع نفسها:

- هذه الدائرة العجيبة لم ينقصها إلا المجانين!

قالتها وأشاحت عني بجذعها كله. حدقت في الحفر التي تركها حب الشباب في وجهها. ذكرتني ببراكين القمر الخامدة. لما رأتني لم أجلس ولم أخرج. جعلت تنظر إلي من طرف عينيها. وعادت تصأى.

- حالة لا تطاق!

تقدمت نحو مكتبها في تؤده، فلما بلغته مددت لها لساني من غير غضب، وقلت لها في أدب جم وفي لهجة خلو من أي تعجم:

- عن اذنك أيتها المديرة بالقرابة. أود أن تسمحي لي بأن أسوق لك هذه البشارة: لن تنجحي في الجامعة. لن يقع أي أعمى قلب في غرامك. لن ينشر لك غير تلك القصة اليتيمة حتى في لبنان. القصة التالية، إذا وجدت ، سيكلفك نشرهات أكثر من مداعبة... أنا ذاهب أبحث عن السر الخفي للحركة الكونية، وأنصحك أن تقومي من فورك وتذهبي إلى جهنم الحمراء، أنت والسيد خالك وهذه الإدارة كلها.

كان صوتي أجش، جهماً مهدداً شل حركتها.

مليحة كانت تصدر عنها صيحات متلاحقة: «أوه، أوه!» فبدا عليها أنها ستغمى على نفسها.

الآنسة سليمان كانت تضحك في إثاره خفية من تشف.

عبد الرحمن ازداد انكماشاً...

وخرجت أنا إلى الشارع أتقصى السر الخفي في الناس، في الطبيعة. ضربت بين البساتين: الأوراق الميتة منذ الخريف الذاهب. نسمة تحرك غصناً. برعم يشق الغصين. عصفور يمرق بين الأغصان، يقف على عود. حباله الصوتية تتحرك ورأسه أيضاً... اندفع ماضي كله. كنت ؟أحس أن انقطاع بضع السنوات تلك قد كان نوعاً من الحمية الاجبارية فرضها على نفسه إنسان صحيح الجسم وإذا هو يجد نفسه فجأة في مأدبة حافلة عامرة. وهو يحب بطنه... أيا آخذ وأيا أدافع من الأفكار الأخاذة والصور الخلابة إلى درجة الارعاب تتلبد في ذهني، تتراكب ، تتداحم بالأواذي، ترعد، وتبرق... مرة أخرى لا أرضى أن أبيع فكرة بسيطة واحدة، صورة، حتى ولو كانت باهتة من صوري الكثيرة بكل ما في الدنيا من مناصب وفنادق وأزواج وبنين... ها أنذا، الإنسان الذي قضيت أكثر من سنة في الوظيفة فلم يعرف عني أني تأخرت دقيقة واحدة عن الساعة الثامنة، هاأنذا أضرب بين البساتين ضاحكاً كالجمجمة، منتصراً كالأسير، حراً كالقيد، مغتبطاً كالثكلى، أفتش عن السر الخفي للحركة الكونية عوداً على بدء، لكي أصلح أقدار الناس، لأعيد تنظيم الوجود...

هل رأيت عصفوراً عاشقاً أطلق من قفصه؟ عطالة القفص قد تبقيه فترة مدهوش الجناحين، على فنن غير بعيد من القفص. ولكن، ما إن ينفض عن جناحيه دهشة الحبس حتى يطير، يطير، يطير... يستحم طوال أيام في ثمل الطيران!

الشوق إلى الطيران، كان هذا هو نشوتي الغامرة، سكرتي، معناي، قراراتي ذلك اليوم.

قرب مستشفى ابن نفيس صادفت طفلة، معها أوراق يا نصيب. أسمال، شعر أشقر أشعث عليه صفرة الوسخ، مبعثر في ضفيرتين تشبهان الحيات الميتة. تشبثت بذيل سترتي: «جابرني».. لم يكن في جيبي غير ربع ليرة ولكني لم أعطها إياها. لولا علمت أني أذوب من أجلها!

تصور أن في كوكبنا هذا، الآن، هذه اللحظة التي أكلمكم فيها، شتاءات وربيعات، عواصف وأنساماً، بحراً يزمجر غاضباً وآخر رخاء. أنا أيضاً كنت الكوكب كله. كانت فيّ الفصول كلها وعناصر الطبيعة جميعاً . ولكن قرارة هذه الحركة الكونية الهاذلة كانت في روحي إحساساً عميقاً يكاد يكون غامضاً. شيء كارهاصات الوحي يحملني على اليقين أن أحداثاً هائلة ستتخذ روحي مسرحاً لها.

ما سأرويه الآن حدث بعد ظهر التاسع من نيسان كنت متمدداً في فراشي فأخذتني سنة من النوم لم تطل، ولكني لم أستيقظ. خالطتني حال غريبة جعلتني بين نائم ويقظان. مغمض العينين غير أني أرى غرفة الفندق بكل تفصيلاتها:الخزانة المهرمشة ذات البزيم من قشر الجوز المتآكل عند الباب. إن فيها مصراعاً مبخوخاً في أعلاه لم أنتبه إليه من قبل، من قبل أن أغمض عيني. كنت أراه الآن في وضوح صارخ مرعب، وأنا في تمددي ذاك على السرير، أحاول النهوض فلا أستطيع وتندُّ عني همهمات مبهمة أردت أن أكوِّن منها صيحة: «فيِّقوني!» وأرى - وأنا مغمض العينين دائماً - خادم الفندق العجوز تتحني علي وتهزني فأفيق.. أول ما يذهب فكري إليه هو مصراع الخزانة المنجوف. أردت أن أتحقق مما رأيته وأنا مغمض العينين، فنظرت إليه وإذا هو كذلك.وقالت الخادم:

- كنت تزعق يا ماهر يا ابني. يظهر أنه كابوس. هل أكلت أكلة ثقيلة؟

لا يا عمة، ليس كابوساً ما بي.

إنه بشارة.

ليلة العاشر من نيسان، أي في اليوم ذاته، يتحقق انطلاقي الأول:

أنا تائه في بيداء دامية الرمال أسير، أسير من غير أن تترك قدماي الممزقتان أية آثار على الرمال، لأن اعصاراً سافيا ذا ولولة ونحيب وباء وأنين كان يعصف بكل ما حوالي. فجأة تناهى إلي من قلب الاعصار نتف متطايرة من غناء كورالي فخم مهيب. ولم تلبث هذه النتف حتى انضم بعضها إلى بعض، وتكاملت الألحان لا أبهى ولا أزروع، وإذا الاعصار يبهت وإذا

الرمال تطمئن، ومن هنا وههنا تنشق الأرض عن ألوان من الأزهار لا حدّ لتنوعها. تصور لي قليلاً: الرأم في النسيم الرخاء، والحنو في تلون الأزهار، والطمأنينة في الأفق، في الكون وفي قلبي. من قلب هذه الرؤية التي غُمست في آلائها حتى الشغاف هتف بي هاتف. لم أسمع كلمات معينة مؤلفة من حروف ولكنه معنى انسكب في قلبي أن «أحمل عصاك واذهب إلى روما» تساءلت في ذات نفسي دهشاً: «ما عساي أن أصنع في روما؟!» وإذا الهاتف المسرُّ يجيب: «روحك هنالك والمسيح في انتظارك.» وما هي إلا لحظة حتى رأيتني في مدينة أوروبية. أسرَّ الهاتف: «هذه هي روما». الشارع، المقاهي، الناس، الفسقيات ذات النافورات المغردة.. وأنا متسمر في مكاني لا أملك أن أتزحزح، أحاول المضي فلا أستطيع . آه ما كان أشد عذابي من هذا الجمود. أنا لا أطيق حتى تحريك رأسي، والهاتف يظل ينسكب في قلبي: «اذهب إلى روما»، وجسمي يظلُّ متسمراً في مكاني. وكأنما روحي - ما الروح؟ أنا أكاد أشبهه بالظل - سئمت لا حركتي، وإذا هي تصفق وتطير بعيداً من جسمي وتروح تضرب في لا نهائية الكون، في الفراغ المطلق. وبينا أنا كذلك أصادف غمامة بيضاء تدنو مني أو أدنو منها. وأقول في نفسي «وي، من أين جاءت الغمامة البيضاء إلى هذا الفراغ ؟!»... ولكني لا ألبث أن أتبين أن الغمامة ليست غمامة بمعنى ما يفهم من هذا اللفظ ولكنها شيء حي، أغوص فيه فتأخذني نشوة، ثمل لا يوصف... وبعد أن أمعن ضربا في الفراغ والعدم ايغالاً أعود نحو الأرض: وأبدأ أرى الجبال والوديان والوهاد والغابات.. وأسف أكثر فأكثر حتى أصل إلى جسمي ، إلى فندقي...

فتحت عيني مذعوراً. لقد انتهت الانطلاقة! عدت إلى الخزانة ذات المصراع المنجوف وأربعة الجدران التي تشبه القبر، عدت من اللامكان إلى المكان! ويلي! كيف أستبدل الذي هو قفص بالذي هو كون! كدت أجن. أغمضت عيني مرة أخرى. عبث. لم أر غير العماء. لم يكن في جسمي موضع واحد ما فيه رض. ولكن ثمل الانطلاقة صار إدماناً لا فكاك منه.

صمت قليلاً، ثم تضاحك في براءة:

- لابد أنكم مللتم.

من جهتي أنا لن أتزحزح قبل أن ينتهي من قصته. موفق أيضاً قال له:

- لا، أبداً.

عبد السميع وحده قام معتذراً مدعياً أن لديه عملاً في الوزارة مساء (أي عمل؟ ووزارتنا كلها من بابها لمحرابها بغير عمل!) وودعنا وانصرف.

واستأنف ماهر قصته:

- أي نعم، عدت أحيا على أمل انطلاقة جديدة. في انتظارها انصرف تفكيري كله إلى تحليل الانطلاقة الأولى: ما علاقة روما، بالمسيح، بالغمامة الحية؟ إن المسيح تمرد على المطلقية (التوتاليتارية) اليهودية، على عنصريتها. إنه دعاء إلى رفع الانسان إلى أعلى مثال وأتمه. ولما كان الناس يؤثرون العطالة، يفضلون أن لا يعكر صوت ثائر بحرانهم الهانيء فقد روعهم صوت المسيح فصلبوه.. وأما أنا فقد كنت في بداية أحوالي الروحية أتحرق لامتلاك السر الخفي للحركة الكونية. كنت أنطلق من هذه الفكرة: إذا أنا امتلكت هذا السر استطعت أن أكون سيد الحركة. السرطان مثلاً - في بعض تعليلاته - نمو - أي حركة - غير طبيعي للخلايا. إذن أنا، سيداً لأصل الحركة الكونية - قادر على إيقاف هذه الحركة المدمرة لأحسن التقويم... ولذلك فقد عُلِّقت أنا أيضاً على خشبة. صُلبت لأني أردت، مثل المسيح ، أن أنقذ الانسان من خطيئته الأصلية، أي الغثاثة، وارتفع به إلى نبالة، جلالة الكل... على هذا الأساس تكون صحراء الانطلاقة إنما هي خواء القلب من المحبة، والإعصار المختلط هو اللوبان اليومي، معميَّ الروح، في الشؤون الصغيرة: أكل، شرب، جنس، منصب، جاه... من أجل ذلك كله دعيت أنا ماهر القاضي، من دون الناس، إلى لقاء المسيح حتى ألملم شعث صفائي وأكون سبباً فاصلاً في سلام الانسان ورفعه إلى مستوى الكشف.

ساد صمت.

قال موفق جادا:

- ولماذا إلى روما وليس إلى غيرها؟

قال ماهو في يقين:

- ولماذا ولد المسيح في بيت لحم ولم يولد في الحبشة أو أمريكا؟

بعد ذلك طلب ماهر فنجان قهوة. ومضى يحدثنا عن انطلاقاته الثلاث الأخرى: ظل يقطع الأيام تشوقاً إلى الانطلاقة الثانية. الادمان قد تسببه كأس واحدة. وحدثت هذه الانطلاقة في ليلة التاسع عشر من نيسان. ورأى نفسه يعذب في سراديب مظلمة، دياجير بعدها دياجير، حتى وصل إلى قدمي جدار كانت تطل من أحجاره أرواح. الروح الذي يحبسه الجسد يستطيع أن يخفى وأما الروح الروح فلا يستطيع. كانت تلك الأرواح شريرة لأنها جعلت تمد له ألسنتها وتسخر منه.

في الانطلاقة الثالثة رأى أرواحاً خيرة من أنبياء العهد القديم!

وأما الرابعة فقد حملته إلى الأقصر، ومن ثم إلى الزرقاء حيث رأى مريم العذراء تقول له في ملامة:

«لماذا لم تذهب إلى روما؟»

وقال وهو يطلق تنهيدة حرّى:

- وها أنذا أناضل منذ ست سنوات لكي أذهب إلى روما.

قال موفق وقد بدأ يفقد اهتمامه وجديته:

-وابنك هل عنده استعداداتك الروحية؟

قال ماهر في غفران:

- ألنا عندي وقت للاهتمام بابني؟

هذا البطل الذي يهتم لخير الإنسانية لا يجد لديه الوقت للاهتمام بابنه!

لم أندم على إضاعة نهاري كله في الإصغاء إلى هذا الإنسان، ولكني وجدتني أستشعر معنى من الغضب: شاذّونا أنفسهم فيهم جنوح عن حمل الصليب بالمعنى الأتم للكلمة، فيهم ميل إلى المصالحة، إلى الفائدة التي يحلمون بأن تأتيهم من أقصر السبل وهم ههنا قاعدون.

قلت نزقا:

- لماذا لا تذهب سيراً على قدميك؟

قال:

- وجواز السفر. ونفقات الرحلة؟

- أنت على ما فهمت صاحب قضية وهبتها عمرك والقضية التي تسوى العمر تنتصر أبدا.

- ما العمل؟

عدت أقول في نزق:

- أتسألني أنا؟ المسيح الذي يدعوك لم يتبعه في بداية أمره غير اثني عشر إنساناً، ؟ أنكره أقربهم مودة ثلاث مرات قبل صياح الديكة. ابن الانسان هذا لم ينتظر جواز سفر ونفقات الرحلة التي رحلها إلى السلام والمحبة. محمد بن عبد اللّه عاهده عشرة على أن ينشروا دينه في أربعة أطراف الأرض. عشرة رجال وحيدين، مضطهدين، مظلومين، فقراء... الحسين بن علي لم يقل: «ما عساي أن أفعل وأنا في فئة قليلة وجلادي ثلاثون ألفا أو يزيدون!»

ماذا يخيفنا نحن؟!...

*   *   *

المقابل ...

كشفَتهُ من الجلسة الأولى: إنساناً يجِدُ أكثر من حوله وطاويط لا تحب ضياء النهار. عرفت ذلك من الصراحة لا في كلماته وحدها، ولكن في وجهه أيضاً، هذا الضحوك المستبشر، الساخر حتى لب العظام، الذي يقول كل شيء عن قلبه من غير أن يأبه لما يقوله. وسرعان ما اتخذت لنفسها انسلاخاً من البراءة الطفولية: بدأت بأن أسمعته قصيدة غزل تحت المستوى العادي تنتهي بشعارات سياسية مكرورة أقحمت إقحاماً فجاً كانت تقرأ، وهو ينظر في وجهها الناصح، ويديها البضتين، وركبتيها المكتنزتين، وهندامها الظاهر الأناقة. امرأة تجاوزت الخامسة والثلاثين منذ أمد، وتنظم شعراً. صحيح أنه شعر لا طعم له ولا أمل فيه، ولكن! واللّه شي حلو على الرغم من النسيج المهلهل والمعاني العادية التي تهرأت من كثرة ما تعاورها من هب ودب من «الشـــ...ـــعراء»... ونظر إليها مدهوشاً، ولكن صراحته ما لبث أن فضحت دهشته فهتف:

- ماهذا؟

ردت على الهتفة بهتفة مماثلة إذا قالت في البراءة ذاتها التي قررتها مذ كشفته:

- ماذا «هذا»؟

- هذه «القصيدة»!

- مابها؟

- نافلة. أنت تعلمين ما معنى النافل في الفقه.

قالت مستسلمة ضاحكة:

- هيك بدهم.

- من هم؟

وأردف يقول:

- ولكن الشعر ماهيك بده!

دافعت:

- ولكن مجلة... (سمعت مجلة «وازنة» رسمية كانت الوحيدة في البلد) نشرتها لي!

كاد يبكي. هذه المجلة التي تصدر منذ سنوات مديدة، ينفق عليها الألوف من غير أن يقرأها حتى محررها! وهذه المرأة الناضجة البضة المتزوجة تتعاطى الشعر. أهذا لأن فيها ناراً داخلية ما تنفك تذكو؟ أم أنه نوع من الزي؟ وقال في نفسه: «يجب أن لا تكون بطاشاً يا ولد!». قال لها في لطف:

- الشعر شيء مقدس يا سيدتي. إنه وحي.

قالت بالعفوية ذاتها:

- أتعلم؟ منذ زمن بعيد أريد التعرف بك.

قال باتراً:

- أراك اليوم؟

- طيب.

- أين؟

- سأروح أشتري أغراضاً من المهاجرين. تعال انتظرني الساعة الثامنة تماماً عند موقف المصطبة. من هناك نذهب فنتمشى في الشوارع الجانبية.

الليل. الشوارع الجانبية شبه المظلمة. الافضاء: لم تتزوج عن حب. حتى في التخت تحتاج إلى «الاستحضار» (الكلمة لها) حتى تصل إلى الرضا. ذات مرة قال لها أحد ذوي قرباها الأدنين، الأدنين جدا، من المحارم، ماذا؟ قال لها وهو يتميز غيرة: «القطة ذاتها تحمل وتلد البنين والبنات»... جار لهم في حيطان الكهولة تحرش بها وهي بنت خمس: جاء بألعاب وحلاوة وضعها

على حرف النافذة فالتهت بها بينما كان هو وراءها... أحد رفاقها في العمل قبَّل مرة حذاءها ومرغ خديه عليه...

لم يكتشف إلا بعد وقت طويل أنها مهووسة بتصور العشاق: كل من نظر إليها نظرة عابرة عاشق برَح به الوجد. كل من صافحها مشغوف لا يغمض له جفن في ليل أو نهار، عرفت ذلك من رجفة في يديه واشتعال في وجنتيه. ما حضرت محاضرة، حتى ولو كان مجلسها في الصف الأخير، وكانت القاعة مدرج الجامعة، إلا وتلبك المحاضر كلما نظر ناحيتها...

أكان مرد هذا الهوس إلى أنه ليس في بلدنا رجل يستعصي على امرأة؟! وأما العشق! العشق!

ولكنه تلك الليلة ذهل. قال لها:

- لم أصادف إلا في أوروبا. أنت المرأة الأولى التي تحررت من خُلق الضب في هذا البلد ممن عرفت. لا شيء عندك غير الكشف. إن فيك ما يحلو لي أن أسميه الأوقيانوسية.

وتضاحكت قريرة:

- كلهم يقولون لي هذا، ولكنها من فمك أنت...

في لحظة خاطفة عادت إلى ذهنه «هيك بدهم» تقولها عن الشعر ذاته، ولكنه عاد يزجر نفسه. وسرعان ما رجع إليه انبهاره: هذه هي... هذه التي حلمت بها ليالي سهد طويلة. قال:

- أنت يجب أن تحيَي حياتك. تأتين غداً إلى البيت. لن يكون عندي أحد بعد الظهر.

قالت فوراً:

- آتي.

واستمرت كأنها تكرر شيئاً سبق أن قالته مرات عدّة حتى بدأ محفوظاً جداً منذ اليفاع (هذه الملاحظة تنطبق أصلاً على كل حوار أدهشه وبهر عينيه. ولكنه لم يفطن إلى ذلك في البداية قط) قالت:

- ولكني أحب أن أنبهك إلى أمر. أنا متزوجة منذ أكثر من عشر سنوات. في البدايات كان كل شيء يخنقني. كيف أسلِّم سلعة؟ أوشكنا أن ننفصل، حتى بعد أن صار عندنا أولاد ولكنَّ «ــه» كان برّاً بي. وبعد أن صالحنا حادث معين استقبلني كأني لم أحرد قط، ولا تركت البيت وهمت على وجهي. استطعت بعد جهاد طويل للنفس، أن أتدرب على الاذعان. حتى شحه القاتل...

توقفت قليلاً. تنهدت:

- لماذا لم أعرفك من قبل؟

وعادت تضغط على «شحه القاتل»:

- حتى شحه القاتل تعودته (ضحكة مصارحة). ألسنا كلنا نفعل هذا؟

قال في ذات نفسه: «لا، أنا لا أذعن. قد أسكت، ولكني لا أذعن. أنا لا أباع ولا أنام مع شح حتى ولو لم يكن قاتلاً!» وفكر قليلاً، ثم اعترف لنفسه: «هأنذا أذعن لك يا فاتنتي، يا فاتنتي حقاً هذه المرة!»... وقال لها:

- أنا لا أجد في كل ما قلته ما يحملك على التردد. تستطيعين أن يظل جزء منك في المدار الذي عمره عشر سنوات. وأما الجزء الآخر، المتمرد، السابق عصره، الأوقيانوسي، فيجب أن يتشرد معي، أن يُجنّ معي (ابتسم) وهل تحلو الحياة إلا ببعض الجنون!

الجملة الأخيرة كانت أثيرة لديه، جملة مكرورة ولكنها محببة إلى قلبه ولسانه. يسميها إشارة لا سلكية.. وقد يكون إنما قالها لعشرين امرأة، ولكنه، ساعتئذ، لم يقطن إلى ذلك. قالت.

- أرجوك. أنا أعلم أني متى أصبح لك. ولو لفترة قبلة واحدة، تدمر حياتي من أسسها.

لما اقتربا من الشارع الرئيسي قالت له هامسة:

- اتركني هنا.

- ألا أوصلك؟

- لا، كثير من أهل زوجي يسكنون هنا.

وافترقا. بدوا كأنهما ما تقابلا قط. هذا أيضاً جعل قلبه يقف على شعرة من وجد: تجاوزت الخامسة والثلاثين. متزوجة من أكثر من عشر سنوات. لها أولاده. هو، تجاوز الأربعين وعنده أولاد... ويتَصرّفان كأنهما تلميذا ثانوي قبل عشرين سنة، حينما كانت قلة هن النساء اللواتي لا يضعن مناديل سميكة تجعلهن مثل فزّاعات الكروم!... خياله التهب وهو يضرب في شوارع المالكي وأبي رمانة والروضة. كان في النجوم، كأنه شعاع.

فجأة اعتكر. حاصرته من أربع جهاته، لا يدري لماذا، حكاية سبق لصديق له غريب الأطوار أن قصها عليه: صديقه هذا كان يشتي، ذات سنة، في برمَّانا في لبنان، في بيت يطل على الوادي. في البعيد تشهق الجبال المكسوة بالثلوج. البيت مؤلف من صوفة كبيرة، ربما كان طولها عشرة أمتار، وغرف أخرى. عندما يدنو الليل تأتيه الخادمة العجوز بالشراب وبضع لقيمات، وتودعه وتروح إلى بيتها. كان مجلسه الدائم قرب النافذة في أقصى الصوفة حيث يطل على الليل والوادي والذرى المعممة بالبياض. في آخر الركن المقابل من الصوفة، تجثم ببغاء في قفص كبير أبقتها المؤجرّة مع ما في البيت من أثاث تلك الليلة، بعد عدة الكؤوس، والتفكُّر، والوحدة، نهض الرجل ودنا من الببغاء وخاطبها قائلاً:

- أنت حتماً تتمنين لو كنت حرة.

نطت الببغاء العجوز من طرف القفص إلى الطرف الذي يواجه الرجل. عاد يقول:

- لابد أنك ضقت ذرعاً بهذا السجن الأزلي.

صدر عن الببغاء صوت. قال الرجل:

- فهمت. أنت تؤثرين الحرية. أبشري، سأطلق سراحك.

وذهب إلى المطبخ فأحضر قضيباً، وفتح باب القفص، وأمسك القضيب من نهايتيه الاثنتين، وقدمه للبغاء التي اقتربت واستعانت بمنقارها على تلُّق القضيب. حملها الرجل وذهب بها إلى مجلسه ووضعها أمامه على الأرض، وخاطبها قائلاً:

- هأنتذي حرة.

وقفت لا تدري بادئ الأمر ما حل بها. تلتفت حيرى. أين القضبان، أين الحلقات المتدلية من السقف تتأرجح عليها وتقفز من واحدة إلى أخرى؟ أين حُقُّ الماء؟ أين صحن الفاكهة؟ لماذا لا تبدو المرئيات من خلال خطوط عمودية؟

ثم إنها استدارت حتى غدت تواجه القفص، وأخذت: تك، تك، تك تخطو (لأنها نسيت الطيران منذ أمد لايستذكر) بخطوات، خرقاء، نحو القفص... فلما بلغته استعانت بمنقارها الأعقف، مثلما فعلت لما تسلَّقت القضيب، ودخلت قفصها. وما إن استقرت فيه، وأحست أنها في مائها حتى أطلقت صيحة انتصار ثاقبة: «ويع»!

عاد الرجل إليها يعاتبها:

- أهكذا تفعلين! أعرض عليك الحرية فتأبين؟

وعاود تحريرها فعاودت الحيرة فالعودة إلى القفص. خمس مرات، ستاً، عشراً. لافائدة. آخر مرة ذهب إليها وقال لها:

- فهمت عليك. أنت حريتك في العبودية!

وصفق الباب عليها!

* * *

ولكنه لم يطُل اعتكاره. عاد يستذكر كل كلمة، كل حركة. مستحيل. هذه قماش آخر. هذه وضعوها في مدار، سارت حول رحاه معمَّشة العينين سنة، سنتين، عشراً... أين الغرابة في أن تكسره؟ وأما قولتها إنها لا تريد أن تفرط العقد الذي تعودته فهي تعني أنها تذوب شوقاً إلى من يفرطه لها.

* * *

وتصبح له. ولكنها، وهي شعثاء محمرة العينين لاهثة ما تزال تثور عليه: - أنت سيء.

- أنت حبيبة عمري. أنت لي.

- أنا لست لك، ولن أكون لك.

كل مرة كان المشهد يعاد. على الهاتف أرق الكلمات، وعند اللقاء الثورة.

- ما عساي أن أصنع الآن؟

- فيم؟

في كثير من الأحيان أهمُّ بأن أمسك «ه» من تلابيبه، أهزه بعنف وأصرخ به: «لماذا لا تعرف تتكلم مثله؟ لماذا لا تعرف تبوس مثله؟ لماذا لا تعرف تنام معي مثله؟

- يا عمري.

- سيء. ابليس. أنا ذاهبة.

- ألا تقبلينني؟

- ألف قبلة (تقبله)، ولكني لا أريد، لا أريد، أنا رايحة.

- اللّه معك يا حبيبتي.

- تلفن لي، أي؟

هذه اللازمة لم تنل من هيمانه. ولكن للجسد منطقاً آخر. الجسد كان انسلاختين، واحدة متأججة متوهجة عندما يتكلمان الساعات الطوال على الهاتف. وأخرى متلجلجة، تسعى على استحياء، تكاد تكون خامدة. ولعل هذا التأرجح هو الذي جعل عينيه العاشقتين تأخذان برؤية الأشياء كما هي في الواقع. مرة سألها وهو يمسك أحد ثيابها الداخلية:

- ما هذا؟ كم ثمنه؟

قالت في بساطة:

- ثلاث ليرات.

- تعالي بكرة من كل بد.

بكرة كان يلبسها واحد بثلاثين. نظرت في المرآة وهي تختال مثل الطاووس وزمَّت شفتيها في تدلع:

- لا تشتري لي شيئاً مثل هذا بعد اليوم. أنت تفسدني.

كل هدية كانت تُقبل طبعاً، ولكن بعد مراسم الرفض والبرطمة المتدلعة والعتب والزجر المعتادة، التي كان يتراءى له من خلالها دنيا غريبة مقلقة لا يدرك أن يتعرفها معرفة حميمية!

واضطرد الاعتكار: من جهته كان يحاول أن ينسف مؤسسة عمرها أكثر من عشر سنوات، ويعيد بنيانها مدماكاً مدكاً! من جهتها كان عوضاً، مقابل بعض الزعزعة السليمة، تلك التي أصابت نظام المؤسسة الآسن الدقيق. كان في برزخين، كدت أقول نجمين متباعدين بعداً فضائياً أو في زوبعتي رمال. فبينا هو يكتب في دفاتره كل يوم عن الوجد والاتحاد والأقيانوسية (هو، على فكرة، مولع بهذه الكلمة أيضاً!) وأن يكون للمحبة وجدان يفضل بينهما جدار كتيم، عازل، وجودها في المؤسسة ووجودها الأسمى، الأمثل، الأروع، الأكثر حرية، فيه!! من غير أن يتأثر وجودها الأول بالآخر!!

تعال حل هذه الألغاز!

وجاءته مرة، مثلما تجيئه دائماً من حيث الجدة والرتابة واللامساس والذوبان. ومن كلمة إلى أخرى قالت في بساطة كأنها تلقي التحية:

- معك مئة؟

- مئة ماذا؟

- مئة ليرة.

- معي، خذي.

- أنا أحتاج إليها.

- أسألتك؟ خذي.

- المسألة أني...

- قلت لك: لم أسألك..

- لا، يجب أن تعلم. أنا... أنا حبلى.

لم يفهم بادئ الأمر. حبلى؟ ماذا فيها؟ كل الناس يحبلون.

قالت متهجمة:

- منك.

كان هذا لهذه ال «منك» وقع أجش، أنكره كأنه شبح.

فجأة انكشف له كل شيء. مر قدام عينيه شريط طويل مروراً يثير الدوار لسرعته: حرمانات زوجها لها. حَلَبُه النملة. بحبشته. محاسبته على القير والقطمير. حضوره الدائم في أنصاف القروش الصغيرة جداً. شح أمها وتسلطها على أبيها حتى السحق. علاقاتها بإخوتها وأخواتها تشبه ما يروي عن علاقات الناس بعضهم ببعض يوم الحشر، إذ لكل منهم شاغل يشغله عن أمه وأبيه وصاحبته التي تؤويه، شاغل في جسده وروحه: المال! لم يكن ينقصهم إلا أن يهمر بعضهم على بعض عندما يكون بين يديه رغيف مأدوم... قال في وناء:

- مني، من «ـــه»، هذا لا يهم، خذي!

- أنا متأكدة من أنه منك. أنا لم أشأ أن أطلب منك، ولكن معي خمسين والدكتور... (سمت طبيباً لا يفعل غير هذا) لا يقبل بأقل من مئة وخمسين. هذا من متزوجة، وأما من غير المتزوجة يا ساتر، يصبح نمراً مفترساً.

- هل أعطيك خمسين أخرى؟

ازداد وهنا ووناء. قالت في نزاهة.

- لا، معي، ولكني متأكدة من أنه منك. على أية حال سأعيدها لك آخر الشهر.

- لماذا تعيدينها ما دام منـــ...

- لا، جد. سأعيدها.

* * *

لما أخذت الوشائج تُحتَضر رأى الحزن شبحاً يدنو من بيت مهجور فيفتح بابه المتشقق بيديه العظميتين، الباب يصر مثل تابوت. الشبح يدخل. يغلق الباب خلفه ويقيم في البيت المنسي. ماتت ليالي الصبوة. ألوان قوس

قزح وعصفور ينتفض تحت مطرة ربيعية. تكسرت أسلحة المقاتل. أصحيح أنه لا يذعن؟ صحيح. ولكن ما الاذعان؟ ما عدمه في غيابة قبر؟ ما العزم على دخول المعترك وليس في كف المقاتل سيف. ولا في المدى المنظور عدو؟ لا شيء إلا قبر مهجور حتى من ذكريات طرّزت، طوال أربع سنوات أو خمس ربما أو شهر، طعنة طعنة وقطيفة قطيفة. زوبعة الرمال جرفت أرج البنفسج الطرير، وتنفس الورد، وهمس الزنبق، وسورة الصبوة. ما عساه أن يصنع بهاتين العينين الجديدتين ترصدان الزغب حول الشفة حبة الكرز، والروح التي ترتاح حول مدار في معصرة زيتون، ورقة التنهيدات الراضية في السرير وتميزان بين «نعم» تقول من أعماق التوق: «أنا أذوب فيك.» وأخرى تقول: «أنا صنفت. أنا تشيأت»، تقولها في انتصار أيضاً!

ولكن، لماذا، لم تكن له هاتين العينان دائماً؟ بلى كان بصره حديداً دائماً ولكن ما كان أسرعه إلى العشاوة!

على حافة القبر المهجور، وهو في المقبرة ما يزال، راحت يداه، من غير أن ينتبه، تنبشان في أحد دفاتره الصميمية، تلك التي لا يطلع عليها أحداً. في هذه القبور، عفواً الدفاتر، لم يكن يضع شواهد عفواً أعني لا يذكر أي اسم صريح، ولا سيما إذا كان اسم امرأة. إنه يكتفي بالحرف الأول. وقلّب بضع صفحات. قرأ:

«اعتذرت «ميم» عن دعوتي إلى الغداء في البيت. مع أني قلت لها أني وحدي. كانت أخبارها قد انقطعت منذ الأحد حتى أمس حين تلفنت إلي تقول بالفرنسية: «نتغذى خارج البلد؟» فلما قلت: «أنا مفلس» تغير صوتها. ألححت على مجيئها إلى البيت فازداد صوتها تغيراً. شحب. تواهن، وقالت أنها مريضة ولن تخرج. في المساء تلفنت. قالت لي جارتها إنها خارج البيت! آخ يا...

«اليوم، الأحد، تلفنت لها. قلت: «جاءني مبلغ لا بأس به»، وإذا أنا بلهجتها تنقلب انقلاباً مدهشاً. شقرقت. زغرد صوتها. قالت ضاحكة أنها اليوم أحسن لأنها شربت عصير الليمون!».

«الخميس في ... اليوم جاءت ميم تطلب مئتي ليرة. قلت لها: «مامعي غير خمسين» قالت مستنكرة، وفي حدة كأنها تنتهرني: «لا تكفيني. عثرت في الصالحية على معــطف فرو يجنن. أنت حتماً ستحبه». ما معطف الفرو هذا الذي بمئتين؟ يا بلاش! إلا إذا كان فرو قطط. المهم. استدنت من مروان كالعادة. دفعت. المساء، جاءت «تكافئني»، وهي ترتدي «معطف الفرو الذي يجنن». حبيبي! كان آية في الشرشحة وقلة الفرو. الأنكى أن له في مؤخرته شيئاً هابطاً يشبه القيلة المائية. ما كان أشبه بخُرج جنفيص موسوق بالكرنب!».

ونط شواهد: هنا ترقد «لام». هذه رحمها اللّه مولعة بكلمة «ظروف»، تقولها على الطالعة والنازلة: لماذا أقمت علاقة معه إذن مع أنك لم تكوني تهضمينه كما تقولين؟ - أنت لا تفهم الظروف الموضوعية. قبل أن تطرح أي سؤال، قبل أن تصدر أي حكم يجب عليك أن تدرس الظروف، لأن الظروف...

على شاهدة أخرى وقع على مشروع رسالة كان ينوي توجيهها إلى «نون»، ولكنه لم يفعل. أغلب الظن أنه الوناء. قرأ:

«حبيبتي الصغيرة، أكنت في وعيك البارحة أم أنك كنت في حال مرضية لا سمح اللّه؟ كل وجهك كان يصرخ بالكره والضغينة حتى اختلطت معالمه الفاتنة وأنكرتُه. أتفجر ذلك هكذا فجأة أم أنك كنت تحتضينه منذ زمن بعيد؟ البداية - أذكِّرك - كانت لما نظرت إلى ذلك المقطع من «بحيرة التمّ» يؤديه راقصان من البولشوي تياتر على الشاشة الصغيرة. وقلت، كمن يتابع أفكاراً تدور في ذهنه: «الحياة هكذا مركبة. حتى في الرقص تعتمد الراقصة على الراقص وأما أنت، المقتصد بطبعك إذا أنا لم أستعمل كلمة أقسى، فترتاح إلى نظرية المساواة بين المرأة والرجل، هذه النظرية الباطلة، المخالفة للطبيعة. وإلا فما سر هذا الذي يحدث منذ فترة غير قصيرة: لا دراهم، لا هدايا؟ لا شيء إلا المشاوير!» قلت لك: «يا حبيبتي أنت لابد تمزحين!» صرخت في موجدة «لا، أنا لا أمزح. المرأة الجميلة يجب أن يكون لها

مقابل! روعت. كيف استطاعت شفتاك الجميلتان أن تفلتا مثل هذا الكلام؟ كيف تتكلم واحدة مثلك على «مقابل»؟ المرأة المحبة،يا سيدتي لا تفتح سيرة المقابل أبداً، لأنها لا تجد في الحب لا تفتح سيرة المقابل أبداً، لأنها لا تجد في الحب أخذاً وعطاء أبد الدهر. هذان، كلاهما، يتحدان في واحد يجل عن أية تسمية. وأما اللواتي لا يحببن، ومع ذلك «يعطين» ويتكلمن على المقابل، فأنا أعيذك أن تكوني من زمرتي (مع أنهن «يعطين» لكثيرين من أجل الشغل، ولكنهن يخلصن لواحد أحد لا يسألنه مقابلاً أبداًا!) وهذا ما يجعلني أغلِّب الظن أنك لم تكوني ليلة البارحة في أحسن حالاتك الصحية...».

بعد بضعة أيام، في دفتر المذكرات ذاته:

«لم أرسل الرسالة التي كتبتها يوم الثلاثاء إلى «نون» ذلك أنها لما تكلمت على المقابل ألجمتني الدهشة فحملت عصاي وقبعتي وتسلمت الباب من غير أن ألتفت ورائي مع أن آخر نظرة إليها طالعتني بمنظر فخذها المضيئة. لو بقيت لحظة واحدة لأغمي علي. منذ ذلك اليوم وأنا أحس المرارة في حلقي كأنها الدواء. آليت أن لا أدعس لها عتبة حتى ولو ذبت شوقاً.

«لم أر أكذب مني في عمري كله. ذهبت اليوم. لم تكن سيئة. عاتبتها: «أهكذا تتكلمين تلك الليلة على «المقابل»، ألا تستحين؟ جرحت قلبي، أتعلمين؟» قالت مستغربة: «ماذا تقول؟ ألأنا فتحت سيرة المقابل؟ قلت: «فتحتها يا ستي. فتحتها جداً، كأنها جراح!» وذكَّرتها بالتفاصيل، ذكرتها حتى بالكلمات التي استخدمتها. وأضفت أقول محزوناً: «نحن على وشك أن نكون زوجين. من جهة أخرى، اغفري لي أرجوك هذا السؤال أخجل من طرحه حتى يزخني العرق: هل كنت مقصراً أنا؟» قالت في نزاهة: «أنت أسأت فهمي يا حبيبي. أنا أخذت عليك أنك تهدي لي أغلى الهدايا بغير مناسبة فإذا سنحت مناسبة كعيد ميلادي مثلاً فإنك لا تهديني شيئاً. تكتفي بأن تحتفل بالمناسبة في مشوار» وأضافت في «موضوعية» لا غبار عليه: «إذا أنا حسبت ما أعطيتني من قروض وما قدمته من هدايا، وما أنفقته في مشاويرنا، فلا بد أن المجموع يبلغ مبلغاً محترماً، قد يكون كبيراً جداً على من كان دخله

مثل دخلك الدرويش. ولكن ما أشكو منه هو، أنت... أنا... لأن الأصول... المناسبة... لأنك اسمح لي أن أصارحك تحتاج إلى... بلى ولكن المقابل عنيته... أنت لا تفهم... لماذا لا أقولها صراحة؟... المقابل مقابل المناسبة..

«مرة أخرى أقسمت الأيمان المغلظة أن لا أدعس لها عتبة. أليس لي أنا أيضاً عيد ميلاد. أليست لي «مناسبة»؟ أم أني...».

وقرأ، قرأ، ثم قرأ... ثم ابتسم ابتسامة وانية غفوراً، وهمس في أذن نفسه: «يظهر أنك أنت الوحيد الذي ليس له مقابل!».

*   *   *

تلك الأيام

تلك الأيام، أنت تعلمين، كانت معارفنا من النساء تقتصر على الأمهات والمحرمات وحدهن. وقد «تتكشف» علينا عجوز مثل أم الناجي رحمها اللّه. أنت تذكرينها، تلك المرأة الصغيرة المجففة ذات العينين الصغيرتين شلوطت رموشها النار والسنون. «تتكشف»؟! يجب أن لا تؤخذ الكلمة هنا على اطلاقها: صحيح أنها كانت لا تمانع في إبداء وجهها، ولكنها ما أن ترانا - ونحن في تلك السن المبكرة ما نزال - حتى تسرع إلى «وضع شيء» على رأسها لأن اللّه أمر بالسترة، ولأن شعر المرأة - أية امرأة حتى أم الناجي - عورة. تضع شيئاً على رأسها حتى ولو كانت أمام التنور، والدنيا تموز أو آب.. الصوت ذاته كان عورة.

فمتى ما يبلغ الولد الحلم يقع الرصد على كل ما هو انثوي.

فإذا طرق باب ولم يكن وراء الباب غير الحريم، ولم يكن لربة البيت أو إحدى بناتها مناص من أن تجيب، وقفت خلف الباب وصفقت بيديها:

- طق، طق.

هذه تعني: «ماذا تريد؟» وتجيب أنت:

- فلان هنا؟

- طق، طق.

طق، طق تعني هذه المرة أنه ليس هنا!

كان هذا هو الآيين عند بعض البيوتات. بعض آخر دينه أوسع قليلاً. فإذا طرقت عليهن الباب وضعن شاشية أو غطاء صلاة أو كما أو فضل ثوب على أفواههن وأجبن: «من؟» حتى يشوهن أصواتهن ولا يرتكبن «الحرمانية»!

ما أصفه الآن لا يشمل النسوة اللواتي يأكل عائلوهن خبزهم بعرق الجبين، أعني أولئك المطحونين من عتالين وسقائين وأجراء وبائعين متجولين في القرى من جهة، وفلاحين من جهة أخرى. نسوة هؤلاء الكادحين لسن فاضيات لمثل هذا الترف، ترف أن يتخبَّأن أو أن يشوهن أصواتهن بشاشية. حجابهن ذاته نوع من فض العتب أعتقد أن مرده إلى تأثرهن بنساء الطبقة العليا والمتوسطة. ذلك أن نساء الكادحين يكدحن هن أيضاً.

تلك الأيام لم يكن سهل «الروج» قد جفف. كان ثمة مستنقع شاسع المسافة، يزداد كل عام ما يلتهمه من الأراضي الزراعية المذهل خصبها. ذلك المستنقع كان يزود بلدنا بالبعوض العنيد الملحاح الذي لم يدع أحداً منا إلا وأصابه بالملاريا أو أماته بإذن اللّه. وللملاريا في بلدنا حديث شرحه يطول: كنا نسميها «الدور المثلث»، أي أن حُمَّاها تعاودنا كل ثلاثة أيام.. فلا تعجب إذا رأيت أن الأقلين منا لم «يبقوا» في صف أو صفين أو كل الصفوف، يعني عوضاً عن أن يقضوا خمس سنوات في الابتدائي يقضون عشراً... إذ كيف يترفعون و «الدور المثلث» لا يفارقهم أكثر أيام السنة الدراسية.. أقول أن ذلك المستنقع كان يزود البلدة بالبعوض ويقضي عاماً بعد عام على أجود الأراضي الزراعية في السهل.. ومع ذلك كانت له مأثرة: كانت مياهه تنطوي أولاً على ثروة لا مثيل لها من البروتينات المتمثلة بسمك السلور الطيب، الذي كان يباع بسعر التراب، يعني أنه كان في متناول كل الفقراء. وتنطوي ثانياً على ثروة أخرى رائعة من القش والقصب. القش بخاصة كان نساء المطحونين من شغيلتنا وصغار فلاحينا يشتريه ويشتغلنه حصراً يبعنها في البازار (سوق الأربعاء). المرأة هي التي تذهب إلى الساحة التي تقام فيها تلك السوق فتشتري ربطات القش وتكب على شغلها حتى «تستوي» حصيرة «تنزلها» يوم البازار القابل وتبيعها لقاء دراهم معدودات تستعين بها وتعين رب الأسرة الذي يعمل من الفجر حتى أذان العشاء بحق الخبزات!... لذلك قلت لك أن هؤلاء لسن فاضيات لترف اللجلجة وراء الأبواب و «خدوا درب» و «يا اللّه»... انهن يولدن في الألم، تخرجهن إلى الدنيا «داية» قد تكون إنما

دفنت عشرين موسى[١] ولكنها تظل لاحول لها ولا قوة إذا ينزلن من أرحام أمهاتهن «بالهين»... وإما إذا تدللن أي تعسرت الولادة «فاللّه هو الذي أعطى، واللّه هو الذي أخذ».. ولا زعرف، على كثرة من عرفت، أسرة واحدة لم تفقد ولداً أو اثنين وأحياناً أربعة وعشرة. أجل، انهن يبصرن النور في الآلام، ويكبرن فيها، ويتزوجن في الكدح الدائب اللاهث، ويمتن لا يدرين ما هو أصل الحكاية من أساسها!

تلك الأيام لم أكن بلغت العشرين، ولم يكن في البلدة من ألهيات ومتع إلا الضرب في غابات الزيتون، الحافة من حول البلدة، إذا كان الفجر وتأمل الأفق الملون الذي يلبس ألف غلالة ويشلح ألفاً أخرى.. والخزامى، والبيسان، والمضعف ومجرة من الأزهار البرية، وشحرور يغل بين الأغصان الأبدية الخضرة فيصفر صفرة أو صفرتين ثم يتابع نزهته الصباحية مثلي... حتى إذا تنفس الصبح، وتعارفت الأشياء، سحبت من تحت إبطي كتاباً، وجلست في حضن زيتونة، وأسندت رأسي على ثديها أو بطنها ورحت أقرأ. بعض الزيتونات رآني وأنا أدرس الابتدائي والتجهيز وأحضر البكالوريا. وأما في الفرصة الصيفية فكانت لي رفقة لا علاقة لها بجغرافية سورية أو بالمتراجحات العددية أو بقانون أوم أو جول. في الفرصة الكبرى كنت أرافق يوماً القرآن، ويوماً الخيام، ويوماً علي محمود طه وإبراهيم ناجي وشوقي.. الرسالة، الثقافة، الرواية، إلى آخره.

كثير من هذه القراءات كان يسكب في قلبي حزناً لا يتعزى: أولئك الناس، في بلادهم القصية تلك، كانوا يتكلمون على المرأة، يغنون لها، يصلون، أحياناً يرجمونها، يندفعون عليها مثل حمم البراكين التي نقرأ عنها في الجيولوجيا، ولكنهم - الملاعين، المنافقين - لا يفعلون ذلك إلا لأنهم عرفوها محبة أو قالية، ملاكاً أو شيطاناً رجيماً. إنها لديهم، على أية حال، إنسانة تحكي، تسكت، تقوم، تقعد، تغضب ترضى... ولكنها معهم، يستطيعون

---

(١) كلما قطعت الداية، عندنا في البلد، ألف حبل سري دفنت موساها. دايتي أنا مثلاً دفنت عشرة، فيما يقال!

أن (يا ربي هل هذا ممكن؟ ولكن، ما داموا يقولونه!..) يمدوا أيديهم إلى شعرها الأثيث، الحريري، الهفهاف مثل هينمة النسيم الربيعي، ويمسحوا عليه أو من يدري. قد يبلون برأسها ويضعونه على صدورهم. يا بيي، شيء يجنن!... وأما أنا فلم يسبق لي أن رأيت شعراً متناثراً متشللاً حتى منتصف الظهر إلا في الصورة... وذات مرة فرجني أحد رفاقي على صورة امرأة صبية بمايوه سباحة فسرقتها منه وظللت أشهر أنظر إليها ألف مرة في اليوم. كل تفصيل أحرق ذهني، انحفر، مثلما الحفر على الخشب، في أعصابي... كنت عندما أقرأ قصيدة أو قصة فيها أن «حبيبته هجرته» أجدني شبه مهستر:

«شوفوا لي هذا الأخ... ولك ألا تبوس يدك ألف مرة وجهاً وقفاً وتضعها على رأسك؟ ولك افهم مرة واحدة: ما معنى أن تهجرك امرأة يا جاحد؟ أليس معناه أنها كانت تصلك؟ اي سيدي هات لي امرأة واحدة من هذه الملايين التي تزين كوكبنا هذا ولتهجرني بعد ذلك. وليقصف اللّه شبابي إن كنت أفتح فمي بعتب أو شكاة...».

ثالثة الأثافي، بل قل الأثفية رقم ألف، كانت لما أصدر المرحوم أحمد حسن الزيات ترجمتيه لرفائيل وآلام فرتر، وفيلكس فارس «لاعترافات فتى العصر» لموسيه و «هكذا تكلم زرادشت» لنيتشه. إن فرتر حضرته يدخل بيت أسرة فيها لست أدري كم بنتاً فيحب ويعشق، ويضم إلى صدره، ويكلم ويكلم... ومع ذلك يبلغ من صغر عقله أن يأخذ درب طريقه ويروح ينتحر! العمى، واللّه لو قبلت ريحانة مثل جبيبته أن أمسك لها يدها لا أكثر لأبيت الموت عمري كله. وأما نيتشه فقد زعلت منه أكثر: هذا يتكلم لي خلال عشرات الصفحات، مئات الصفحات، عن الإله الذي مات، والصيرورة الأبدية، والإرادة والإنسان الذي فوق الإنسان، ويشرق ويغرب كأن ليس في الدنيا نساء، أو أنه روي منهن الغدار. - وأني لأحد أن يروي منهن! - حتى فضي للحديث عن كل هذه الترهات التي لا يمكن لمن كان في حال كحالي أن تطأ برطاش عقله أو قلبه!

ولكن الأفظع من هؤلاء كلهم بوذا. بوذا هذا كان اسمه في الأصل - على ما قالوا - سيدهاتا، وكان الابن الوحيد لملك طويل عريض اسمه

سودهوارنا. أمير، ابن ملك، ولد على صينية من ذهب وربي في الدلال حتى أن أباه حظر على أي من حاشية الأمير الصغير أن يخدش أذنه بذكر كلمات كالشيخوخة والمرض والموت، التي لابد لأي كائن حي من أن يشرب كأسها. ليس هذا وحسب. عقبى لكم زوجه من ابنة عمه الأميرة يازودا التي ولدت له غلاماً ذكراً كأنه فلقة القمر أسماه راهولا... ولم يكد راهولا يرى النور حتى فهم الآلهة أن الأوان قد آن لكي «يخرج» سيدتاها ويضطلع بالمهمة التي سبق أن يسر لها خلال ولاداته المتعددة السابقة، تلك الولادات التي كان قد نسيها وهو في حاله الحاضرة... وكان قد صدر الأمر الملكي التالي: عندما يجتاز الأمير البلدة ذاهباً من القصر إلي حديقة الملاهي، يجب أن لا تقع عينه على شيخ أو مريض أو جنازة. هذا ما قرره البشر، وأما الآلهة فقد قضوا أمراً آخر إذ تجسد كل واحد منهم متخذاً هيئة آدميين كلهم أما مريض أو شيخ أو جثة أو راهب - شحاذ (بهيكهو)... لما رأى سيدهاتا هذه المشاهد امتلأ منها عجباً، وسأل حوذيه شانا عن أمرها فأجاب أن كل الناس عرضة للمرض والشيخوخة والموت، وإن الرهبان الشحاذين هم وحدهم الذين علوا على الآلام التي تسببها هذه الآفات علوا كبيراً... وأصاب الأمير من كلام الحوذي بلبال عظيم، وما لبث أن أخذ يبحث عن دواء لهذه الصفة، الموت، التي اتصف بها كل موجود، التي اتصف بها كل ماله بداية. بعبارة أخرى عزم أن يُفهم العالم سر الخلود.. لما عاد إلى القصر أعلم والده بما اعتزمه. وعبثا حاول الملك ثنيه عن عزمه فلم يبق أمام الملك إلا أن يحتجزه بالقوة ثنية عن عزمه ويقيم عليه الحراس الشداد. ولكن، ذات ليلة، دخل المخدع فألقى نظرة على زوجه وولده النائمين، ونَدَه حوذيه، وانطلق إلى مخرج القصر وإذا الآلهة تفتح له الأبواب دونما ضجة، وهكذا بدأ «الرحيل الأعظم»، إلى آخره، إلى آخره...

انتبه لي إلى هذه الجملة التي وردت منذ قليل: ألقى على زوجه النائمة نظرة وانصرف. تصور بنت مثل السكرة، عروس...

يا للخليين! نحن هنا لا نحلم بأكثر من لمسة يد، بأكثر من سماع صوت لا يشوهه شاشية أو كم ثوب... وهم يحكون عن الإله والأبدية والولادات

السالفة المتعددة.. هم يُحَبَّون ويحبون ويرون عياناً استدارة النهد وانسياب الزند وانضفار الساق وغمازة الإبض.. ونحن لا ترى غير سيقان الأشجار وانسياب الأغصان وانضفار الدوالي... لوبان، دوران مثل بغل في معصرة دبس! وأفكر لو أن هذا الدوران انفرد في خط مستقيم أما كنا نكون قد بلغنا المريخ؟!

وأذكر تلك الساعات الطويلة التي كنت أقضيها وراء خصاص النافذة المطلة على جاراتنا اللواتي لم يك عندهن وقت لترف الحجاب... كن، على الرغم من أنهن لا يشبهن في شيء، تلك النسوة التي في الكتب، إلا أنهن نسوة على أية حال... هل رأيت قطاً أمام ثقب فيه رائحة لفأر قد يكون إنما مر من هنا مجرد مرور؟ القط في هذه الحال على استعداد لأن يظل ينتظر دهراً. قد يعنيه على هذا الانتظار، المجاني في كثير من الأحيان، هذا الانتظار الذي قد يبدو مستحيلاً، لياذه بالأحلام: الآن يمط الفأر رأسه الصغير الشهي، يخطر لاهياً.. وإذا أنا.. أوه يا مخالبي صبراً، يا ريقي مهلاً لا تنشط، يا قلبي لا تلطم صدري هكذا من الشوق..

أنا أيضاً وراء خصاص النافذة كنت أكمن الساعات الطويلة... ما كنت أراه كان مخيباً للآمال. ولكن من يدري! قد تتحرر تلك التي تنشر البرغل على ذلك السطح من شيء من سراويلاتها، التي لا تختلف كثيراً عن سراويل الرجال، لأن الدنيا حر... عسى، لعل.. ولا يسعى شيء ولا يعل شيء. وتتهدر الساعات الطوال الغاليات، ويقتل شرخ الصبا في اللاجدوى، في اللاعمل، ينتحر في دوران لا يطحن حتى الزبيب!

كم كان عمركِ تلك الأيام؟ الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة؟

ما يهم! حتى ولو أنك كنت أصغر لما كان لك بد من ذلك المنديل السميك الذي رأيتك، لما جئت بيتنا للمرة الأولى، تحسرينه، أو إذا شئت تقتلعينه اقتلاعاً منذ أن فتحت لك الباب. بنت موظف كبير يعود إلى بلده. إن شاء اللّه يكون موظفاً بنته الصغيرة إلى المنديل السميك، وإلا أخرجته الألسنة عن دينه...

وأغلقت الباب وراءك وأسندتِه بظهرك، ووقفت مثل مهرة مزهوة تحدقين بي. أنا لم يحدق بي أحد من قبل إلا الحروف.. هذه هي المرة الأولى التي تحدق بي فيها عينان أنثويتان، عينان صغيرتان ولكنهما عينان من قوس قزح. لم تكونا نجلاوين أو حوراوين. كانتا عيني امرأة، عذبتين، جذلتين، حانيتين... أنا اذي كسرت عيني. أسبلتهما إلى الأرض. وكأنما استحييت، أنا «الرجل»، أن أخفض بصري أول من يخفض فعدت أنهض عيني مرة أخرى.

ولبثنا هكذا لا تقر لنا أعين. نشب صراع: من يخفض بصره أولاً هذه المرة؟.. وهببت أنت إلى نجدتي:

- ألست أنت محمد؟

- بلى.

- هل صدِّيقة هنا؟

- نعم تفضلي.

- ماهذا الذي تقرؤه؟

- ما جدولين.

- صدِّيقة حكت لي. أنت تحب القراءة.

- أنا لا أحبها.

وشهقت أختي صديقة وهي تضع راحتيها على خديها مذعورة:

- غادة يبعت لك الحمى، أين منديلك؟

- ها هو ذا، لماذا؟

- يخرب بيت قلبك، كادت رجلاي تتقصفان.

- لماذا؟

- ظننتك خرجت هكذا إلى الزقاق.

وعلى الرغم من أن صديقة من جيل غادة فقد انتهرتني:

- ماذا تفعل أنت هنا بين البنات؟

كسرت قلبي. هممت بأن أستدير وأنصرف، وإذا غادة تهب إلى نجدتي مرة أخرى:

- اتركيه.

- يبعت لك الدم، ماذا لو جاءت أمي بغتة!

- أنا أريد أن أتعرف به.

- ولك واللّه أمي تخرب الدنيا على رأسنا. قم قلت لك.

- إذا ذهب انصرفت أنا.

كانت باترة. هذه البنية الصغيرة تضم برديها على آمر آسر.

لما رفعت المنديل في الدهليز أفلتت ضفيرتان خرنوبيتان تصلان حتى منتصف ظهرها، عقدت في أصل كل منهما ريبانة سماوية اللون. البلوزة صفراء مفتوحة الصدر قليلاً. ما هذا الذي في جيدها؟ أنه شكلة من الذهب. ولكنها ليست معلقة بسلسلة ذهبية. لك، هذه ريبانة من المخمل الليلكي هي التي تحف بالجيد. اخواتي ما عندهن شيء مثل هذا. الخدان موردان. هؤلاء حتماً ينامون تحت ناموسية فلا يلدغهم البعوض، ولا يصابون بالدور المثلث، وهم حتماً يشربون من ماء «مرتين» لا من جب (من مياه المطر) في صحن الدار الجب الذي نصف مائه دود.

خلال لحظة خاطفة خطرت لي الهتفات البلدية: «يا كربوجة بعسل»، «يا ناطف»، «يا ملبس بالفستق الحلبي»... لحظة خاطفة لا غير، لعلها إنما استحضرتها المفارقة: ذلك لأن حدة الصبا، وبكارة العينين، وبطر الإيماءة، وسورة المستقبل التي كانت تطل من كل شيء، من الجديلتين والعينين والخدين، نأت بي عن كل ما هو بلدي، على الرغم من أني أحمل البلدة، وما أزال، في أعصابي، في كل مسام من جسدي.

وجلست أنا وعيناي إلى الباب أن تفاجأنا أمي.

أرأيت أغرب من هذا؟ أنظر لي إلى أية قرارة سحيقة تسرب الخوف وعشش! أيخمد تفجر ربيعين لما يكتملا؟

وبدأت الفتاتان تلغوان هذا اللغو اللذيذ الذي قرر مصيري منذ ذلك اليوم فما استطعت له مدافعة أو مقاومة حتى هذه السن. هذه النطنطة من الروب

إلى الجغرافيا، ومن قبة الروب إلى درس الحساب، إلى الحمرة التي تستعملها الأم والأكلة التي تحبها الجارة... اللّه! أنا ما زلت عاجزاً عن أن أتصور العالم خلواً من هذه الزقزقة، من هذا الهديل... مالك علي يمين الموت أهون!

إذن فغوته، موسيه، الفونس كار، علي محمود طه لم يخترعوا ما كتبوه اختراعاً. إذن هذا يحدث. هاهو ذا يحدث: ههنا فتى يجلس قرب فتاة، فتاة من لحم ودم، لها ضفيرتان بريبانتين وتنورة وسكربينة لها قفل.. فتاة ليست طيفاً ولا شبحاً ولا امرأة مسجاة على صفحة كتاب..

ولم ننقطع عن تسارق النظرات.

وأعرتها ماجدولين. لما أعادته أحزر ماذا كان فيه؟ تحت كل عبارة ملتهبة كان خط بالحبر الأحمر!

أعرتها كتاباً آخر فيها رسالة.

أعادته وفيه جواب الرسالة.

ولم نلبث أن سنحت لنا فرصة. وإذا نحن يهجم واحدنا على الآخر. إن زلزلة الساعة شيء عظيم. قصف رعود. إعصار مقطع اللجم، براعم تشق أغصاناً فتصنع معجزة الورد: إنها القبلة الأولى. إنها إطلالة ما بعد قطع الحبل السري على العالم. ما هذا؟ وقِّف، أنا ما استطعمت. هات أرى مرة أخرى. لا، هذه أيضاً ما هي راكزة... أكان ثمة مرات أم أنها مرات واحدة غرقنا فيها حتى الغيبوبة، حتى الذوبان؟ ذلك أن أختي صديقة لما فتحت الباب ودخلت علينا لم نسمع نحن شيئاً ولم نر، مع أني أعلم جيداً أن باب الغرفة يصر، متى ما تمتد إليه يد، كأنه كلب حراسة!

يا حبيبتي، كنت تلك الأيام تحسين ثقل الرحى التي وضعت في أعناقنا وأرجلنا وأيدينا وألسنتنا.. ولذلك بلغت فرحتك بتلك الحرية التي وهبتنا إياها المحبة أن أولعت بالعلن. عدت لا يرضيك أن نتحاب خلف الأبواب، بعيداً من أعين أمي، وصديقة ذاتها فيما بعد، لا يرضيك أن تدعي لي باب داركم مواربا إذا كان موهن من الليل وهجع الحي لأتسلل إلى الدهليز.. شاقك أن نحمل مشعلاً ولو احترقنا. سد مأرب كسره السيل العرم على الرغم من كل ما قيل عن قوته، وإذا اليمن خراب يباب طوال قرون. نحن أيضاً كنا سيلين

عرمين لم يستطيع أي سد أن يقف في وجه أواذينا الهدارة. حملنا المشعل فاحترقنا: أخذوك أخذ مقتدر وزوجوك من ذلك الرجل الطيب حقاً ولكنه في عمر أبيك... وأخذت أنا فرميت في صحراء ما فيها غير السراب... كل ما عرفته بعدك كان ضرباً في تيه... ما أهم أنا! أنا رجل. هذا المجتمع كله لي. أنا أستطيع أن أسكر فيقول الناس: «جاهل، بكره يتوب اللّه عليه!».. وأستطيع أن ألعب القمار فيقولون: «اللّه يهديه!»، وأستطيع أن أدفع مالاً لامرأة وآخذها إلى التخت، فيقولون: «شوفوا الملعون، ما تزال نفسه خضراًا!»... وأما أنت فلم تملكي إلا أن تسلمي نفسك إلى اليد التي كنت تعلمين علم اليقين أنها ماضية بك إلى المسلخ. أنت لا تملكين إلا حرية وحيدة، هي أن تحسني وضع رقبتك على النطع حتى لا تزعجي سكين الجلاد، أن تكوني - بكلمة - شاة مطيعة، اللّه يرضى عليك!..

هذا ما كنت أظنه في البداية، أعني لما سمعت وأنا في الغربة أنهم باعوك، عفواً زوجوك.

ولكنك رفضت. آثرت مصير شمشون.

قتلت نفسك وزوجك جميعاً.

قد تحسبين، وأنت الآن أرملة مهدمة وأم بضعة أطفال رزقهم كفاف يومهم، أني كففت عن تتبع أخبار ملحمتك: لا، أبداً... ربما أكون فاتتني بعض التفاصيل، ولكني كنت أردم النقص دائماً بالرجوع إلى سيرورة حياتي أنا... لأني أنا أيضاً قتلت دائماً بالرجوع إلى سيروروة حياتي أنا... لأني أنا أيضاً قتلت كل النساء اللواتي عرفتهن، ولكني، مثلك، مثل كل قاتل، حملت من قتلتهن جراحاً لا تدمل أبد الدهر.

على فكرة، أجدادنا العرب كانوا يؤمنون أن القتيل الذي يقضي مظلوماً من غير أن يثأر له تنطلق منه هامة، طائر خرافي، يظل يصرخ بالثأر حتى يدال له من قاتله.

أي ستي، ذات يوم سأموت. وقد أوصيت أن أدفن في البلد لأني متأكد من أن هامة ستنطلق مني تظل تصرخ بالثأر من قاتلي!

*   *   *

عند معروف

قد لا أكون قادراً على رصد كل ما يمر بي خلال هذه الساعة وبعض الساعة أقضيها ظهراً في ذلك المشرب العتيق. في بعض اللحظات تتوارب لك كوة تشرف منها على مشهد بلغ من تعقيده، في القرارة، على الرغم من بساطته الظاهرة أن يختصر الدنيا جميعها، بكل ما تنطوي عليه من علائق مشتجرة متشابكة، وأسباب تضرب في عمق الزمن، آزاله وآباده، حتى لتقف فاغر الفم من ذهول، لا تبدئ ولا تعيد، مبهور الأنفاس، أعشى، تكاد تطفر إلى موقيك عبرات العجز والتسليم.

لا بد في البداية، من كلمة عن «جغرافية» المكان: في مواجهة الداخل حاجز من القناني. وراءه المغسلة. على حرفها علبة رايد، وصحن طافح بصغار القطع النقدية، أحيانا بليرات معدنية. فلو أراد أحد الشرب أن تُصَفِّي سكرته بالبلاش، فما عليه الا أن يقوم مرة بعد مرة إلى المغسلة، متظاهرا بغسل يديه تحسبا من الكوليرا!

المشرب درويش. تشغله، عن يسار الداخل، ثلاث مناضد، وعن يمينه اثنتان احداهما، الأقرب من الباب، الباب، لا تستخدم للجلوس إلا وقت الزحمة. في العادة تتخذ لوضع القناني المباعة في الأكياس الورقية، وعدّ القناني الفارغة التي يجيء بها الشاربون في بيوتهم ويقبضون ثمنها. وهذه تجارة قائمة بذاتها، كثيرة التعقيد هي أيضاً، لها سراديب ودخلات وفوتات مثل أية تجارة أخرى... المنضدة الثانية التي في الزاوية، بين المدفأة والبراد، هي التي آوي اليها دائماً. إن لها ميزيتين: أولا، تستطيع أن ترى منها جزءاً من حركة الشارع، ولا سيما انصراف بنيات المدارس الساعة

الثانية عشرة، أو عودتهن حوالي الثانية بعد الظهر. ثانياً: أنت ترى منها ولا ترى. وربك تعالى نادى بالستر. وإذا بليتم بالمعاصي فاستتروا!

ذلك اليوم، أجيء. أجد «منضدتي» خالية. أهم بالقعود على «كرسي» ولكني ألمح «سلكا»، هذه الحطة التي يشتمل بها الشغيلة أيام البرد. أحجم. أسأل معروف، صاحب المحل:

- فيه أحد هنا؟

يغمزني غمزة تعني: «ولا يهمك!»، ويقول:

- تفضل استرح، أستاذ.

ويتناول « السلك»، ويرميه باهمال على قناني الحاجز.

أجلس. تحت الرف الأخير، في الصدر، لوحتان متراكبتان تقريبا. العليا تقول: « الدين ممنوع»، وهذا غير صحيح، لأن معروف يدينني، وإذا احتجت إلى قرضة اللّه حسنة أقرضني. والسفلى تقول ان «قنينة البيرة بمئتين وخمسين قرشاً»، وهي أيضاً غير صحيحة، لأن معروف لا يقبض غير مئتي قرش من كل الناس.

خلال مدة طويلة كنا نشرب «عند تومي». هذا اسم درج على ذلك المشرب الآخر، وليس اسم صاحبه. هناك كان صبري هو الذي يلمنا. صبري، قبل أن يصاب، كان جذابا، لطيفاً، مهذباً، ذا ايماءات نبيلة، مراقبة على الشعرة. مرة شربنا، هو وأنا ، ثلاث عشر ساعة متصلة. لم يكن الشرب لدينا غاية: أكثر من عشرين سكيرا جاؤوا إلى منضدتنا. شربوا حتى التوق حنكهم... وأما هو وأنا فبقينا صامدين مثل الجبل. أحيانا، كنا نركي رأسينا على الجدار، نرتاح قليلاً، ثم نعاود الشراب والفرجة على الخلق. عصور كاملة مرت علينا، بعضها حجري وبعض برونزي وبعض حديث: انسان وزوجته الفرنسية جاءا يشكوان عبد الستار، أحد معارفنا: « آويناه. أكرمناه. نام معنا (الزوج هو الذي يتكلم بضمير الجمع والمرأة تعاونه: « تكونّان جسداً واحداً!) فخطف سروالنا، وراح يعرضه على الناس كأنه راية مغتنمة من

معركة مظفرة. شهر بنا. بم أسأنا إليه حتى يفعل هكذا؟» - حاشاكم أن تسيئوا. - كثر اللّه من أمثالكم!»...

وجاء أبو عابد. هذا فلسطيني، متين البنيان، عظيم الهامة، يطل من عينيه حزن مقيم، ورجولة باسقة. صبري وأنا نحبه. سألنا هل أكلنا؟ ولم ينتظر. قام وأوصى على غداء.

فجأة اعتكر: دخل شاب وسيم فيه خنث، شعره خنافس، قبل ذيوع هذا الزي، ومعه امرأة صبية، ظاهر أنها أجنبية، حلوة، قسماتها كلها مكلثمة ناعمة. قد يكون هو أجمل منها ولكنها حلوة. ألقيا التحية بالانكليزية، وجلسا إلى المنضدة المقابلة. صبري أحسن رد تحيتهما. إنه يحب الأجانب، ويعتبر نفسه - من حيث أصوله - منهم. أبو عابد أدار لهما ظهره في حرد، وقال لصبري:

- لا تسلم عليه. ازبله، يلعن والده...

وأضاف نعتاً قبيحاً. لامه صبري:

- أبو عابد مابك؟ هذا لا يجوز أبدا. غريبان يستحقان منا كل ترحيب.

قال أبو عابد في نزق:

- هذا ليس بغريب. هذا أستاذ جامعة. انكليزي. ملعون والدين.

- حتى ولو كان...

- ومـــ ... أيضاً.

كرر الكلمة المقذعة مرة أخرى.

قلت له ضاحكاً:

- أنت ما شربت غير كأس واحد يا أبو عابد!

لم تكن البذاءة من خلائقه. قال:

- له يا أبو محمد. أبو عابد يضيّع! ولكن هذا... مثلما أقول لك. المرة الماضية تظاهر بالسكر قمنا طبَّقنا له المرَة، ورحنا إلى بيتهم. وإذا هو صاح ويريدها لنفسه قبل امرأته، تفوه...

ضحكنا. قد يكون الانكليزي إنما حدس موضوع حديثنا، غير أنه لم يأبه. ظل مشرقاً، بسام الوجه حتى ليتصور من ينظر إليه أن شيئا لا يستطيع تعكير صفوه.

وجاء آخرون. أحدهم حاضرنا في مضار الويسكي. قال انه تركيب كيماوي ، كما قرأ في إحدى المجلات، لأن من غير المعقول أن تكون مصانع الويسكي في سكوتلندا قادرة على تلبية طلبات الشريبة الذين ما ينفك عددهم في ازدياد في أربعة أطراف الأرض، مع تعقد الحياة الحضرية وهيمنة الأمراض النفسية... العرق أيضاً روح العرق. ولما سألناه عن الحل قال انه في « الكامباري » هذا شراب طلياني لما يغشّ وقد دفع الأميركان ملايين الدولارات في براءة اختراعه، ولكن الطليان رفضوا. ثم إنه طلب كأسا واحدة من الكامباري، وثنى بالويسكي، وثلث وربع عرقاً!

كان الجو عند تومي يعبق بالمودة ، كأن الشرب أهل حارة، أهل أسرة واحدة. في كثير من الأوقات لا أكون أشتهي الشراب، ولكني أشتاق صبري كأنه حبيبة، فأذهب إليه، وتشتجر الأحاديث عن اللّه والوجود واللا وجود والمطلق والناس والقبور... صبري يحب كلمة « الموت» ويلفظها بالفصحى من دون سائر الكلام.

وهدم مشرب تومي. شرع باقامة بناية محله. وصفى تومي المحل وسلمه للساقي سعيد على انه تعويض عن السنوات الثلاثين التي خدمها عنده، لقاء إسقاط حقه عليه في التأمينات الاجتماعية. وانتقل المشرب إلى موقع آخر، غير بعيد من «عند معروف»، ليس فيه الجو الأول الحميمي الودود. واحتفظ سعيد بالإسم القديم: « عند تومي».

«عند تومي» الجديد سميناه «الأتوبوس»، لأنه مستطيل، حشرت فيه المناضد صفين متوازيين على طول ضلعي المستطيل، والشاربون يدير بعضهم ظهره لبعضهم الآخر. ولعل تحول الساقي إلى معلم حوّل روح المشرب كله. صرنا زبائن بعد ماكنا شربا.

كان سعيد مفرط السمنة، مصاباً بالربو، يلهث اذا نهض، ويلهث كذلك إذا لم ينهض. تلك السمنة كانت في نظرنا رمزاً لتحول من نوع اخر: خرج سعيد من التقتير عليه في الرزق إلى الوفرة. رأى المحل الجديد يدر عليه لبناً وعسلاً فازداد شراهة.

ومات سعيد، من السمنة ربما، مخلفا على المشرب ولديه. هذان تركا أباهما المرحوم في نصف الطريق. استحالا إلى حالوشين يبيعان الويسكي الوطني ويحاسبان الشارب على اعتباره سكوتشا. يتلاعبان بالفواتير. رفعا حتى أجرة المخابرة الهاتفية الداخلية إلى ربع ليرة! صار المحل يذكر بسوق تعج بالنشترية!

صبري أيضاً تغير. ازداد يقينا بأنه سُرة الكون. البذور كانت فيه رشيمات، وإذا هي - بعد عملية انضاج خفية لم نكن ننتبه إليها - تترعرع فجأة، تصبح كثيفة الظلال على نحو يعشي العينين ويسلم الأحلم والأصبر إلى ضيق ممض. كان يتكلم على المطلق فأضحى هو المطلق، الأزل والأبد في آن معاً. أمسى يقول انه. اذا كان مغموراً الآن، ففي بحر ثلاثين، أربعين، في الكثير خمسين سنة سيفضله الناس على بودلير وسان جون بيرس وريكله وبوشكين وشيلي وبايرون مجتمعين. سيبدو هؤلاء، حزنهم، معاناتهم، موتهم، لعب أطفال إذا هي قورنت بقرارة الجحيم الدانتية التي غاص هو عليها حياة وشعرا. صحيح أن « الموت» سيأبى أن يبقي على خلاق متميز يزاحم الآلهة مثله حتى يرى مجده بعينيه. ولكن ما يهم! ما أبدعه لا يعرف « الموت» المادي أبداً!

خطر لي أن أذكره بأن برنارد شو قال مرة عن نفسه: « خلال خمسين سنة لن يقرأني أحد»، وأن برشت كتب: «أنا لا أكتب مسرحيات خالدة. وإذا ظللت أقرأ وأمثل بعد خمس وعشرين سنة، فهذا يعني أن المجتمع لم يتغير. مهمتي أنا تقوم على تغييره».

خطر لي أيضاً أن أنشده رباعيات الخيام! ولكني لم أفعل. ما الفائدة؟

وهكذا هربت عند معروف. هذا مشربه، الذي أنا فيه الآن، شيء آخر تماماً. نظيف من المثقفين نظافة تامة. وهذا ما جعلني أحس فيه، على دروشته، بأني حر. أبو معروف كان سوداوي المزاج، ساخطاً على كل شيء. يعتمد على بيع المفرق، وينتقي زبائنه، ويرفض أن «ينزل» عرقاً. يقول إنه مشرشح ويغري بالخناق. مرة رفض أن يقدم أي شيء «للبيك»، الذي كان رأسه في السحاب، لأنه قواد الأكابر كما كانوا يقولون عنه. فلما خرج هذا من عنده مُغضَباً، ضحك أبو معروف ضحكة سوداء وقال: «درب الصَدّ مارد. يضرب في كرشه. حلوة والله، آخرة محلنا مكتب قوادين!»

ومات الرجل، العام الماضي، عن ولد ذكر وحيد هو معروفنا هذا. معروف طوال، باحديداب خفيف في ذروة ظهره، عند الكتفين. لما يكمل العشرين، ربما. حلو القسمات. بسام. أجمل ما فيه عيناه . هاتان، على حداثة سنة وبراءتهما، تقولان لك كثيرا. ولكن أية طهارة في ايماءاته! إنه طفل. قد أدخل عليه المشرب فأجده وحده. يرحب بي، ويسألني عما أريد أن أشرب. أقول له. يسرع إلى إحضاره حتى يتاح له أن يجر كرسيا ويلوذ بي. ويبدأ يطرح علي الأسئلة. ما شئت من الأسئلة، ويصغي إلى اجاباتي كأنها قضايا مقضية لا مجال لمناقشُتها أو دفعها، والدهشة تطفح من عينيه:.

- أستاذ، كيف يصير الواحد أحدب؟

- أما خلقة أو تحدبه الأيام!

- باللّـــه عليك؟

- واللّـــه.

- طيب، أستاذ، لماذا لا يصنعون عندنا نبيذاً مثل الخلق والعالم؟

- لأن الغش صارت له مدارس كاملة، باب الاجتهاد فيها مفتوح على مصاريعه. هل تعلم ما معنى الاجتهاد؟

- لا أستاذ.

- المجتهد المخطيء له ثواب واحد، وأما المصيب فله ثوابان.

- أين أستاذ؟

- يوم القيامة.

- صحيح أستاذ؟

- مادمت أقول لك!

- اذن صحيح. أستاذ.

- نعم؟

- لماذا تشتري كل يوم ثلاثة أرغفة فقط؟

- أنا أشتري ثلاثة أرغفة لأن من يشتري ثلاثة فما دون لا يضطر إلى الوقوف في الصف.

- واللّـــه معك حق. هذه عظيمة أستاذ. أنا لا أحب الخبز الأبيض. قالوا ان الأسمر أنفع. أتعلم أستاذ أن تومي يبيع قنينة النبيذ الوطني بعشر ليرات؟.

- أعلم. - هل تعرف رأسمالها؟

- لا.

- حوالي ورقتين وربع.

- أف. يعني أنه يربح ثماني ليرات إلا ربعا.

- أي واللّه.

- العمى، واللّه مطاعم الدرجة الأولى ما قدروا عليها. وأنت بكم تنزلها؟

- بأربع، أربع ونصف (يتضاحك) حسب الزبون.

- ابق هكذا يا معروف اللّه يرضى عليك. إياك أن يعكِّرك المال.

ويطل بياع النوفوتيه، من المحل الذي على الرصيف المقابل. معروف ينهض. الاثنان يتمان حديثًا سابقًا، ربما من أمس... يسخر بياع النوفوتيه من الزينة المتدلية من السقف:

- زينة ما عليها كلام لمناسبة الأعياد... واللّـــه كازينو المطار ذاته ما قدر عليها.

معروف لا يسكت له. يقول في براءة: وابتسامة غاية في الصفاء، والغفران، فيها إثارة من حرد طفولي مستحب:

- طبيعي، ما دمتم أنتم تسرقون الخلق!

- نحن!

- نعم أنتم. ابنك المنظوم باعني كل فنار بخمس ليرات. والبالون بنصف. وما كدنا ننفخ البالون حتى فقع. اضطررنا إلى جلب وجبة جديدة. وهكذا. تعالوا حاسبونا بحق البالونات الفاقعة!

ويضحك الآخر:

- لولا الكاسورة ما عمرت الفاخورة. ربك يعرف العملة مع من. ولك أنتم أصحاب محلات الشرب جلدكم محشو عملة.

ويدهش معروف من هذه التهمة ويأخذني شاهدًا:

- سمعت أستاذ ايش يقول لي؟ قال: أنا جلدي محشو عملة.

وأضحك أنا أيضًا:

- لا تهتم. صيت من غنى ولا صيت من فقر.

وينصرف الجار جذلاً كما جاء. معروف يعود إلي:

- واللّـــه أكلناها أمس يا أستاذ.

- خير؟

- واحد يعمل في ملهى «الأقمار» على طريق دمر، قال إن معه أربع دبجانات ويسكي الواحدة بأربعين ليرة. يا بلاش! حق الواحدة في الميتة أكثر من ثمان وخمسين. نحن نبيعها باثنتين وستين. اشترينا. هو أدار ظهره من هنا طبت علينا المباحث الجنائية: «قم معنا». رحنا. سين وجيم. بلا طول سيرة صادروا الدبجانات.

- لماذا صادروها، أنت ما علاقتك؟ أنت اشتريت.

- قالوا هذا حرامي رسمي. نحن نراقبه من مدة. يـــقلفط المحـــل ويبيع مـــا يسرقه بسعر التراب.

ويدخل سامو. هذا ولد في الثانية عشرة، الثالثة عشرة، معوّق. معروف يحبه ويتحمله كأم. وعلى الرغم من أنه يبتسم باشفاق لنزواته، لطلعاته ونزلاته المفاجئة، لا يبدو أنه يعامله غير معاملة الند، السليم. سامو في أعماقه يحس ذلك، مثلما تحس القطة ولوع صاحبتها بها فتتدلل عليها. يطلب شريطاً لفيروز، معروف يطيع. تعلو أغنية «مشوار». سامو يغضب. يطالب بأخرى لا يعرف اسمها. يوفق معروف إلى العثور عليها. سامو منسجم، مكب على المسجلة اكبابًا تاما مع أن الصوت يملأ المكان آتيا من مكبر في الركن الأيسر العلوي.

بعد ذلك يأتي أخو سامو: رياض. هذا أصغر من سامو ولكنه يتوهج ذكاء ورزانة. يجر كرسيًا ويجلس غير بعيد من المدخل حيث شمس الشتاء تتسلل مبهجة لذيذة مثل رغيف طازج. معروف يتركني ويذهب ليجالس رياض. في مستطيل الشمس الذي ضم الاثنين يسيح استرخاء. معروف يجد ماءه على الرغم من أن رياض في الثاني اعدادي ومعروف ترك المدرسة، بعد وفاة أبيه، من البكالوريا، ويقول معروف:

- صحيح أنكم أجرتم دكانتكم في الحارة؟

- اي أجرناها.

- لمن؟

- واحد ساعاتي (فترة) ولكنه غليظ.

- صحيح؟ ليش؟

- يخرب بيته ما أغلظه. تصور: انتهر سامو. قال له: انقلع.

- باللّـــه عليك؟ العمى!

«السُلك» الذي رماه معروف على الحاجز كان لأبي علي: رجل ربعة، بمعطف من القماش الغليظ المرقّط، بعض طعنه منتوشة كأن قطة سنَّت

مخالبها فيه. عينان معفَّستان صغيرتان. اللامبالاة من كل حركة من حركاته، وكدت أقول الانسحاق. يبتسم كأن الشمس جاذبت الغيوم فرجة، وأطلت ثم أوصدت الغيوم رتاجها وعاد الظلام. كان قد خرج لبعض شأنه، وها هو ذا يعود. يسلِّم عليّ، ويجلس على الكرسي المقابل، من غير أن يستأذنني، ويقول غير مُعنى بمن يستمع إليه:

- واللّه اليوم أنا لا يدفأ لي عظم. ولك معروف أعطيني قزازة بيرة. بيرة في الشتاء، تصور! (لي أنا) هو لا يرد علي (يضحك) واللّـــه أنا أدفع مثل بقية عباد اللّـــه. معروف، قزازة بيرة.

ويقول معروف من غير أن يتحرك:

- اي طوّل بالك أبو علي!

ويتعجب أبو علي من الجواب، ويستشهدني:

- شف لي صاحب المحل هذا. لماذا يريدني أن أطوّل بالي؟ ألا يعتبر أني زبون؟ أين يريدني أن أذهب؟

يدخل زبون، معروف ينهض لملاقاته. ترتسم على وجهه علامة استفهام. الزبون يطلب قنينة ويسكي. معروف يضعها على المنضدة المعدّة لذلك ويأخذ كيس ورق يدخلها فيه. الزبون يبسط يده بقطعة من أمات الخمسين ليرة. معروف يأخذها، يدور حول الحاجز. يخاطبني قائلاً:

- أستاذ، أتدري ماذا يحدث عند تومي؟

- ماذا؟

- صار زبائنه يضعون في جيوبهم الداخلية بطحات يشترونها من برة. يطلبون بطحة واحدة، والباقي يشربونه من جيوبهم (ضحكة صافية) يعني مثلما يفعلون في الملهى.

- هذه حلوة.

- ذلك أن البطحة عنده صارت بأربع ليرات.

- صحيح طماع.

ويقول أبو علي في غفران:

- اللّـــه يلهمك تعطيني قزازة بيرة.

يقول معروف:

- ظاهر عليك أنك لا تريد أن تطوّل بالك!

أبو علي يستشهدني مرة أخرى:

- سمعت؟! كأني أطلب منه أن يحضرها لي من مصنعها في حلب!

أخيرًا يحضر له قنينة. يفتحها. أبو علي يملأ قدحه:

- كان بدنا كاس كونياك معها ولكنك رأيت شو صار فينا حتى حصلت لنا قزازة البيرة!

بينا أبو علي يصب من القنينة تبدر منه حركة، وإذا بطحة كونياك ملآنة حتى ثلاثة أرباعها تسقط من جوربه الأيسر. تقع. تفرقع، ولكنها لا تتكسر. أبو علي ينتشلها ويشهرها للعيان. السقطة جعلت فيها رغوة وفقاعات.

معروف، من وراء الحاجز، ترتسم على وجهه دهشة طفلية رائعة. أنا تفلت مني قهقهة لا يد لي فيها:

- إذن ليس زبائن تومي وحدهم الذين يفعلونها!

يقول معروف وقد خالط دهشته الجذل:

- شايف؟ مع أني أبيع بربع أسعاره!

ويشملنا الضحك جميعا. أبو علي يقطع ضحكه، ويقول معتذرًا:

- واللّـــه هذه معي من الصبح. المسألة أن هذه البيرة كأنك تشرب من الفيجة. واحد مثل حكايتي، إذا أراد أن يعبي مخه لازم له صندوق كامل... (ويلتفت إلي): أنا الداعي دهان. ولكني، اللّه يعفو عنا، أحب الكأس، ولا سيما عندما أكون بطالا. أنا ما كنت بطالاً دائمًا. تسلَّطت عليّ هذه السوسة بعد ما أعطتك أم الأولاد عمرها.

- العمر لك.

- تعيش. ما كان فيها شي، آمنت باللّه. ولكنها، قبل سنة زمان بدأت تتوجع من صدرها. أخذناها عند الطبيب قال: «هذه مالها حكمة هنا». احملها، ومع وجهك إلى بيروت. هذه تحتاج إلى أشعة ما هي موجودة غير في بيروت». وكان يومها بين يديّ شغل لا أقدر أتركه. قمنا استلفنا من المعلم قرشين، وقلنا لها: «خذي يا مرة، وتيسري وحدك. أنا الآن ما أقدر أروح معك. انزلي عند بنت عمتك وتداوي. ومتى خلصت الشغلة التي بين يدي أسافر إلى عندك، أو أرسل الكبير، ومعه ما يلزمك، إذا لزمك أكثر. وعلى كل حال، من باب الاحتياط خذي معك مصاغك: المبرومة وطوق اللولو وحلق الألماس. بيعيها كلها إذا تضايقت. فداك. ماذا أقول لك؟».

لحظة صمت. أبو علي يشرب جرعة من كوكتيله ثم يستأنف شكاته: لم يكد ينهي العمل الذي كان ملتزما به حتى بعث اللّه له بعمل آخر. من حسنة هؤلاء الأولاد الذين أمهم في بيروت. بعث الولد ليستفقد أمه فرجع الاثنان. قالت الأم أن حكمتها خلصت. هكذا قال لها الأطباء هناك. ليلة من الليالي فوجيء أهل البيت بصراخ الأم واستغاثاتها: «دخيلكم صدري! دخليكم موتوني وخلصوني!»... حملوها إلى الزهراوي.

أبو علي يضيف دمعة كونياك من بطحته، علنا هذه المرة، ويستمر: أخذت حالتها تتردى، من سيء إلى أسوأ. قبل أن تموت ببضعة أيام ندهته إلى قربها. قالت له: «تعال، قبل أن أموت أريد أن أحكي معك كلمتين، رأسي وراسك. أنا أموت...» قال لها: «كبِّري على الشيطان يا مرة. الآجال بيد اللّه»... أخرجت من صدرها المصريات التي أعطاها أياها لما نزلت إلى بيروت وصيغتها!

بادئ الأمر لم يفهم قال لها:

- ايش هذا؟

فلما ثاب إلى نفسه كاد يمزع عقله. قالت له المرأة المحتضرة:

- لا تتحرّ يا أبو علي. الأولاد أحق فيها من الحكما. الحكما يا أبو علي يشلحون المريض ويتركونه على الحديدة. ونحن من نحن حتى نقاوم إرادة المولى؟ شف، المصريات ذاتها ما نقصت غير...

ويقطع حديث أبو علي صيحة انتصار صادرة عن سامو:

- اي، اي هيدي، طيل ولول، طيل ولول.

ويضحك أبو علي ضحكة مجروحة:

- المسكينة، ما ولول عليها حدا.

ويغوص في الصمت.

أريد أن أنتشل نفسي، أن أتنفس قليلاً من الهواء. أتذكر أني لم أشتر أرغفتي اليومية الثلاث من الفرن القريب. استأذن أبو علي ومعروف. اذهب إلى الفرن. الزحام الأبدي. الخباز لا يصطلى له بنار من سوء مزاج. أكثر من العادة ذلك اليوم. يتخانق مع ذباب وجهه. ينتهر كل أحد: العمال، الزبائن المكدسين مثل السردين أمام الحاجز العالي الذي يفصل بينه وبينهم. فــإذا تجاسر أحد هؤلاء فمد يده بثلاثين قرشا، كما أنوي أنا أن أفعل، وتضرع إلى الخباز، وهو يتوحوح: «ثلاثة أرغفة عم أبو فؤاد دخيلك! نفضه أبو فؤاد على يده بــأصابع كــأنها عقد العوسج، وأبعد اليد الموجوعة من الحاجز.

وتنتحب امرأة حشرت في ركن من أركان المخبز:

- واللّه طبختي على النار يا أمة محمد.

ويجلجل صوت الخباز، يعلو حتى على هدير بيت النار:

- بدي أعلمكم النظام. كل واحد يحط علامة وينتظر دوره. وال في نيته خرق الدور ما يلوم غير نفسه!

ويخرج من غيابة الفرن فتى عملاق، عصب رأسه بقمطة فقدت لونها الأصلي، وقميص أعفر مشقوق الصدر، وسراويلات تصل حتى ركبته. ويشق طريقه بين أكوام الزبائن الصابرين، وهو يتخذ لهجة زاجرة تذكر بلهجة معلمه:

- بعد من الطريق أنت وهو، ولاه. العمى، أي يوم القيامة!

ويرتفع أصوت رفيع، مثل سحبة بلبل، مصدره بين أقدام المراجعين:

- عمو! تسلم عليك ماما، وتقول لك أعطني كيلو خبز لبيت بابا. وقالت يكون من الخبز الظريف!

المغرّدة بنية في حوالي السادسة من عمرها، زهراء، بصديرية المدرسة، وقبتها البيضاء. وقد جعلت لها في مفرقها شريطة على شكل فراشة بيضاء مبسوطة الجناحين. كان في وجهها الصبوح الغافل تضاد صارخ بين التصديق والانكار، بين الحلم والواقع. إن وجهها أبعد الأشياء جميعها، ببراءته الآسرة، من وجه الخباز وَبَـــرمه بالناس، وسأم الناس وهبوط هممهم... صوتها الصداح الندي لم يبلغ حتى مسمع الخباز الذي كان آخر همه أن تسلم عليه مامتها أو أن تسبَّه!

فجأة يصرخ أحد الصابرين:

- آخ! ولك أخي ارفع رجلك عني، واللّه هرستني!

الداعس يبتعد من قدم المدعوس معتذرًا. وكان مرفقه مرتكزًا على رخام الحاجز فلما انتتر مبتعدًا أصاب كوعه عين جار له، فصرخ هذا من الألم:

- آخ يا عيني، آخ، آخ، راحت عيني!

ويظهر أن الفتى العملاق، الذي خرج من الفرن قبل قليل، مافعل إلا ليتنفس قليلاً من الهواء على رصيف الشارع. فلما عاد كانت احدى النسوة قد ظفرت بحصتها من الخبز بعد طول انتظار، فحملت أرغفتها المحرقة، وشقت لنفسها، بالجهد، طريقاً، علقت ملحفتها بين منتظرين كما يعلق كتاب في ملزمة مجلد كتب، شدتها، أنشدت، وصلت إلى الباب وهي تبربر:

-آه، على كل حال الحمد لله، كثر الله خيركم.

ولكن لهجتها كانت تبطن: «ويلي، أنا لا أشتهي هذه العلقة إلا لكل عدو!»

وتضيءأسارير الفتى العملاق، صاحب القمطة العفراء، ويقول تعليقاً على كلام المرأة، مخاطباً الجمهور المحتشد:

- معلوم ياه، هذا أبو فؤاد هدا، مافيه مثله في الدنيا، ادعوا له، ادعوا له بطول العمر.

أروي لأبي علي ومعروف «ملحمة» (تهرأت الكلمة وأوثر عليها «اللّحام»!) الفرن، يضحكان، معروف يقول لي في ملامة مهذبة:

- أستاذ، أما قلت لك أن الخبز الأسمر أحسن؟

- ولكن الحصول عليه ليس أحسن.

معروف يشغل بمبيعات نثرية، أبو علي يهوم قرب المدفأة، هذه من أيام أبي معروف، قصيرة معوجة، أحياناً، يغافل بعض الشاربين العابثين معروف ويلحشون قشر بزر، قشر برتقال فيها، ومع ذلك ما تزال تعمل مثل الساعة، لم ينفضها قط وتعمل مثل الساعة، قال معروف مرة أن أباه اشتراها بعشر ليرات! الآن لا يعطونك طاستها وحدها بعشر...

الساعة تدنو من الثانية، فتيات «دار السلام» يعدن إلى المدرسة، تلامذة المدارس الخاصة، الذين يدفعون أقساطاً، عندهم دوامان، إنهم مضبوبون من الصباح حتى المساء، وأما الذين لا يدفعون ، فيداومون ثلاثة أيام قبل الظهر وثلاثة بعد الظهر، أربع، خمس ساعات في الأربع والعشرين، والباقي في الأزقة ، الأمهات يتشكين من أن أولادهم لا يمكثون في البيت إلا ليأكلوا ويعودوا إلى الملعب في الزقاق، ويقلن لهم:« ماذا تجدون في الزقاق غير توسيخ أواعيكم وتعلم الكلام الطالع النازل من الأولاد الأرذال؟» أين يردنهم أن يلعبوا، والبيوت «الحديثة» علب خلت من أرض الديار، سقيا الله، التي يلعب فيها الخيال وتتوسطها بحرة في سرتها نافورة، وحولها أصص الأزهار كل عرق بلون؟ والشمشير الذي يصلح مخبأ في لعبة أم عميش؟ والكباد؟ والياسمين العراتلي؟ والياسمين؟ والدالية التي تتعمشق الجدران الرخامية، وتبني على السطح عرزالا النومة فيه تحيي القتيل؟

أنا ،أزيح «البرداية» الورقية بين حين وآخر وأتناوأ من خلال الفرجة التي أحدثها، مرة ألمح شعراً كستنائياً ناعماً، فتيا يفرش على ظهر، مرة آخرى ينخطف خصر نحيل، مرة ثالثة صدر شامخ رجراج...

تحين مني نظرة نحو مدخل المشرب فأرى أبو الجود يطل برأسه ويحتوي المكان بنظرة دائرية، يراني، يقبل عليّ، أنهض مغتبطاً برؤيته، أدعوه إلى الجلوس بحركة تحدث قرقعة قصدت إليها قصداً، أبو علي يفتح عينيه، يفزّ، يقدم كرسيه لأبو الجود، ويجلس على آخر أمام منضدة القناني الفارغة، بعد أن ينقل كأسه التي ما يزال فيها خيط.

عم أبو الجود قلما يشرب في النهار، ولكنه يشتاقني في الأسبوع، في الأسبوعين مرة، (أحياناً طوال أشهر) فتكون له هذه الإطلالة الحلوة المؤنسة، فإذا رآني جالسني، وهو لايشرب أكثر من كاس واحدة من العرق، جسمه عاد لا يعنيه، كما يقول. تصور: تجاوز الثمانين منذ ثلاث سنين، ومع ذلك، قبل بضع سنوات، كان يملأ القهوة ضحكاً ونكات وتعليقات على خصومه في طاولة الزهر.. إن بيننا أكثر من ثلاثين سنة ولكننا نستأنس بصحبتنا ونجد دائماً ما نتحدث عنه وما نضحك.

عم أبو الجود نحيف، في وجهه غضون، ويداه تختلجان على نحو لا يكاد يدرك إذا هو مد يده إلى الكاس، ولكنه يضيء، النظارتان من الزجاج الأدخن تضفيان على وجهه بعض القتام ، ولكن تهلله يبدده، يقول لي:

- لو لم أحدق في زاويتك لما لمحتك.

- كنت ألمحك أنا، أنت تعلم: عيناي عينا حميماتي.

يضحك:

- بصري يضعف ياكريم، وسمعي على الطريق هو أيضاً.

- المهم أن لا يضعف شيء آخر!

يغرب في الضحك:

- ولك هدا أيضاً دخل في التاريخ، لاأراك الله مكروهاً!

-اخز الشيطان عم أبو الجود، الله يبعت لي همتك وروحك الطيبة، ومرحك عندما أبلغ السبعين.

يهمس:

- لا تقلها لأحد، دخلنا هذا العام في الرابعة والثمانين.

- لماذا تريدني أن أكتم؟ يوصى بالكتمان عادة عندما تكون عين الإنسان ضاربة على زواج جديد!

وجهه المنير تطوف به سحابة:

- والله ياكريم بعد أم الجود، اندهنت حياتي بالمرارة، تصور: عشرة لم تنقطع طوال خمس وخمسين سنة! أنا تزوجتها بنت خمسة عشر، طفلة، أنا ربيتها على يدي، تحملت كل شيء: الغربة، السهر، الأولاد، أحياناً القلة، أكثر من هذا كله أنعمت علي بهذا الشمعدان من أربع شمعات تفتح العين من العمى، الله يرضى عليهم، الصغرى، سلمى، أنت تعرفها، كنت تحملها على ذراعك وتحكي لها حكايات، اي سيدي صارت الآن طبيبة.

- بصلاة محمد؟ هذا لم تقله لي!

- ووفقها الله بطبيب، شرواك ،ابن حلال، هذه هي الوحيدة التي لم تتركني قط.

- ساكنة عندك؟

-اي نعم، هي وزوجها، ولكنهما المسكينين ، مشغولان طوال اليوم. أنت تفهم: عيادة: وتدريس في الجامعة، أنا لاأكاد أراهما.

-كيف تمضي أيامك؟

-أرذل تمضية، قراءة؟ عدت لا أستطيع أن أقرأ، الراديو أملّ منه، لم يبق لي غير هذه الجلسة صباحاً في القهوة من أجل الأركيلة، الباقي، الله لا يريك، طول النهار أنظر في الساعة، كل دقيقة، دقيقتين أنظر في الساعة، لماذا أنظر في الساعة؟ ماذا أنتظر؟

ويصمت لحظة مديدة، ثم يعود فيقول:

- العالم كله أحسه يسيح من بين يدي وينزلق، أولادي عدت لاأفهمهم، يقولون لي:«تعال اسكن عندنا، نسواننا وأولادهن خدم عندك!» ولكني لا أقبل، أعلم أني وحيد، ماعدا هذه الجلسة الصباحية في القهوة حياتي كلها نظر في الساعة!

-احمد ربك عم أبو الجودودق على الخشب: أنت تجاوزت الثمانين، الدهر كله إن شاء الله، وماتزال تجيء وتروح، لا تشكو أية علة، ألا تذكر صهري محيي الدين؟ أنت تعرفه،ألا تعرفه؟

-كيف لا أعرفه؟ إنسان تقي، طيب، ابن كرام، ما أخباره، دخلك؟

- مشلول منذ ست سنوات وعالة على كل أحد في البيت، ولا سيما على هذه المسكينة الصابرة أختي التي لم تعرف يوماً أبيض في عمرها، فكر لي في هذا: حتى بناته تخلين عنه، ما عسى أن يفعلن له؟ جاء نصيبهن وذهبن في حال سبيلهن.

- ليش ما عنده صبيان؟

- عنده اثنان، واحد تخرج من كلية الطب بتفوق فأرسل إلى فرنسا للتخصص، والثاني ولد صغير.

- يا لطيف ألطف، الله يرحم والدك، كريم.

- نعم عم أبو الجود؟

- كم كان عمر المرحوم والدك لما توفي؟

-إحدى وخمسين.

يقول محزوناً:

- الله يرحمنا!

ولكن الحزن لا يؤبِّد عند أبو الجود، إذ سرعان ما تلمع أساريره بملعنة طفولية ومعابثة هي خلقه الغالب:

- ولك هل تعلم يا كريم من إيش أنا خايف؟

- من إيش عم أبو الجود؟

-خايف أن أخرف.

أضحك ضحكاً عالياً:

-عم أبو الجود!

- اي وحياتك، خايف أن الله ينتقم مني لأني كنت في صغري أعذب الخرفانين جداً، كان في أسرتنا واحد في مثل سني الآن، ربما أصغر، ولكنه خرف، من وقت لآخر كان يأتي إلى قناق المرحوم أبي، أنت تعرف القناقات. أبوك كان صاحب قناق مشهور في المنطقة: ترى الناس داخلين، خارجين، والقهوة المرة دائرة ومعها طق الحنك، اي سيدي، عندما يستقر المجلس بابن عمنا ذاك لا أدع الخادم يصب له القهوة، بل أقوم أنا نفسي بخدمته، وأكون قد استحضرت على كمشة ملح مبحبحة، أضعها في قعر الفنجان وأسكب القهوة فوقها وأحرك، من الشفة الأولى يبدأ المسكين بالزعيق والعياط والصراخ والشتائم من تحت الزنار :«أبوك، أمك، أختك، طايفتك ...» وأهل القناق يمسكون خواصرهم ويصيحون: كي، كي ...

وأنا أيضاً كنت أمسك خاصرتي، ويستمر:

- ولك النكتة أنه كان يعود في اليوم التالي دائماً، وأعود أنا إلى تمليح قهوته وتلقي شتائمه.. ومرة كان عندنا، في البلد، مؤذن خرف هو أيضاً، هذا خرفه فقس على شيئين: التذكير قبل أذان الفجر بساعة أو ساعتين، والتدخين.التذكير، إذا كان المؤذن رخيم الصوت، حلو في هدوء الليل في البلد الصغير، وأما إذا كان صوته مثل مؤذننا ذاك.. المسكين كان صوته يشهي الطرش، قمت أنا استثمرت هوسه الثاني، أي حبه التدخين، صرت عندما ألفّ له السيكارة أحط له فيها شوية حشيش، الله يعفو عنا: كان يطلع إلى المئذنة قبل الفجر بساعة، بساعتين، صار بعد الحشيش، يصل العشاء بالفجر..... أهل البلد على لمّ الفراش، راحوا اشتكوا لمدير الأوقاف.. فجأة يعود إلى تذكر أبي، يسأل:

-بإيش توفي أبوك، دخلك؟

- بالسكتة القلبية، كان يضحك فمات.

يظهر أن أبا الجود لم يسمع.

- اي فهمت، أنت لا تعرف، ولكني أنا أعرف: تلك الأيام كانوا يسمون الأمراض كلها «السخونة» أو «الدور المثلث»، أنت تعلم: المستنقعات التي

كانت تملأ المنطقة الجباب[1]، الوسخ كل هذه تورد لنا جيوشاً من البعوض يفر أمام زحفها هولاكو ذاته، اي سيدي ذلك الزمان، كانوا يسمون الملاريا «الدور الثالث»، هل تعرف شيئاً عن أصول مداواته أيامها؟

-الكينا؟

- لا، قبل الكينا، كان له ثلاث مراحل مداواة: إذا وقع مريض بالدور المثلث أخذوه عند أول طبيب، يعني عند شيخ الحارة، هذا ، مثلما تقول، ممارس عام، يفحصه فحصاً دقيقاً، ويقرر ما إذا كان يحتاج إلى «قراءة» وحسب، أو إلى قراءة مع التكبيس، أو إلى قراءة وتكبيس وأخذ قطعة من أثره، ثيابه، والقراءة عليها وتبييتها تحت النجوم.. فإذا ازدادت حال المريض سوءاً، كما هو حتم، لجؤوا إلى وسيلة أرقى، أنجع، إلى اختصاصي، ماذا! هومقام أحد الأولياء،حيث يبيتون المريض في حفظ صاحب المقام وأمانه، ويقدّمون زيتاً صافياً، زيت زيتون أول قطفة، يضعونه في الوعاء الضخم، على شكل مسرجة، الموضوع في شباك المدفن، وأما «دمبكية» (العمامة التي توضع على الضريح) الولي فتغمر بالمناديل الحريرية أمات الأوية.. في الصباح، إذا كانت مسرجة الزيت خاوية والمناديل مودرة كان هذا دليلاً على أن الولي، شي لله، راض عن المريض، معتزم شفاءه، فعلاً، تزداد علة المريض وطاءة حتى يصبح جلدة صفراء على كومة عظام متقصفة مخلخعة، عندئذ لا يجد أهله بداً من اللجوء إلى الوسسيلة الكبرى، التي لا تخيب: يحملونه، ويامن سرت لا تفضح عند شيخ مشايخ البلد ذاته، هذا ليس كلمة في الفم، هذا يبدأ علاجه الذي لا يخيب بتشليح المريض ثيابه، ثم إنه يحضر طحيناً بنخالته، خلِّل معي، بنخالته، وماء، ويبطح المريض على ظهره، ويكت الطحين على بطنه ثم يسكب الماء فوق الطحين قطرة بعد قطرة ويعجن، المريض لا يتوجع لأنه شبه مفارق... فإذا اجتمعت له العجينة صنع منها ما يشبه الشمعدان، وشك فيه شمعة، وصب قليلاً من الزيت وأشعل الشمعة

---

(١) جباب جمع جُب، وهي لغة البئر العميقة أو الحفرة، وفي المناطق الشمالية، التي تشكو من قلة الماء، يجمع ماء المطر في جباب هي بؤر للبعوض والديدان.

وحملها إلى الزقاق وتركها فيه، الريح لا تلبث أن تطفيء الشمعة، العجينة صار فيها شوية دسم من الزيت، يمر كلب شارد شروانا، جائع، يشم المصباح ثم يأكله... اسألني لماذا عجن الشيخ العجين على صدر المأووف، ولم يعجنها في صحن، في قصعة؟ سلامة فهمك، حتى تتشرب العجينة الدور المثلث، ويأتي الكلب فيأكل العجينة والمرض جميعاً.

اسأل وأنا أمسح دموعي عن خدي:

- والنتيجة؟

- يسألني عن النتيجة! طول الله عمرك لا يحتاج إلى سؤال: المريض يفطس فيكمل النقل بالزعرور!

وينظر في ساعته ويقول باسماً:

- يكفيك اليوم، أخذت عيارك من الضحك، كم الساعة؟ الساعة مرة أخرى!

وينهض فأنهض له: أنا أيضاً لم أكن أنتظر شيئاً، ولم يكن ينتظرني أحد، فما عساي أن أصنع بالساعة، ولا سيما أني كما قال، أخذت عياري من العزاء، أعطانيه هو! أقول:

- أنا ما معي ساعة.

- أحسن لك!

ويمضي بخطوات قصار، خفيفة الوطأة على أرض المشرب المتربة، وقبل أن يغيب يتلفت نحوي والابتسامة تملأ وجهه.

يدخل برهان وبهجة، أدعوهما إلى منضدتي، يقبلان ببشر ظاهر، هذان شركسيان تعرفت بهما هنا، برهان، الأكبر سناً، كستنائي، قاتم، حتى حينما يضحك يظل وجهه كأنه يئن تحت وقر مؤلم، قال لي مرة أنه مهدد بانهيار عصبي من الشرب، ولكن ما عساه أن يصنع إذا لم يشرب؟ قال له طبيب: «إنك تقصر عمرك» ولكنه تساءل: «لماذا أطيله؟ ألكي أظل أنسلي مثل ألية الخروف على نار قاتلة ويموت كل يوم فيّ عرق؟ بدأنا حياتنا بحلم بأن نغيّر

الوجود، المجتمع، أن ندفع بهما إلى الأعلى، وانتهينا بأن شدنا المحيط،الواقع من أرجلنا لكي نغرز إلى الأبد!»

بهجة من الخشنية في الجولان، أصهب، مهذب حتى الخجل، ناصح، يتكلم همساً في الأغلب، لايتكلم إلا بمقدار، هو في العادة مكسور، مثل أولئك الذين أخرجوا من ديارهم قهراً، غدراً، ظلماً، عدواناً.. وأما اليوم فهو حزين، أستجيب أنا لحزنه، شيء مثل هذا يحدث في المآتم، عندما نفقد عزيزاً، من كثرة الكرب، من كثرة اللطم، نميل إلى الانفجار بالضحك.

يبدأ برهان:

- أنا مصاب بالتسمم الكحولي، معروف أعطنا قزازتين بيرة ونصف كونياك.

أقول له:

- هذا هراء، أنت ما تزال فتى، وبعيد منك أن تصبح كحولياً، انفض نفسك من مساراتك المحزنة بلا مخارج، وأفهم مرة واحدة وأخيرة أن الشرب لا يمكن أن يكون خلاصاً.

يقول بهجة:

- ليس الغريب أن نتسمم، الغريب أننا مازلنا واقفين على أرجلنا.

أقول:

- وأنت أيضاً يابهجة؟!

معروف يأتي بشرابهما، بهجة يملأ كأساً كبيرة، يجرع، مرة واحدة، أكثرمن ثلثها:

- أنا لا أستطيع أن أنسى الخشنية يا أستاذ، عند المطرة الأولى، في الربيع، وقت تفوح رائحة الأرض في البساتين القريبة من بيتي في ركن الدين أشم الخشنية.

هذه هي المرة الأولى التي أراه فيها منفتحاً للكلام، ويستمر:

- الخشينة هي أنا طفلاً، هي جدي الذي مات وهو يحشرج باسمها، في السبعة والستين رفض أن يترك الخشينة، قال لنا ونحن نرحل: روحوا أنتم، أنا لا أستطيع أن أرحل، «العروس»، «الحبابة»، «المحناية» تزعل!

- ما هذه؟

- هذه أسماء بقراته، كل بقرة لها اسم وطوق خرز أزرق مع شبة في رقباتها، إحداهن، واسمها «رنة» كان يطعمها بيده وتلحقه كأنها ابنته أو «الأزعر» كلبه، كان يقول لنا: أنتم من نوع الحرقوص، هذا نوع من الجراد تمسكه من رجله فيتركها لك، أنتم لما تدمنوا الأرض، البقرات، الدجاجة المسرولة، فزعة العصافير مع الصباح الوليد، وأما أنا فسأموت وحدي على الرغم من أن الموت وحيداً صعب!

يشرب ثلثاً آخر:

- الأعداء لم يدعوه يحقق الأمنية: لما وصلت نزهتهم العسكرية إلى الخشنية لم يجدوا فيها غيره. أرض عامرة من غير سكان إلا هو، كان معه عشرة آلاف ليرة هي كل ما جمعه طوال عمره، نبشوه فعثروا عليها في عبه، قالوا له:«تعال شف مصرياتك»، وكوموها وأعطوها عود كبريت، فكوا حماره، «خضور»، وأركبوه عليه وضربوا الحمار وأطلقوا عدة عيارات وهم يقولون له: «الحق جماعتك اختيار الجن!».... جاء الشام، عاش بعد الخروج تسع سنوات وهو محزون القلب، معذب، كأنه يشوى على جمر، إذا تكلم فعلى الخشنية: بينما كان يبتعد من منزله حانت منه التفاتة نحو الأبقار التي كن أمام معالفهن في الفناء، وإذا هن يلتفتن إليه ويطلقن خوار وداع كأنه الشكاة اليائسة، رنة ظنته ذاهباً إلى الحقل. حاولت اللحاق به ولكنها كانت مربوطة، تسع سنوات ولا يمضي يوم من غير أن يطرح هذين السؤالين ظلا بغير جواب: أولا لماذا أحرقوا عشرة الآلاف؟ لماذا لم ينتفعوا هم، الأعداء ، منها على الأقل؟ ثانياً، هل تعشت رنة؟ هل تحسنت صحة العروس. ذلك أن هذه يوم الخروج كانت منعنسة بعض الشيء. لا ليس الأمر مقلقاً: شوية رشح ما فيه أكثر!.. الله يرحمه، لم يخطر له على بال أن هؤلاء المحتالين الأعداء، يضرمون النار في كل شيء، حتى في المحبة، لم يخطر له أن عداوتهم للإنسان أشد لدداً من خصومتهم لكل أبقار العالم! لم يفكر في أنهم يطوون صدورهم المأووفة على بغض كل مخلوق عنده بيت وحقل وبقرة ودجاجة وديك!

يهبط صمت على المشرب، ننتبه إلى أن كل الشاربين قطعوا أحاديثهم وأصاخوا سمعاً مرهفاً على الرغم من صوت بهجة الخفيض، بعض العيون تأرجحت فيها عبرات بلغ من أمعانها في الصمت أنها ملأت المكان صرخات مصمَّة عاجزة!

*   *   *

في غرفة الأساتذة

- الطبيب الذي اختص، لماذا يقضي بقية حياته منصرفاً إلى مهنته، لا يفكر في أن يستبدل بها مهنة أخرى، في حين أن الأكثرية الساحقة من المعلمين يتطلعون، بعد تخرجهم من دور المعلمين الإبتدائية، إلى الجامعة أو التجارة أو أي عمل اخر؟ لماذا لا يكون التعليم الابتدائى غاية في حد ذاته، غاية توهب العمر عن رضى، وعين قريرة، وغبطة داخلية عميقة تجعل العلم متصالحاً مع الوجود، مشرقاً، متجدداً كل حين؟

طرح هذا السؤال الأستاذ سعيد، معلم الصف الخامس، وكان من عادته أن يصل إلى المدرسة هو وأبو شعبان ، الآذن، الساعة السادسة صباحاً، حتى قال عنه رفاقه أنه يحلم بالمدرسة وهو في التخت، في عز دين البرد!

وكان سعيد ربعة، كستنائي الشعر، ليس بالنحيف جداً، ولكنه متين البنيان، مخطوف الخصر، عريض ما بين المنكبي بسام الثغر ، ينشر المرح أينما حل.

تدخل الأستاذ عبد السلام، وهو رجل طوال، هادئ، كثيراً ما يغتنم الفرصة بين درسين فيهوم على كرسيه في وداعة تاركاً زملاءه يشتعلون مثل الحطب في مناقشات لا تنتهي.

عبد السلام على أبواب الخمسين، خريج أهلية التعليم ، متزوج من امرأة دينِّة، ست بيت، أنجبت له عشرة أولاد بنين وبنات، كل واحد منهم أغلى من أخيه كأنه ولد وحيد على عدم، قال:

- في رأيي أن السبب مادي.

لم يكن عبد السلام يومئذ يهوم، لأن الدنيا صبح بعد «الساعة السابعة إلا بضع دقائق»، وأضاف:

- خذني أنا مثلاً: خدمة ثلاثين سنة، وما هو راتبي؟ الله الوكيل لولا أم مروان، الله يطول عمرها، لكنا ... اتركها لله....

قال الأستاذ لطفي، وهو شاب في حوالي الثانية والعشرين من عمره، بشاربين أسودين جميل النسب، وهو طالب جامعة يدرس الأدب العربي:

- لأن الإنسان ينبغي له أن تكون عيناه إلى الأرفع حتى لا يستحيل إلى مستحاثة، حتى لا يتعفن في مدارات «طلب طبيب قطنا بطاطا»و« في دار سامي بارود» ... كل عام إلى آخرا لدهر!

وضحك الأستاذ محي الدين - ويسمونه الشيخ - ضحكاً مؤيداً، إنه هو طالب في كلية الشريعة، ذو لحية صغيرة . لطيفة ، وقميص من غير ربطة عنق، وايماءات ورعة في غير مبالغة .

وشب سعيد عن مقعده العتيق وكأنه المهر وقال بقوة:

- «المدارات» التي تتكلمان عليها أيها الطالبان الأزليان لا تسكن كالجان إلا رأس معلم فراري!.. أتعلمان ما معنى كلمة «فراري»؟ هذه كانوا يستعملونها أيام تركيا اذ كثرت حوادث فرار الجنود من الجيش العثماني الذي غدا مرتزقا.

قال لطفي متهكما:

- كثر اللّه خير جنابك.

واستمر سعيد غير حافل باعتراض لطفي ومسددا هجومه إليه:

- أنا لا أنكر أن «طلب طبيب قطنا بطاطا»، أن «اسم كان وخبر أن» تتكرران كل عام.. إلى آخر الدهر على حد قول لطفي. ولكن مالا يتكرر أبداً، ولا خلال لحظتين اثنتين متتابعتين، هم الأطفال. هؤلاء كل دقيقة هم في شأن، مثل الطبيعة وغمائم الربيع ومزاج الحبيبة!

قال عبد السلام:

- لماذا تحمي؟ إنه انساني جداً ومفهوم تماماً أن يتوق الانسان دائماً إلى الأحسن مادة ومعنى. وارتباطه بغاية، بمثل أعلى، يعلي من قدره ويجعله

بعيداً من الغثاثة والغرق النملي في الشؤون اليومية من مأكل ومشرب وتطمين حاجات وقاطعه سعيد، وهو لا تبرد له حماسة:

- أنا معك من غير تحفظ. ولكن، لماذا لا تكون مهنة التعليم الابتدائي في حد ذاتها ما تسميه توقاً إلى الأحسن وارتباطاً بالأرفع والأبعث على الرضى، بالأمثل؟!... قد يدفع لطفي بالرتابة. أنا لا أحكي عن تكرار درس اعراب الجمل وحالاته الثماني (هذا ذاته يتغير كل سنة، يزداد غنى!) ولكني أتكلم على لا نهائية التغير في التلاميذ حتى بالنسبة للمعلمين الذين عمرهم كله لا يعلمون غير الصف الثالث مثل عبد السلام...

وابتسم عبد السلام غفورا ابتسامة عذراء مثل بسمة بنت الأربعة عشر، وقال بين لحمه وثيابه:

- والله أنا منذ خمسة عشر عاماً درّست الخامس!

وانفجرت ضحكة رغيدة صاخبة شارك فيها عبد السلام نفسه . واستمر سعيد يقول:

- أنتم تظنون أني - بعد أن بلغت الأربعين - قد ماتت شعرة الطموح في قلبي، ولذلك كففت عن التفكير في تحسين قدري، كأن أنتسب إلى الجامعة أو أقوم بتجارة صغيرة في أوقات الفراغ كتجارة البيوت مثلا، وهي الآن على الزي... لا يا سادة. أنتم على ضلال إذا ذهبتم مع هذا الظن. انتم تعلمون أني حصلت على البكالوريا، ومن بعد على شهادة دار المعلمين بتفوق. وتعلمون أني من مؤلفي الكتب المدرسية و ... اغفروا لي هذا الحديث عن نفسي...

قال لطفي:

- أكمل. هذا اعتدناه جداً.

ضحك.

ويتابع سعيد وهو كلية إلى ملاحقة خيط أفكاره:

- هاكم هذه الملاحظة التي أتابعها مستطرفاً منذ سنوات مديدة: الولد الذي يكتب وظائفه مجتهدا ولا زيادة، يلبس ثيابا مرتبة ولا زيادة، يلعب لعبا

«أصوليا» ولا زيادة، ولا ذرة غلط في سلوكه أو دروسه... هذا قصاراه أن يغدو في غده موظفا يحضر إلى عمله في الثامنة على الشعرة، ويغادر المكتب في الثانية والنصف إلا دقيقة على الميكرون... يعني أنه نسخة من النسخ مثل تلك السلع التي ينتجها العمل على السلسلة، فيعطيك مئة ألف، مليون قطعة لا تتميز واحدة من أخرى حتى تحت المجهر... بينا دور المعلم هو في البحث عن الخارق... هل تريدون مثالا (لنفسه) إن شاء اللّه يكون قد جاء.

ورن الجرس فدخل أبو شعبان. قال سعيد:

- باللّه عليك يا أبا شعبان انده لي أمين الحاج أمين أعمل معروفا.

قال أبو شعبان:

- هذا في صفك أستاذ؟

- أي نعم، انده لي اياه من فضلك.

وتكسر عمود الحديث في انتظار «وسيلة الايضاح» البشرية التي طلبها الأستاذ من أبي شعبان. تكلم الأساتذة في كل أمر، وتضاحكوا دقائق أطل بعدها ولد في حوالي الثامنة من عمره، نحيف. من ينظر إليه يعلم أنه خرج من البيت نظيف البدلة والصدرية، ولكنه الآن يبدو رثا متوسخاً، في صدريته شق «قفل ومفتاح» وعلى وجهه لطخات طين طازجة. العينان كانتا أعجب ما فيه: عينان حوراوان وطفاوان تشعان ملعنة، قل تتوهجان .

وتهلل سعيد، وقام يحتضن الولد احتضان أب وامق:

- هذا هو أميني. تعال يا حبيبي، تعال .

- نعم أستاذ.

لم يكن خجولا ولا هياباً. لم يكن في المقابل وقحاً مائعاً. وسأله الأستاذ سعيد:

- أضرب لي يا أمين لأشوف ثمانية في صفر. (متوجهاً إلى زملائه) البارح، أيها الزملاء، ضرب أمين ثمانية في صفراً فكانت النتيجة كم يا أمين؟

تضاحك الولد متواطئا:

- ثمانية أستاذ. وأما اليوم، بعد ما أفهمتني، صار لها نتيجتان .

- لا قل النتيجة التي استخلصتها أنت. ما نتيجة ضرب ثمانية في صفر؟

- ثمانية أستاذ.

- لماذا؟

- لأننا كررنا الثمانية صفراً من المرات، يعني أننا لم نكررها، يعني أنها بقيت على حالها.

ضحك في الغرفة. ويستمر سعيد:

- وما زلت مصرا على هذا الحل؟

قال الولد باسماً:

- لا أستاذ، بعد ما توافينا!

ضحك.

- كيف؟

- لما قلت لي :« لماذا لا تقول اننا كررنا الصفر ثماني مرات!» ... ضحك.

قال سعيد :

- طيب ، والآن أعد على مسمع أساتذتك هؤلاء مجيباً عن سؤالي:«ما هو أقصر خط بين نقطتين؟».

قال الولد في تضاحك بريء عذب:

- الأسلى أستاذ.

وعاد سعيد سعيد يشب عن مجلسه مهللاً:

- أسمعتم أيها السادة؟ قال: الأسلى! أممكن أن يضحي هذا موظفاً؟ هذا في برديه أديسون، نيوتن، ماركوني، ابن الهيثم، اوبنهايمر، عباس بن فرناس... ولماذا الأسلى يا أمين؟

- اذا كنت مع رفيق تحبه ألا ترى أن الخط بين نقطتين مهما طال قصير؟

وبعد مظاهرة أخرى جذلى دهشة مزغردة كالأولى صرف سعيد أميناً وعاد يقول لزملائه:

- أرأيتم؟! ... وتحدثونني بعد ذلك أيها الغافلون عن رتابة في مهنتنا الرائعة الكريمة هذه.

قال محي الدين:

- معنى هذا أن علينا أن نجد ونجتهد لكي نخرج مجانين.

فوثب سعيد عليه أوكاد:

- هس، هس . شيخ، أنت ربما بلغ مسمعك أن كبار رجال الفكر في التاريخ هم الذين صنعوا منعطفات التاريخ الكبرى. هؤلاء كلهم قالوا عنهم مجانين. هؤلاء لم تكن وظائفهم البيتية مرتبة ولازيادة. بعضهم كان لا يعرف حتى القراءة والكتابة.

أسمعت؟

ولاذ بلحظة صمت ثم عاد يقول في صوت حالم، كمن يستحضر ذكرى بعيدة:

- أتعلمون من هو مثلي الأعلى في هذه المهنة. عبد السلام يعرفه، وأما أنتما فلا. إنه معلمنا زكريا أفندي رحمة اللّه، ما زلت أذكر، وسأظل أذكرطول عمري، درس التاريخ ذاك عن فتح طارق بن زياد الأندلس . كنا في الصف الرابع. الصف السادس الآن في الطابق الثاني. وانتقاني زكريا أفندي لأقوم بدور لوذريق. قائد الاسبان، واختار لي فرسا هاشم الحجار الذي كان يعيد الصف للمرة الثالثة أو الرابعة. وأما طارق بن زياد فكان سامي داود، من الحارة الغربية (هو الآن موظف أصولي في حلب مرضي عنه جداً من رؤسائه!) وكانت شجرة الزنزلخت، هذه التي في الباحة، صبية ما تزال ولكن أغصانها تبلغ نافذة صفنا، فاتخذنا من عيدانها سيوفا. وبعد أن أحرق

سامي داود المراكب عبأنا - سامي وأنا - جيوشنا تعبئة الهجوم. وخطب سامي خطبته المشهورة: «... البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم واللّه الا الصدق والصبر»... حانت ساعة الصفر باشارة أبداها الأستاذ، وبدأت المعركة... قام الصف ولم يقعد. ثار عجاج وكان رهج واختلط الحابل بالنابل ونشبت معركة حقيقية أسفرت عن هزيمة منكرة نزلت بساح طارق بن زياد وانطراحه أرضا على بلاط المعركة، وفي رأسه ما فتح وما رزق من نبيرات ورضوض وسحجات وزكريا أفندي يصرخ: «غلط يا سعيد غلط. أنت يجب أن تغلب. أنت لوذريق. سأنده المدير ...» وأنا أصرخ: «الحارة الغربية تغلبنا؟! لا وألف نبي. سأكسر رأسه!» ... حصان طارق بن زياد ذاته (وهو فتى مدوبل الرابع مراراً ، مثل حصاني ولكنه من الحارة الغربية أيضاً) سقط في الساحة وقد رفع الأربع . رماه حصاني أنا، حصان لوذريق!

كان المعلمون ينقلبون على كراسيهم من الضحك، ضحك صاخب هرع عليه أبو شعبان ، وبضعة طلاب كشهم هذا زاجراً. وحضر المدير، الأستاذ وجيه فسرعان ما اشتمله الجو الجذل.

ولما هدأت العاصفة جعل سعيد يقول في هدوء عذب مثل الراحة التي تستشعرها عندما تحك جرحا متندبا:

- وهأنتم أولاء ترون أن العلة كلها كامنة في التوجيه المهني. عندما يقال: اختبارات لانتقاء طلاب دور المعلمين، فهم يعنون - إذا كانت الأصول ما تزال ذاتها أيامنا - مسابقة فيها رياضيات، علوم، لغة عربية، أشغال، لياقة... ولكن ليس فيها أي فحص عاطفي...

قاطعه المدير متسائلاً:

- فحص عاطفي؟!

- أي نعم فحص عاطفي أستاذ وجيه. واسمح لي أن أوضح: فحص عاطفي أي سبر دقيق لأوقيانوسية المحبة عند المعلم العتيد، فحص لاستعداده الشاسع للغرق في اللحظة اللماحة التي يبرق فيها أي طفل متميز، خارق

وتنميتها، تهيئة المناخ المناسب لتنميتها. الطلاب الذين يتفوقون في هذا الفحص يقضون سني خدمتهم في التعليم وكأنهم كل لحظة ينغمسون في بحيرة من النور والعطر من غبطة بما يصنعون وما ينجبون وما يخلقون. اذا وقعت على المعلم الذي اصطفي على هذا الأساس فيجب أن تقوم له إجلالا وتوفيه التبجيلا، لا أنت وحدك ولكن الدنيا جميعها ... تصور المردود الهائل الذي نحصل عليه اذا اجتمعت الموهبة والاستعداد والعمل... زكريا أفندي الذي حدثتكم حديثه للتو، والأستاذ وجيه يعرفه جيدا، كان كذلك. كان يضع يده تحت ذقنه ويقول لحصاني، أقصد هاشم الحجار متنبئا: «أبشر، آخرتك في الحبس» وهذا ما كان: نام في الحبس اثنتي عشرة سنة بجرم ضرب أدى إلى موت. وكان يقول لآخر: «آخرتك حميماتي»، إلى آخره... وظل زكريا أفندي رحمة اللّه مخلصاً لمهنتنا وأعظم معلم عرفته في حياتي، لأنه لم يكن يمل من تأمل حركة الحياة في صعودها المستمر ولا نهائية مفاجآتها وتحولاتها... كان انساناً مثل سائر الناس يأكل ويمشي في الأسواق، ولكنه كان من التصوف في مهنته في حيث شتمنا أحد رفاقنا زعم لنا أنه رآه يأكل . أأستاذنا يأكل مثلنا؟!

والتفت سعيد إلى لطفي ومحي الدين وقال لهما مداعبا :

- أفهمتما أيها الغران، أيها الفرخان ابنا يومين؟!

وقطع الضحك النقي العام رنين جرس الدرس الأول!

* * *

براءة الذمة..

«من لم يمت بالسيف مات بغيره»، شطر من الشعر تعلمناه منذ الصفوف الابتدائية الأولى. كتَّبنا اياه الشيخ ناجي معلم حسن الخط في المدرسة الفيصلية في البلد. رددناه في «مباريات» مذاكرة الأنفاس ونحن أولاد... ولكن، كل مرة نردده فيها كان يخلف مذاقًا ذهنيا مختلفا عن مذاق المرة السابقة. الموت! كان فكرة غامضة أيام الشيخ ناجي. قد يختلط مع هذا الوقع الرخيم المفاجيء الذي لعصا الشيخ على رؤوسنا حينما لا «نحسن» الخط.. ثم صار يذكرنا بعنترة بن شداد. ولما درسنا النحو عرفنا أن «غيره» هذه التي تساهم أحيانا في حصد الناس واذاقتهم كؤوس الحتوف.. ربما كانت في لفظة «حتى» التي قال عنها النحوي وهو يحتضر قولته البائسة هذه: «أموت وفي قلبي شيء من حتى!».

وظلت معاني هذا الشعر من البيت تختلف حتى كان يوم، وإذا «غيره» هذه لا تعدو كونها أمرًا لا يكاد يخطر لك على بال. تصور أنك عندما تفكر في الأسلحة قد تميت إنما يذهب فكرك، إلى البندقية، الطبنجة، الطاعون، حتى، حجر طاحون، سيارة تسير بسرعة مئة في الساعة في كوع، زوجة... ولكن هل يخطر لك أن بين هذه الأسلحة براءة الذمة، هذه الورقة ورد ذكرها في بساطة آسرة في قانون الموظفين، ويجب على طالب التوظيف أن يقدمها بين ما يقدم من أوراق ثبوتية حتى يتسنى لقرار تعيينه أن يكون أصوليا؟

أي سيدي أقسم لك أن هذه الوريقة البريئة أوشكت أن تقضي على كاتب هذه السطور وتورده موارد التهلكة فيودي لا شهيدًا يضفر على تابوته اكليل الغار، ولا موت ربه فتقرأ على قبره الفاتحة ويقال في ذكره: رحمه اللّـــه تعالى، قضى من عمره وطرا!

وقد يتساءل القارئ الذي يعرفني قائلاً:

- توظيف! أبعد هذه السن؟

وأنا أقول له: نعم، ولكن الشرح يطول! فقد سُرّحت في عهد قيل لي أثناءه أنني ضده، وقام عهد آخر فسرحت لأنني سرحت في ذلك العهد، والعهدان على طرفي نقيض... قد تظن أن هذه أحجية للتندر، ولكنها وقعت قسما باللّه.. ولما كان على طالب التوظيف أن يقدم الأوراق الثبوتية التي تنص عليها القوانين «المرعية الاجراء». فقد توجهنا بعد الاتكال على اللّه إلى مختلف الدوائر ركضاً وراء الأوراق هذه ولهاثا إلى أن بقيت علينا «براءة الذمة». قلت في نفسي: «هذه قصة لحظة»، ويممت شطر كاتب للعرائض في شارع النصر وقلت له:

- يا عم أين يبيعون «براءة الذمة»!؟

ويظهر أن الرجل كان ابن حكومة سابقاً، ابن حكومة خيراً مني فضحك حتى بانت نواجذه، وأفهمني متلطفاً أن براءة الذمة لا تباع، ولكن علي أن أقدم طلباً إلى مديرية مالية دمشق أضع عليه خمسة وخمسين قرشاً. هذا الطلب يروح «يدور» على المصالح المختصة مدة من الزمن أمنح بعدها براءة الذمة المنشودة بعد أن يلصق عليها طابع آخر بخمسة وسبعين قرشاً، لأن براءة الذمة نوع من الشهادة.

قلت:

- إذن لماذا أضحكتك كلمة «يبيعون»؟

ففكر قليلاً وقال:

- معك حق، ولكن التعبير غير مألوف.

وصمت لحظة ثم قال:

- أي نعم، هكذا يحصلون على براءة الذمة.

- المسألة هينة إذن.

- جداً!

هذه الــ «جداً» أحسست لها رنة غريبة، لعلها لا تخلو من سخرية. كأنه كان يقول لي: «أصحاب العقول في راحة!»

وهرولت إلى مديرية مالية دمشق أنط الدرجات ثلاثاً ثلاثاً. أنا رجل مستعجل، عاطل عن العمل منذ خمسة أشهر، لأن العهد، عهد العهد الخ. أنا مستعجل تماماً، أريد أن أتوظف. أصبح المستعدون لاقراضي قرضة اللّــه حسنة، أو سيئة، قلائل! أنا مستعجل جدًا، الخلاصة! بلغنا الطابق الأول. كانت الساعة العاشرة.

وسألت رجلاً ظهرت عليه آثار التعب واضحة حتى بدا لي كأنه خارج من خناقة:

- أخي براءة الذمة من أين نأخذها؟

قال في صوت مكسور، وان:

- كتبت عريضة؟

- اي نعم، ها هي ذي...

- اي لا بأس...

- العريضة تكفي؟

فتضاحك محزوناً:

- هذه أولى الدرجات في سلم طويل، طويل...

- قديش طوله؟

قلتها ضاحكاً من هيئته ويأسه.قال:

- هل تعرف باريس؟

- ما علاقتها ببراءة الذمة؟

فألح قائلاً:

- أسالك هل تعرفها؟

- أعرفها.

- وتعرف برج ايڤل؟

- أعرفه وصعدت إلى قمته.

- بالمصعد طبعا. كم ارتفاعه؟

- ثلاثمئة متر.

- إذن عريضتك تعني أنك توقلت درجة واحدة في سلم طوله ثلاثمئة متر، وذروته هي براءة الذمة!...

فانفجرت ضاحكاً.. برج ايڤل له درج، ولكن يستحيل أن يستعمله الإنسان: تصور. أعلى منارة في دمشق قد لا يزيد ارتفاعها على ثلاثين مترًا والبرج ثلاثمئة.. والمنائر أصبحت تعلوها مكبرات للصوت رحمة بالمؤذنين المساكين..

قلت:

- أنت رجل ظريف وأرى أنك، على الرغم من تعبك البادي، لم تفقد روح الدعابة، ولكن...

فقاطعني قائلاً:

- أولاً أنا لست رجلاً ظريفًا، اسمح لي.. ولكن أما خطر لك أن تسألني عن سرتعبي البادي، وأنا كما ترى إنسان في شرخ الصبا، ورياضي أيضاً؟...

- تفضل، قل لي ما السبب؟

قال باسمًا:

- بلغت نصف برج ايڤل... على الدرج!

وضحكت مرة أخرى ضحكة مدوّية وقلت له:

- كنت أودُّ لو أطلت صحبتك ولكني مستعجل، أريد أن أتوظَّف، لأني بلا عمل منذ خمسة أشهر وثلاثة أيام لأن العهد، عهد العهد... فأرجو أن تتلطف بهدايتي إلى بداية السلم...

- على رأسي ثم عيني. أدخل بعريضتك هذه إلى رئاسة الجباية أول ما تبدأ...

دخلت. رئيس الجباة إنسان أسمر، لطيف، لم أكد أمد يدي بالورقة حتى ترك ما في يده من أوراق وتناول خاتما مربعاً ضخماً وبصمه على ورقتي وأشار اشارة مهذبة أن: «طف بها على موظفي الغرفتين المجاورتين».. وخرجت من لدنه وأنا أتعجب من صاحبي الايڤليّ، وأستهول مبالغته: أمع هذا اليسر في «البصم»، أمع هذه الاشارة المهذبة... برج ايڤل، سلَّم، ذروة؟!..

ودخلت أولى الغرفتين اللتين أشار اليهما رئيس الجباة الأثير، وإذا خمس، ست، عشر مناضد؟ قل أكثر، وكلها شغَّال! من أيتها أتقدم؟.. قلت في نفسي: «اضرب الطينة في الحائط» وتقدمت من الموظف الذي يواجه الباب مباشرة، فوقع وأشار إلي بيده إشارة دائرية شملت المناضد جميعها:

- أدرها على الاخوان...

ودرت، دارت، دار رأسي، دوار البحر، الفلك الدوار، دور مثلث، دار يدور.. سيدي؟ أمر؟ هذه! دقيقة تأمل. توقيع...

بدأ وجهي يتبعثر، أذناي تتهدلان، صوتي يجف.. تذكرت كل ما قرأته في المجلات الطبية عن مرض الدوالي، البواسير، عن قصور الدورة الدموية في الجزء السفلي من الجسم بتأثير الوقوف أحيانا.. وركض فكري إلى صاحبي، إلى برج ايڤل، إلى هرم خوفو:آه يا أخي في الجهاد، يا رفيق السلالم، عفواً أخي في «براءة الذمة»!.

لما بلغت المنضدة العاشرة من الغرفة الأولى كان صدري يعلو ويهبط، رئتاي يسمع لهما صوت يشبه الشُّر - بر الذي يستعمله النجارون في ثقب الخشب..

هنا وقع أمر لم يكن في الحسبان: موظف، وقل جابي المنضدة العاشرة، قرأ الاستدعاء (هذا أول جاب قرأه واللّه العظيم!). كان فتى أميل إلى السمرة، أوطف، عريض الجبهة، شعره خفيف. رفع رأسه عن الورقة وسألني حفياً:

- هذه لك؟

- اي نعم.

- أنت الأستاذ...؟

من تعبي ويأسي شعرت أني أقف أمام مستنطق. قلت:

- أنا هو.

استغربت صوتي: كان يشبه الوصوصة. كان فيه تضرع، كأنما أرفع تهمة عن نفسي...

قال متمهلاً:

- إذن أنت الأستاذ...؟

- نعم...

- يا أستاذ تشرفنا. أنا واللّـــه...

ومضى يقول لي كلاماً ظريفاً، كلاماً أنعشني، كلاماً يحبه كل الكتَّاب.. قال إنه قرأ قصصي كلها. الاعجاب، الروح، الخ...

قلت منتعشاً:

- عندي قصص لما تنشر ستعجبك أكثر!

- من كل بد.. الأصالة، النبوغ..

- أستغفر اللّــــه..

- العبقرية..

- لا تقلها..

وثرثرت بعض الوقت عن الفن، ولكني سرعان ما تذكرت بطالتي، الوظيفة، خمسة الأشهر، العهد... فقطعت حديثي وملت عليه:

- أنت إنسان كريم، ولكني مستعجل.. أرجو أن توقع لي..

فنهض وثبا وهو يقول:

- أوقع فقط!.. أعوذ باللّــــه. بل تتفضل أنت بالجلوس هنا، محلي، وأدور أنا بالورقة!

واختفى.

جلست أتأمل الغرفة وسكانها: الدوران.. أحد الجباة كان يتخانق مع سيدة بملاية ويتقاذفان بقطعة نقدية من أمات الخمس والعشرين قالت المرأة:

- خذ..

- خذي، أنا ما أنا عبدك!

- أنا جيت أدفع لخدمتك، لا تركتك تدق عليّ الباب، ولا مرمرتك.. ولا تراعيني!

- خذي، أنا ما أنا فاتح دكان سمان هنا!

- يا عيب الشوم عليك!.

- على ستين واحدة مثلك...

وجاء القهواتي فوضع أمامي فنجان قهوة. قلت له:

- صاحب المنضدة ليس هنا. خذه حتى لا يبرد.

قال:

- هو أرسله لك...

يا للطف! ما أجمل أن يدلِّل القراءُ الكتاب!.. الآن تعلمت أن أقصوصة ضائعة تنشر في صحيفة شاردة ليست شيئًا يشبه مزنة في الربع الخالي. لا، لا شيء يذهب بدداً في شعبنا الطيب!

هكذا رحت أحاورني. ولكن.. ألم تَطُل غيبة صاحبي الطيب المضياف؟.. لا بد أن أحد رفاقه قد استوقفه ليستفتيه مثلاً في قضية مالية.. إنه إنسان مثقف، يفهم الأدب والعلم...

وأخيرًا عاد.. اللّه! لقد تبدل.. ذلك الوجه النضر الريان لمحت فيه بعض قسمات صاحب برج ايفل المتعبة الوانية..

قال:

- أستاذ، انتهى الطابق الأول.. الآن تفضل بالصعود إلى الطابق الثاني!

فانهمرت عليه بالشكر كالسيل العرم، وحملت ورقتي وصعدت الدرج إلى الطابق الثاني.. كانت قد امتلأ ربعها: أختام، تواقيع تشبه دفاتر الأوتوغراف التي تديرها تلميذات المدارس على المعلمات آخر السنة.

في الطابق الثاني بدأت ملحمة جديدة: ختم عريض، دوران، دار، داروا.. لم يكن في هذا الطابق قارئ يتيم واحد من قرائي.. أو لعلهم من قرائي ولكنهم ليسوا من قراء استدعائي.. وصادف أني كنت أستريح أمام عضادة في الممر، فرأيت أحد رفاق براءة الذمة، يظهر أنه دار أكثر مني، وإذا هو قد أصابه شيء يشبه الدوخة التي تصيب الأطفال عندما يأخذهم أبوهم من أيديهم ويدور بهم حول نفسه في صحن الدار.. كان يترنح، يفتل في أرضه، ولا يرى آذنا ولا بياع عرق سوس أو تمر هند، ولا موظفا متجها إلى المغاسل إلا قدم له، سدد إليه عريضته.. حتى أنا، انفتل وبسط لي يده بالورقة وهو يهزج كأنه في ذكر للمولوية:

- وقع يا سيدي وقع! وقع، وقع..

خطر لي أن أنظمها شعرًا نرقص عليه أنا وهو وجميع الذين صدرت عليهم الأحكام ببراءة الذمة. أن ننشد مثلاً:

وقع، وقع يا جابي

وقع لي تعمل لي احسان

وقع يا خير الأصحاب

وقع.. في بابي ديان

حوالي الساعة الواحدة كنت قد انتهيت من الطابق الثالث. وهممت بالصعود مرة أخرى وإذا ابن حلال يقول لي:

- إلى أين؟

- إلى الطابق الرابع.

- مافيه طابق رابع.

- طيب، أنظر لي هذه الورقة، خلصت؟

- لا، يجب أن تعود إلى الطابق الأول!

- لماذا؟

- هناك أقسام العرصات والمسقَّفات والعمارات والذمم ورسوم السيارات و...

صحت به:

- وقف!

وهجمت على احدى الغرف اذ لمحت أن أحد شبابيكها مفتوح يطل على الشـــــارع الاسفلتي مباشرة، و.. تسلَّقت إفريز الشباك وتدليت إلى الشارع وأنا أصيح:

- وصيتي عندكم الأطفال والعيال!

فقامت القيامة في الغرفة، واستطاع أحد الموظفين أن يتشبَّثَ بي مستميتاً، وتشبث به غيره، وأعادوني إلى الغرفة وأنا لا أنفك أصرخ:

- برئ، برئ، واللّه العظيم برئ الذمة، وحقك يا كتاب اللّه برئ، اتركوني، برئ...

فهدّأ الموظف، الذي هب لنجدتي، من روعي. ولم يبد عليه أن الحادثة قد أدهشته! وقال لي وعلى وجهه ابتسامة اشفاق ورثاء. قال:

- ايش تفضلت؟

- برئ، واللّه العـــــــــ...

- القسم وحده لا يكفي. يجب عليك أن تستحصل على براءة ذمة من المالية!

* * *

التمثال ذو العينين الحزينتين

كل صباح كانت له تلك الجلسة الحجرية على المصطبة المنبسطة أمام قهوة القباقبية التي ينتهي اليها الدرج الصاعد من النوفرة إلى الباب الشرقي للأموي. يقبل على القهوة. يتسلق درجة المصطبة العالية في مشقة. يأخذ أقرب كرسي من الكراسي المتناثرة على الحافة لا الكراسي التي صففَّت في انتظام على طول الواجهة، لأن هذه للزبائن الذين يطلبون إلى أبي جاسم، الساقي، التتبكجي والمعلم في آن معا، كأس شاي أكرك عجم وأركيلة بريمو من أراكيل القهوة ذات الشيش العتيقة المحجرة، قلم طراش، التي ندر وجودها هذه الأيام، ويقال إن حق الواحدة بين العثمانيتين والثلاث ذهبا... حتى إذا فرغوا من مشروبهم وأركيلتهم رموا ثلاثين قرشا في الصينية البيضاء النظيفة، واستمروا في أحاديثهم التي لا يربط بينها غير المعرفة القديمة والانتماء إلى الحارة الواحدة ومسار الحياة اليومية بما فيها من طلعات ونزلات ومنعطفات واستواء... بعض هؤلاء يأتون من الضواحي، تنم على ذلك شراويلهم ذات «السَّرج» السابغ، على درّاجات نارية يسمونها «الموتير»، على المقعد الخلفي لكل منها، خُرج من الخام السميك، مقطَّع، قد يحمل «دبَّية» حليب سبق أن أوصى عليها أبو جاسم أو أحد الزبائن.

وأما هو فيتسلّم أي كرسي على حافة المصطبة، ويقعد عليه موليا ظهره للقهوة وأهل المصطبة جميعا. في بعض الاصباحات لا يلقي حتى

بالتحية، فاذا فعل فبحركة من يمناه تشبه أن تكون كشَّة ذبابة عن أنفه، حركة تحية موهونة لاهثة على لا أحد. ويلفٌّ ساقا على ساق، ويُحدّق في الشارع من غير أن يرى. اذا صادف مجلسه قربك سمعت صوت تنفسه العسير. لباسه لا يتغير، وكذلك حذاؤه «الكشف» الرث: صدريته مفتوحة، على صدرها، بين الكتفين، «تطوير» درويش هو عبارة عن قطعة سوداء، من قماش الصدرية ذاته، على شكل جناحي طائر مرنّق، مخيطة بطعنات واسعة من خيطان عفراء هشة، بعضها مقطَّع. تحت الصدرية والقميص شروال عتيق له سرج. الرأس أصلع إلا من جزيرة الفودين القصير شعرها، الأبيض كله. الشاربان أشيبان مقصوصان بعناية عند الشفة.

ما ابتسم ولا مرة يتيمة واحدة. حتى لمَّا مرّ به أمس الاسكافي الضاحك، جار القهوة، وهو يتسلق الدرج غاديا إلى دكانه إذ قال له:

- شو على بالك يا عمي! قاعد مثل الملك وعينك على الرايحة وعلى الجاية...

لم يبتسم. لم ينظر إلى الاسكافي. ظل كأنه يتابع مشاهد تتعاقب في قرارته، مملَّة، مجنونة، مكرورة، هو مشدود اليها برغمه. العينان صافيتان، بلون اللازورد وان كان لهما جيبان في أسفلهما يزيدان في إضفاء صفة الحجرية على مجموعة الرأس.

في الركن الذي عن يسار الداخل رجل بطاقيته، عظيم الكرش، عظيم الرضى عن نفسه والوجود على نحو واضح، يدخِّن أركيلة سقطت إحدى جمرات رأسها. كان منعزلاً بعض الشيء.

وجاء من أُسميه «أبو الندبة» لجرح متندِّب عميق في الناحية اليمنى من جبهته السمراء اللامعة. إنه حسن الهندام بعامة. ما ان يصل حتى يدخل القهوة، وما هي إلا دقيقتان أو ثلاث حتى يخرج حاملاً أركيلة معينة لا تتغير.

لم أنتبه كيف بدأ الحديث بين هذا وشيخي -التمثال. ذلك أن أبا الندبة كان يتكلم بصوت غير مرتفع على عكس الشيخ الذي كان يكاد يصرخ صراخاً. ومع ذلك سمعت الندبة يقول للعينين الحزينتين:

- لا يمكن أن يشوفوا الخير أبداً. أبوهم، على حياة عينه، كان يبوس الأرض ويغضب عليهم. وحق من أخذ روحه وعلى روحي قادر، أنا شفته، بعيني هذه التي سيأكلها الدود. أمهم ذاتها كانت تدعو عليهم. الفوايدية، العرصات، ما خلوا حيلة تعتب عليهم إلا عملوها حتى قشَّطونا المحل بأربعة وأربعين ألف ليرة. أحزر لك حزر قديش دفعوا لهم البارح خلو رجل؟

- مئة ألف؟

- قل ثلاثمئة ولا تخاف. ايه! اللّه لا يبارك لهم. ان شاءاللّه إذًا أمسكوا الذهب ينقلب إلى تراب بين أيديهم، أولاد الكلب.

- لا يكن لك فكر. قلت لي أمهم دعت عليهم.

- اي واللّه (يشير إلى رأس الأركيلة) وحياة من جعلها للحرق.

- لا يكن لك فكر. دعاء الحُرَم يهدُّ القُرم. مثلما قلت. ما فيه مغضوب أفلح. أنا أولادي، اللّه لا يوجه لهم الخير، عكاريت، أوباش. اللّه الوكيل أشتهي شهوة أن يشقُّوا عليّ الباب ويقولوا لي: «خذ رغيف الخبز هذا يا أبي

تتغصنا لك به!.. أشتهي أن يحمل لي واحد منهم أوقية لبن ويدخل علي بها. واللّه العظيم الباري المقيم ليالي كثيرة أنام بلا عشاء.

سأل الكرش:

- ماذا يشتغلون؟

- أنت لا تصدقني إذا قلت لك: «علمي علمك!» أعرف فقط أن الثالث، أصغرهم، يعمل عسكريته. ولكني لا أراه. يسكن عند أمه. وأما الآخران، ماذا يعملان؟ لا أعلم.

- أليست أمه عندك؟

- لا. أنا تركتها من عمره. الولد يلحق أمه يا عمي. لو كانت أمه مقطِّعة السابلة، عاملة السبعة وذمتها، الولد يلحقها. لا تتعب قلبك، يلحقها.

وازدادت عيناه غرقا في اليأس. وقال للندبة:

- المشكلة أني صرت ضعيفا. أنا مريض. معي ربو. محرّم عليّ النوم. البارحة رحت عند الدكتور، قمت اجتمعت بشبّ هو عرفني أنا ما عرفته. على قوله إنه من مأذنة الشحم. سألني ما إذا كان الحكيم جس مفصله جنحة. ظنّ أني زبون مثل الذين آمنوا، ممن يمدون أيديهم إلى جيب شروالهم ويخرجون ززدان مثل مخدة ريش النعام ويفركون في يد الحكيم جس مفصله وفوقه حبة مسك... ما خطر له أني منتوف، جربان، ما وقعت عيني على جنس العملة حتى في النوم من ألف سنة اي عليّ الطلاق، من ثلاث، من أربع سنين، من يوم ركبني هذا الربو الخائن، وهذا الحكيم يداويني، جس

مفصل على الأربعة والعشرين، وفوقه يعطيني أدوية... وما قبض مني - ديني عليّ حرام - لا أبيض ولا أصفر. البارحة فقط هندزني بخمسة أنواع من الحبوبات. عليّ الطلاق خمسة. لو كان عليّ، كلما رحت عنده، أن أدفع، كنت الآن في التربة يأكلني الفأر والكلاب الشاردة. حكيم ابن حلال من ظهر حلال ولكنه لا يقبض مني. ما وفقني اللّه بواحد يضربني ابرة مليحة تخصم لي هذا المرض مرة واحدة فأستريح. الوحدة تقتلني عليّ الجيرة. أنا وهذه الحيطان الأربعة. لا، ليش الكذب، عندي بنت. صار عمرها الآن سبعة وعشرين، ثلاثين، وما كان ربك يفتحها في وجهها ويدبر لها ابن حلال يأخذها. كله شغله. المسكينة، هذه هي الوحيدة الحنينة. كل خمسة عشر يوما، عشرين تأتي تمسح لي البيت وتغسل لي الغسيلات وتضع غطاها على رأسها وخاطرك، مع السلامة. هي لا ترضى أن تحط في فمها لقمة واحدة... وحدي، وحدي. وحدي في الليل، وحدي في النهار... ذلك اليوم أصابتني، لست أدري كيف، أزمة عصبية. تصور. في قلب الليل قمت حقنت البابور وأعطيته عود كبريت، وجبت السكر والشاي في يدي قبضة ورششتها على النار. لم يخطر لي حتى أن أضع براد الشاي...

الكرش يتهانف. التمثال يستمر من غير أن يحس به:

- تهيأ لي أيضًا أن القنينة رئيس مخفر بنجمتين. صرت أحكي معه. قلت له: أنا امرأتي تركتني من خمس وعشرين سنة. وأولادي عصابة مغضوبين سعري عندهم سعر الكلب. قال لي رئيس المخفر: فهمنا قصتك الآن. ايش تريدنا أن نفعل بهم؟ قلت لها: يا حضرة القنينة، أأنا أدري! أنت

ابن حكومة وتفهم بما يجب وما لا يجب. كيف تريدني أن أعلم؟ أنا لا أعرف أقرأ ولا أعرف أكتب. أنت الذي تعلم. ماذا؟ أحضرهم، أجلبهم إلى المخفر هنا مكلبشين، القيد في أيديهم، وقل لهم: هذا أبوكم هذا، ما هو ناطور درة. هذا أب، ما هو خيال صحرا. هذا هو الذي بذركم ورباكم وسهر الليالي جنبكم. أهكذا ترمونه كأنه سطل زبالة؟ الإنسان يا ابني ما عنده غير أب واحد. الأب غالي... شيء من هذا القبيل يا حضرة المخفر... هكذا صرت أحكي مع القنينة وأبكي. صرخت فيها على قد اللّه ما أعطاني: أنا مظلوم. أنا ضعيف أنا مريض... قام الجيران، اللّه يكثر من أمثالهم، ركضوا عليّ وشالوني رأسا إلى مستشفى الغربا...

صمت. حط غراب أبلق على تاج الباب الباسق ذي القنطرة المرممة حديثاً. سلك كهرباء ثخين جدًا، قاتم اللون يخترق أحد أحجار الجدار المنحوتة ويدخل الجامع. مر فتى وفتاة هزيلين، ضاويين، متواضعي الملبس، اليد في اليد والعين في العين في هيمان. صعدت الدرج فتاة ناصحة ببنطال ضيق ينحت ما تحته كتمثال فينوس المبتلة بالمطر في متحف دمشق. السكر بينة التي في قدمها صغيرة جداً على نحو يَلفِتُ النظر كأنها امرأة صينية في بكين القرن الماضي. نعب غراب التاج الأبلق: «مظلوم». أجابه «موتير» مقبل: «ايه، ياه». جلجلت ضحكة الاسكافي من الدكان المجاورة صافية خلية. تضاجعت ذبابتان على حافة المصطبة... الندبة سكن رويدا رويدا حتى تحجر.. توقف كل شيء لحظة واحدة خاطفة، كأنه بومبي، ثم صعد الدرجة العالية فتى ببدلة عسكرية، فيه معان من العينين الحزينتين:

- صباح الخير.

- صباح...

انمعست «الخير». الشيخ عاد إلى التحدق في الشارع بغير رؤية. قال الفتى:

- كيف حالك؟

أجاب العينان الحزينتان:

- أجنن. كما يحب كل عدو.

غصب الفتى ضحكة معدنية:

- فيه حواليك شي فطور؟

- فطور؟! طبيعي! كيف ما عندي! أنا رايح للتوّ، الآن، أحضر لك قطعة زبدة غنم بيضاء مثل الثلج طالعة من الخض طازجة، زبدية عسل بشهده مال بلودان، بيضتين برشت، بيض بلدي، دَرّة فلفل. صحن بيض مقلي بالسمن الحديدي، صحن حمص عليه أوقية لحمة ناعمة مقلية بالزبدة، لحسة مربى الورد، زبدية معقود المشمش، قطعة مربى الكباد لونها مثل جنح الدبور، سلة خبز كندي محمص نصف تحميص، قدح عصير الغريفون مع قطعة ثلج من برادي في البيت، قنينة ماء بقين مصقعة... ايش في نفسك غير هذا، حبيب القلب؟!

الفتى يتأمل الشيخ باسماً. أكثر من هذا، وجهه يعكس تلذذاً كما المنهوم وهو يأكل. لحظة لا يلبث بعدها أن يعود إلى المصطبة!

راكب دراجة عادية، مراهق، يأبى أن ينزل عن صهوة دراجته إذ هو في أعلى الدرج، فيلجأ إلى لَعِب مكابح بارعة توصله إلى أسفل الدرج منتصرًا. الفتى ذو البدلة العسكرية ينصرف إلى الداخل مسهماً ببعض «الخدمات القهواتية» إذ يحمل صينية الندبة ذات كاس الشاي الفارغة والثلاثين قرشا.

عودة إلى البداية الحجرية مثل مشهد فلم أوقفته.

يمر الشيخ الآخر، الصغير جدًا، أبو العمامة الأغباني لام ألف، والخطوات القصار المحترسة المحاذرة. هذا ثمانيني، في أسمال. كل ما فيه مختصر. يلقي السلام على العينين الحزينتين. هذا يردّ حفيًا، قدر ما تسمح كل هذه الأعماق المظلمة من حفاوة:

- تفضل، تفضل حاج. يا مرحبا!

اختصر يرفع يده القصيرة الصغيرة إلى عمامته في حياء. العينان الحزينتان يسأله:

- أخذت نفس أركيلة اليوم؟

المختصر يهز رأسه ايجاباً، ويحاول المضيّ. ولكن العينين الحزينتين يقول له:

- حاج، أنا مخبِّي لك شوية خبزات يابسات. خبزات ظراف، بيض، على كيفك، خرج فتوش، تأكل أصابعك.

ترف رموش الشيخ الصغير. يرف رأسه الصغيرة هزة تعني شيئًا يشبه الشكر. يتلفت حواليه بحركات قصار. إنه الاستحياء، الانمحاء. يتابع الشيخ القصير سيره كأنه دمية لها نابض، ويختفي في اتجاه دكان الاسكلفي.

العينان الحزينتان يبدأ رحلة حجرية جديدة، ولا سيما أن الندبة والكرش قد انصرفا، هما أيضًا. لم يبق أحد!.

*   *   *

الفهرس

الصفحة

الطبعة الثانية / ٢٠١٢م

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

الفهرس

الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة

www.syrbook.gov.sy

مطابع وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٢م

سعر النسخة ٤٠٠ ل.س أو ما يعادلها